
المركز القومى للترجمة
الرحَّالة العُثمانى
أوْليا چَلبى
الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش
١٠٨٢-١٠٩١ هـ
١٦٧٢-١٦٨٠ م
الجزء الأول
الوصول إلى مصر القاهرة
ترجمة وتقديم وتعليق
الصفصافى أحمد القطورى
1492
المشروع القومى للترجمة

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا چلبی، خصصه للحديث عن رحلته إلى مصروالسودان والحبش التى قضى فيها ثمانى سنوات فيما بين (١٠٨٢-١٠٩١هـ=١٦٧٢-١٦٨٠م).وقد ألَّفها باللغة التركية العثمانية تحت مسمى "أولياچلبی سياحتنامه سي-مصر ، سودان وحبش" وبعد الانقلاب الحروفى فى تركيا عقب ثورة ١٩٢٣م الذى أُعلن عام ١٩٣٨م .قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعادت نشر الكتاب بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨م.

الرحلة إلى مصر و السودان و بلاد الحبش

(١٠٨٢ - ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠م)

(الجزء الأول)

"الوصول إلى مصر القاهرة"

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1492
- الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢-١٠٩١ هـ = ١٦٧٢-١٦٨٠م) (الجزء الأول) "الوصول إلى مصر القاهرة"
- أوليا چلبى
- الصفصافى أحمد القطورى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة المجلد الأول من كتاب
EVLİYA ÇELEBİ
SEYAHATNAMESİ
MISIR, SUDAN, HABEŞ
(1680 – 1672)

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الرحلة إلى مصر و السودان
و بِلاد الحبش
(١٠٨٢ ـ ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ ـ ١٦٨٠م)

(الجزء الأول)
"الوصول إلى مصر القاهرة"

تاليف: أوْلِيا چَلبى

ترجمة وتقديم وتعليق
الصفصافى أحمد القطورى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جلبى، أوليا
الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢-١٠٩١ هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠م) (ج١) "الوصول إلى مصر القاهرة" تأليف: أوليا جلبى، ترجمة وتقديم وتعليق: الصفصافى أحمد القطورى.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٤٠٠ ص ، ٢٤ سم
١ - مصر - وصف ورحلات
٢ - السودان - وصف ورحلات
٣ - إثيوبيا - وصف ورحلات
(أ) القطورى، الصفصافى أحمد (ترجمة وتقديم وتعليق)
(ب) العنوان ٩١٦,٢
رقم الإيداع ٢٢٥١٧ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N 978 - 977- 479 - 727 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تنويه لا بُدَّ منه

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا چلبى، والذى خصصه للحديث عن رحلته إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، التى قضى فيها ثمانى سنوات (١٠٨٢-١٠٩١هـ = ١٦٧٢-١٦٨٠م). وقد ألّفها باللغة التركية العثمانية تحت مسمى "أولياچلبى سياحتنامه سى- مصر، سودان وحبش"، وبعد الانقلاب الحروفى فى تركيا عقب ثورة١٩٢٣م، والذى أُعلن عام ١٩٣٨م، قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعادت نشر الكتاب بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨م. ولقد تم الاعتماد على النسختين العثمانية والتركية الحديثة عند الترجمة.

ولما كانت رحلة مصر قد سبقتها رحلتهُ إلى الحجاز، وخصص لها المجلد التاسع من مجلداته العشرة، فقد وجدت فى نهاية هذا المجلد جزءًا كبيرًا يتعلق بمصر؛ خاصة وأنه قد توجه إليها عقب أداء فريضة الحج مُصاحبًا قافلة الحج المصرية بالطريق البرى. وتناول فى هذا الجزء أماكن لم يذكرها فى المجلد العاشر؛ لقد تحدث عن الأماكن التى كانت تابعة للإدارة المصرية آنذاك؛ حيث بدأ الكتابة بعد الخروج من جدة إلى المدينة المنورة ثم إلى العقبة ثم إلى سيناء بكل ما فيها من مراحل ومنازل، حتى وصل إلى ميناء السويس. تسلم حاجياته بعد أن حدثنا عن بندر السويس بكل ما فيه، ثم توجه إلى مصر القاهرة أم الدنيا عبر الطريق البرى المعهود لقوافل الحج واستقبال الولاة الجدد وتوديعهم.

انتقل أوليا چلبى للحديث عن مصر مباشرة ابتداءً من المجلد العاشر، والذى بلغت صفحاته فى اللغة التركية الحديثة ما يقرب من ألف ومائة صفحة. وكان من الصعب أن تستوعبه الترجمة العربية فى مجلد أو جزء واحد؛ لذلك تقرر أن تكون الترجمة العربية على خمسة أجزاء يتناول منذ فراغه من فريضة الحج وعبوره

العقبة فسيناء ودخوله إلى القاهرة أم الدنيا والحديث عن كل مَنْ تولوا حكم مصر، حتى أن قام سليم الأول بضمها إلى الدولة العثمانية عام ٩٢٣هـ = ١٥١٧م. ووصل بحديثه فى الفصل الثامن عشر - حسب تقسيمه هو - عن الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليميّ ورواتبهم اليومية.

الجزء الثانى: يشمل الفصل التاسع عشر، والذى يتابع فيه الحديث عن مواكب القاهرة أم الدنيا واحتفالاتها، وعن خزائنها وجوامعها ومدارسها وعماراتها وخيراتها وصررها المرسلة إلى إستانبول والحجاز.

الجزء الثالث: بدأناه بالفصل الثامن والأربعين، وتابع الحديث فيه عن كل ما فى أرض مصر القاهرة من أضرحة ومشافٍ ومتنزهات، وعن مصيف بولاق وما فيه من عمائر وزوايا وتكايا.ثم يعود إلى الفسطاط العتيقة ويكمل الحديث عن العلماء والمشايخ والصلحاء، وبعدهم يتحدث عما يخرج من أرض مصر من مأكولات ومشروبات ونباتات، وما هو غير موجود في غيرها من الديار. ثم نختم هذا الجزء بزيارة الأماكن المستجاب فيها الدعاء فى أرض مصر الطيبة كمشاهد أهل البيت والأئمة العظام، الإمام الشافعى والإمام الليث... إلخ.

الجزء الرابع: حسب تقسيمنا نحن يبدأ من الفصل الخامس والستين، حيث يتجه إلى الدلتا ويذكر كل ما يراه فيها من دمياط إلى رشيد والإسكندرية، ويعود إلى القاهرة فإذا بحامية عسكرية متجهة نحو الصعيد الأعلى فيرافقها، ويتجه معها حتى يصل إلى الشلال، ويتحدث فى هذا الجزء عن كل المدن والقرى التى زارها وحصر ما بها من منشآت وقوات مرورًا ببلاد الفونج.

الجزء الخامس: يحتوى على حديثه عن بلاد السودان والحبش وعودته إلى مصر عن طريق القصير فبنى سويف، وفيه يتحدث عن كل مراحل السفر ومنازله التى قطعها. لم يترك أوليا چلبى شاردة ولا واردة إلا وتحدث عنها، من أراضٍ وتقسيماتها الإدارية وما تغله أو تخرجه من نبات وضرائب، وما عليها من مبانٍ معمارية وما فوقها من إنسان بعاداته وأعرافه، أفراحه وأتراحه.

وسوف يتوالى نشر هذه الأجزاء الخمسة تحت نفس العنوان "للرحالة العثماني أوليا چلبي "الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢ - ١٠٩١هـ= ١٦٧٢-١٦٨٠م)". وسنورد في نهاية كل جزء ما يخصه من تعليقات وحواش حتى تكتمل الفائدة المرجوة إن شاء الله.

(المترجم)

إيضاح

اللغة التركية العثمانية كانت تُكتب بـالحروف العربيـة وخطيـا؛ إلاّ أن الأتراك قد أضافوا بعض الحروف التى استعاروها من الفارسية أو استحدثوها؛ لتتـوائم مع الصوتيات الزائدة فى لغتهم. وحتى بعد الانقلاب الحروفى بقيت هـذه الحـروف الغريبة عن العربية فى اللغة التركية. ولما كانت الترجمة سوف تحتوى على بعض الأسماء والمسميات والمصطلحات الإدارية والعسكرية التى توجد فيها هذه الحروف؛ فقد رأينا من المفيد توضيح هذه الحروف والنطق المقابـل أمـام شـكليها العثمـانى والتركى الحديث:

الحرف بالتركية العثمانية	الحرف بالتركية الحديثة	المقابل بالعربية
آ	Â ã	ألف مدّ مثل: "آب"، و"آمد"، و"آمين"، و"آغا".
پ	p	فى اللغات الأوروبية "p" مثل پاره = نقود.
چ	Ç	يقابل نطق حرفى "ch" فى الإنجليزية. وقد عبرت عنه العربية تجاوزًا بحرف "تش" فقلنا، "تشلبى"بدلا من "چلبى" أو بحرفى (تش) معا مثل "طانسوتشلر" ... "أولياشلبى" أو "أولياتشلبى" = "أوليا چلبى".
ژ	J	فى مثل: ژاله Jale، وژاكتJaket ويقابل فـى نطقـه نطق حرف "چ" الثانية فى كلمة "جراچ" أو "ژاندیرمـه" = حرس الدرك.

گ	G.g	ويُنطق مثل "الجيم" غير المعطشة فى اللهجة القاهرية الدارجة. وعند التعريب تكون "غ" مثل كلمة "غاز" Gaz أو "ج" مثل "عبدالله غول" أو "عبدالله جول".
ک	Ğğ	ويُقابل فى نطقها حرف الياء مثل "دكيل" ديل، بمعنى ليس، و"اكره" أيره، بمعنى معوج أو منحنى. وكذلك "بك" مثل Beğ، وقد تم تحويلها إلى Bey بيه أو بك مثل على بك الكبير، وyeğen "يكين" أو يكن مثل عدلى يكن.
ڭ	N	ويُقابل فى نطقه حرف النون "N" دڭيز =DeniZ بحر. وأيضًا بڭ باشى Binbaşı، وقد ينطقه البعض مثل حرف الكاف فيقول بكباشى، وهى رتبة "المقدم" العسكرية، وكذلك يڭيچرى تم تعريبها بـ "إنكشارى".

(المترجم)

إطلالة على الجزء الأول من الرحلة

قبل البدء في ترجمة النص المستهدف كان لا بد من مقدمة موجزة عن الرحلة وأدب الرحلات والأهداف المرجوة من وراء الرحلة، ثم عرجنا على أهم الرحلات المشرقية إلى مصر. وأشرنا إلى ناصر خسرو الإيرانى ورحلة عالى مصطفى باشا الغاليبولى... كلاهما قدما من المشرق وكانت رحلتاهما قبل رحلة أوليا چلبى، فأردنا أن نرى القاهرة بعيون مشرقية وفى عصور سابقة على عصر الرحالة العثمانى أولياچلبى. وكان لابد من التعريف بهذا الرحَّالة، وما هى الأسباب التى وفَّرت له هذه الرحلة.

لقد ترعرع أولياچلبى فى السراى العثمانى وأصبح حافظًا ومنشدًا ونديمًا للسلطان، ومرافقًا للكثيرين من القواد العسكريين الذى توجهوا إلى أماكن كثيرة، وحَمَل الرسائل وقام بسفارات عدة إلى الكثير من البلدان.

كان والده يعمل فى السراى العثمانى بوصفه رئيسًا للصاغة ومسئولاً عن مجوهرات السلطان. كان فنانًا خطاطًا مذهبًا. علَّم ولده هذه الفنون إلى جانب لغات عصره وآدابه، ثم تعلم داخل السراى كيفية مصاحبة السلطان ومنادمته والتصرف فى حضوره، إلى جانب ركوب الخيل والفروسية والموسيقى والإنشاد وتلاوة الأشعار العربية والفارسية والتركية. وبحكم سفرياته الكثيرة، والتى كانت تمتد إلى سنوات عدة، تمكن خلالها من إتقان عدد من اللغات الأخرى.

قضى زهاء الأربعين عامًا فى السفر والتنقل والترحال، كان يرافق الجيوش بوصفه موظفًا مدنيًا وليس عسكريًا، ولكنه كان مقربًا من القادة ومصاحبًا لهم بعد أن ترك مصاحبة السلطان.

تاقت نفسه إلى أداء فريضة الحج، وندم على تأخره كل هذا الوقت، فرافق قافلة الحج العثمانية المتجهة إلى الأراضى الحجازية عبر الأناضول والشام، فمر بكل مدن سوريا وربوعها. تحدث عن تجمع الحجيج القادم من المشرق فى دمشق وخروج القافلة بعد الاحتفال المهيب الذى مر بشوارع المدينة والوداع من الأهالى، سجل كل ما رأته عيناه حتى وصول القافلة إلى المدينة المنورة؛ فتحدث عنها وعن كل مآثرها وعن الحرم النبوى الشريف، وحصر كل ما فيه من تحف ونجف وقناديل وسجاد ومباخر. عدّ الأعمدة والأبواب والنوافذ، وزار البقيع والقلعة والحامية، وتحدث عن الجوامع والمدارس والمكتبات والكتاتيب، ثم تحرك من المدينة إلى مكة المكرمة. سجل المراحل والمنازل والأحواض والطير والشجر وغارات البدو على الحجيج إلى أن وصل إلى مكة، فبدأ الحديث عن التقاء القوافل ومراسم توزيع الصرر وأعرافه على الموظفين والمجاورين والأشراف والسادات والأهالى.

تحدث حديثًا شجيًا عن مناسك الحج، وما يمكن أن يحدث من زحام وصعاب وشح فى الماء والغذاء. وبعد أن أدَّى طواف الوداع توجه إلى جدة، وهناك فى حضرة والى جدة التقى بأمير قافلة الحج المصرية وقائد حاميتها. أغرياه بالسفر إلى مصر فاستجاب، ودعمه والى جدة بالمال والعتاد وبعض الغلمان والجياد والهدايا وخطابات التوصية. شحن أوليا كتبه وغلمانه وجياده وغرارات البن إلى السويس مع السفن المتجهة إليها، ورافق هو قافلة الحج المصرية فى طريق العودة مرورًا برابغ والمدينة المنورة، وبكل المراحل والمنازل التى كانت تنزل بها القافلة للاستراحة أو للتزود بالمياه والمؤن المتاحة، حتى وصلت القافلة إلى عقبات العقبة فوصفها واجتازها. وتحدث عن الحامية المصرية فى العقبة وقلعة المويلح، وافتراق الطريق نحو القدس ونحو سيناء. قطع مراحل سيناء. كان يتخلف عن الركب أحيانًا ليزور الأماكن المحيطة، فزار طور سيناء، ومقام الحواريين ودير سانت كاترين، وتحدث عن لقاء القساوسة وعن حسن اللقاء وكرم المقام.

تحدث عن التيه وعن آثار سيناء ودروبها وطرقها واقتراب الطريق أحيانًا من البحر وابتعاده أحيانًا أخرى. حتى وصلت القافلة إلى السويس فكتب عنها وعن

قناتها القديمة، وعن استقبال الحجيج وما يقدمه المستقبلون من أطايب النعم وعذب المياه. يصل أوليا إلى مصر المحروسة... وقبل أن يصل إلى القاهرة مصر أم الدنيا يتحدث عنها فى الكتب المقدسة، ويذكر الآيات القرآنية الكريمة التى ذكرت مصر بالتصريح أو التلميح. ثم ينتقل إلى الأحاديث النبوية والأنبياء الذين عاشوا فى مصر والذين زاروها والذين هم دُفنوا بها.

يتوالى الحديث عن الدول التى ظهرت فى مصر أو حكَمتها، ثم عن الفتح الإسلامى والدول والدويلات التى ظهرت فيها، حتى مجىء سليم الأول العثمانى وضمها إلى ممتلكات السلطنة العثمانية. ولم يغفل الحديث عن طومانباى وحروبه مع سليم وشنقه على باب زويلة وحب المصريين لطومانباى. وتدرج فى الحديث عن التقسيمات الإدارية والعسكرية التى استحدثها سليم الأول فى مصر، وزياراته وتجواله فى القاهرة والإسكندرية، واستيلائه على الأمانات المقدسة التى كانت فى مصر واصطحابها معه عند العودة إلى إستانبول برفقة الخليفة العباسى.

لنترك الحديث للرحَّالة نفسه، ولنترك للقارئ الانطباع وتأييد ما ذهب إليه الرحالة المشرقى أو معارضته فيما تحدث به عن مصر.

وفى المدخل سوف يتم التنويه إلى ما يمكن أن يكون قد أضافه المترجم أو تركه كما هو أو علَّق عليه أو كتب حاشية عنه، مع العلم أن رحلات أولياچلبى قد تمت ترجمتها إلى معظم اللغات، وأفاد علماء الحملة الفرنسية على مصر من هذا الكتاب فوائد جمة.

وعلى الله قصد السبيل وحسن الثواب.

الصفصافى أحمد القطورى

أرض الجولف، مدينة نصر،القاهرة.

يوليو ٢٠٠٧م = جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ

مدخل فى أدب الرحلات

بقلم المترجم

إن تاريخ البشرية إنما هو تاريخ لمحاولة الإنسان التعرف على العالم المحيط به والغريب عنه، لقد ناضل أولاً ضد القوى الحيوانية التى تحول بينه وبين ذلك، ثم أخذ يناضل القوى المماثلة له فتكونت القبيلة، ثم الأمة، واندفعت الأمم من أقاليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف فيها آفاقًا جديدة. ثم بدأ ينطلق نحو الفضاء الخارجى عبر الكواكب، ويغوص فى أعماق البحار والمحيطات بحثًا عن المعرفة ورغبة فى الامتلاك.

بدأت كل هذه الرحلات ضيقة، ثم اتسعت آفاقها مع مرور الزمن؛ فالإنسان وُلِد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة؛ تخطى الجبال، وعبر البحار. وركب بساط الريح، سجل لنا التاريخ رحلات ألف ليلة وليلة، وحى بن يقظان، والتوابع والزوابع، ورحلة دانتى فى الكوميديا الإلهية، ورحلة الشاعر التركى العبقرى الشيخ غالب إلى مدينة القلوب "حسن وعشق". كما نجد ذلك بين ثنايا الأساطير، ودوافع الحروب.

سجل المصريون رحلاتهم على جدران المعابد، وخاض الفينيقيون عباب المحيط الأطلسى، وخلَّف الإغريق مستعمراتهم فى البحرين الأبيض والأسود، وعنوا جميعًا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التى رأوها، وقدموا الكثير من المعارف الجغرافية.

زار هيرودوت مصر، وقبرص، وفينيقيا، وأشور، وإيران، وتوغل فى الشمال، وتخطى البوسفور، وأودَع مشاهداته فى هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه

الكبير. ثم أعقبه "بلوتارك" الذى عنى بتاريخ اليونان، والرومان، ومنه استمد شكسبير الكثير من روائع مسرحياته.

ثم تصبح روما عاصمة العالم، ويتوغل بحارتها وفرسانها في ربوع إمبراطوريتها الشاسعة، وتصل سفنهم إلى جزر الكاناريا في المحيط الأطلسي.

ثم كان الفتح العربى للهند، والصين، وجبال البرانس... ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان وبلاد الحبش... أصبح كل ذلك عالمًا موحدًا مشتركًا في العقيدة واللغة. وامتزجت الثقافات، فخلقت نتاجًا حضاريًا مميزًا. وصف جغرافيو مدن هذا العالم، وبلدانه، وكذلك سكانه، وعاداتهم وأعرافهم...

عَرفت حضارتنا ومكتباتنا العامة كتب المسالك والممالك، وطرق الحج والقوافل وكثرت الرحلات عند المسلمين، وتنوعت بتنوع أسبابها، وحوافزها. ونشأت عند الكثيرين منهم محبة المجازفة والمغامرة فيما وراء المعروف، وليس من العبث أن نجد في تراثنا رحلات السندباد وابن ماجد. وفتحت الحروب الصليبية آفاقًا نحو الشرق، فأخذ الأوروبيون في تسجيل أسفارهم ورحلاتهم.

كانت الرحلة عنصرًا مهمًا، وقويًا فى حياة المجتمع الإسلامى خلال عصور ازدهارها. رحل الناس لزيارة مهبط الوحى، ولقوا فى ذلك الكثير من الصعاب... وتحمَّلوها راضين ومسرورين... رحل الناس فى طلب العلم حيث مراكزه المضيئة... كان طلاب العلم يتحملون من المشاق فى سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم، ورحل القوم فى سبيل الاتجار، وطلبًا للربح والثراء، فقد كانت الأسواق الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها مفتوحة الأبواب، مرتبطة ببعضها كل الارتباط وتكمل بعضها بعضًا، وكان التجار يحملون مع بضائعهم أحلامهم وثقافاتهم ومعتقداتهم.

رحل الناس بوصفهم سفراء بين الملوك والحكام، كما رحلوا طلبًا لِلَـذَّة السفر ورغبةً فيه، وكذلك رغبة فى الرحـلة فى حد ذاتها، أو رحلوا طلبًا للـرزق إذا ضاقت بهم حدودهم...

عرف المسلمون كل هذه النماذج من الرحلات، وقد شجعتهم على الاستزادة منها قلة الحدود المضروبة والعراقيل المفروضة... فلما ذهبت الوحدة الـسياسية، وضُرِبَت الحدود، وشُدَّت الأسلاك الشائكة بقيت وحدة العقيـدة ووحـدة اللغـة... فربطتنا قوافل الحجاج، ورحلات طلاب العلم، ورسل الحكام، وحَمَلَـة البـضائع، وزعماء الحرف والصنائع فاحتفظوا بالصلة.

لقد دوَّن الكثير من الرحَّالة أسفارهم، ومشاهداتهم، فـذكروا الأرض التـى زاروها والوديان التى نزلوها والجبال التى قطعوها، والصعوبات التى واجهوهـا. قيَّدوا ما رأوا من آثار، وسجلوا ما وعته الذاكرة من العادات والأعراف وسـمات الثقافات ولطائف الأخبار...

إن هذه اللفتات التى نعثر عليها فى كتب الرحلات هى التى تُميز الرحَّالة عن الجغرافى. فالجغرافى يسأل ويستقصى ويقيس ويحقق، ويحاول أن يحتوى كل جزء من المنطقة التى يعرض لدراستها، أما الرحالة فيلتقط ما يُشاهده من جزئيات ويرسم لنا منها صورة تتطابق وتتشابك أحيانًا، وربما تتنافر وتتباعد أحيانًا أخرى... ففيها ذاتية المشاهد وموضوعية الموجود.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝﴾ [سورة قريش ١٠٦/١-٢]، لقد كانت لقريش رحلتان، رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وكانتا للتجارة، ذلك لأن أهل مكة كانوا تجارًا، وكانت قوافلهم تنقل التجارة من اليمن إلى الشام، وتحمل بضائع الشام إلى اليمن.

لقد فتحت الفتوح العربية الإسلامية الآفاق، واتسعت رقعة الاتجار وتبـادل السلع والمتاجر، وكان التجار يتعرفون على أهل الديار وثقافاتهم، وكانـت هـذه

المعرفة تنتقل رواية وأخبارًا حتى قيض الله لها مَنْ دونها، لتُصبح جزءًا من تراث أدب الرحلات.

رحل الناس فى طلب العلم من مكان إلى آخر، فهذا بغدادى يشد الرحال إلى دمشق، وهذا دمشقى يقصد بخارى، وهذا تونسى إلى القاهرة، وهذا قاهرى يطلب العلم فى فارس. وهذه الرحلة فى طلب العلم كانت أحرى بأن تُدوَّنَ أخبارها، وتبقى آثارها؛ فمن أخبار ينقلها التجار وأصحاب الأعمال، ومن هذه وتلك وصلت إلينا أخبار هي من مفاخرات التراث الإسلامي.

لقد جاء الإسلام، ففرض الحج على المؤمنين، ولو أنه جعل الاستطاعة شرطًا، والذين استطاعوا إلى الحج سبيلاً فى هذا التاريخ الطويل كثر، ولم يكن جميعهم ممن يدون أخبار أسفاره، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم على تدوين مشاهدتهم؛ فخرج من ذلك الشيء الكثير فى أدب الرحلات الإسلامية.

وإلى جانب التاجر، وطالب العلم، والحاج، والسفير؛ يقوم الرحُالة المحترف أو الهاوى برحلته من أجل الرحلة ذاتها، ويدونها من وجهة نظره هو.

و ها نحن نستعرض هنا - فى هذا الكتاب - رحلة قد تمت إلى مصر لذات الرحلة ولذات مصر. وإن كُنّا سوف نُمهد لها برحلتين قام بهما صاحباهما من المشرق الإسلامى قبل أوليا چلبى؛ الأولى للرَّحالة الفارسي "ناصرخسرو" والمسماة "سفرنامه" وهى رحلته إلى الشام ومصر والحجاز. وقد كانت هذه الرحلة فى عام ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م من أجل العلم والحج والمناقشة العلمية.

أما الرحلة الأخرى فقد قام بها مؤرخ وكاتب وشاعر تركى يُسمى عالى مصطفى پاشا الغليبولى، فى خلال ٩٧٦ هـ = ١٥٦٨م، أى بعد سابقه بما يقرب من خمسمائة عام، وإذا كان ناصرخسرو القباديانى قد تردد على الحج وهو فى

مصر ما يقرب من أربع مرات؛ فإن الغلبيولى هو الآخر زار مصر أكثر من مرة ثم استقر به المقام فى الحجاز، وأنهى كتابه المعنى بمصر والقاهرة وهو فى جدة.

لن يتسع مجال هذا المدخل للحديث عن كل الكتب والرحلات المشرقية التى كُتبت عن مصر، بل سأقصر الحديث عن بعض النماذج التى تحمل مفاهيم معينة تعين على فهم الرحلة موضوع الترجمة هذه فقط.

أهم الرحلات المشرقية إلى مصر قبل أوليا چلبي:

رحلة ناصر خسرو[1] إلى الشام ومصر والحجاز

من خلال كتابه "سفرنامه"[2]

نشأ ناصرخسرو في جو مضطرب سياسيًا ودينيًا في المشرق الإسلامي؛ حيث ولد في قباديان عام ٣٩٤هـ =١٠٠٣م من أسرة متوسطة الحال، وتثقّف ثقافة واسعة، والتحق بخدمة السُّلْطَانين الغَزْنَويَيْن محمود[3] وابنه مسعود[4]، وقد نشأ نشأة سُنّية، وبدأ حياته في بلاط حُماة السُّنَّة وقتذاك.

---

(١) ناصر خُسرو القباديانى (١٠٠٣-١٠٨٨م) شاعر من بلخ إسماعيلي المذهب، من أقطاب الأدب الفارسي، حج إلى مكة وزار سورية وفلسطين ومصر والجزيرة العربية. ترك لنا أخبار رحلاته في كتابه سفرنامه. وفيه وفي ديوانه سعادت نامه يُعبر بالشعر عن آرائه الدينية. (انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ط ٢٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٣م).

(*) تنويه:
جميع الهوامش التي وردت في هذا الكتاب من إعداد المترجم، وسترد مسلسلة تباعًا دون كلمة (المترجم)

(٢) ألفيا ناصر خُسرو القبادياني. طُبعت هذه الرحلة أول مرة في باريس عام ١٢٩٨هـ =١٨٨١م على يد المستشرق الفرنسي شارل شيفر Sharles Schefer الذي كان مديرًا لمعهد الدراسات الشرقية في باريس، ثم طبعت في طهران ١٣١٤ هـ =١٨٩٦م وحققها العلامة محمود غني زاده، وترجمها إلى اللغة العربية كل من الدكتور يحيى الخشاب، ، والدكتور أحمد خالد البدلي، وطبعت في بيروت عام ١٩٧٠م ونشرت في عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م. ويتحدث ناصر خسرو فيها عن زيارته إلى مصر وأداء فريضة الحج.

(٣) محمود بن سبكتكين الغزنوي السلطان يمين الدولة أبو القاسم بن الأمير، امتدت سلطته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وهو تركي الأصل مستعرب، كان حازمًا صائبًا في رأيه، وكان يجالس أهل العلم ويناظرهم، كما استعان بهم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة؛ منها كتاب (التفريد) في فقه الحنفية، نحو ستين ألف مسألة، وله صنف العتبي تاريخه الذي سماه (اليميني). مات في غزنة سنة ٤٢١هـ ودفن بها، وقبره فيها (الأعلام ٧/١٧١).

(٤) مسعود بن محمود بن سبكتكين، من ملوك الدولة الغزنوية، ولد بغزنة بين خراسان والهند، ونشأ في بيت سلطنة وجهاد وعدل، وولي أصبهان في أيام أبيه. بعد وفاة أبيه بايعه الناس وأتته رسل الملوك، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وكرمان والري وأصبهان وبلاد الجبل، وعظم سلطانه وفتح قلاعًا في الهند كانت ممتنعة على أبيه، وفي أثناء خروجه إلى الهند عبر نهر سيحون تآمر عليه بعض العسكر وأكرهوا أخاه على موافقتهم، فقبضوا على مسعود واعتقلوه في قلعة "كيكي" ثم قتلوه سنة ٤٣٢هـ (الأعلام ٧/٢٢٠).

تبدلت الأحوال السياسية ونجح السلاجقة في القضاء على معظم الدويلات الشرقية، وأفلحوا في توحيد الإمبراطورية الإسلامية. فالتحق ناصر بخدمة چغرى بك السلچوقى[٥] حاكم خراسان[٦] وتولى أمر خزانته في مَرْو[٧] مدة طويلة حتى نُسِبَ إليها.

ظل حائراً في المذهب الذي يتبعه؛ أيكون شيعيًا أم سُنيًا...؟ وأى المذاهب الشيعية يختار...؟ ولأى الحكام السنيين يُقدِّم الولاء...؟ كان الاضطهاد متبادلاً بين ذوى النفوذ، وعلماء الدين يحاولون أن يهدئوا من روع جمهرة الشعب الحائر، ويبذلوا جهدَ الطاقة لإبقاء عامة الشعب بعيدين عن الدخول في المتشابهات، كل حرصهم أن يُقيم المسلم أركان الإسلام الخمسة.

كان ناصر خسرو يشغل منصبًا كبيرًا في الدولتين الغزنوية والسلچوقية. وهو واسع الاطلاع؛ يقرأ الفلسفة ويناقش آراء الفارابى[٨] وابن سينا[٩]... رجع إلى القرآن وكتب الحديث ورجع إلى التوراة والإنجيل، وكتب مذاهب الهنود بلغتها

---

(٥) شيخ بن محمد بن شيخ بن حسن الچفرى العلوى الحسينى، فاضل متصوف من أهل حضرموت، ولد بها بقرية الحاوى قرب تريم، وتنقل في البلدان إلى أن استوطن مدينة (كيكوت) من إقليم المليبار بالهند وتوفي بها، من كتبه "الكوب الدرى في نسب السادة آل الجفري" و"كنز البراهين الكسبية في ذكر سادات مشايخ الطريقة الحدادية العلوية " وشرح منظومة في شيوخ التصوف بحضرموت، ومقامات، ونظم في ديوان، مات سنة ١٢٢٢هـ (الأعلام ١٨٢/٣).

(٦) خراسان : بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق بيهق، وآخر حدودها مما يلى الهند غزنة وسجستان، وتشمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وغيرها. (معجم البلدان ٣٥٠/٢).

(٧) مَرْو: أشهر مدن خراسان، والنسبة إليها مروزى على غير قياس، وقد اشتهر منها علماء كثيرون، مثل الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى وإسحاق بن راهويه وعبدالله بن المبارك، (معجم البلدان ١١٢/٥).

(٨) إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، أبو إبراهيم، أديب، غزير العلم، من أهل فاراب (وراء نهر سيحون) وهو خال الجوهرى صاحب الصحاح. انتقل إلى اليمن وأقام في زبيد وصنف كتابًا سمَّاه ديوان الأدب، وله درر التيجان في الجغرافيا، توفي سنة٣٨٢هـ (الأعلام ١/ ٢٩٣).

(٩) الرئيس أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا الحكيم المشهور، صنف كتاب الشفاء في الحكمة، والنجاة والإشارات والقانون، وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر، ورسالة في فنون شتى، وهو أحد فلاسفة المسلمين المعدودين. مات بهمذان سنة٤٢٨ هـ ودفن بها.(وفيات الأعيان ١٥٧/٢)

الأصلية. وأطال النظر في الأوستا(١٠) والزند(١١) واتصل بعلماء الأديان؛ مسلمين ونصارى ويهود وهنود ومجوس، وناقشهم الآراء والمسائل التي لم يهتد إلى رأى فيها، فلم يظفر بمن يقنعه، ورأى أن يرحل إلى بلاد العرب وفارس وتركستان والهند، لعله يجد من يهديه إلى الطريق الحق لمعرفة الله، ولكنه لم يظفر بما يُريد. فوقع في الشك الذى قد يصل إلى الإلحاد، وظهرت آثار هذه الفترة في أشعاره، إلاَّ أن مرحلة الشك هذه لم تدم طويلاً على أية حال... وها هو ناصر يُؤْثِرُ أن يرتحل إلى مصر، حيث نُظِّمَت الدعاية للمذهب الفاطمى تنظيمًا دقيقًا، لعله يجد فيها ما تصبو إليه نفسه من معرفة الحقيقة، فقد سمع من دعاة مصر في خراسان وفارس من يتحدث عن مذهب جديد يختلف عن الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية، كما عرف أن منْ هؤلاء الدعاة مَنْ يستمع إلى أسئلة المتحيِّر ويجيب عنها، وإنه ليحب أن يسأل لماذا وكيف، وأن يُجاب عما يسأل جوابًا يُشفى علته. فليعزم إذًا على الرحيل.

وبعد ما قرأ في القرآن الكريم من دعوة إلى التدبر زاد عزمه على السفر والرحيل إلى حيث الشجرة التى بايع المؤمنون تحتها النبى محمدًا صلى الله عليه وسلم، فلعل من سحر المكان ما ينفذ إلى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن... فذهب إلى زاوية ودعا ربه أن يُيَسِّر له أمره ويهديه. ويرى في المنام بعد سُكْرٍ طويل من يحدثه عن أن لا تكون بالخمر، بل يتجه المتحدث إلى القبلة قائلاً "مَنْ جَدَّ وَجَد"، ثم ينصرف عنه، ويصحو ناصر من نومه، فيتمثل الرؤيا كأنها حقيقةٌ فيفيق من الخمر، ويحدِّث نفسه أن عليه أن يفيق من غفلة أربعين عامًا خلت، كما أفاق من سبات البارحة. فيعتزم الرحلة إلى مكة، إلى القبلة التى أشار إليها محدثه، فيتجه إلى مرو ويطلب إعفاءه من الوظيفة؛ حيث يعزم على الحج. وكان ذلك في جمادى

---

(١٠) الأوستا : واحد من الكتب المقدسة لدى الفرس والهنود القدماء، ويُظن أنه يحتوى على تعاليم الديانة الزرادشتية.

(١١) الزند : واحد من الكتب المقدسة لدى الهنود والفرس القدماء، ويعتقد البعض أنه والأوستا يحتويان على تعاليم الزرادشتية.

الأخرة سنة ٤٣٩ هـ =١٠٤٧م فى العام نفسه الذى سافر فيه المؤيد إلى مصر. ولقد التقى ناصرخسرو بالمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى سنة ٤٣٩هـ = ١٠٤٧م، وتلقى ناصر مبادئ الدعوة الفاطمية من المؤيد هذا أثناء إقامته فى مصر التى امتدت لست سنوات.

مؤلفات ناصر خسرو ومكانة "سفرنامه" بينها:

خلف ناصر خسرو القبادياني مجموعة من المصنفات شملت كثيرًا من الموضوعات العلمية التي كان يوليها كثيرًا من الاهتمام؛ ولكن أغلب هذه المؤلفات لم يُكْشَف النقاب عنها بعد. ومن حسن الحظ أن وصلت إلى أيدي الباحثين بعض من كتبه. ومن أهمها هذه الرحلة المسماة "سفرنامه" وهي ما تعنينا هنا، لقد طبعت السفرنامه أول مرة في باريس سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨١ م، على يد المستشرق الفرنسي "شارل شيفر charles schefer"؛ وهو من أكبر المهتمين بالدراسات الشرقية وكان مديرًا لمعهد الدراسات الشرقية في باريس.

ثُم طُبِعَت السفرنامه في طهران ١٣١٤هـ = ١٨٩٦ م، وقد حققها العلامة محمود غني زاده ويعدُّها المترجمون أكثر دقة وضبطًا وتوثيقًا عن سواها. وتمت ترجمتها إلى اللغة العربية مرتين، المرة الأولى من قِبَل الدكتور يحيى الخشاب، ونشرت في دار الكتاب الجديد، بيروت سنة ١٩٧٠م، والترجمة الأخرى قام بها الدكتور أحمد خالد البدلي، ونشرت من قبل عمادة شئون المكتبات – جامعة الملك سعود – بالرياض سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

وتنقسم الرحلة إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى تبدأ من مرو في ربيع الآخر سنة ٤٣٧هـ = أكتوبر ١٠٤٥م وتنتهي ببلوغه القاهرة في ٧ صفر ٤٣٩هـ = ٤ أغسطس ١٠٤٧م. والمرحلة الثانية مرحلة إقامته في مصر من ٧ صفر ٤٣٩ هـ إلى أواخر جمادى الآخرة ٤٤٢ هـ = أواخر أكتوبر ١٠٥٠م. والمرحلة الأخيرة عودته إلى بلخ عن طريق الحجاز وفلج والأحساء والبصرة، وتبدأ مُنذ قيامه من مصر وتنتهي في ٢٦ جمادى الآخرة ٤٤٤هـ = ٢٦ أكتوبر ١٠٥٢م.

المرحلة الأولى، ويبدو فيها كأنه ليس لناصر خسرو أي مآرب سياسية أو دينية، فهو راغب في الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وهو عائد من مكة إلى بيت المقدس، وفي نيته أن يذهب إلى مصر ليزورها كما زار الشام على ألاَّ يُقيم فيها طويلاً. وليس هناك شك في أن رغبته في زيارة مصر كانت

سعيًا وراء البحث عن الحقيقة؛ إذ فى مصر آنذاك مذهب دينى عُرِف بنشاط دُعاته فى خراسان.

أما المرحلة الثانية، وهى ما يعنينا، فهى إقامة ناصرخسرو فى مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وقد سبق القول إن ناصرًا لم يصرح برغبته فى الإقامة طويلاً بمصر.

لقد كان للثقافة الدينية الشأن الأول فى المجال العلمى بمصر الفاطمية؛ وكانت المساجد، الأزهر وعمرو والحاكم ثم كانت دار الحكمة وقصر الخليفة نفسه، أمكنة لإلقاء الدروس المتعلقة بالفقه والفلسفة الإسلامية، وقد اشترك فى هذه الدروس – مُنذ أن استقر الفاطميون فى مصر – قاضى القضاة وداعى الدعاة والوزير والخليفة نفسه.

وكانت دروس الدعوة أو مجالاتها مُقسمة إلى قسمين؛ قسم يستمع إليه الناس من الراغبين فى تحصيل العلم، وقسم يستمع إليه المتخصصون فى الدعوة، كما كانت هناك دروس خاصة للنساء.

هذا ملخص للحالة العلمية فى مصر، حين وفد عليها ناصر خسرو. ولقد تمتع ناصر خسرو، خلال إقامته فى مصر بمركز ممتاز، وقد حج مرتين فى صحبة رسول الخليفة، مع أن الحج كان ممنوعًا بسبب قحط فى الحجاز. وعاد فى المرة الثانية فى صحبة أمير مكة، وأراد أن يرى مائدة الخليفة يوم العيد فسمح له بذلك.

لقد كتب ناصر خسرو رحلته بعد عودته إلى وطنه مباشرة، فى الفترة التى انكب فيها على العبادة، وقبل أن يبدأ حياته داعيًا للدعاة فى خراسان.

كان ناصر خسرو – وقد أصبح فاطمى المذهب – مُبالِغًا ومُتَحَمِّسًا بل متعصبًا؛ حين وصف مصر هذا الوصف الذى كله ثناء وتمجيد؛ فهل كان مبالغًا حين تحدث عن ثراء المصريين أو عمَّا هم فيه من الرغد والأمن؟ أو حين تحدث عن أسواق القناديل؛ فيقول إنه لا يعرف مثله فى العالم...؟

يحكي ناصر خسرو بنفسه عن وصف مصر "ثم عزمت على أن أغادر بيت المقدس إلى مصر بطريق البحر، ثم أغادرها إلى مكة، ولكن كانت الريح معاكسة وتعذر السفر بالبحر، فسرنا عن طريق البر، ومررنا بالرملة... وبلغنا مكانًا يُسمى طينة، وهو مرفأ للسفن يذهب منه إلى تنّيس. وقد ركبت السفينة إليها...".

هكذا يتحدث ناصر خسرو عن تنّيس بعد ذلك واصفًا كل ما تراه عيناه، واصفًا إياها بأنها جزيرة ومدينة جميلة، وبعيدة عن الساحل... والمدينة مزدحمة... بها أسواق فخمة وجامعان. وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان.

وتذهب السفينة من تنّيس إلى القسطنطينية في عشرين يومًا... وقد سرنا بجانب مصر، وحين بلغنا شاطئ البحر سارت السفينة في النيل. حين يقترب نهر النيل من البحر، يصير فروعًا تصب متفرقة فيه، ويُسمى الفرع الذي سرنا فيه فرع الروم. فقد سارت السفينة حتى بلغنا مدينة الصالحية، وهي مدينة كثيرة النعم والخيرات، وتُصنع بها سُفن كثيرة. وقد نزلت من السفينة إلى الصالحية ثم بلغت قرب القاهرة تلك الليلة. وفي يوم الأحد السابع من صفر سنة ٤٣٩هـ = ٤أغسطس ١٠٤٧م كنا في القاهرة.

يبدأ ناصر خسرو في وصف مصر، أي القاهرة، ثم الإسكندرية متحدثًا عن المسافة البحرية بين مصر والأندلس حيث تبلغ ألف فرسخ. ثم يعود إلى الحديث عن القاهرة بوصفها أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر. ويُسهب القول حول كل ما يراه من دكاكين ومتنزهات وحدائق وبساتين... "كانت البيوت من النظافة والبهاء؛ بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر لا من الجص والآجُر والحجارة... وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة): الأزهر، وجامع النور، وجامع الحاكم، وجامع المعز. والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل... وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تُسقى من ماء الآبار. وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريِّها، وغُرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات". هكذا

كانت القاهرة مُنذ ما يقرب من ألف عام أو أقل حيث كان ناصر خسرو بها عام ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م.

ثم يتابع ناصر خسرو مشاهداته في القاهرة ويتحدث عن فُم الخليج؛ حيث يقول "... ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ترعة كبيرة تُسمى "الخليج" حفرها والد السلطان. وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية... ويبتدئ (فم الخليج) من مدينة مصر، ويمر بالقاهرة ويدور بها مارًا أمام قصر السلطان. وقد شيد على رأسه قصران، أولهما قصر اللؤلؤة وثانيهما قصر الجوهرة".

ثم يتحدث ناصر خسرو عن يوم فتح الخليج حين يبلغ النيل الوفاء، ويبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعًا. فيقول "وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر، ويُسمى"عيد ركوب فتح الخليج"... حينما يقترب يُنصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكاليف من الديباج الرومي، وموشى كله بالذهب، ومكلل بالجواهر؛ ومعد أعظم إعداد بحيث يتسع ظله لمائة فارس... ".

يتحدث ناصر خسرو حديثًا مطولاً عن هذا الاحتفال – والذي سنراه أيضًا عند أوليا چلبي – حيث يحضر كبار رجال الدولة والقواد والفرق العسكرية...إلخ" وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج، وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة...". وينتقل ناصر خسرو للحديث عن وصف مدينة مصر حيث يقول: "شُيِّدت مصر على ربوة... وفي طرف المدينة جامع ابن طولون، وهو مُشَيَّد على ربوة وله جداران مُحكَمَان، ولم أر أعظم منها غير جدار آمد[١٢] وميافارقين[١٣]". وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبعة

(١٢) آمد: بكسر الميم لفظة رومية لها في العربية أصل حسن، وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا، قال المنجمون مدينة آمد في الإقليم الخامس، فتحت آمد في سنة ٢٠هـ وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم، منهم أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الأديب، وأبو المكارم محمد بن الحسين الآمدي؛ شاعر بغدادي مكثر مجيد. (معجم البلدان ٥٦/١).

(١٣) ميافارقين: قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينيا. سُميت قديما مارتيرو پوليس أي مدينة الشهداء؛ لما جمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيين. (انظر: المنجد في اللغة).

طوابق. وسمعت من ثقات أن شخصًا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار... وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقية، كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر...".

ويصف لنا ناصر خسرو "الثُرَيا" التى رآها فى جامع "باب الجوامع" أى جامع عمرو بن العاص الذى اشتراه الحاكم ثم أدخل عليه عمارات كثيرة عظيمة، منها ثريا فضية لها ستة عشر جانبًا، كل جانب منها ذراع ونصف، فصارت دائرتها أربعةً وعشرين ذراعًا،" ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل، ويُقال إن وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطارًا من فضة، كل قنطار مائة رطل، وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويُقال إنه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا بابًا وأدخلوها منه ثم أعادوا الباب مكانه..."

لم يترك ناصر خسرو شيئًا فى القاهرة إلاَّ وتحدث عنه؛ تحدث عن المبانى والأسواق والشوارع النظيفة المضاءة وأنواع المأكولات والمشروبات والزهور والفواكه والدواب. ويخلص من كل ذلك بقوله: "... وكان أهل مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك"... ثم يتحدث الرحَّالة ناصر خسرو عن العادات والتقاليد التى تجرى فى مصر حين يولد للسلطان ولد. كما يصف لنا ما يجرى على مائدة السلطان فى العيدين. حيث يقول:

"يقيم السلطان مأدبة فى كل من العيدين، ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام. وتُنصب مائدة الخواص فى حضرته ومائدة العوام فى سرايات أخرى، وقد سمعت كثيرًا عن هذه المآدب فرغبت فى رؤيتها رأى العين...".

... وفى آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة = ٧ مارس ١٠٤٩م، وكان المجلس قد أُعدَّ لليوم الثانى، وهو يوم العيد، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس فى صدر المائدة.

وحين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وسُقُفًا وإيوانات، إن أصفها يطل الكتاب. كان هناك اثنا عشر جناحًا، أبنيتها مربعة، وكلها متصلة ببعضها البعض. وكلما دخلت جناحًا منها وجدته أحسن من سابقه، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع، عدا واحدًا منها كانت مساحته ستين ذراعًا فى ستين. كان هذا الأخير تحت عرش مُمَرَّد يحتل صدر المكان بارتفاع أربعة أذرع عن سطح الأرض، وكرسي العرش من الذهب الخالص، وعلى الحائط فى أعلى العرش صورة ميدان صيد تتعارك فيه الفرسان والطرائد وكلاب الصيد، والصورة تكاد تنطق "... أما بُسُطُ الصالون فحريرية بالغة النعومة حتى ليعجب المرء كيف يمكن للأقدام أن تثبت عليها، وقد عَلَتْها ألوان لا تكاد تحصرها العين، وتُحيط بهذا الصالون القدسى شبابيك ذهبية تكاد تذهب بالأبصار... وخلف العرش مباشرة مدخل جليل بدرجات ذهبية، أما العرش الذهبى فلا يقدر بشر على وصفه".

يتطرق ناصر خسرو إلى وصف المائدة، والمطبخ السلطانى وكيفية توزيع الثلج على المطبخ السلطانى وعلى الأمراء، وكيف كانت تقدم الأطعمة والأشربة والأدوية لكل من يطلبها من الناس. كما يتحدث عن الأمن وفراغ بال المصريين من وساوس اللصوص، وبلوغ ذلك حدًّا حمل البزازين والصيارفة على ترك دكاكينهم مفتوحة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الإعلان عن موسم الحج مُنذ منتصف شهر رجب... وينادى على تجهيز موكب السلطان فى شهر رمضان، ويبدأ الناس فى السفر ابتداء من أول ذى الحجة... ويبلغون مكة فى خمسة وعشرين يومًا، ويمكثون بها عشرة أيام، ثم يعودون إلى مصر فى خمسة وعشرين يومًا.

وقد قام ناصر خسرو بأداء فريضة الحج فى موكب الوفد المصرى سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م، ذلك الوفد الذى رافق الكسوة فى هذا العام، حيث يقول "...

وكان السلطان يرسل الكسوة[١٤] للكعبة كالمعتاد، لأنه يرسلها مرتين كل سنة. فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان عن طريق القلزم (البحر الأحمر) سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة، وبلغت القلزم فى الثامن منه، ومن هناك أقلعت السفينة، فبلغنا بعد خمسة عشر يومًا مدينة تسمى الجاد، فى الثانى والعشرين من ذى القعدة، وقمنا من هناك فبلغنا مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد أربعة أيام."

ولما كانت بلاد الحجاز تخرج عن نطاق هدفنا وهو مصر، فلن أتعرض لأقوال ناصر خسرو حول جدة والمدينة ومكة... إلخ؛ بل سأعود معه سريعًا إلى مصر؛ حيث يقول "... وبعد أن أكملت الحج، توجهت نحو مصر فقد كانت لى بها كتب... ولم يكن فى نيتى أن أعود إليها... وقد صحبت أمير مكة إلى مصر هذا العام...".

لقد كان ناصر خسرو فى مصر حسب ما يقرره هو سنة ٤٤١هـ = ١٠٤٩م، ورأى الكثير من الخيرات والعجائب، وعندما قرر العودة إلى خراسان كان ذلك عن طريق الصعيد الأعلى وبلاد العرب والعراق.

خلال رحلة العودة تحدث عن أسيوط ورأى فيها زراعة الأفيون، وعمائم من الصوف المصرى الذى لا مثيل له فى العالم... ثم وصل إلى قوص ورأى فيها أبنية عظيمة من الحجارة تبعث على العجب، ثم وصل إلى أخميم، ووجدها مدينة واسعة عامرة رجالها أشداء، وعن طريق النيل وصل إلى أسوان... وعلى بعد أربعة فراسخ من هذه المدينة طريق ولاية النوبة، وهى ولاية أهلها جميعًا نصارى.

وبعد أن أسهب فى وصف أسوان يقول: "ورحلت عن هذا البلد فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة = ٢٩ يوليو ١٠٥٠م. وكان الطريق

---

(١٤) يقصد بها كسوة الكعبة الشريفة أوستارة الكعبة، وكانت تُرسل مع الصرة والمحمل المتجهيْن إلى الأراضى الحجازية. ولكسوة الكعبة مراسم فى صنعها وحملها وإرفاقها بالمحمل وإلباسها للكعبة المشرفة. ولسوف نرى هذا فى ثنايا الرحلة إلى القاهرة.

يتجه نحو الجنوب... وفى العشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة = أغسطس ١٠٥٠م بلغنا مدينة عيذاب، وهى تقع على شاطئ البحر، وبها مسجد جمعة وسكانها خمسمائة، وهى تابعة لسلطان مصر، وفيها تُحصل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، ومنها تنتقل البضائع بالإبل إلى أسوان فى هذه الصحراء التى اجتزناها، ومن هناك تنتقل بالسفن إلى مصر فى النيل[١٥]".

هذا باختصار شديد أهم ما أردتُ أن أعرضه من هذه الرحلة التى تمت قبل رحلة أوليا چلبى بفترة زمنية ليست قصيرة؛ حيث بدأت عام ٤٣٩ هـ = ١٠٣٩م وانتهت ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م، بينما كانت رحلة أوليا قد بدأت بعد أن أدى فريضة الحج فى موسم ١٠٨١هـ = ١٦٧٠م. وذلك بهدف إتاحة الفرصة أمام القارئ ليكتشف الفروق التى حدثت فى مصر خلال الفترات التى تقع بين هذه الرحلات.

(١٥) انظر الرحلة بالتفصيل فى:
١- سفرنامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى، نقلها إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٠م.
٢- سفرنامه، رحلة خسرو القبادياني، تأليف أبى معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزى، ترجمة وتقديم الدكتور أحمد البدلى. الرياض ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م.

رحلة عالي مصطفى پاشا الغليبولي[١٦]

من خلال كتابه "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"

زار عالي مصطفى پـاشا الغليبولي مصر لأول مرة عام ٩٧٦هـ = ١٥٦٨م عندما كان يعمل في خدمة لالا مصطفى پـاشا البوسنوي[١٧]، وجاء إلـى مـصر

---

(١٦) **عالي مصطفى پاشا الغليبولي** (٩٤٨ - ١٠٠٠ هـ = ١٥٤١ - ١٦٠٠م). كان مؤرخا، له كتب عدة مثل "موائد النفائس في قواعد المجالس" و"مناقب هزواران"، ولـه أشـعار معتمدة. عمل، وهو مازال شابًا، في خدمة *لالا مصطفى پاشا البوسنوي* بوصفه كاتب أسرار له. وعندما عين البوسنوي واليًا على الشام (١٥٦٢ - ١٥٦٣م) سافر معه. ولما عين البوسنوي أيضًا سردارًا على اليمن اصطحب عامله عالي مصطفى الغليبولي معه، وجاء إلى مصر، وعندما تمكن والي مصر سنان پـاشا الأرناءوط من عزلهما عادا إلى إستانبول وكانت زيارته الأولى لمصر قصيرة، ولكنها تركت في نفسه أثرًا طيبًا ظهر في أعماله التي كتبها فيما بعد.
وبعد سبعة وعشرين عاما تمكن عالي من أن يزور مصر بعد أن عمل في العديد من الوظائف المالية، وعندما اعتلى السلطان محمد الثالث العرش عام ١٥٩٥ م خلال شهر يناير كان عالي يحاول أن يستكمل كتابة " كنه الأخبار " حول تاريخ العالم، فكتب قصيدة يهنئ فيها الـسلطان الجديد بالجلوس على العرش، فكافأه السلطان بإعادة تعيينه "كاتبًا" للإنكشارية لكن عالي لـم يقبل هذا المنصب وطلب بدلا منه دفتردارية مصر حتى يتمكن من إتمام كتابه مـستفيدًا مـن المصادر والمراجع الموجودة في القاهرة. ولكن طلبه لم يتحقق، ومنح دفتردارية "سيواس" في الأناضول وإمارة أماسيا. وكان عالي موجودا هنالك في محرم ١٠٠٤هـ = سبتمبر - أكتـوبر ١٥٩٥م.
ولم يمض وقت حتى تحققت رغبته في التوجه إلى مصر. ولكن وجوده في القاهرة لـم يـدم طويلا أيضًا، فعقب وصوله إلى مصر ركب سفينة واتجه من السويس إلى جدة. وكان خـلال هذه الرحلة مشغولا بإنهاء كتابه الأخير "موائد النفائس في قواعد المجالس" ويذكر في مقدمـة هذا الكتاب أنه طلب إمارة مصر من السلطان محمد الثالث عقب وصول عالي إلـى جـدة، أضاف جديدًا إلى كتابه مقدما من إياه نسخة إلى الأغا غضنفر الذي كان حينـذاك أغـا دار السعادة في سراي السلطان في إستانبول. ويتضح أن عالي پـاشا كان في طريقه إلى الحجاز وأنه تولى إمارة جدة وأمينا للميناء فيها. انظر:
- Gelibolulu Mustafa Ali Halatül - KAHİRE MİNEL - ADATİZ - ZAHİRE, Sadeleştiren Orhan Şaik Gökyay . Kültür. ve turizim Bakanlığı yayınları : 587 . 1000 temel Eser Dizisi : 103 Birinci baskı Aralık 1984.

(١٧) **لا لا مصطفى پاشا البوسنوي**: كان وزيرًا ثانيًا في عصر كل من سليم الأول وسليمان القانوني، وصاهر السلطان سليمان القانوني لجدارته. أبلى بلاء حسنا في حرب المجر ومحاصرة رودس، وتولى إمارة مصر وولايتها عقب وفاة خاير بك عام ٩٢٨هـ. حارب المماليك الذين قاوموه وتمكن من إعادة الهدوء والسكينة إلى الديار المصرية. ظل واليًا على مصر لمدة ثمانية أشهر ونصف الشهر، ثم عاد إلى دار السعادة. توفي عام ٩٣٥هـ عندما كان وزيرا ثانيا. (انظر: قاموس الأعلام ش سامي).

معه عندما عيِّن سردارًا على اليمن. وترك الخدمة بعد أن تمكـن سـنان پـاشا الأرناءوط[١٨] - عندما كان واليًا على مصر - من إبعادهما، وكانت زيارته الثانية بعد مرور سبع وعشرين سنة من الأولى، وقد تولى خلال هذه المدة العديـد مـن الوظائف المالية، ثم طلب - فى قصيدة قدّمها إلى السلطان محمد الثالث[١٩] عنـدما اعتلى العرش فى ١٠٠٤هـ = ينـاير ١٥٩٥م - دفترداريةَ[٢٠] مصر، حيث كانـت القاهرة -حسب رأيه - تُمثل أهمية كبرى فى إتمام الكتاب الذى كان يؤلفـه عـن تاريخ العالم. ولم يُجَبْ إلى طلبه إلاَّ أنه بعد فترة وجيزة توجه نحو مصر، ولكـن

---

(١٨) سنان پـاشا الأرناءوط: من الصدور العظام الذين تولوا الصدارة فى عـصر كـل مـن السلطان مراد الثالث ومحمد الثالث خمس مرات متفرقة. يُنسب إلى الأرناءوط تولى العديـد من المناصب ثم ولى ولاية مصر عام ٩٧٧ هـ وهو الذى ألحق الأراضى اليمنيـة بالدولـة العثمانية، ولقب بعدها بلقب الغازى عام٩٨٢ هـ. عيِّن لخمس مرات أيضًا سردارًا أعظـم أى قائدًا عامًا للجيوش العثمانية. توفى عام ١٠٠٤ هـ عن عمر تجاوز التسعين عامًا، ودامت مدة صدارته سبع سنوات. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى جـ٤، والرحلة الحجازية، هـامش صـ١٩٦).

(١٩) السلطان محمد الثالث : بن السلطان مراد الثالث بن سليم خان الثانى، السلطان الثالث عشر من سلاطين آل عثمان، واشتهر بفتح قلعة أكرى. ولد فى قصبة "صارت" عام ٩٧٤هـ. تولى السلطنة عقب وفاة والده وقد بلغ السابعة والعشرين من العمر.توجه لمحاربة المجر ونجح فى تفريق الجهود الصليبية التى اتفقت ضده، كما عقد صلحًا مع إمبراطور ألمانيا عقب عصيان جلالى حسن پاشا فى الأناضول، توفى سنة ١٠١٢هـ وخلفه على العرش ابنه أحمد الأول.أمر فى حياته بإغلاق كل الحانات ومعاقبة كل من يشرب الخمر، وكان يوقف الكثير من غنائم فتوحاته على الحرمين الشريفين. اشتهر بحبه الخير. (انظر قاموس الأعلام. ش. سامى مجلد ٦ ،والرحلة الحجازية هامش٢صـ١٣٥).

(٢٠) الدفترداريـة: مصطلح مالى وإدارى كان مستخدمًا فى الدولة العثمانية. والدفتردار هو ماسك الدفتر، وكان يُطلق عليه فى المصطلح الإسلامى "المستوفى". كان ماسك الدفتر فى الدولة العثمانية يُعدُّ من أركان الدولة الميمونين. وقد حدد السلطان محمد الفاتح فى (قانون نامه آل عثمان) رتبة ومهام الدفتردار، وكان موكلا بهم تسجيل وقيد دخول ومصروفات شتى الإدارات، وحدد الفاتح ألقابهم. وكان هناك "دفتردار خاصى" و(دفتردار أمينى) أمين الدفتردار. والدفترخانه المكان الذى تحفظ فيه دفاتر الحسابات. و(دفتردار خاقانى وهو المسئول عن حسابات السلطان. وهناك؛ دفترخاقان أمينى، ودفتر خاقان ناظرى. ثم دفترخاقان نظاراتى: أى وزارة دفتر= =السلطان كان كتخدا الدفتر من الموظفين الميمين فى الدولة العثمانية. (انظر: محمد ذكى پاقالين؛ عثمانلى تاريخ ديملرى وترىملرى سوزلغى. جلد ١).

هذه الزيارة أيضًا لم تستمر طويلاً؛ حيث ركب سفينة صغيرة واتجه نحـو جـدة. وكان خلال هذه المدة مشغولاً بتأليف كتابه "موائد النفائس فى قواعد المجالس". وقد تولى إمارة ميناء جدة. أما على الأرجح توفى عـالى مـصطفى الغليبـولى سـنة ١٠٠٩هـ = ١٦٠٠م.

والكتاب "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"[٢١] عبارة عن مقدمة وفصلين وتذييل. يذكر فى المقدمة أنه كتب كتابه هذا بناءً على طلب الأصدقاء الذين رغبوا فى أن يكتب ذكرياته عن مصر. وينتهى كلامه بمدح غضنفر آغا حاميـه والـذى كان يشغل منصب آغا دار السعادة فى السراى السلطانى فى إستانبول.

القسم الأول من الكتاب فى مدح الجوانب الإيجابية والحسنة التى رآها فـى مصر، أما القسم الثانى فقد أفرد فيه الحديث عما كان لا يعجبه فـى مـصر مـن مساوئ وعادات سيئة، وخلال هذا أفرد الحديث عن الأيات القرآنيـة والأحاديـث النبوية التى ذكرت فى حق مصر. ويفسح المجال لرسالتين كتبهما الشاعر التركـى دفترزاده مولاً جمالى[٢٢] عام ٩٧١هـ = ١٥٦٣ - ١٥٦٤م وأرسلهما إلى تركيـا. وكان جمالى يقدح مصر فى هاتين الرسالتين.

---

(٢١) وُجِدتْ فى مكتبات إستانبول ثلاث نسخ من مخطوط "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"، الأولى فى مكتبة الفاتح تحت رقم ٥٤٢٧، ولهذه النسخة كاتبان. ووفقًا لما ذهب إليه النـسّاخ الثانى فإنها كتبت خلال شهر شعبان عام ١٠٣٤هـ = مايو / يونية ١٦٢٥م، وليس بهـا اسـم الناسخ. الثانية مخطوط فى مكتبة سليم آغا فى إسكدار، فى إستانبول رقم ٠٥٧٧ وليست بهـا اسم المكتبة، فى نهايتها تأريخ ١٠٤٠ هـ =١٦٣١م. والثالثة مخطوط فيما بين كتـب أسـعد أفندى Esat efandi فى مكتبة السليمانية فى إستانبول رقم ٢٤٩٧. هناك نسخة رابعـة فـى كتالوج الكتبخانه الخديوية بالقاهرة. ولكن يبدو أن هذه النسخة قد فقدت، وقد ترجمهـا إلـى الإنجليزية البروفسور أندياس تتيز فى فينا عام ١٩٧٥. (انظر: أورخـان شـائق كوكيـاى، المرجع السابق).

(٢٢) دفترزاده مولاً جمالى: من الشعراء العثمانيين الذين تخلصوا بهذا المخلص "جمالى"، وقـد اشتهر بلقب دفتردار زاده.كان صاحب قدرة على قول الشعر المُصنّع. (انظـر: قـاموس الأعلام.ش. سامى جلد ٣).

أما الخاتمة فقد ركز فيها الحديث عن أوضاع مصر باختصار بعد أن انتقلت إلى الإسلام والمسلمين. وأما التذييل فقد ركز فيه عالي على الإدارة السيئة في مصر، وأن هذه الإدارة وسوء الاستغلال هما اللذان أديا إلى أن تفقد مصر بركتها وخيراتها.

وقد احتوى القسم الأول والثاني على مرئيات عالي وملاحظاته عن مصر، وما لفت نظره فيها؛ فأرضها مباركة خصبة معطاءة، يزرع فيها وينبت من الزرع ما هو غير موجود في تركيا، وأن سبب خصوبة أرض مصر أنها تروى بمياه النيل. ثم يتحدث عالي عن نهر النيل، وعن مواكب الاحتفالات التي تتم عند فيضان النيل وما يصاحب ذلك من عادات وتقاليد. ثم يتحدث عن أهرام الجيزة التي يسميها "جبال الأهرام".

ثم يركز الكاتب ملاحظاته ومشاهداته على مدينة القاهرة. ويتحدث عن إعجابه وتقديره وحيرته أمام ما شاهده في أسواق مصر من البضائع المختلفة والنظافة الباهرة والأمن المستتب. ولكنه لم يغفل الإشارة إلى قذارة الحوض الشافعي[٢٣]، وعدم الرعاية في المشافي وإهمال المرضى. ويعود ويمتدح استعداد الخفراء ويقظتهم الدائمة. ورغم هذا فإن أعراب البدو يستطيعون الدخول إلى أعماق المدينة ويسطون على المدينة ويرتكبون الجرائم.

يُعطي عالي مصطفى باشا أهمية لرجال المدينة ونسائها؛ وهل هم منحدرون عن الأرستقراطية التركية (المملوكية) أم أنهم من المحليين الأصليين...! ولكنه يرى بعض الوجوه السوداء، ويراهم على درجة من السوء. وأمام نساء

---

(٢٣) الإمام الشافعي: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد في غزة بفلسطين وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ، وقبره معروف بها.كان ذكيًا مفرطًا في الذكاء، أفتى وهو ابن عشرين سنة. له تصانيف كثيرة من أشهرها "الأم" في الفقه سبعة مجلدات. (الأعلام جـ٦ ص٢٦).

أما الحوض الشافعي: فهو الحوض الذي يمكن الوضوء من مياهه. ويقام في فناء الجامع لتجديد الوضوء أو غمس الرأس والأعضاء به. ويشترط أن تكون مياهه متجددة ونظيفة وطاهرة.

القاهرة يقف عالي مبهوراً؛ فهن يتمتعن بجاذبية، وحسبه ما سمع؛ فهن من الناحية الأنثوية رائعات، ويصرح أنه في هذا الجانب لا يتحدث عن تجربة بل بما سمعه. ويلاحظ تفشي الأمراض بين المصريين وبخاصة مرض العيون. ولكن مما يلفت نظره أن كلاً منهم في حاله؛ ولا يهتمون بمن دخل أو بمن خرج، ويكثرون السلام، ويتمتعون بسرعة تكوين الصداقات.

ويركز عالي في حديثه على خصائص النسوة المصريات ومميزاتهن، وأنهن لا يعددن الطعام في المنازل بل يبتعنه من الأسواق ويأكلن في الأسواق، وأن النسوة لا يتصرفن تجاه أزواجهن بشكل أنثوي ومنزلي؛ فلهنّ ألبسة مختلفة تختلف عن الأتراك والعرب واليهود. وإن دل مظهر الشعب - حين زيارته الأخيرة - على فقره ولم ير ما كان يراه سابقًا من طنطنة وثياب فاخرة. أما الأطفال والصبية فيسيرون عرايا ولا يلبسون إلاّ ما يستر عوراتهم فقط.

ثم يفسح عالي المجال للحديث عن الأعياد المختلفة لدى الشعب المصري، ويحكي عن كل عيد واحتفال بشكل مُسهب. فقد تحدث عن الأفراح واحتفال المصريين بفيضان النيل، وخروج محمل الحج واستقبال العائدين من الحج.

وتحدث عن "ليلة المحتسب" [٢٤]؛ أي ليلة رؤية هلال رمضان والاستعداد لاستقبال شهر الصيام.

أما أهم السلبيات التي لفتت نظره فهي زيارة السيدات للقبور وما يقمن به من عادات سيئة وصراخ وعويل ساعة الدفن، والرذائل التي ترتكب من قبل الجند والعساكر، وما يحدث من المهنيين في المقاهي والحمامات.

---

(٢٤) ليلة المحتسب : ليلة رؤية شهر رمضان، وكانت تُقام فيها احتفالات عظيمة يُشارك فيها كل أرباب المهن، وتحدث عنها أولياچلبي بإسهاب في حينه. (انظر: ليلة المحتسب في رحلة أولياچلبي إلى مصر القاهرة أم الدنيا) .

كما يسهب عالى فى الحديث عن القواد والأمراء والقضاة الذين يحكمون مصر، ويخصص للحديث عن هذا الجزء الثانى من الكتاب. ويُرْجِع الفقر والفاقة والمساوئ إلى سوء الإدارة. وأن أحوال مصر كانت ممتازة عندما كان يحكمها حكام وولاة جيدون وخيِّرون وقضاة عُدول؛ فقد كانوا جميعًا أصحاب نظام وانتظام وعدل، وكان بعضهم يتصف بالمروءة والسخاء. وقد أوقفوا أنفسهم على خدمة الشعب، يتصفون بالصدق والاستقامة، وأنه رأى ولاة فى مصر زاد دخليهم السنوى عن خمسمائة ألف فلورى(٢٥) أو ستمائة. ولكن كان فيمن بينهم أيضًا الخائن أحمد باشا الذى كان يقف خلف الاستقلال...!

ومنهم كرد باشا النَّهم والمسرف، ولكن عند وفاة الخادم على باشا لم يجدوا خلفه سوى أربع وستين قطعة ذهبية فقط.

يشمل التذييل على خلاصة ما لفت نظر عالى مصطفى باشا فى مصر خلال زيارته الأولى، وقد لفت نظره ثلاث خصائص، بركة مصر وخيراتها ونظام الجند وانتظامهم وجمال الأخلاق. وكانت العلاقة التى تربط بين الأتراك الذين يعيشون فى مصر والمحليين جيدة. ولكن خلال الزيارة الثانية التى جاءت بعدما يقرب من ثلاثين سنة رأى أن كل شىء قد تغيـرٍ؛ ضاع الخير والجمال الذى كان سائدًا، وفقدت مصر جمالها، وحلت محلها مصر التى تتألم النفسُ من أجلها. وعندما يحاول تحليل ذلك يجد أن السبب فى هذا الخلل راجع إلى الذين يتولون الخدمة فى مصر وعدم نضجهم الإدارى. وتعيين الذين يتولون الخدمة من الخارج وليسوا من المحليين.

---

(٢٥) فلورى Flurin . Flori . filori: عملة أوروبية سادت لفترات طويلة فى الدولة العثمانية، كانت تقيَّم بالذهب. ضُربت أول الأمر فى فلورنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولقيت رواجًا كبيرًا فى كل أنحاء الدولة العثمانية إلى جانب الدول الأوروبية. كانت عبارة عن درهم واحد قيمته أربعون آقچ (بيضة) ووزنها قيراط واحد. استخدمت فى الدولة العثمانية منذ عهد محمد الفاتح (٨٥٥ – ٨٨٦ هـ = ١٤٥١ – ١٤٨١م) وكان قيمة الدرهم منها ٤٧ قرشًا و ٣٠ بارة، عرفته البلاد العربية وبخاصة فى موسم الحج. (انظر عثمانلى تاريخى، وأ.د الصفصافى القطورى: تأصيل مسميات السكة، والرحلة الحجازية صـ ٣٥ هامش ٤).

أما النقطة الثانية التي لفتت نظره فهي اختيار الولاة والإداريين من بين هؤلاء الذين لا أولاد ولا ذرية لهم حتى تعاد ثرواتهم بعد الموت أو العزل إلى الدولة... ويتساءل عالي وهل كان هذا يحدث في زمن السلاطين العظام...؟

كما يذكر عالي أن كثيرا ممن تولوا إدارة مصر كانوا من الجهلاء الذين لا علم لهم، وأن البعض منهم كان من المختلسين الذين لم يكن يحرص أي واحد منهم على تسجيل الدخل بالكيفية الصحيحة والصادقة. أمثال سرخوش حسن باشا . ويوضح عالي أن ما صوره القاضي زكريا زادة يحيى[٢٦] يمكن أن يضيف إلى ما ذكره الكثير من المعلومات.

كما يُذَكِّر عالي مصطفى باشا بثقل الضرائب التي كانت تُفرض على الشعب؛ فهناك ضرائب الدولة، ونقود قهوة الوالي، و"طُلْبَة" والكشاف[٢٧] بوصفهم إداريين محليين، عدا طلباتهم المجحفة التي كانوا يطلبونها لتغطية إسرافهم. وقد أدى هذا إلى أن ترك الناس أراضيهم وتركوا زراعاتهم، واستولى بعض المرابين على أراضي البعض الآخر. ومحاولات جمع ضرائب الدولة عن سنوات قادمة

---

(٢٦) يحيى أفندي بن القاضي زكريا، تولى مشيخة الإسلام ثلاث مرات منذ عهد السلطان عثمان الثاني حتى عهد مراد الرابع، وكان من شعراء القرن الحادي عشر. توفي والده وهو في مشيخة الإسلام عام ١٠٠٠ للهجرة. وهو نجل زكريا أفندي الأنقروي، ولد في دار السعادة. تلقى علوم عصره، ثم سلك طريق القضاء. صار مفتيًا لحلب والشام وأدرنة وقاضيًا على إستانبول عام ١٠١٢هـ، ثم أصبح قاضي عسكر الروميلي والأناضول. عُيِّن في منصب الفتوى وظل بها سنة وخمسة أشهر. عزل في عهد مراد الرابع لخلاف بينه وبين الصدر الأعظم كمانكش علي باشا. عاد إلى مقام الفتوى عام ١٠٣٤هـ وظل به هذه المرة حتى استشهاد أخي زادة حسين أفندي. عُيِّن مفتي الأنام وظل في هذا المنصب عشر سنوات، وبعد أن أصبح موجودًا مع السلطان حين ضم روان وبغداد توفي عام ١٠٥٣هـ وتم دفنه مع والده. له أشعار رائعة، وقد بنى مدرسة أمام منزله. (انظر: قاموس الأعلام، ش سامي، مجلد ٦ ص ٤٧٩٢).

(٢٧) الكشاف والكشوفية (مصطلح مالي) الكشوفية نوع من النقود التي كانت تذهب من مصر إلى الدولة العثمانية، وترد في الوثائق تحت اسم "مالي كشوفية". وبعد التنظيمات الخيرية ١٨٣٩م كان يُطلق عليها أموال الكاشف. وهو الموظف الذي كان يُعيَّن على بعض من نواحي مصر. ويدفع مبلغًا من المال مُقابل الحصول على تلك الوظيفة. والمبالغ التي كانت ترفع كانت تدخل ضمن خزينة "خرج السلطان". (انظر: پاقالين ص٢ ص٢٥١).

مقدمًا... ويختم عالى كلامه فى هذا الجزء بأن هذا السياق والمسار إذا ما استمر فلسوف يؤدى فى القريب العاجل إلى انهيار الدولة وتفرقها، بل ستصبح مصر غير عاجزة عن دفع ضرائبها فقط، بل غير قادرة على إطعام جندها، وتعجز عن الدفاع ضد الأعداء الذين يتربصون بها.

وسوف نوجز الحديث عن الأوضاع التاريخية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر، من خلال هذه المخطوطة التى نعدها رحلة مهمة.

الناحية التاريخية والإدارية:

لقد أوجز عالى پاشا فى مخطوطه عن تاريخ مصر أثناء العصر الإسلامى، وإن كان الجزء الأكثر أهمية هو ذلك الذى يحوى ٢٧ واليا قد حكموا مصر خلال مدة ٨٢ سنة من فتح العثمانيين للمدينة.

وكان لديه العديد من الانتقادات لتلك الحكومة، ويرى عالى أن الولاة فى مصر كانوا خاضعين للحكام العثمانيين، وإن كانت هناك استثناءات قليلة لبعض الذين تجرى فى عروقهم الطبيعة الفرعونية التى أرجعها لشربهم من ماء النيل.

كما أوضح شغف الشعب المصرى وابتهاجه بالمكائد والوشايات المضادة للحكام وكبار الموظفين، وتفرسهم إزاء ما يُصيبهم من مصائب أو حين عزلهم.

وقد تَبين عالى پاشا نظام الإدارة والوظائف المتعددة الموجودة فى تلك الفترة وبعض الطبقات المسيطرة منهم، ولاحظ سيطرة (الغلمان) على الولاية وحماية الحكام لهم، وكيف أن الأحوال تتدهور فى مصر بسببهم... هذا غير أن هذه الطبقة قد كثرت فى المدينة وارتقى الكثيرون منهم مراكز راقية ومربحة، وكانت تُدفع لهم أجور مرتفعة جدًا.

أما عن الحكام فقد اشتهر الكثير منهم بإدارتهم الجيدة واهتمامهم بالعدل، وهناك أيضًا من لحقت بهم صفات مشينة. كذلك أورد عالى انهيار دور الدولة

العثمانية فى مصر، وخصص العديد من الفقرات التى تحدث فيهـا عـن الجنـود والتشكيلات العسكرية المختلفة.

الناحية الاقتصادية:

إن عالى قد لاحظ فى زيارته الأولى ازدهار المدينة ووفرة المواد الغذائيـة، ولكن بعد وقت قصير أصبحت طبقات الشعب تُعانى أمور المعيشة وقلة الرزق... واستغرب المؤلف ذلك، وقد استشهد فى عدة مواضع بالأحاديث والآيات من القرآن الكريم التى تبين أن مصر هى إحدى كنوز الله فى الكون، وأنهـا مـصدر الـنعم، وحرص على إظهار هذه النعم. وتحـدث عـن خـصوبة أرض مـصر وكثـرة محاصيلها، وخاصة المحاصيل التى لا تنمو فى تركيا وغير معروفة بها...

ولاحظ المؤلف كثرة الأعياد، وتساءل كثيرًا كيف أن كثرة الأعياد لا تؤثر فـى اقتصاد البلد... وتعرض أيضًا فى نقاط عدة لحياة الفقراء وكيف يعيـشون فـى زهـد وتقشف. إلا أننا نلاحظ رغم وجود هذه الطبقة الفقيرة فإن هناك طبقة التجار الأغنيـاء القادرين على امتلاك الجاريات الحبشيات.

وكما بين أن هناك بعض الرجال الذين اغتنوا عن طريـق الفـساد وجمـع الضرائب الزراعية، وكيف أن النقابة الخاصة بالإيراد الزراعى "الكـشاف" هـى وسيلة للتسلق الاجتماعى لبعض الجنود، والنكبة النكباء لدافعى الـضرائب... فقـد كثرت أنواع الضرائب، وهناك الجزية الملكية، هذا بخلاف جمع "الكاشف" لمبـالغ من إيرادات السنة التالية مقدمًا، وإجبار الفلاحين على بيع آلاتهم الزراعية... هـذا بخلاف السرقات التى تحدث.

وقد أرجع عالى المصائب الاقتصادية وعدم الأمن للإهمـال وعـدم أهليـة الحكومة... فالسلطات لا تكبح جماح زيادة أسعار المواد الغذائية، ولا تسيطر على حالات الفوضى التى تحدث فى الأسواق العدة... وبين لنا المؤلف الطرق الملتويـة

للسماسرة. وكذلك طريقة المعاملة فيما يختص بالسُّكَّر والملح، وطريقة التعبئة فى المحلات وكون السكر غاليا ونادرًا فى ذلك الوقت.

الناحية الاجتماعية:

ركز عالى فيها على العادات والتقاليد الخاصة بالشعب المصرى والأعراف المتبعة فى مناسباتهم. وقد قسم مشاهداته فى هذا الموضوع إلى ملاحظات إيجابية وملاحظات سلبية تستحق اللوم والتنويه. فذكر عدة من العادات والتقاليد المصاحبة لمناسبات مثل: موسم فيضان النيل، وكسوة الكعبة، وزيارة المقابر، ورحيل قوافل الحجاج وعودتهم، واحتفالات الزواج، وكذلك الاحتفال بالعيدين... ورغم إعجابه ببعض التقاليد فى الأعياد فإنه انتقد بشدة كثرتها وتنوعها. وقد أعجب بمستشفى قلاون المحصنة ضد الحريق، وإن كان قد ضجر بالحالة السيئة للمستشفى العقلى وقذارة الترع...

ولاحظ كثرة المقاهى فى مصر، وذكر طبيعة الناس الذين يجلسون فيها وتفاصيل عدة أخرى، وقارنها بمقاهى تركيا... وخصص عدة من الفقرات عن الجنود وملابسهم... أما النساء فقد أكثر الحديث عنهن، ونلاحظ أن نظرة الاستعلاء واضحة فى وصفه لهن، وإن جاء عن طريق المقارنة بين المصريات والتركيات فى طبيعتهن وشكلهن وأزيائهن...

وكذلك تحدث عن مظاهر الرجال وملابسهم فى مناسبات عدة، كما لاحظ تعدد بعض الأمراض المتفشية بين الناس؛ مثل أمراض العيون وغيرها.

وقد يُفيد هذا الإيجاز عند الانتقال إلى رحلة أوليا چلبى؛ حيث كان الفاصل الزمنى بين الرحلتين ما يقرب من مائة عام... فكيف كانت الأحوال التى رآها أوليا بعد هذه المدة ؟

أوليا چلبى، حياته والمناصب التى تولاها

أوليا چلبى: أوليا تشابى = شلبى

مَنْ هو هذا الأوليا؟ أين ظهر وترعرع؟ ما كنيته وما شهرته...؟ ما الظروف والدوافع التى وقفت خلف رحلته هذه... ؟ ما قيمة هذه الرحلة تاريخيًا وجغرافيًا... ؟ ومكانتها بين الرحلات الإسلامية...؟ تساؤلات كثيرة تتتابع إلى الذهن بمجرد سماع اسم هذا الرحَّالة التركى المسلم.

لقد أجمعت الآراء على أن ميلاد أوليا چلبي[٢٨] كان فى العاشر من محرم سنة ١٠٢٠ هـ الموافق ٢٥ من مارس سنة ١٦١١م فى أونقپانى بمدينة إستانبول، وأطلق عليه والده اسم "أوليا چلبي" تيمنًا باسم صديق حميم له، صار فيما بعد أستاذًا لأوليا.

---

(٢٨) أوليا چلبى Evliya çelebi: وينطق اسمه أوليا تخفيفًا لأوليا ولى. وأوليا. چلبى çelebi أو تشلبى أو باللهجة المصرية شلبى.
أصل المعنى جلب أى الله باللغات التركية والمغولية القديمة، ودخلت عليها (ى) ياء النسبة العربية فأصبحت چلبى أى المتوكل والمعتمد على الله فيكون المعنى للاسم الولى الربانى أو الولى المعتمد على الله. واختلفت الآراء حول مولده؛ فهناك من يجعله فى الخامس والعشرين من فبراير بدلاً من مارس وإن كانت معظم الآراء متفقة على أنه ولد فى العاشر من محرم عام ١٠٢٠هـ = الموافق ٢٥ مارس من عام ١٦١١م فى حى أو نقپانى بمدينة إستانبول..
إن والده هو الذى اختار له الاسم، فلربما يكون قد أراد له أن يكون صوفيًا، يسلك طريق الصوفية المؤدى إلى الله. (انظر: للمترجم. الرحلة الحجازية لأوليا چلبى. دار الآفاق العربية ١٩٩٩م).

أما أبوه فهو درويش محمد ظلى[٢٩] وجده دميرجى أوغلى قره أحمد ويُوصــل نسبه إلى الصوفى الشهير أحمد يسوى[٣٠]، أما أُمه فهى الأخرى ذات نسب وحـسب، تصل فى قرابتها إلى الصدر الأعظم ملك أحمد بـاشا [٣١]. أما الجد الرابع لأوليـا

---

(٢٩) درويش محمد ظلى: هناك آراء كثيرة بهذا الصدد؛ فهناك من يجعله محمد ظلى بن درويـش، ومن يجعله درويش محمد ظلى، ومن يجعله درويش محمد آغا ظلى. والد أولياچلبى، وقد عاصر هذا الوالد تسعةً من السلاطين العثمانيين اعتبارًا من السلطان سليمان القانونى، وتـوفى عـن تسعة عشر ومائة عامٍ. بدأ مُنادمًا ومُصاحبًا للسلطان القانونى، ولحسن صوته عمـل مؤذنـًا أساسيًا فى جامع سليم الثانى فى أدرنه؛ ولما كان فنانًا فقد أصبح رئيسًا لجواهرجية الـسراى اعتبارا من عصر سليم الثانى هذا، ثم تدرج وتدرب على العديد من الأعمال التـى طـوِّرت ونمَّت الفنون لديه. كانت له محلاته التى تعمل فى الجواهر، فخرجت من تحت يديه قطع فنية نادرة منها ساعة جميلة جعلها فى خاتم السلطان محمد الثالث، وباب الحَرَم المشغول خصيصًا لجامع السلطان أحمد. وأرسل به إلى مكة خصيصًا لصنع المزْراب الذهبى الذى صنعه بيديه لتصريف مياه الأمطار من فوق سطح الكعبة المشرفة؛ والدولاب الذى صنعه من قنطار مـن الفضة لــ "قدم النبى = أثر النبى" (صلى الله عليه وسلم) فى مصر، والبوابـات، والأبـواب الفنية الرائعة التى صنعها بنفسه وهى لجامع "استركون". وخرجت من تحت يديه عدة مـن البَسْمَلات والآيات وأبيات من الشعر كتبها بالخط العربى الجميل لكى تـزدان بهـا الأسـبلة والمحاريب والمنابر فى عدة من المدن والأحياء التى طاف بها أوليا فيما بعد، وذكر أنها مـن إبداعات والده (انظر: جعفر أرقليج ص ٦).

(٣٠) أحمد يسوى: صوفى كبير، صاحب مذهب صوفى يحمل اسمه، وقد ظهر فى التركستان فـى محيط صوفى، تتلمذ على يد العالم المشهور أرسلان بابا، ثم رحل إلى بخارى ليتلقى العلم على يد الشيخ يوسف الهمذانى. بعد أن أتم دراسته شكل طريقته الصوفية الخاصة به، ونالت رواجًـا كبيرا فى بلاد ما وراء النهر. توفى عن عمر ناهز الستين سنة (٥٦٢هـ = ١١٦٦م)، وقد جمـع آراءه الصوفية فى كتابه "ديوان حكمت" = ديوان الحكمة. (انظر د. عمرو عبدالباقى، الرحالـة التركى أولياچلبى، مجلة كلية اللغات والترجمة، العـدد التاسـع، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، وتـورك أدبياتنده ايلك متصوفلر، فؤاد كوبريلى، إستانبول سنة ١٩١٨).

(٣١) ملك أحمد بـاشا : من الأشخاص البارزين فى الدولة العثمانية. تقلب فى مناصب كثيـرة حتى صار صدرًا أعظم فى زمن السلطان محمد خان الرابع، فقد نال وظيفة سـلحدار سـنة ١٠٤٨هـ ثم عين واليًا على ديار بكر، فأرضروم. وبوصاية من "قيا" ابنة السلطان مراد الرابع شغل ولاية حلب لمدة تتراوح ما بين خمسة أعوام وستة، ثم عين واليًا علـى بغـداد سـنة ١٠٦٠ هـ وفى العام نفسه ولى الصدارة العظمى، ثم عزل بعد أن شغل هذا المنـصب لمـدة ثلاثة عشر شهرًا. وعين بعد ذلك واليًا على سلسترة. وكانت وفاتـه سـنة ١٠٧٣هـ (انظـر قاموس الأعلام لشمس الدين سامى جـ١ ص ٧٩٢ – ٧٩٣، وانظر مقال موزتمان المنـشور بدائرة المعارف الإسلامية التى سبقت الإشارة إليها وانظر سـياحتنامه جـ١ ص٢٧٨) ويعـد=

فيو "ميرعالم ياوز أرسنان"، وكان من كبار حراس محمد الفاتح، وله جامع باسمه، بالحي الذي ما زال يحمل اسمه في مدينة إستانبول حتى الآن. حي "ياووزسنان". وكانت للعائلة بيوت كثيرة في هذا الحي، وقد ولد أوليا في أحدها. وقد احترق وأعيد البناء في حياة أوليا چلبي... وقد تغيّر هذا الحي الآن إلى "أتاتورك بولوارى". ومن الطريف حسب قول أوليا نفسه أنه كانت للعائلة محلات دباغة تبلغ ثلاثة عشر محلاً يعمل بها أكثر من مائة عامل. ولم يبق منها إلى الآن إلا الاسم فقط، وما زال في الحي شارعٌ يُسمى "صاغريجي_صوقاغي" أي شارع الدبّاغ.

حفظ أوليا القرآن؛ فلُقِّب بـ "حافظ"، ولما كان ابن جواهرجي السراي، وتعلم في القسم الداخلي بالسراي فلُقِّب بـ "چلبي" أي الُمذهّب، والمتعلم، ومن هنا فإن الاسم الكامل له هو "الحافظ أوليا چلبي بن درويش محمد ظلي". وحسب العادات والأعراف التركية العثمانية القديمة كانت هناك مراسم واحتفالات تُقام لتسمية المولود؛ منها الأذان في الأذن اليمنى وفقًا للأعراف الإسلامية.

وقد قام بهذا – كما سبقت الإشارة – شيخ الإسلام صنع الله أفندي(٣٢)، وهو الذي أطلق عليه لقب أوليا، ثم انضم إلى الحفل كِيسوه دار محمد أفندي، وكان

=المستشرق موزتمان من الباحثين القلائل الذين أبرزوا ملك أحمد پاشا على أنه خال لأوليا چلبي، فقد اكتفت مصادر أخرى كثيرة بالقول إن أوليا يعد من أقارب ملك أحمد پاشا الصدر الأعظم. وأوليا چلبي نفسه هو أحد هذه المصادر (انظر سياحتنامه ج١ ص٢٤٥) وأحمد وفيق پاشا (انظر مقدمة المجلد الأول من سياحتنامه وقاموس الأعلام لشمس الدين سامي مادة أوليا چلبي. وانظر كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي المجلد الثاني ترجمة صلاح الدين هاشم ص ٦٤٨) ويقول الدكتور جاويد بايصون "والذي يمكن قوله فيما يتعلق بما بين أوليا وملك أحمد پاشا من صلة قرابة هو أن أم أولياچلبي ربما كانت أختا للصدر الأعظم ملك أحمد پاشا وربما كانت من أقاربه" أي أنه ليس هناك من الوثائق ما يعين الباحث على القطع بأنها كانت شقيقة هذا الصدر الأعظم (انظر ج بايصون، المصدر السابق، ص ٤٠١. و د. عمرو عبدالباقي، الرحّالة التركي أولياچلبي، مجلة كلية اللغات والترجمة ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م العدد التاسع ود. الصفصافي أحمد المرسي، المجلة نفسها، العدد العاشر).

(٣٢) شيخ الإسلام صنع الله أفندي: هو صنع الله أفندي بن الحاج مصطفى بن جعفر أفندي، ١٥٥٢ – ١٦٢١م وهو شيخ الإسلام الثالث والعشرون في الدولة العثمانية.

شخصًا محترمًا محبوبًا من الجميع، فاحتضن الوليد، وأذَّن في أذنه... وهو الــذي أطلق عليه اسم محمد، من هذا المنطلق يصبح "محمد أوليا چلبي بن درويش محمد ظلي". وأيًا كانت الأسماء والألقاب، فقد وَصلَنا الاسم الذي عُرِف به وهــو "أوليــا چلبي"، ووالده هو درويش محمد ظلي.

للوالد تأثير كبير، وذكريات كثيرة، ومآثر حميدة؛ كانت تمنح أوليا الفرصـــة لكي يتحدث عن والده في ثنايا كتاب الرحلات التي قام بها فيما بعد.

وكلمة "درويش" التي تسبق أو تلحق اسم "محمد ظلي" لابـــد أنـــه اكتـــسبها لمسلكه الديني، أو الصوفي الذي لازمه؛ وذلك أنه كان من المداومين على حضور جلسات الذكر في تَكِيَّة الشيخ عزيز محمود خُدائي[٣٣] الذي كان من مشاهير مشايخ عصره. وكان الوالد دائمًا ما يصطحب ولده، ويجعله يُشارك في المراسم والتراتيل والإنشاد الديني، ويجالس كبار المرشدين والمريدين في التكية. لقد وفدت بـــدايات العائلة من أواسط آسيا، وتوطنوا حي زره، وكان في كوتاهية[٣٤].

---

(٣٣) عزيز محمود خدائي: من كبار مشايخ الطريقة الخلوتية، اشتهر بكثير من أشعاره التي تدعو إلى الزهد، والعبادة الخالصة لوجه الله. بعد أن أتم علومه سلك سلك القضاء، فانتسب في بادئ الأمر إلى الطريقة المولوية، وأخذ العهد على شيخها، واستقر بطريقته في إســـكيدار، وعمـــل بالوعظ والإرشاد في أواخر أيامه. توفي ١٠٣٨هـ، وضريحه من المزارات المفتوحـــة حتـــى العصر العثماني. وكان يقع في جنوب شرقي ولايات خدا وندكار وبروسه، وهي من المـــدن التي لعبت دورًا مهمًا في الحضارة الإسلامية على مر العصور، بهـــا العديـــد مـــن الآثـــار الإسلامية التي ترجع إلى العصور السابقة من السلاجقة والعثمانيين. وفي العـــصر الحـــديث هناك قضاء يحمل نفس الاسم. وتقع بالقرب من ولاية أنقـــرة. وأراضـــيها تغطـــي حـــوالي ١٨٠٠٠ كم٢ من مساحة تركيا المعاصرة، تتمتع بطقس جميل وحركة سياحية نشطة. (انظر: شمس الدين سامي؛ قاموس الاعلام جـ ٥).

(٣٤) كوتاهية: تقع على بعد ١٢٠كم من بروسه وفي الجنوب الشرقي منها. ترتفع عن سطح البحر ٩٣٠ مترًا، منطقة جبلية، وهي مركز لواء. مدينة ثرية بالجوامع والمدارس والمكتبات العامة في زمن الرحالة، وكانت بها مدارس خاصة لغير المسلمين أيضًا. ومن أشهر جوامعها (أولو جامع) الجامع العظيم الذي بناه يلديريم بايزيد، وبها آثار تعود للعصر السلجوقي والكرمياني. مدينة واسعة على حافة وادي فسيح أراضيها خصبة، تزدان بالحدائق والبساتين والآثار المعمارية القديمة والحديثة والمعاصرة. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي، مجلد ٥ ص ٣٩١٠).

ثم شيدت العائلة بيوتًا لها في كل من "برغامة"[٣٥] و"بورصة"[٣٦]، وامتلكوا مزرعة في صاندیقلی[٣٧]. وعند فتح إستانبول، على الرغم من أن العائلة قد انتقلت إليها فإنها لم تقطع صلاتها بما هو خارج العاصمة، أما الأم، والتي لم يشأ أوليا ذكر اسمها - كعادة الشرقيين - فهي فتاة أباظية[٣٨] وفدت هي الأخرى من قفقاسيا (بلاد القوقاز)، وأضحت خالة أو ابنة خالة ملك أحمد باشا الذي صار وزيرًا، ثم صدرًا أعظم في الدولة العثمانية، وقد تزوجها "جواهرجي" القصر درويش محمد ظلي... ومن هنا كانت صلة أوليا چلبي بملك أحمد باشا وطيدة طوال حياته، وبسط أحمد باشا عليه عطفه وحمايته، كما حظي برعاية زوجته أسمهان قايا سلطان ابنة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م)، ولهذا كانوا ينسبون أوليا أحيانًا إلى ملك أحمد باشا . كما كانت تربطه قرابة مع دفتردار زاده محمد

---

(٣٥) **برغامة**: إحدى المدن الصغيرة القريبة من بورصة، ومناخها معتدل، وزراعية.

(٣٦) **بورصة أو بورسة أو بروسا**: إحدى أشهر المدن التركية المعاصرة في غربي تركيا الأسيوية ، فتحها أورخان بن عثمان واتخذها عاصمة للبلاد عام ١٣٢٦م. وكانت أول عاصمة للدولة العثمانية. ثم تلتها أدرنة ثم إستانبول عام ١٤٥٣م، ولها مكانة مرموقة في الحضارة التركية العثمانية؛ حيث شيدت بها عدة من المساجد والجوامع والمدارس والأضرحة العثمانية. وظلت إلى عهد بعيد من الفتح العثماني لمدينة إستانبول المدفن الأساسي للسلاطين العثمانيين. تشتهر بمياهها المعدنية وجبالها الشاهقة وبصناعة الحرير. (انظر للمترجم إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٣).

(٣٧) **صاندقلی = صاندیقلی**: مركز قضاء، سكانها جميعا كانوا وما زالوا من المسلمين، تابعة لولاية خداوندكار. بها العديد من الآثار الإسلامية التي ترجع إلى العصور السابقة. ويقع في شمالها الغربي سنجق كوتاهية. وفي جنوبها الشرقي قونية. وتحيط بها الجبال المرتفعة. وقد كانت كبيرة كثيرة المراعي في العصر العثماني، ينبع منها نهر مندريس الكبير. في جنوبها الغربي توجد بحيرة (أجي گول) وهي متعددة المحاصيل في العصر الحديث. تكثر بها المعادن الطبيعية وتربطها بعدة من المدن الطرق الحديدية، والطرق البرية الجيدة. بها مياه معدنية للاستشفاء (انظر شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، جـ ٤).

(٣٨) **أباظة = أبازة**: تقع في شمال قفقاسيا، وفي الشمال الغربي من بلاد الچركس؛ يمتاز مناخها بالاعتدال، وأرضها خصبة رغم أنها جبلية، ويعمل الأهالي فيها بالرعي، ومشهود لهم بالشجاعة. دخلت سيطرة الروس، لذلك اتفقوا مع الترك والتتار لمحاربتهم. (انظر. ش. سامي. الأعلام ص ٤٠٣).

پــاشا ، وإبشير پــاشا [٣٩]؛ فقد كان الأخير يخاطبه دائما قائلاً "أوليا الحــافظ" أو "الحافظ أوليا"، أما دفتر دار زاده فقد كان يصطحبه، ويجعله في معيته أينما ذهب.

إن أوليا، على الرغم من ولعه بالحديث عن أسرته، فإننا لا نجده يتحدث عن أمه إلا في مناسبتين اثنتين فقط، الأولى عندما رأى الحناء في قــدميها، وأعجــب بذلك، والأخرى عندما كان يراها وهي تُطرز بخيوط الذهب المكرميات والملاءات "الشراشف" وأغطية المخدات. وأنه ذكر أن من بين المحتويات التي تركتها جدتــه لأمه ما بين أربعين وخمسين دينارًا ذهبيًا من سكة السلطان مراد الثالث، ويتحــدث أحيانًا عن زوجة أبيه... وربما يكون مَرَدُّ ذلك إلى وفاة والدته وهــو فــي سِــنٍّ صغيرة.

أما الأخوة فلم يذكر أوليا چلبي سوى أخ عُــرف باســم محمــود، وبــضع أخوات، إحداهن تُسمى "إينال" وهي تكبره، وقد تزوجها "كُلْ إيلياس پــاشا الأقرع صولاق أوغلي" الذي أُعدم في سراى جنكَل كوى، خلال الثورة التي قام بهــا فــي عهد مراد الرابع... ويتضح من حكايات أوليا أنها لم تعش طويلاً بعد إعدام زوجها الذي كان قد اختطفها من كوتاهية، وأن إحداهن كانت في سراى قايا سلطان، ولــم يذكر شيئًا عن الأُخْرَيَات.

أما الأسرة من ناحية الأب ومن ناحية الأم فتنتمــي إليهــا مجموعــة مــن الشعراء؛ كالشاعر موللا فيراقي، وقول أوغلي محمــد چلبــي، وإبــراهيم چلبــي الكرمياني الذي كان يقرض الشعر متخلصا بــ "شريفي"، وعلمدار موللا محمد بن

---

(٣٩) دفتردار زاده محمد پــاشا ، وإبشير پــاشا : كانا من موظفي السراى السلطاني ومن المقربين من والد أولياچلبي درويش محمد ظلّي عُين محمد پــاشا واليا على أرضروم، وقد خرج معه أوليا چلبي مصاحبا له في الأناضول ، وقد مكنه ذلك من زيارة مدنها والكتابة عنها. وقد تولى إبشير پاشا الصدارة في عهد محمد خان الرابع ١٠٦٤هـ لمدة شهرين فقط. صار واليًا على الشام عام ١٠٥٦هـ، ثم ولي ولاية طرابزون وسيواس وعاد إلى ولاية حلب. تزوج من عائشة سلطان وأصبح صهرًا للسلطان، وتحت إصرار من الإنكشارية تم إعدامه. اتصف بالظلم والمراءاة وإن كان صوفي المشرب. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي).

يعقوب. كما لا يمل أوليا الحديث عن عظماء العائلة، ومدافنها التى تحتوى على الكثيرين من المشاهير فى معظم مدافن كوتاهية، وبورصة، وشتى أحياء مدينة إستانبول[٤٠].

طفولة أوليا وتعليمه:

مما سبق نلمح فى حياة الرحَّالة أوليا چلبى الجو المترف الذى تربى فيه وعاش طفولته المبكرة. ولقد مكنته مناصب الأقارب، ووجود والده فى السراى، من تعليم راقٍ ومتميز.

درس أوليا چلبى فى المدرسة الابتدائية، وكان طالبًا فى مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندى فى الحى نفسه الذى ولد فيه، وظل يتعلم لمدة سبع سنوات على يد المعلم أخفش أفندى. وكان يداوم على حفظ القرآن الكريم حتى أتقنه على يد معلمه وشيخه أوليا محمد أفندى، وحسب قوله هو فقد ظل فى كتاب سعدى زاده إحدى عشرة سنة للدراسة والتعليم.

كما درس التجويد، والقراءات، وصمم على التفرغ للعلم. بينما كان يتعلم على يد أبيه فنّ الخط، وفنونًا أخرى كصقل الأحجار الكريمة والكتابة عليها[٤١].

كانت لأوليا اهتمامات بالموسيقى والإنشاد ونراه فى سنة (١٠٤٥هـ-١٦٢٥م) حافظًا، ومرتلاً فى جامع الآياصوفيا... واجتذب اهتمام السلطان مراد، والحاضرين فى احتفال ليلة القدر، وقدَّره وطلب أن يكون من مصاحبيه [٤٢].

---

(٤٠) ص ٤٠١ . M. Cavid Baysun

(٤١) ص ٧ .Evliya Çelebi Hayati, Sanat, Eserleri

(٤٢) أوليا چلبى، سياحتنامه سى؛ جـ ١ ص ٢٤٤.

ويروى أوليا چلبى هذه الواقعة المهمة فى حياته على النحو الآتى:

كانت ليلة القدر من شهر رمضان لعام ١٠٤٥هـ = الموافق ١٦٤٦م، وكما يحدث فى كل عام كان عدة آلاف من الحضور فى جامع الآياصوفيا... وفى تلك الأثناء، وبينما كان أستاذى محمد أفندى يختم القرآن الكريم، وبسبب رغبته وإصرار والدى درويش محمد أغا وبعد صلاة التراويح فى مقصورة المؤذنين الموجودة فى المسجد، وفى ليلة القدر تلك، بدأتُ فى ختم القرآن الكريم... وعند الانتهاء من سورة الأنعام خرج كل من قوزبكجى محمد آغا وسلحدار ملك أحمد آغا من المقصورة، وألبسانى تاج يوسف المقصَّب بالذهب، وسط هذه الجموع الغفيرة؛ وأمسكانى من يدى قائلين: "تفضل. إن صاحب السعادة السلطان يريدكم..." وأحضرانى إلى مقصورة السلطان(٤٣).

وأدرك السلطان مراد انفعال أوليا فسأله: "فى كم ساعة تستطيع ختم القرآن؟"... فرد أوليا: "مولاى السلطان، لو شئت فإننى أختمه فى سبع ساعات، ولكننى أختمه إن شاء الله فى ثمان ساعات دون إفراط أو تفريط". فأحسن السلطان عليه بحفنة من الذهب قائلاً: "إن شاء الله تكون مصاحبى"(٤٤).

وكان لابد أن يتعلم فى الأندرون(= القسم الداخلى بالسراى)(٤٥)، وهنا تابع تعلم اللغة العربية والفارسية، وفنون الخط العربى، إلى جانب ذلك كان مُغْرمًا بقراءة التاريخ والابتهالات الدينية. ولهذا حفظ بعض المختارات من گلستان

---

(٤٣) Reşad Ekrem Koçu. S.10 – 77

(٤٤) Zuhuri Danişman: Evliya Çelebi Nasil Musahip Oldu? Tarih Mev. Sa: 24 aralik, 2 Ci;t 1951 ,s: 1168 – 1168+

(٤٥) الأندرون: مصطلح عثمانى كان يُطلق على مدارس السراى أو البلاط السلطانى، ويعنى الأجهزة التعليمية، أو المدارس والإدارات التى تعد الموظفين الذين سيعملون داخل القصر وفى البلاط الهمايونى، ويمد السلطان والقصر بكل ما يلزمه من العلماء والقواد والإداريين والحرفيين، وقد كانوا جميعًا يتخرجون فى هذه المدارس، وقد كان طلاب هذه المدارس يجمعون فى الحروب "الديوشيرمة" ويربون على تعاليم الإسلام وطاعة السلطان والعمل على خدمته، وكانوا من الشباب الأتراك والمسلمين النابهين، وقد كانت بحق مدارس نظامية داخلية محكمة التنظيم. (انظر: المصدر السابق، محمد زكى *باقلين)*.

سعدى[٤٦] ومثنوى جلال الدين الرومى[٤٧]، وكان يستشهد ببعضها فـــي كتاباتـــه، وخلال رحلاته التى دوّنها فى سياحتنامه.

دخل أوليا القصر، وسلموه إلى رئيس آغوات السراى، واختاروا له غرفـــة بالقرب من الجناح السلطانى، وألبسوه ملابس لائقـــة، وعلمـــوه كيفيـــة التحـــرك والتصرف فى حضرة السلطان... ورويدًا رويدًا بدأ فى حضور مجالس الـــسلطان. وحسب رواية أوليا نفسه فقد كان يُجيد الشيء الكثير من فنـــون القـــول والـــشعر العربى والفارسى والسريانى واليونانى، وفنون الغناء الشعبى التركى، والموســـيقى والذكر والأدب، وكان يحفظ الكثير من الشعر من بحر الطويـــل، ومـــن القـــصائد وترجيع بند، وتركيب بند[٤٨]، والمرثية، والعيدية...[٤٩].

---

(٤٦) **گلستان سعدى**: سعدى؛ هو الشيخ مصلح الدين الشيرازى، مـــن أعـــاظم شـــعراء إيـــران وحكمائها المتصوفة. ولد فى أواخر القرن السادس الهجرى وفى عصر ابن زنكـــى بمدينـــة شيراز. ونسب لهذا الحاكم فاشتهر بسعدى، عاش ١٠٣ سنة، بعد سن الطفولة قضى ٣٠ عامًا فى التعليم، و٣٠ عامًا فى العسكرية والسياحة، و٣٠ فى الزهد والعبادة، كتب كتابه المـــشهور گلستان سعدى أى "حديقة سعدى" وهو فى سن ٦٧ من عمره، نالت كتبه "بوستان" و"گلستان" شهرة واسعة فى عالم الأدب، أثر فى كل مَنْ أتى بعده من شعراء الفرس والترك. وانتـــشرت أشعاره فى هذه المناطق الشاسعة. وكان يحفظها كل مَنْ يشتغل بالفكر والأدب. (انظر: شـــمس الدين سامى، قاموس الأعلام جـ ٤).

(٤٧) **مولانا جلال الدين الرومى**: (١٢٠٧ – ١٢٧٣م) من أكبر شعراء التـــصوف فـــى العـــالم الإسلامى، عالم، وفيلسوف ومؤسس الطريقة المولوية. ولد فى منطقة بلخ بخراســـان. كـــان والده سلطان العلماء بهاء الـــدين. ووالدتـــه مؤمنـــة خـــاتون مـــن عائلـــة الإمبراطوريـــة الخارزمشاهية، ترك بلخ متوجهًا إلى مكة سنة ١٢١٢م ثم انتقل عـــن طريـــق الـــشام إلـــى الأناضول، وعندما وصل إلى قونية عاصمة الدولة السلجوقية كان على عرشـــها الـــسلطان علاء الدين كيقباد، فاستقبله بحفاوة بالغة سنة ١٢٢٨م. وله كتب عدة فـــى التـــصوف ولكـــن أشهرها قاطبة هو كتاب المثنوى؛ وقد ترجم إلى العربية من قبل الصديق العزيـــز المرحـــوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى يوسف شتا. وله "ديوان كبير" الـــديوان الكبيـــر. و"مجـــالس سبعة" المجالس السبعة. وكلها تدور حول التصوف والعرفان ومـــا يتعلـــق بهمـــا مـــن آداب ومراسم. وله مكتوبات، وهى رسائل فى الوعظ والإرشاد. (انظر: أ.د. الصفـــصافى أحمـــد المرسى، إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضـــارة. القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٤٤ هامش).

(٤٨) **ترجيع بند وتركيب بند**: من فنون الشعر الفارسى والتركى، وقد حرص الشعراء الفـــرس والترك على أن يُدلى كل منهم بدلوه فيهما.

(٤٩) Zuhuri Danişman.s 116 - 118

ويصف أوليا نفسه وهو في مرحلة السراى، بأنه كان في حوالى العشرين من عمره، وكان رشيدًا نجيبًا، على علم بمجالس الأدب وحلقات الذكر والعلم، وأنه وهو في حضرة السلطان، كان حلو اللسان طليقه... منادمًا خفيف الظل. هذا وغيره مما جعله ينال رضاء السلطان ورعايته، وشرف صحبته(٥٠).

قضى أوليا في السراى أربعة أعوام، تعلم فيها الكثير من العلوم والفنون، وتعرف على الكثير من رجالات عصره بعد أن أمضى سبع سنوات أو ثمان في المدرسة(٥١) Sipah، إلا أن علامات التبرم والسأم بدت عليه؛ فطلب الإذن من السلطان ليلتحق بقوات السپاهية(٥٢) فوافق له، وخدم فيها براتب قدره أربعون أقچه(٥٣) قبل أن يخوض السلطان مراد(٥٤) حرب بغداد، إلا أن أوليالم يستمر طويلاً في السلك العسكرى، ولم يشغل رُتَبًا عالية في هذا المجال.

---

(٥٠) المرجع السابق، ص ١١٧٠.

(٥١) المدرسة: اصطلاح تعليمي كان يُطلق على "دار الفنون" أو "دار العلوم"، وأول من أنشأ مدرسة على هذا الطراز في العهد العثماني هو أورخان غازى، ثم نص محمد الفاتح في قانونه على امتيازات تقدم للقضاة والمدرسين. وكانت مدرسة إزنيك وبورصة وأدرنة من أهم المدارس التي أنشأها العثمانيون في عهودهم الأولى. وبعد أن فتح محمد الفاتح إستانبول أنشأ جامعته "مدرسته" الشهيرة في إستانبول، والتي سميت بمدرسة "صحن ثمان"، وكان للطلاب فيها أماكن للإقامة جنبًا إلى جنب المدرسين. وكانت تدرس فيها العلوم النقلية والعقلية معًا.
وزاد عدد المدارس "الجامعات" في عهد القانوني وأنشئت "دار الشفا" أي كلية للطب، وإلى جانبها "دار الحديث" وكلاهما بجوار الجامعة المشهورة (السليمانية)، ولم تحدث الثنائية في التعليم في الدولة العثمانية إلا تحت الضغوط الأوروبية بعد عهد التنظيمات، فأصبح هنالك ما يسمى بالتعليم المدرسي والتعليم الحديث. (انظر: M. Z Pakalin, O.t. Deyimleri ve Terimleri Isb. 1971).

(٥٢) السپاهية هو الاسم الذى أُطلق على الفرسان الخيّالة الذين كانوا يشتركون في الحروب العثمانية، مع حاملى السلاح الذين يُجبرون على تأمين الاحتياجات من الحيوانات في زمن الحرب، مقابل الأراضى التي يأخذون عشورها ورسومها، المسماة بـ "التيمار" في التشكيلات العسكرية العثمانية. وكانوا يقومون بأعمال الهجوم والحراسة في مواجهة العدو، وقد استحدث نظام السپاهية منذ زمن السلطان أورخان. (انظر: پالقين، ص٣، ص ٢٣٠).

(٥٣) آقچه Akçe كلمة تركية تدل على سكة فضّية صغيرة، وكانت تعدُّ من أكثر العملات العثمانية تداولاً. تغيرت قيمتها من فترة لأخرى تبعًا لتغير الظروف الاقتصادية للدولة العثمانية، وكانت الكيسة منها تحتوى على خمسمائة قرش. عُرِّبت بكلمة بيضة وأبيض... فكان يُقال خمسة أبيض... وقطعة بيضة.

(٥٤) السلطان مراد: المقصود هو السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول، ووالدته هي "ماهپيكر سلطان". ولد في ٢٧/٦/١٦١٢م، وتربى في دائرة والده سلطان في سراى طوب

وقد شغف بالسياحة والرحلات وهو لم يزل شابًا، وذلك بعد أن وقع تحت تـأثير ما كان يسمعه من قصص وروايات عن البلدان البعيدة عن والده، ومن رجالات الفكـر والعسكرية الذين كانوا يجتمعون في منـازلهم في كثير من المناسـبات، ودفعـه هـذا الشغف أن يطوف - أولاً - بإستانبول، ويدرسها شبرًا شـبرًا، ويتعـرف علـى كـل معالمها ومآثرها ويعيش لياليها ويتمتع بملاهيها وملاعبها.

وطبقًا للمنعنات التركية، يربط أوليا چلبى شغفه وبدأه للـسياحة والـرحلات برؤيا؛ فقد كانت هذه الرؤيا فى ليلة عاشوراء سـنة١٠٤٠هـ (١٦٣٠م) وحـسب روايته هو أنه في هذه الليلة المباركة رأى النبى صلى الله عليه وسلم، وتحت تأثير هذا الموقف يتلعثم، وبدلاً من طلب الشفاعة يطلب السياحة؛ حيث قال "السياحة يـا رسول الله" بدلاً من أن يقول "الشفاعة يا رسول الله"[٥٥]. وما إن رأى سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) منه ذلك حتى طمأنه بالشفاعة والسياحة معًا.

يذهب أوليا چلبى إلى مشايخه وأساتذته ويقص عليهم رؤياه. ويطلب مـنهم تفسير هذه الرؤيا. فذهب إلى الشيخ المولوى عبدالله دهده فى حـى قاسـم پـاشا فيطلب منه أن يفسر له هذه الرؤيا، فيوصيه الشيخ قـائلاً "ابـدأ بتحريـر تـاريخ إستانبولنا العزيزة" فيُشمر عن ساعده، ويتحفنـا بالمجلـد الأول مـن سـياحتنامه سنة١٠٤٠هـ (١٦٣٠م) وفى سنة ١٠٥٠هـ (١٦٤٠م) ما بين أبريل ومـايو يرحـل إلى بورصة مع صديق له يسمى "أوقچى زاده أحمد"، وبعد عودته من هذه الرحلة التى لم يستأذن والده فيها ينصحه والده أن يسجل ملاحظاته أولاً بأول فى كتـاب

قاپى. ظهر فى أشد فترات الدولة العثمانية اضطرابًا، وتولى السلطنة وهو فى سن صغيرة؛ فأعطى ذلك الفرصة لأمه ولقادة الإنكشارية أن تتدخل فى أمور الحكم. نجح فى القضاء على الكثير من ثورات الإنكشارية، وحقق بعض الانتصارات للدولة. فتح بغداد عام ١٦٣٩م بعد أن كان قد حاصرها عام ١٦٣٠م، وعقد بعض معاهدات الصلح مع حكام البلقان. كان مُحبًا للأدباء، وإن أعدم الشاعر نفعى سنة ١٦٣٧م. تولى السلطة فى ١٦٢٣/٩/١٠م وتوفى ليلة ٩/٨ فبراير ١٦٤١م. اهتم بالحرمين الشريفين وتأمين القوافل.

(٥٥) أوليا چلبى سياحتنامه سى، جـ١. المقدمة.

للرحلات[٥٦] ويأذن له بالترحال، فيتوجه نحو "إزميت"[٥٧] في ١٠٥١ هـ حزيران (يونية) سنة ١٦٤١م وبعد أن يمضي شهرين في إستانبول يتوجه إلى طرابزون[٥٨] في صحبة كتنجي عمر پاشا [٥٩] الذي عُيِّن واليا عليها، وكانت رحلته الثالثة هذه عن طريق البحر الأسود في ١٠٥٠هـ = ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٦٤٠م، ومنها توجه إلى أنابا[٦٠] Anapa انضم إلى الجيش المتوجه للاستيلاء على قلعة آزاق [٦١] Azak، ولما انتهت هذه الحملة بالفشل

---

(٥٦) رحلة أوليا جلبي : قام أوليا جلبي بمجموعة كبيرة من الرحلات بدأها بمعالم العاصمة آنذاك إستانبول، ثم انتقل إلى الضواحي ثم أخذ يرافق الجيش العثماني في سفرياته وغزواته بوصفه كاتبا في الجيش . وقد مكنته هذه الوظيفة من زيارة عدد كبير من دول آسيا وأوروبا . واختتم رحلاته هذه بمرافقة قافلة الحج الشامية عام ١٠٨٠ هـ وبعد أن أدى فريضة الحج اتجه إلى مصر مع قافلة الحج المصرية.

جمع كل هذه الرحلات في عشرة مجلدات، كان المجلد التاسع والعاشر عن رحلته إلى الأراضي الحجازية عبورًا لبلاد الأناضول وسوريا حتى وصل إلى المدينة فمكة المكرمة ومنها إلى مصر أم الدنيا . وظل بها ما يقرب من ثمان سنوات، زار خلالها أيضًا كلاً من بلاد الفونج والسودان وبلاد الحبش ثم عاد إلى مصر لاستكمال وصف ما بها ، ولسوف نرى ما رآه أوليا جلبي بعد أن أدى فريضة الحج إلى أن عاد من بلاد الحبش.

(٥٧) إزميت: مدينة في تركيا على شاطئ بحر مرمرة، هي نيقوميديا القديمة. كانت مرفأ للأسطول العثماني على أيام وزراء عائلة كپرولو في القرن ١٧. تشتهر بالتبغ وصناعة الورق. (انظر المنجد)

(٥٨) طرابزون: مدينة تركية على البحر الأسود تشتهر بالمنتجات الغذائية والتبغ، أنشأها اليونان في القرن ٨ ق. م. ثم ضمها الرومان إلى إمبراطوريتهم في القرن الأول الميلادي. نقل إليها الكسيس الأول قاعدة الدولة البيزنطية بعد تأسيس الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية. استمرت فيها من عام ١٢٠٤م إلى ١٤٦١م. وكانت طرابزون العاصمة ومن مدنها سنوب. خضعت مرارًا للسلاجقة، وكانت لها علاقات تجارية واسعة مع جنوة. أصبحت مركزًا للآداب والفنون، فتحها العثمانيون عام ١٤٦١م (انظر المنجد).

(٥٩) كتنجي عمر پاشا: عُيِّن واليًا على طرابزون. وقد صحبه أولياچلبي حين توجه إليها. وكتب عنها وعن البحر الأسود والمدن الواقعة عليه خلال رحلته الثالثة.

(٦٠) أنابا: إحدى المدن التي زارها أولياچلبي حين رافق الجيش المتجه لمحاربة الروس واسترداد مدينة أزاق عام ١٦٤١م.

(٦١) آزاق = أزوف: تقع في الطرف الجنوبي من روسيا، تتبع شمال بحر زاق، تابعة لمدينة روستوف، كانت تابعة لبلاد القازاق. كانت ذات أهمية كبيرة في وقت ما. احتلها الجنويون في وقت ما. خضعت في القرن ١٤ الميلادي للقپچاق، كما تمت السيطرة عليها من قبل تيمور لنگ ٧٩٥هـ. وتم فتحها من قبل محمد الثاني الملقب بالفاتح عام ٨٧٦هـ. سيطر عليها پترو

توجه نحو (بهادگيراى خان)[٦٢] بالقرم[٦٣] لقضاء الشتاء. وقد أمضى شتاء هذه السنة فى (باغچه سراى)[٦٤] Bahçesaray. ثم عاد إلى إستانبول بعد أن شارك فى استرداد قلعة الأزاق. ومكث أربع سنوات فى إستانبول. وفى سنة ١٠٥٥هـ = ١٦٤٥م شارك فى فتح "خانيا"[٦٥] Hanya مع يوسف پاشا[٦٦] الذى كان يقود حملة گريت[٦٧] Girit ثم عاد إلى إستانبول. وفى العام التالى مباشرة خرج إلى

الأول لمدة ما ولكن تم استردادها. ولكنها تركت لروسيا وفقًا لاتفاقية بين الروس والعثمانيين فى سنة ١١٨٨هـ (انظر: قاموس الأعلام ش. سامى. مجلد ١ ص ١٧ / ١٧٦).

(٦٢) **بهادرگيراى خان = بهادر گراى:** من خانات بلاد القرم. هو نجل سلامت گراى. تم عزله فى زمن السلطان مراد الرابع ١٠٤٦هـ بسبب حروبه ضد العثمانيين. اتفق مع غريمه وعاد إلى بلاد القرم. إلا أن عساكره تشتتت. وعندما دخلت قلعة أزاق تحت إدارة القازاق فى بداية تولى السلطان إبراهيم عام ١٠٥٢هـ بعث بأسطول كبير بقيادة سياوش پاشا. فانتصر سياوش وتم عزل بهادرگراى). توفى فى نفس السنة وتولى مكانه أخوه الأصغر محمد گراى. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامى. جلد ٢ صـ ١٤١٣).

(٦٣) **بلاد القرم:** تقع جنوب روسيا. شبه جزيرة تقع فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق، طولها حوالى ٣٠ كم واتساعها ٩ كم. مرتبطة بروسيا بشريط برى. أهاليها من التاتار المسلمين. لغتهم تاتارية تنتمى إلى أسرة اللغات الألتائية. قريبة من التركية. خضعت للسلطة العثمانية منذ عام ٨٨٠ هـ وكانت تعد من الممالك العثمانية الممتازة.استقلت خانية گراى بحكمها منذ عهد منگلى گراى... وكان آخر خان يتولى إداراتها هو نجب گراى حيث استولت عليها روسيا خلال توسعاتها، واعترفت الدولة العثمانية بهذا الوضع منذ المعاهدة التى تمت مع روسيا عام ١٧٧٤م. هاجر عدد كبير من سكانها إلى الممالك العثمانية. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٥ ص ٣٦، ٥٣)

(٦٤) **باغچه سراى:** واحدة من أكبر ولايات شبه جزيرة القرم، تقع على بعد٣٠ كم من شمال سيواستبول. معظم سكانها من التاتار المسلمين. بها قلة من الأرمن والروس واليهود. كانت عاصمة خانية القريم القدماء ومازال سرايهم باقيًا حتى الآن. بها مؤسسات إسلامية كثيرة كالمدارس والجوامع والحمامات... إلخ. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٢ ١٣٢٤)

(٦٥) **خانيا = كانيا:** ميناء فى جزيرة كريت خضع للحكم العثمانى.

(٦٦) **يوسف پاشا:** كان قبطانًا بحريًا فى زمن السلطان إبراهيم خان. وتولى قيادة الأسطول عام ١٠٥٤ – ١٠٥٥هـ وهو الذى توجه لفتح ميناء كانيا وجزيرة كريت عام ١٠٥٥هـ (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى جلد ٦ ص ٤٨١٦)

(٦٧) **حملة گريت:** جزيرة يونانية فى البحر المتوسط اشتهرت قديمًا بمدينتها التى انتشرت على سواحل المتوسط الشرقية. من مدنها كانيا، كاندى أو هيراكليون. دخلت تحت النفوذ العثمانى عندما فتحها يوسف پاشا عام ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥م.

الأناضول بوصفه مؤذنًا ومُصاحبًا للدفتردار "زاده محمد پاشا" الذى عين أميرًا للأمراء على أرضروم[٦٨]. وقد مكنته هذه الرحلة من التجوال والتطواف بكل مدن الأناضول وبقاعها، ثم عاد إلى أرضروم، والتحق بالحملة التى قادها الدفتردار زاده ضد أمير الشوشيك[٦٩] Şuşik، فتمكن بذلك من مشاهدة بعض مناطق آذربيجان[٧٠] مثل گورجستان[٧١] Gurcistan، ثم كُلِّف أوليا چلبى ببعض المهام، وحمل بعض الرسائل إلى "خان روان"[٧٢] Revan فتمكن من الطواف، ومشاهدة

---

(٦٨) أرضروم: Erzurum: مدينة فى شرق تركيا. مركز صناعى وتجارى. كانت تُسمى فى العهد البيزنطى بـ "ثيودوسيوبوليس" فتحها حبيب بن مسلمة ٦٥٥هـ، واحتلها السلاجقة فى القرن ١١م وأطلقوا عليها اسم أرْضروم أى أرض الروم. عقد فيها مصطفى كمال أول مؤتمر قومى عام ١٩١٩م خلال حرب الاستقلال.

(٦٩) الشوشيك = شوشة: مدينة مهمة مرتبطة بخانية قراباغ، تبعد حوالى ١٤٠ كم عن ولاية واليزاوتبول الروسية، تقع على ارتفاع ١١٠٠م على نهر "كور"، تتمتع بشوارع فسيحة واستحكامات متينة وبيوت جميلة، كان معظم سكانها من التاتار وأقلية من الأرمن. تشتهر بصناعة السجاد اليدوى والحرير الطبيعى. تبعت آذربيجان قبل الاحتلال الأرمنى.

(٧٠) آذربيجان: كانت بلدًا تشتهر بالبراكين الملتهبة دائمًا، تقع على بحر قزوين. ذات تاريخ حضارى طويل، ظهرت فيها عدة من الدويلات والخانيات دخلها الإسلام، وظهرت فيها دول إسلامية كبيرة كالصفويين وقبلهم خانيات كبيرة. وقعت فى محل النزاع بين الصفويين والعثمانيين من جهة وبين الإيرانيين والروس من جهة أخرى. ظهرت فيها أول دولة ديمقراطية فى المنطقة. أدخلتها روسيا القيصرية ثم السوفيتية فى دائرة نفوذها، استقلت عام ١٩٩١م. خضعت للحكم العثمانى خلال رحلة أولياچلبى.

(٧١) گورجستان = بلاد الگورج: منطقة شاسعة فى بلاد القفقاس، تقع جنوب سلسلة هذه الجبال، وهى تقع بين جبلى قارص و أريوان على القسم الأعلى من نهر "گور" يوصلها الجغرافيون والغربيون إلى حدود البحر الأسود، بينما هى أقرب إلى بحر الخزر. فى شمالها بلاد الچركس وشمالها الشرقى داغستان، وفى جنوبها الشرقى شيروان. أصل الجورجيين حول نهر "كور" توطنوا الحوض الأعلى لنهر گور، وقد اختلطوا بكل سكان وأهالى قفقاسيا. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٥ ص ٣٨٣٦).

(٧٢) خان روان Erivan: أكبر المقاطعات التى خضعت للروس فيما بين بلاد قفقاسيا. وهى مركز ولاية تحمل نفس الاسم، تقع على بعد ٢٣٠ كم من جنوب تفليس. تقع على نهر "زنگة" المتفرع من نهر أراس. بها جوامع شريفة وكنائس عامرة. وسوق واسعة وحدائق وبساتين،= =وبها مصنع للمدافع ومعسكرات جمَّة. تشتهر بغزل القطن ونسجه. تقوم بدور مهم فى التجارة بين الأناضول وروسيا. أغلب سكانها من الأرمن. تبعت الإدارة العثمانية عدة مرات. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٣ ص).

مناطق گموشخانه[٧٣] Gumuşhane وطورطوم[٧٤] Tortum. وبعد أن شارك في حملة گورجستان عاد إلى أرضروم وأمضى الشتاء بها، ثم عاد مع الدفتردار زاده محمد پاشا إلى إستانبول، وقد كلفه محمد پاشا بمهام كثيرة، ووساطات لجمع كلمة أمراء الأناضول للمشاركة في القضاء على عصيان (واردار على پاشا)[٧٥] الذي كان يهدد كيان الدولة آنذاك. ويحكي هو نفسه أنه بسبب العواصف الثلجية التي هبت خلال إحدى هذه الرحلات ضل طريقه؛ فوجد نفسه وسط الجلاليين أمثال حيدر أوغلي، وقاطرجي أوغلي وقد ساعدته هذه الصدف على التعرف عن قرب على ثورة الجلاليين[٧٦] والكتابة عنها هي وثورة (واردار على پاشا) وقد أعطى معلومات قيمة جدًا عن هاتين الثورتين.

---

(٧٣) گموشخانه Gümüşhane: مكان مرتفع يقع بين طرابزون وكلكيت، تشتهر بمناجم الفضة قديمًا، وبها مياه معدنية. على الرغم من أن هواءها بارد فإنها صحيّة لارتفاعها. أهاليها مهرة في الزراعة رغم قلة أراضيها. وهم يعيشون الآن على قطع الحجارة والعمل في المناجم. فواكهها شهيرة. وثروتها الحيوانية تمكنها من صناعة الجلود وتصديرها. بها عدة من المساجد والمدارس والجوامع والتكايا والكنائس القديمة. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي جلده ص ٣٨٩٠).

(٧٤) طورطوم = تورتوم Tortum: قضاء مرتبط بأرضروم، سميت باسم النهر الذي يجري فيها. تقع على الحدود مع روسيا، القسم الأعظم من سكانها من المسلمين، وأقلية من الأرمن. مناطقها مرتفعة إلا أن بها واديين خصيبين، تنتج الكثير من الفاكهة، وهي التي تمد أرض الروم بمختلف الفواكه والخضر. غاباتها كثيفة، وتشتهر أيضًا بالأخشاب التي تمد بها الولايات المجاورة وتنتقل حتى ولاية وان في جنوب شرقي تركيا. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي، جلد ٣ ص ١٦٨٥).

(٧٥) واردار على پاشا: كان من أمراء البحر في عصر السلطان محمد خان الرابع، كما كان كتخدا والده سلطانا، عند عزل الوالي حسين عيّن قبطانا للبحرية وبعد أن ظل بهذا المقام سنة عيّن قائدًا لجيش بلغراد. وهو الذي فتح قلعة (واردات). توفى عن عمر ناهز الخامسة والسبعين. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي جلد ٤ ص ٣١٨٩).

(٧٦) جلالي: مصطلح إداري عثماني يطلق على العاصي أو الخارج عن القانون أو من يعمل ضد السلطان، وقد كان هذا في البداية اسمًا لأحد العصاة الذين ظهروا بالقرب من طوقات، ورفع راية العصيان ضد السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٧هـ = ١٥١٢ – ١٥٢٠م) وادعى المهدية والتف حوله عدد كبير من قطاع الطرق وأتباع العصابات، وكان سبب قلاقل كبيرة= = للدولة تم القضاء عليها. ولكن ظل اسميم يطلق على كل العصاة الخارجين على الدولة (انظر: محمد زكى باقالين، المصدر السابق).

يعود رحّالتنا إلى إستانبول (١٠٥٨ هـ ١٦٤٨م). ولكنه يتوجه مع أمير أمراء الشام مرتضى پـــاشا [٧٧] إلى الشام فى ١٠٦٠ هـ (١٨ سبتمبر ١٦٤٨م) ويظل بهـــا حتى ١٠٥٨ هـ (١٤ تموز ١٦٥٠م)، وخلال هذه المدة التقى الشهابيان فـــى لبنـــان، مما أتاح له رؤية الكثير من بلدان سوريا وفلسطين ومناطقهما. وبعـــد أن يطـــوف بالكثير من مدن وسط شرق الأناضول (لجمع الأموال لسيواس) يعود إلى إســـتانبول، وتسير الأمور لصالح أوليا چلبى، فيُعيَّن خاله ملك أحمـــد پـــــاشا صـــدرًا أعظـــم، وبالتالى يصير أوليا چلبى أمين الجيش المتوجه لتأديب الجلاليين، ويعاصـــر ســـوء إدارة خاله ويرى عن قرب ما يدبر فى القصر من خطط وخدع، ومكائد. ويـــصاحب بعضًا منها وهو فى رفقة ملك أحمد پـــاشا ، وبعضًا منها وهو وحده. وقد كان يقاوم رغبة خاله هذا فى أن يدفع إلى السوق بنقود مزيفة للقضاء على الأزمة الاقتصادية، وكيف أن هذه السياسة قد أدت إلى عواقب وخيمة، وإلى ثورة الحرفيين.

ولما عُزل الصدر الأعظم وعُين أميرًا للأمراء علـــى أوزى Ozi أُتيحـــت الفرصة لأوليا چلبى ليقوم بأول رحلة له فى بلاد الروميلى[٧٨]، واســـتمرت هـــذه الرحلة من ١٠٦٢هـ (٢٣ أغسطس سنة ١٦٥١م) إلى نهايـــة ١٦٠٤هـ (حزيـــران ١٦٥٣م)، وكانت هذه الرحلة فى بعض منها فى رفقة ملك أحمد پــــاشا ، وفـــى بعض منها وحده، وكان يقوم بحمل الرسائل المهمـــة بـــين روســـچوق Rusçuk إستانبول، وذهب إلى سلسترا، وطاف بقرى بلاد الأوز ومراكزها، وكتب عما رآه من غرائب وعجائب فى قرى "بابا داغى" وزار صوفيا، ولما تم عـــزل الپــــاشا عاد معه إلى إستانبول، وقضى بها فترة أنسته فيها ملاهيهـــا وملاعبهـــا متاعـــب الرحلات الطوال التى قام بها.

---

(٧٧) مرتضى باشا: عُيّن أمير الأمراء على الشام فى عام ١٠٦٠هـ = ١٦٤٨ م وصاحبه الرحّالة أولياچلبى فى هذه الرحلة وظل بها حتى عام ١٦٥٠م والتقى الشهابيان فى لبنان.

(٧٨) أوزى والروميلى = روم إيلى وروسچوق وسلسترا وصوفيا: كلها مدن تابعة لإقليم (الروم إيلى) أى بلاد الروم التى أصبحت تابعة للدولة العثمانية بعد عبورها إلى الجانب الأوروبى. ومعظمها الآن داخل بلاد بلغاريا الحالية.

عُيِّن ملك أحمد بـــاشا واليًا على وان [٧٩]، فتوجه في معيته قريبـــه أوليـــا جلبي. وظل الرَّحالة في جنوب الأناضول من ١٠٦٦هـ (٩ مـــارس ١٦٥٥م) إلـــى ١٠٦٧هـ (٢٤ حزيران سنة ١٦٥٦م)، وأُتيحت له الفرص لزيارة كل مدن جنـــوب الأناضول وإيران.

وقد اختلط باليزيديين [٨٠]، وجمع عنهم الكثير من الوثائق والمعلومات. ولما تـــم نقل ملك أحمد بـــاشا واليًا للمرة الثانية على بلاد الأوزتوجه أوليا جلبي معه إلـــى سلسترا ودخل في خدمة محمد گيراى الرابع [٨١] خان القرم، وشاهد هزيمة القـــازاق [٨٢] الذين هاجموا بلاد الأوز، وكان هو الذي حمل أنباء هذه الهزيمة إلى إستانبول. وبعد عودتـــه إلى مقر الولاية كان يكلفه خاله بنقل الرسائل بينه وبين زوجته قايا ســـلطان Kaya Sultan.

---

(٧٩) وان: منطقة تقع في جنوب شرقي تركيا. وكانت من الولايات العثمانية الآسيوية، شمالها أرضروم وغربها بتليس. وفي الجنوب الغربي دياربكر، وجنوبها كانت ولاية الموصل. أراضيها مرتفعة، بها بحيرة وان الشهيرة. وبها جبل الجودي الذي يزيد ارتفاعه عن أربعة آلاف متر. وهو الجبل الذي رست عليه سفينة سيدنا نوح، ويتبعها "حكارى" وما يزيد عن مائة ناحية وما يقرب من ألفي قرية. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي. جلد ٦ ص ٤٦٧٢ – ٤٦٧٦).

(٨٠) اليزيديون: طائفة من المسلمين اسمًا ولكنهم بعيدون عن الإسلام، يعيشون في كردستان ولبنان وفلسطين. وعقيدتهم يشوبها الكثير من الأمور الدخيلة على الإسلام. يشركون الشيطان مع الله سبحانه وتعالى جل شأنه في خلق العالم، ويعتقدون أن طرد الشيطان قد زاد من قدرته. ويعبدون إبليس، ويزيد هو الذي أوجد لهم هذه الطريقة. قلة قليلة تعيش مشتتة، وتدل معتقداتهم على بعدهم عن العلم والدين. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي جلد ٦ ص ٤٧٩٨).

(٨١) محمد گيراى الرابع: واحد من خانات القرم الذين ينتسبون إلى سلالة جنگيزخان. مؤسس هذه الخانية هو ملك حاجي گراى خان، وقد توارثوا الحكم في بلاد القرم. ويُعدُّ محمد گراى الرابع الخان الرابع عشر في بلاد القرم، وعاصمة بلادهم "قازان" وهي من العواصم الإسلامية المهمة في شبه جزيرة القرم.

(٨٢) القازاق: سكان جمهورية قزاخستان أو القزاق، وهي في جنوب الاتحاد السوفيتي السابق. تقع بين بحر قزوين وبحيرة أرال وتركستان الصينية، كانت عاصمتها ألماأتا. استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق ونالت استقلالها في التسعينيات من القرن العشرين. غنية بالمواد الخام كالفحم والحديد والنحاس والرصاص، وتضم مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة.

سافر إلى البوسنة[٨٣] مع ملك أحمد پـاشا الذى عين واليًا عليها ولكنه بقى فى إستانبول شهرًا للعلاج بعد أن جرحه واحد من رجال كوپريلى محمد پـاشا [٨٤] ١٠٧٢هـ (١٥٧٥ – ١٦٦١م) وهو فى الأناضول؛ فطاف بكل سواحل الأناضول، ثم توجه إلى أدرنه[٨٥] مرورًا بكوپريلى محمد پـاشا (١٠٧٢ هـ = ١٥٧٥ – ١٦٦١م) فى "چناق قلعة"[٨٦]، وبعدها انضم إلى الحملة التى قادها "كوسه على پـاشا" على "وراد"[٨٧] Varad واعتبارًا من ١٠٧١هـ (٢٦ مايو سنة ١٦٦٠م) طاف ببلاد الأرناءوط، والأويغار (البلغار، وبوهيما المجر)[٨٨]، وظل بها حتى (١٠٧٣هـ

---

(٨٣) البوسنة: البوسنة والهرسك أو البوشناق من جمهوريات يوغوسلافيا السابقة، عاصمتها سراييفو، وسكانها من الصرب. ظلوا تحت الحكم العثمانى حتى معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م، حيث انتقلوا إلى حكم النمسا ثم اتحدت مع دولة يوغسلافيا عام ١٩١٨م. شهدت أحداثًا عنيفة عقب سقوط الاتحاد السوفيتى القديم وتفتتت جمهورية يوغسلافيا. وما الأحداث التى شهدتها إلا شاهد على العنصرية السائدة فى تلك المناطق.

(٨٤) كوپرلى محمد پـاشا : مؤسس عائلة كوپرلى التى تولت الصدارة العظمى فى الدولة العثمانية لفترات طويلة، ولعبت دورًا بارزًا فى تاريخها. تتابعت فيه وفى ذريته الصدارة. وقد تولى على بلاد الأرناءوط (ألبانيا) سنة ١٠٧٠هـ = ١٦٦٠م.

(٨٥) أدرنه Andrinople: مدينة تركية أوروبية، كانت من مدن الإمبراطورية البيزنطية. فتحها العثمانيون ١٣٦١م واتخذوها عاصمة لدولتهم بعد بورصة وقبل فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م. بها آثار إسلامية غاية فى الروعة مثل جامع السلطان سليم والجوامع ذوات الثلاث شرفات.

(٨٦) چناق قلعة = قلعة سلطانية: مضيق الدردنيل المتحكم فى مدخل بحر مرمرة إلى البحر الأبيض المتوسط. ويُطلق عليها "القلعة السلطانية" وهى على الساحل الأناضولى لهذا المضيق، وهى سنجق مستقل. بها جوامع ومساجد شريفة، تتحكم فى المدخل إلى كل من البحر المتوسط وبحر مرمرة. منطقة غنية بالمعادن وبالزراعات، ولعبت دورًا بطوليًا خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) وقد أقيمت الاستحكامات بها منذ عصر محمد الفاتح ثم قام كوپريلى محمد پـاشا عام ١٠٧٠هـ بإقامة استحكامات جديدة، مما جعلها تتحكم فى مدخل البحر المتوسط. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٥ صـ٣٦٨٥).

(٨٧) على پاشا وراد: قاد الحملة المتجهة إلى وارادين الواقعة بين بلاد المجر والنمسا وكرواتيا. وهناك أيضًا وارادين الكبرى، تبعُد عن المجر بحوالى ٣١٠كم. تقع على نهر كوروس وبها عدة من المصانع، وقد خضعت للحكم العثمانى ضمن بلاد الأرناءوط.

(٨٨) بلاد الأرناءوط وبلاد البلغار وبلاد المجر وبلاد بلجراد: هذه كلها مناطق تقع فى شبه جزيرة البلقان، وقد خضعت جميعها للنفوذ العثمانى فى فترات مختلفة، وظلت خاضعة

=مارس ١٦٦٢م) وبعد أن أمضى الشتاء في بلجراد عاد إلى إستانبول ثم خرج منها إلى النمسا مع الجيش المتجه إليها تحت قيادة فاضل أحمد پـــاشا (١٠٤٥ – ١٠٨٧هـ = ١٦٣٥- ١٦٧٦م)[٨٩]، ويقص علينا أوليا چلبي الغرائب والعجائب التي شاهدها ولمسها بنفسه في بلاد النمسا وهولندا والسويد؛ حيث زارها بعد بوهميا، وهذه الحكايات على الرغم مما فيها من مبالغات فإنها في غاية الأهمية لدراسة تاريخ تلك البلاد، وعاداتها، وتقاليدها، ومعالمها خلال هذه العصور، وتصل مبالغات الرحالة أوليا إلى أن يقص علينا أنه التقى في فينا بالإمبراطور ليوبولد الأول Leopold 1 ومونتوسوكي Montecucolli، وأنه زار بلاد الإسبان، والدنمارك، وأنه وصل حتى دونكاركية بجواز السفر الذي تسلمه من الإمبراطور، وعلى الرغم من أن هذا الكلام في حاجة إلى تحقيق إلاً أنه يعطي الكثير من تاريخ تلك البلاد وعاداتها وتقاليدها، وعلى مدى سعة اطلاع الرحالة أوليا چلبي. وبعد أن عاد من هذه البلاد كلف بمهام التفتيش على قلاع المجر، ولذلك واتته الفرصة لكي يطوف بكل قراها وقصباتها، ويحكي لنا في كتابه "سياحتنامه" أنه وصل إلى بلاد القرم، بعد أن تجول في أردل[٩٠] Erdel، والبغدان، والأفلاق وينتقل من القرم إلى قفقاسيا عن طريق البر. ويسجل أنه انضم إلى قافلة أحد السفراء الروس من ترك Terek حتى الأفلاق، وعلم بها أن الجيش العثماني قد تحرك نحو كريت. فتوجه چلبي نحو (باغچه

العثمانيين إلى أن ظهرت فكرة القوميات بتحريض من روسيا القيصرية فروسيا البلشفية؛ فاستقلت هذه المناطق عن الدولة العثمانية وإن ظل بها عدة من القبائل التركية ونغتها جنبًا إلى جنب الصرب ولغاتهم.

(٨٩) **فاضل أحمد پـــاشا** : من عائلة كوپرلي، اشتهر بحبه للعلم، وحمايته للعلماء، تولى منصب الصدارة بعد عدة من المناصب في الدولة العثمانية، وأجرى بها عدة من الإصـــلاحات. ولـــد سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٢٥م وتوفي سنة ١١٨٧هـ = ١٦٧٦م.

(٩٠) **أردل Erdel والبغدان Buğdan والأفلاق Eflak وترك Terek**: مناطق في شبه جزيرة البلقان وأواسط أسيا، وهـــي من المناطق التي زارها أولياچلبي وكتب عنها في رحلاته الأخرى. وكانت معظمها في المناطق الخاضعة للدولة العثمانية أو تلك التي على علاقات طيبة معها.

سراي)، وشارك عادل گراى[٩١] فى بعض حروبه، ثم عاد بطريق البر إلى إستانبول ومضى فى هذه الرحلة ما بين ١٠٧٤هـ (تموز سنة ١٦٦٣م) حتى ١٠٧٨هـ (١١ مايو سنة ١٦٦٧م). وبعد أن استراح بعض الوقت توجه إلى زيارة بعض مدن الروميلى "كسلانيك" "وأدرنه"، وساح بكل بلاد اليونان والمورة "وتساليا"[٩٢] وعاصر – بل شاهد – استيلاء العثمانيين على "قانديا"[٩٢] Kandiye، وشارك فى إخماد عصيان ماينا Mayna وبعد أن طاف بسواحل بحر الأدرياتيك مرورًا ببلاد الأرناءوط عاد إلى إستانبول. وكانت هذه الرحلة فيما بين ١٠٧٩هـ (٢٦ يناير ١٦٦٨م) إلى ١٠٨١هـ (٣١ أغسطس ١٦٧٠م).

رحلته إلى الحجـــاز:

أصاب أوليا چلبى – الذى زار الكثير من البلدان ورأى آلاف المدن– نـوعٌ من الحزن والكآبة لعدم قيامه بالحج وزيارة الأماكن المقدسة، فحزم أمـره وأعـد عدته للقيام بالرحلة الرابعة عشرة، والأخيرة فى حياته، ألا وهى رحلـة الحجـاز ومصر. فاستراح عدة أشهر وأعد غلمانه، ورافق قافلة الحج التركية، والتى كانـت تضم حجاج كل دول البلقان وإستانبول.

وشاهد ووصف لنا مراسم توديع القافلة وتسليم الجمل الذى يحمل المحمـل، وكيف أن السلطان بنفسه – وفى معيته الصدر الأعظم وشيخ الإسلام – قد حـضر هذه المراسم، وقد كانت فرقة الموسيقى السلطانية تعزف أمام قصر السلطان قبـل موعد قيام القافلة بزمن طويل، وكان معنى ذلك إيذانًا وإعلامًا للجميـع بـاقتراب موعد القافلة، فيقدم الأمراء والأثرياء وأهل الخير هداياهم لتكون فى عهدة أميـر القافلة، حيث يوصلها إلى سكان مكة والمدينة ومجاورى الحرمين الشريفين.

---

(٩١) **عادل گراى:** من حكام القرم. وگراى فى الأصل اسم قبيلة ثم تحولت إلى خانية فـى بـلاد القرم وكان أول من أُطلق عليه هذا الاسم هو ملك حاجى گراى. وعاصمة خانية القرم هـى قازان وكان عادل گراى هذا هو الحاكم السابع عشر فى سلسلة حكام خانية القرم.

(٩٢) **سلانيك وتساليا وقانديا وماينا:** كلها مناطق فى شبه جزيرة البلقان وحول بحر الأدرياتيك، وفى إقليم الروميلى بالنسبة للدولة العثمانية، وما زالت هذه المناطق فى بلاد المورة واليونان.

وفي وصف دقيق وممتع يصف لنا الكاتب رحلتـه؛ منـذ أن قامـت مـن إستانبول حتى انتهى من أداء شعائر الحج، ويقدم لنا شعور المسلم المؤمن فـى مواجهة الصعاب، وكيف أن القافلة كانت تتحمل مالا يطـاق؛ مـن بـرد وجـوع وعطش وهى تعبر الصحراء القاحلة[٩٣]. كان كل هذا من أجل الإيفاء بركن مـن أركان الإسلام. وكثيرًا ما كان يتحفنا ببعض من أشـعاره الجيَّاشـة وتـضرعاته وتوسلاته في الحرم النبوى وأمام أستار الكعبة الشريفة.

يقدم أوليا چلبى أوصاف الحرمين الشريفين وما فيهما مـن تُحَـف، وعـدد المآذن والأبواب والأعمدة والشبابيك، وأطوال كل منها، وتعريفًـا كـاملاً بـسكان البقيع من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم). كما يصف لنا – وصـفًا دقيقًا – كل ما كان يصادفه من قلاع وحصون ومساجد وتكايا، ويعرفنـا بأقطـاب العلم، وبأوصاف للأوضاع الاجتماعيـة والاقتـصادية والإداريـة، والتـشكيلات العسكرية والتقسيمات الإدارية للشام والحجاز.

لقد أتم أوليا چلبى طواف الوداع، وأتم فريضة الحج فى موسم سنة١٠٨١هـ= ١٦٧١م واستقر رأيه على مرافقة قافلة الحج المصرية عند عودتهـا لكـى يقـوم برحلته إلى مصر؛ فيلتقى بشريف مكة، ويتجه إلى جدة لمقابلة الـوالى العثمـانى ليستأذنه في الرحيل، ولم يفته أن يخبرنا بتجارة جدة، وبنوع الحجـاج وأجناسـهم والسفن وما يحمله الحجاج المصريون فى رحلة الذهاب والإياب من مكة والمدينـة وجدة التى كانت تجمع فى خاناتها تجارة الشرق والغرب.

وقد رافق أوليا قافلة الحج المصرية بعد أن شحن كتبه وهداياه، مع بعـض من عبيده وغلمانه، فى إحدى السفن المتجهة إلى الـسويس بحمولتهـا مـن الـبُن والدُّخان، وبضائع الهند والصين وجاوة، ورقيق الحبشة وإفريقيا. ويذهب الرحَّالـة إلى مصر عبر طريق العقبة وطور سيناء حتى يصل إلى السويس، ومنهـا إلـى

(٩٣) راجع فى ذلك: أوليا چلبى، الرحلة الحجازية، من ترجمتنا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.

القاهرة مرورًا ببلبيس والصالحية. ويسجل لنا أنه تردد بين القاهرة وبلبيس عدة مرات؛ لاستقبال عبدالرحمن باشا [٩٤] الذى عُيِّن واليًا على مصر فى (١٠٨٧هـ = ١٢ تموز سنة ١٦٧٦م).

وفى اعتقادى أن كتاب "سياحتنامه" لأوليا چلبى من أدق وأوفى ما كتب عن الحجاز ومصر فى القرن السابع عشر، فلواستبعدنا المبالغات فى تفسير بعض الظواهر لاعتبر هذا الكتاب سجلاً وافيًا لما كان فى الحجاز ومصر من آثار ومساجد وجوامع وتكايا وزوايا، ومستشفيات وبيمارستانات، وكنائس وخانات وقصور، وبرك وترع وقنوات، ومعسكرات وعائلات. وكذا مرجعًا لا يستهان به للوضع الاجتماعى والاقتصادى والعسكرى والإدارى لمصر، فى هذه الحقبة التاريخية الغامضة من تاريخ مصر؛ فقد طاف الرجل بكل مصر، حيث ذهب إلى دمياط عن طريق النيل ثم إلى الإسكندرية ورشيد، ووصف لنا كل مدن الدلتا ومراكزها وقراها، ثم رافق حامية متجهة إلى السودان فتعرف وعرَّف لنا كل مدن الوادى، حتى وصل إلى أعماق السودان والحبشة وبلاد الفونج، والتقى بملكها ووصف لنا ما كانت عليه هذه البلاد والقبائل من تخلف، وما كان يسودها من عادات وتقاليد وأعراف[٩٥].

بقى أوليا چلبى فى السودان والحبشة مدة طويلة، وعاد إلى مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر، وسجل كل ملاحظاته ومشاهداته، والتى كان يدعمها بالمراجع فى مجلده العاشر والأخير فى مجموعة رحلاته.

---

(٩٤) عبدالرحمن باشا: عُيِّن واليا على مصر فى عام ١٠٨٧هـ =١٦٧٦م. وكان أولياچلبى من الذين استقبلوه عند قدومه إلى القاهرة، وعُرف بـ "عبد الرحمن باشا كتخدا" ومازال هناك جامع يحمل اسمه فى القاهرة.

(٩٥) انظر: أوليا چلبى سياحتنامه سى، رحلة أوليا چلبى إلى مصر والسودان وبلاد الحبشة، جـ١٠ إستانبول ١٩٣٨، والترجمة التى بين أيدينا.

طريقة أوليا چلبى فى التأريخ:

كان أوليا چلبى يدون ملاحظاته ومشاهداته عن البلد أو المدينة التى يمر بها، ثم يرجع إلى كتب التاريخ والرحلات التى سبقته إليها وخاصة الثقاة منها، أمثال القزوينى(٩٦)، والمقريزى(٩٧)، والطبرى(٩٨)، والذهبى(٩٩)، وجلال زاده(١٠٠)، وصولاق زاده(١٠١)، والأطلس الصغير. ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين والسجلات وكتب المناقب، وسجلات الولايات ودفاترها وميزانياتها. وقد كان يستخدم أساليب عصره فى القياس، فما إن يمر بجامع أو قلعة حتى يحصى الأبواب

---

(٩٦) **القزوينى:** محمد بن عبد الرحمن، جلال الدين ٧٣٩هـ = ١٣٣٨م فقيه شافعى، أديب ويُعرف بالخطيب، من أحفاد أبى دلف العجلى. ولد بالموصل وتوفى بدمشق، قاضى القضاة فى مصر ودمشق حيث ولى الخطابة بها. له آثار باقية "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح فى المعانى والبيان". (انظر: المنجد).

(٩٧) **المقريزى:** (٧٦٦ ــ ٨٤٥ هـ = ١٣٦٥ــ١٤٤١م): أحمد بن على عبدالقادر، تقى الدين المقريزى مؤرخ الديار المصرية. ولد ونشأ ومات بالقاهرة وولى فيها القضاء والإمامة مرات، واتصل بالملك الظاهر برقوق، من مؤلفاته المواعظ والاعتبار والخطط والآثار. (الأعلام جـ١ ص ١٧٧).

(٩٨) **الطبرى:** محمد بن جرير، أبو جعفر. ت٣١٠ هـ (٩٢٣م). مؤرخ وموسوعى ومفسر ومقرئ ومحدث، ولد فى آمل (طبرستان) تنقل بين إيران والعراق وسوريا ومصر، وأقام أخيرًا فى بغداد حيث توفى. اختار لنفسه مذهبًا فى الفقه. له جامع البيان فى تأويل القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار واختلاف الفقهاء وأدب القضاة. (انظر المنجد).

(٩٩) **الذهبى:** محمد بن أحمد شمس الدين . ت ٧٤٨هـ (١٣٤٨م). مؤرخ، محدث من الأئمة، تركمانى الأصل. ولد وتوفى فى دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيرًا من البلدان. له مصنفات كثيرة منها: دول الإسلام، والمشتبه فى الأسماء والأنساب، وتاريخ الإسلام الكبير، وتذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال. (انظر المنجد).

(١٠٠) **جلال زاده:** مصطفى چلبى: نحو ١٤٩٠ – ١٥٦٧م. مؤرخ عثمانى، صحب الصدر الأعظم إبراهيم باشا فى سفره إلى مصر عام ١٥٢٤م والسلطان سليمان الأول فى حملته على فارس ١٥٣٥م وعلى المجر ١٥٦٦م، له طبقات الممالك ودرجات المسالك ومآثر سليم خان. (انظر: المنجد).

(١٠١) **صولاق زاده:** من مشاهير الخطاطين العثمانيين، نسخ من ابن عباس والبيضاوى والفخر الرازى. مازالت آثاره فى مكتبات إستانبول. (انظر: قاموس الأعلام ش. سامى جلد ص ٢٩٧٣).

والأدوار والمخازن، ويقيس بالخطوة والذراع كل ما يصادفه من آثار وأطلال. كما كان يعود إلى سجله أو ما رجع إليه من مراجع فى كتبه السابقة على حد قوله هو.

طبعات سياحتنامه:

اعتمدت النسخة رقم ٤٥٨٤٦٢ فى مكتبة برتو پاشا أساسًا فى طبع سياحتنامه، وقد أشرف نجيب عاصم وأحمد جودت على طبع المجلدات الخمسة الأولى سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م). وقام أمره قره جه صو[١٠٢] سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) بطبع المجلد السادس، وقام كليسلى رفعت بطبع المجلدين السابع والثامن سنة ١٩٢٨م.

أما المجلدان التاسع والعاشر فقد أشرف على طبعهما أحمد رفيق فيما بين سنتى ١٣٥٤ و١٣٥٧هـ (١٩٣٥ – ١٩٣٨م، كما طبعت مقتطفات ومختارات من رحلة أوليا چلبى فى إستانبول سنوات (١٣٥٦ هـ = ١٨٤٠م) و١٣٦١ هـ (١٨٤٥م) و١٣٧٩هـ (= ١٨٥٦م) والقاهرة سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م). واستطاع رشاد أكرم قوچى اختصاره وطبع خمسة مجلدات منه فقط، وقام مصطفى نهاد أوزون باختيار لوحات تتعلق بالحياة فى القرن السابع عشر من سياحتنامه لأوليا چلبى وطبع هذه اللوحات فى مجلدين. واستطاع المؤلف نفسه أن يجمع ما كانت الرقابة قد منعت طبعه فى حينه وشكل بذلك مجلدًا ثالثًا. وفى سنة (١٣٩٠ هـ = سنة ١٩٧٠م) قام ظهورى دانشمان بإعداد طبعة جديدة مختصرة تقع فى عشرة مجلدات أيضًا.

---

(١٠٢) برتو پاشا ونجيب عاصم وأحمد جودت وأمره قره جه صو وكليسلى رفعت وأحمد رفيق وأكرم قوچى ومصطفى نهاد أوزون وظهورى دانشمان: هؤلاء من المؤرخين والكتاب المحدثين الذين عاصروا الانقلاب الحروفى ١٩٢٨م، وأشرفوا على نقل كتاب أولياچلبى من الخط العربى العثمانى إلى الخط اللاتينى التركى الحديث وقد طبع المجلد التاسع والعاشر، والذى نحن بصدد ترجمته إلى الحروف الحديثة عام ١٩٣٨م، تحت إشراف أحمد رفيق فيما بين ١٣٥٤ و١٣٥٧هـ = ١٩٣٥ و١٩٣٨م.

وقد ترجمت مقتطفات ومختارات من سياحتنامه لأوليا جلبى إلى الألمانيـــة، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية، والمجرية، والرومانية، والبلغارية، والــصربية، واليونانية، والأرمنية، وغيرها من اللغات الغربية(١٠٣).

إن أوليا جلبى – الذى قضى سنوات طويلة يطوف، ويجــول، وهــو فــوق صهوة جواده – قد امتلك مهارة فائقة فى ركوب الخيل وسباقها، وكان يتمتــع – إلى جانب ذلك – بروح مرحة، فقد كان ميالاً إلى الفكاهة. وقد مكنته هذه الــسنوات وهذه الرحلات من اكتساب علوم ومعارف غزيرة، إلى جانب كونه خطاطًا ونقاشًــا وموسيقيًا وشاعرًا. وقد كتب لوحاتٍ فنية وأشعارًا دينية وعلقها فوق جدران الحــرم النبوى فى المدينة المنورة، خلال زيارته للمسجد النبــوى ســنة ١٠٨٢هـ (١٦٧١م)، وإذا كانت أشعاره التى أوردها فى كتابه سياحتنامه تتسم بشيء من الركاكة والبساطة فإن نثره يدل على أنه كان يمتلك ناصية اللغات الإسلامية الثلاث: (العربية والفارسية والتركية) وأن أسلوبه التركى كان من النوع السلس المتدفق، وكان يــستخدمه فــى الكتابة وكأنه يتحدث أو يقص على مستمعيه ما يشنف به آذانهم، وتطيب به نفوسهم، ويسعد به فؤادهم حتى ولو أدى ذلك إلى بعض الأخطاء اللغوية(١٠٤).

ولما كان حجم الكتاب كبيرًا؛ حيث يتجاوز النص التركى ألفًا ومائة وخمسين صفحة، ويصعب طبعه كله مع هذا المدخل ومع الجزء الخاص بمــصر، والــذى ألحقه بالمجلد التاسع والتعليقات والهوامش على ما ورد من أســماء ومــصطلحات عسكرية وإدارية وصوفية؛ فقد رأيت أن يخرج فى خمسة أجزاء كما سبق التنوية. وحتى تزداد الفائدة يمكن مراجعة الآثار والمراجع التالية:

١ – Cafer Erkiliç. Evliya Celbi. Ist. 1947.

٢ – Leman Nusret. Evliya Çelebinin Hayati üni, Kip, Tez, 173. Ist. 1939.

---

(١٠٣) Ayfar Güçlü. Evliya Çelebi Seyahatnamesi üni. Kip. Tez. Nu 1473. Ist. 1947. Cafer Erkiliç. Evlia Celbi. Ist. 1969.

(١٠٤) اتسمت كتابات أوليا جلبى ببعض الأخطاء اللغوية.

M. Çagatay Ulucay, Evliya Çelebi. Ist. 1957   ٣ –

Meşküre Eren, Evliya Çelebi Seyahatnamesi.   ٤ –

Birinci Cildinin kaynaklari üzerinde Bir Araştırma. Ist. 1960

Zuhuri Danişman. Evliya Çelebi Seyahatnamesi. Ist. 1970..   ٥ –

٦ – أوليا چلبى وكتابه سياحتنامه، أ. د. الصفصافى أحمد المرسى، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد العاشر ١٩٨٥ ص ٢١٧ – ٢٢٧.

٧ – أوليا چلبى، الرحلة الحجازية، ترجمها عن التركية وقدّم لها الأستاذ الدكتور الصفصافى أحمد المرسى القطورى، دار الآفاق العربية القاهرة ١٩٩٩م.

(المترجم)

° ° °

الفراغ من رحلة الحجاز والاتجاه نحو مصر

كان أوليا چلبى بعد أن أدّى فريضة الحج فى موسم ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢م قد التقى بأمير قافلة الحج المصرية فى حضور والى جدة. وقرر فى هذا اللقاء أن يتوجه إلى مصر برفقة القافلة المصرية عند العودة... فشحن كتبه ومستلزماته مع بعض من غلمانه فى السفن المتجهة إلى السويس ورافق هو القافلة براً... وبدأ يكتب عما شاهده فى طريقه من جدة حتى وصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة. وقد رأيت تسمية هذا القسم "الفراغ من رحلة الحجاز والاتجاه نحو مصر". وفيما يلى هذا القسم.

بعد أن أتم أوليا چلبى فريضة الحج وطواف الوداع اتجه بعدها إلى جدة، وزار مدفن أمّنا حواء فى ضواحى المدينة.

دخل أوليا چلبى بعد ذلك إلى مدينة جدة، ووصف لنا ما بها من المآثر وقلاعها القديمة – كما هو مسجل فى الرحلة الحجازية – ولما كانت أمتعته التى بعث بها من مكة قد وصلت، فقام بوضعها فى سفينة الريِّس فنجانجى[١٠٥]، ووضع معها عشرة من أجولة البُن فى فرقاطة القبطان حسن رئيس، وخمسة أجولة أخرى فى مركب النائب مع اثنين من الطواشية وواحد من مماليكه.

قام أوليا چلبى بتوديع أخيه فى الرضاعة ، وحاكم (أو والى) جدة بقلاجى محمد بك[١٠٦]، وعاد إلى مكة المكرمة مع ثلاثة من الغلمان.

---

(١٠٥) **الريِّس فنجانجى والقبطان حسن رئيس**: من ربابنة السفن التى كانت تعمل بين مينائى السويس وجدة خلال رحلة أولياچلبى إلى مصر عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢ م.

(١٠٦) **محمد بك**: كان واليا على جدة عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧٢ م، ويقول أولياچلبى إنه أخوه فى الرضاعة. أى أنه ولد أيضاً فى إستانبول. وتدرج فى سلك المناصب العثمانية. وكان له قصرٌ فى القاهرة رآه أوليا وتحدث عنه.

كان الحجيج مستعدين للاتجاه إلى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوى الشريف والسلام على حضرة رسول الله ﷺ، قام العبد الفقير أوليا چلبى بالاستئذان من حسين پاشا [١٠٧] لمرافقة حجاج مصر. فأحسن إليه بمائة فلورى وسبعة جمال، وسلمه خطابات إلى وزير مصر كتخدا[١٠٨] إبراهيم پاشا [١٠٩]، وقام بالتوصية اللازمة لقواد القافلة المصرية، ونال دعواته ووداعه، وتلت ذلك مغادرة مكة.

---

(١٠٧) حسين پاشا: كان واليًا على الشام وقائد حاميتها خلال موسم الحج الذى سافر فيه أوليا١٠٨١هـ = ١٦٧١ م، وجاء تعيينه عقب القلاقل التى عمت مكة فى الموسم السابق. ووضع تحت إمرته ثمانية آلاف جندى، كان قائدًا شديد المراس، تعامل بشدة مع البدو والأعراب مما أدى إلى هدوء موسم الحج، وعمل على تحسين العلاقة مع شريف مكة.

(١٠٨) الكتخدا *Kethüda*: مصطلح يطلق على المعتمد أو الوكيل الذى كان يرعى شئون الوزراء أو كبار رجال الدولة أو الأغنياء نيابة عنهم. معتمد وكيل، وفى النواحى الإدارية كان يعاون الصدر الأعظم أو الوزير أو الناظر المختص فى تسيير أمور الدولة. فى البداية كان من خواص الصدر الأعظم ورجاله، ثم أصبح من رجال الدولة وموظفيها وكان يطلق عليه كتخدابك، وفى عهد السلطان أحمد الثالث تولى نظارة الداخلية، وعاون الصدر الأعظم فى أمور الدولة.

ألغى هذا المنصب فى عهد السلطان محمود الثانى ١٢٤٤هـ = ١٨٢٨م. وأحل محله نظارة الملكية فى سنة ١٢٥١ هـ = ١٨٣٥م.

أما كتخدا المعسكرات فكان عنوانا أو رتبة تمنح لكبار ضباط الإنكشارية ، وكان لكل سلاح معتمد وهو ما يوازى فى العصر الحديث (قائد سلاح) . وكان يعاون آغا الإنكشارية فى الأمور العسكرية، ولما كانت تنشئته وتعليمه يتمان داخل المعسكرات ، ففى بعض الفترات التاريخية فاقت نفوذه آغا السلاح نفسه. يعمل له حساب من قبل كل قواد المعسكر الآخرين. وهو واحد من ديوان قائد علم قوات الإنكشارية. كما كان لقبًا يُطلق على من يقوم مقام الوالى أو الكاشف أو رجالات الدولة ، ويعنى الوكيل أو المعتمد أو مدير الأعمال. ثم أصبح لقبا إداريًا يُطلق على معاونى الصدر الأعظم الخصوصيين ثم أصبحوا من موظفى الدولة. وكان يُطلق على من يقدم خدمات جليلة للدولة "كتخدا بك"، وفى عهد السلطان أحمد الثالث أصبح معاونا للصدر الأعظم فى الأمور الداخلية ومن هنا أصبحت له كتبه وقلمه الخاص به.

أما عسكريًا فقد كان يُطلق على كبار ضباط الإنكشارية وكان يُعهد إليه بمعاونة آغا الإنكشارية ، زاد نفوذهم حتى غطى أحيانا على نفوذ آغا المعسكر.

وكان لحرس القصر كتخدا يسمى "كتخدا البوابين" يرأس حراس أبواب القصر السلطانى. ويقوم مقام الساعى فيما بين السلطان والصدر الأعظم . لقبه الأوروبيون بلقب مشير القصر، أو مدير القصر، أو ناظر القصر.

وكتخدا بوابى القصر الهمايونى: كان يُطلق على أمرى البوابين والحراس الذين يقومون بالخدمة على أبواب القصر السلطانى. وهذا اللقب مذكور فى دستور الفاتح ص ١١، وكان يقوم بالخدمة فى مجلس السلطان وديوانه. ويقوم مقام الساعى فى حمل المكاتبات المتبادلة بين السلطان والصدر الأعظم، وقد عبر عنه المؤرخون الأوربيون بـ "مشير القصر" أو "ناظر القصر" وكان يُكلف بمهام رسمية على مستوى الدولة العثمانية. (انظر محمد زكى باقلين)

(١٠٩) كتخدا إبراهيم پاشا: كان واليًا على مصر حين سافر أولياچلبى إليها بعد أداء فريضة الحج عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١م وكان برتبة وزير أى وال.

وفي اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ألف واثنتين وثمانين من الهجرة النبوية رافق أوليا چلبي الجنود الألفين العائدين إلى مصر. وفي مساء اليوم التالي - يعني مساء اليوم السابع والعشرين - تحركت قافلة الحج المصرية المتجهة إلى المدينة المنورة، وأخذ يلوح للأحبة الذين يودعونه، وقلبه يهفو إلى السلام على الحبيب المصطفى.

***

وسوف نترك الحديث من الآن فصاعدًا إلى أوليا چلبي نفسه لكي يحدثنا عن المنازل والمراحل التي مر بها.

الجزء الخاص بمصر فى نهاية المجلد التاسع

من رحلات أوليا چلبى التى بلغت عشرة مجلدات، والمتعلق بالأماكن التى كانت تابعة لمصر، كالعقبة وسيناء حتى الوصول إلى السويس

... وقرأت سورة التكاثر داخل مزارات المعلاً، وبعد ساعة وصلنا إلى:

زيارات وادى العمرة

و فى هذا المكان من السنة صلاة ركعتى الوداع. البعض لا يؤديهما، ولكن أديتهمــا، ودعوت للوالدين. وتابعنا المسير، وبعد ست ساعات وصلنا إلى:

منــزل قصبة وادى فاطمة

مكان يكثر فيه نخيل البلح والبطيخ، والنباتــات التــى تنمــو علــى الميــاه المتوافرة، إلى:

منــزل بئر عصفان

يكثر فيه ماء الحياة. وتابعنا المسير ناحية الغرب أيضًا داخل الصحراء لمدة اثنتى عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منــزل الكذيْده أو الجُدَيْدة

موقع فى الصحراء، يخلو من الماء.. وتركناه واتجهنا نحــو الــشمال فــى الصحراء لمدة سبع عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منــزل نبع رابعة

قُصيبة بها ماء عذب. وفيها رأينا هلال شهر المحرم لــسنة ثــلاث وثمــانين وألف. وقطعنا منها ثلاث عشرة ساعة فى الصحراء، حتى وصلنا إلى:

منــزل سبيل مُستَحْسَن

ليس به ماء. وسرنا أيضًا خمس عشرة ساعة فى الصحراء، حتى:

منــزل قصبة بدر حنين

هى قصبة معمورة، بها مياه عذبة.

مغامرة[١١٠]

شاءت حكمة الله أن يظل واحد من جمالنا فى مكانه، فنقلنا أحماله على جمل آخر. واستمر خدمنا فى السير مع الحجاج، وبقيت أنا وغلامان بجانب هذا الجمل وملاحظته، وظللنا هكذا حتى بدت تباشير الصباح. ونحن على هذا الحال ظهر فتى عربى بدوى يرتدى قميصًا وفى يده نَبُّوتٌ، فقال: "أش هذا جمل بطلان " وأنزل على الجمل ضربتين من نبوته فنهض الجمل المسكين من شدة الضربة وسار... فسعد الحقير، وكنت أُمنى النفس بالوصول إلى بدر حنين، ولم يكن لدينا أخبار عن ابتعاد الحجاج. فما كان من الجمل إلاّ أن أطلق بعبعته: "عوع" وسقط على الأرض.

وعلى الفور أنزل العربى عدة ضربات من نبوته على الجمل، ولكن بلا فائدة. فقال البدوى: "ولكن القاهرة ستكون قريبة، يا سلطانى هذا جمل لحم شحم مليح وسمين، جمل مليح..." لابد أنه سيقوم، فليس له وجود. ووقفنا بجوار الجمل، وعلى الفور نادى البدوى: يا صالح، ويا عبدالحق. وعلى الفور سمعنا صدى، وعلى الفور قَصَدَنا ثلاثة من الأعراب، فأدركت أنا المسكين أن اليوم فى يوم كربلاء. فوضعت يدى على السيف فورًا... وأولجت من كنانتى بضعة رماح فى عنق جزمتى، وكانت هناك بندقيتان ومسدسان على استعداد للعمل، وكلها معلقة فى خصرى. ونبهت على غلمانى أيضًا أن يكونوا على أهبة الاستعداد. وعلى الفور ظهر ثلاثة من الفلاحين وقد أمسكوا فى أيديهم بالنبابيت واتجهوا نحونا. فما كان منّا إلاّ أن أطلقنا صيحتين أيضًا، فتركنا الأعراب وفروا فورًا، واتجهوا نحو صدى الصوت الذى سمعوه، وكانت صيحة رجل أوزبكى. وصاح علينا قائلاً: هانحن أيها الأصدقاء الفرسان.

---

(١١٠) كان أوليا چلبى إذا ما رأى حدثًا أو شيئًا غريبًا أو حدث له حادثٌ يخرجه عن سياق الرحلة كان يُطلق عليه "مغامرة" أو "معجزة". وبعد أن يقصها يعود إلى سياق الرحلة.

وعلى الفور أطلق العبد الفقير العنان لجواده وانطلق نحوهم، وعند وصولى كان رجال المشاة قد تخلصوا من الأعراب وناوشوهم بسيوفهم، وأتى أحدهم إلينا، وصاح باللهجة الأوزبكية أن اتبعونى، فأطلقت أنا الفقير طلقتين، ومن بعدى مملوكاى أطلقا طلقتين ابتهاجًا، وحمدنا الله.

وقد أصابت رصاصة رستم واحدًا من البدو فسقط ميتًا، وكان واحد من الأوزبك قد جرح أثناء العراك فى رأسه إثر ضربة نبوت شديدة فسقط شهيدًا، وفر الأعرابيان الآخران. فقام الغلمان بجمع حزام ماله وبعض أثوابه، وانتظرنا حتى قُبيل الصباح، وقمنا بدفن المسكين فى الرمل. وعدنا إلى جوار الجمل، ورأينا ألاَّ فائدة تُرجى منه فتركناه. وانطلق الأوزبكى الآخر أمامنا، وما هى إلاَّ مسافة قليلة حتى صادفنا جمعٌ آخر من البدو، ودارت بيننا وبينهم معركة انتهت لصالحنا بفضل ما كان معنا من بنادق وطبنجات. وتوالت هذه الهجمات علينا خمس مرات فى الطريق، وحمدًا لله على أنه لم يقع مناً أى خطأ.

وأخيرًا وصلنا بدرحنين بسلامة، ولكن كانت قد حدثت ولولة داخل الجيش الإسلامى وهم يتصايحون: لقد تأخر أوليا چلبى بجمله فى الخلف. فأطلقت البنادق، وتساءل الجميع هل هناك شيداء... وحمدًا لله فقد وصلنا إلى قافلة الحجاج المسلمين. وتناقلت الألسنة معركتنا، وقد عاتبنى كثيرًا الكتخدا أحمد روم قائلاً: "ألا تخاف على روحك؟ أمن أجل جمل تتخلف عن الموكب؟" وأحسن على بجمل، وكان جملاً لا يساويه عشرة من جمال بلدة الشام. ومن بدرحنين سرنا ثلاث عشرة ساعة بين الوادى والتبّة وفى طريق صخرى حتى وصلنا إلى:

منـــزل قصبة الجُدَيِّدَة

بها ماء هو نبع الحياة. ومن هذا المكان اتجهنا شمالاً، وفى طريق صخرى أيضًا بين الوادى والتباب سرنا اثنتى عشرة ساعة ووصلنا إلى قبور الشهداء، ومن

هناك وفى طريق صخرى أيضا قطعنا تسع عشرة ساعة بين الوادى والتباب حتى وصلنا إلى باب على، وعبرناه إلى:

منـــزل قلعة المدينة المنورة

قد سبقت الكتابة عنها، ولكن بقينا يومين فى هذه الروضة. ولقد تمت الإقامة فى جامع الروضة المطهرة، بحيث لا يستطيع اللسان التعبير عنـــه. ولـــو أردت تفصيل القول عنه لطال الكلام، ولكن فى ليلة السابع من المحرم سنة ألف وثـــلاث وثمانين اجتمع العلماء والصلحاء، والأئمة والخطباء، والمشايخ والأعيان وأشـــراف المدينة فى الحرم الشريف للمدينـــة المنـــورة، وازدان داخـــل الجـــامع الـــشريف والمنارات المباركة باثنى عشر قنديلاً،، وأُشعل فى آلاف الأماكن الشمع الكافورى، وأُضيئت بالفوانيس كل جوانب الجنان، وكان مقام حضرة صاحب الرســـالة يـــشع نورًا فوق نور، وقد جلس جميع الحضور من شتى الطوائف والأجناس والأصناف فى أماكنهم، وأُحضرت منصّة فى وسط الجامع. وعرج عليه منـــشد المولـــد[111]،

(١١١) منشد المولد: عرف الأدب التركى نوعًا من الشعر الدينى، عرف بالمولد، وهى مدائح نبوية. وأهم هذه الأعمال "وسيلة النجاة" لـــ "سليمان چلبى" (٨٢٥هـ = ١٤٢٢م)، الذى نجح فى التعبير عن عواطفه الدينية بطريقة صادقة، أقنع بها الطبقات المثقفة جنبًا إلى جنب الطبقات الشعبية.
وقد استخدم المولد للدلالة على تلك القصائد التى تنشد بمناسبة المولد النبوى الشريف، وما يصاحب الذكرى من ابتهالات دينية. وقد اختلفت الآراء الدينية حول الاحتفال بالمولد، فمن يقول إنها بدعة، ومن قائل إن الإنشاد وقراءة القصائد الدينية ليس بدعة، وإنما البدعة هو ما يصاحب ذلك من طبل وطرق الدفوف وما شابه ذلك، ومن قائل إنها بدعة حسنة وأن العرب هم أول من احتفلوا بمولد النبى صلى الله عليه وسلم عند زيارة المنـــزل الذى ولد فيه يوم ميلاده. وأقام الفاطميون الاحتفالات الباهرة فى مصر، ثم انتشرت حتى شملت العالم الإسلامى، وبدأ الاحتفال بالمولد النبوى فى الدولة العثمانية يأخذ شكلاً رسميًا، منذ عهد مراد الثالث (٩٨٢ – ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ – ١٥٩٥م). وأنه قد أخذ مكانًا فى تشريفات السلطان منذ سنة ٩٩٦هـ، وما زال ينشد إلى يومنا هذا، فى تركيا فى مناسبات كثيرة خاصة مولد سليمان چلبى. (انظر: د. نجلا پك أولجاى إسلامى تورك، أدبياتى، إستانبول سنة ١٩٦٦ س ١٤٠١ – ١٥٣).
ومولد سليمان چلبى هذا، كتبه مؤلفه وهو فى الستين من عمره، حين كان يعمل إمامًا فى مسجد بورصة فى عهد بايزيد الثانى (٨٥١ – ٩١٨هـ = ١٤٤٦ – ١٥١٣م) رغبة منه فى إظهار فضائل الرسول محمد ﷺ، ومكانته بين الرسل.=

وبدأ الإنشاد فى مقام الحجاز، وبعده صعدت وبدأت التلاوة، وعلى المنـــوال نفـــسه والمشايخ يرددون. وانطلاقًا من مضمون الحديث الشريف بـــين قبـــرى ومنبـــرى روضـة من رياض الجنة انطلق العشاق إلى الصعود الروحى إلى الجنة المـــأوى. واستمتع الجميع بحلاوة الصوت وطلاوته، حتى وجدوا فيه غذاء الروح، وشملتهم نشوة الروح. واستمرت هذه المصاحبة الروحية لمدة ثلاث ساعات كاملة.

ثم نهضت جملة أمة محمد وقوفًا فى الحـــضرة النبويـــة تعظيمًـــا وإجـــلالاً لحضرته. وخلال ذلك كان الأغوات[112] - خدام الرسول وسدنة الحرم النبوى من الطواشية - يحملون المباخر المشتعلة بالعود والعنبر، وينثرون ماء الورد والعطر السلطانى فى كل الجوانب، حتى صارت أدمغة كل الموجودين فى الجامع النبـــوى معطرة، وبعدها دارت طاولات السكريات والأشربة المختلفة على كل الحـــضور،

=وعدد النسخ الموجودة في مكتبات إستانبول وحدها إحدى وخمسون نسخة، لموالد مختلفة.
وأرجح الآراء حول عدد أبيات هذه القصيدة هى أنها ٣١٧ بيتًا.
وأهم المباحث التى تتناولها القصيدة توحيد البارئ والتماس الدعاء، وبيان خلق العالم، وبيان فطرة العالم، وروح محمد، وبيان ظهور النبى محمد، وبيان معجزاته صلى الله عليه وسلم ومعراج النبى، وهجرة النبى من مكة إلى المدينة، وبيان ما يجب أن تكون عليه أمة محمد، ثم بيان بالنصح والإرشاد. (انظر: د. اصفصافى أحمد القطورى، ود. إدريس نصر، دراسات في الشعر التركي، القاهرة سنة ١٩٧٨ م، مولد سليمان شلبى، صـــ ٣٥ / ٥٣).

(١١٢) الأغوات جمع أغا. من آغالر Ağalar: مصطلح عسكرى وإدارى كان يستخدم فى العصر العثمانى ويُطلق على كبار موظفى الدولة.
كانت الأغاوية من المناصب المهمة قبل تنظيمات ١٨٣٩م = ١٢٥٥هـ. وكان يُطلق بصفة عامة على ضباط الإنكشارية. ثم بدأ يُستخدم لمن لا يعرفون القراءة والكتابة وكبار ملاك الأراضى الزراعية. كما كان يعنى الكرم وعلو الجناب والفضيلة.
ولغويًا تدل على السيد الكبير، والشقيق الأكبر، ويُطلق على العم، ويُطلق كذلك على رئيس الحى وصاحب الكلمة فيه. وعلى رئيس القبيلة أو العشيرة.
ثم بدأ يأخذ أشكالاً مختلفة وفقًا للوظائف التى يتولاها، فهناك أغوات الديوان، وأغوات الإنكشارية وأغوات الحرم.
وأغوات الحرم كانوا يختارون من الطواشية الذين قاموا بأعمال الخدمة فى الحرم وبين الحريم السلطانى وفى قصور العظماء ورجالات الدولة. وكان يُطلق عليهم "حرم همايون" وبعضهم كان من الطواشية البيض والبعض من الطواشية السود. وظل الأمر كذلك إلى أن تم إلغاء هذه العادة فى زمن السلطان أحمد الثالث ١١٢٧هـ = ١٧١٥م. (انظر محمد زكى پاقلين).

واستقى كل العطشى، وأكلوا من الحلوى ما تيسر. استمرت الصحبة الخاصة على هذا المنوال سبع ساعات. وأنهينا المجلس بالدعاء الخيِّر وعلى الصباح قمنا بكل الزيارات الممكنة ووصلنا مرة أخرى إلى مقام حضرة حمزة، وهناك تناولنا الطعام مع أمير الحج أوزبك(١١٣) فى ضيافة شيخ الحرم داود آغا(١١٤) ثم وصلنا إلى المدينة. وبعده وقبيل الصباح عُزِف النفير، واستعد الركب للرحيل. الغريب أن حجاج مصر يبقون يومين فقط فى المدينة. ولا تكفيهم هذه المدة للاستمتاع، لأنهم يعودون إلى بدرحنين لمسافة ثلاث مراحل مرة أخرى، ولكى لا يتلاقوا مع حجاج الشام فى هذه الطرق والأزقة الضيقة، فهم لا يمكثون فى المدينة طويلاً، ولكنهم يصلون إلى مكة قبل الشوام، ويمكثون طويلاً، وذات مرة التقى حجاج الشام مع اثنين من الجند فى الجديدة، فقام قتال عنيف. ومنذ ذلك الوقت والمصريون يمكثون يومين فى المدينة، ثم يتحركون، وما كان من الفقير عند سماعه للنوبة الثالثة من النفير حتى مثلت بين يدى سيدنا رسول الله ﷺ، وتعلقت بالشبكة الشريفة، ومرّغت وجهى العاصى، وأتممت زيارة الوداع وتلوت هذا الدعاء:

السلام عليك يا رسول الله نسألك أن تسأل الله ألاّ يقطع آثارنا من زيارتك وحرمك، وأن يُعيدنا سالمين وغانمين إلى أوطاننا، وأن يبارك فيما وهب لنا من الولد، وحوّل إلينا من النعيم، وأن يرزقنا الشكر على ذلك. اللّهم لا تجعل هذا آخر زيارة لقبر نبيك، فإن توفيتنى قبل ذلك فإنّى أشهد فى مماتى وأشهدته فى حياتى أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١١٣) أمير الحج أوزبك أو "ذدامير": كان أميرًا لقافلة الحج المصرية فى العام الذى حج فيه أولياچلبى ورافقه عند العودة إلى مصر بالطريق البرى عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢م.ولسوف يتحدث عنه الرحالة بالتفصيل فى الفصول والأجزاء التالية.

(١١٤) داود آغا: كان شيخًا للحرم المكى خلال زيارة أولياچلبى وأدائه فريضة الحج عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧٢م وقد أضاف أوليا مع أمير قافلة الحج المصرية أوزبك بك.

وأخذت أتراجع وأنا أردد "الوداع يا رسول الله"، "الوداع يـــا رســـول الله". وأتممتم بشكر الله الذى يسَّر الزيارة، وقبَّلت عتبة السعادة ورويدًا رويدًا خرجت من باب السلام، ووصلت إلى خيمتى، وبينما كنت أستعد لتدارك الطريق خرجنـــا مـــن قلعة المدينة، من بوَّابة الشام إلى الضواحى، وسرنا حتى وصلنا إلى:

زيارة بوضاعة

بها مسجد، وحوض ماء. كان متنــزهًا ومسيرًا لصاحب الرسالة وكان يتعبد بـــه، وتوسلنا فى هذا المقام أن نعود سالمين وغانمين إلى مسقط رأسنا إســـلامبول المحميَّـــة، ومنه واصلنا المسير فى طريقنا من المدينة ناحية القبلة لمدة ست ساعات إلى:

منـــزل بئر على

فى هذا المكان يستريح حجاج مصر، ويتحركون منه إلى:

منـــزل قبور الشهداء

ومنه إلى:

منـــزل الجديدة

وينطلق الركب منه، وبعد خمس ساعات يصير طريق بـــدر حنـــين عـــن يسارنا، وفى المكان الذى نتجه منه إلى داخل الوادى فى طريق مصر تتراءى لنـــا أعلام دليل قافلة الشام الشريف، فيتم الدخول فورًا فى طريق مصر والذى يطلقون عليه "عقبة درب بين"، كان مكانًا صعبًا وموحشًا ومحاطًا بصخور شديدة الانحدار. وكان أمير الحج المصرى المرحوم رضوان بك[١١٥] قد طهَّـــره. وعنـــده يفتـــرق

---

(١١٥) رضوان بك: "أمير الحج" كان من القادة العسكريين الذين تولوا إمارة الحج المصرية فى العصر العثمانى. وكان أول مَنْ تولى إمارة الحج فى الإسلام هو الخليفة الراشد أبو بكر الصديق عام ٩هـ ٦٣٠م. ثم صارت تخول إلى مَنْ يراه الخليفة مناسبًا من العلماء أو القادة العسكريين، وعندما ضم سليم الأول الشام ومصر عام ٩٢٣هـ = ١٥١٧م صار السلطان العثمانى هو المخول باختيار أمير الحج. وكان لمصر أميرها وللقافلة التى تخرج من إستانبول أميرها. كان أمير الحج هو المخول برعاية قافلة الحج وحمايتها فى الذهاب والعودة. وفى أواخر عهد الدولة العثمانية صار أمين الصرة هو الذى يقوم بهذه المهمة.

طريقا الحج المصرى والحج الشامى، عبرنا هذه العقبة، ومررنا فى طرق صخرية ووعرة، وبعد ثمانى ساعات وصلنا إلى:

منـــزل ثقيفة

ليس به ماء، ولكن رضوان باشا كان قد أنشأ بِرْكَة تحت قاع صخرة، ووضع السواقى التى تملأ هذه البركة عن آخرها حتى ترتوى الحيوانات. وليس هناك من ممر آخر غير هذا المنزل يتجه إلى غرب مصر، وسارت القافلة لمدة أربع عشرة ساعة فى طرق رملية داخل وادٍ فسيح، وبعدها وصلنا إلى:

منـــزل قصبة ينبوع البحر

أوصافه: مكان صحراوى رملى، ذو صخور صفراء، وجبال منحدرة، وفى أحضانها حوالى ثلاثمائة بناء متواضع، هى بيوت الأعراب، بها ما بين سبعين أو ثمانين دكانًا، وبها مياه عذبة متدفقة من عيونها، وبها بئر معمورة. قصبة عمرانة، بها جامع صغير له منارة من الطراز القديم. ولكن ليس بها مدرسة أو حمام أو خان أو عمارة.

ولكن بساتين النخيل كثيرة جدًا، وبلحها ورطبها لذيذ جدًا، يخضع سنجق فيها لحكم الشريف، ويحكمها الشريف بخمسمائة رجل. وأكثر سكانها جمَّالة، وهم الذين يحملون غلال أهل المدينة وبضائعهم. بها جمال كثيرة، وأهلها منعَّمون. وبها قضاء رتبة شاغله مائة وخمسون آقچه. يتم التصدق بها مع مرتبات علوفة ملا المدينة المنورة، وتدفع من قِبل آل عثمان. وماؤها وهواؤها لطيف. وفتياتها رائعات يتسمن بالبهاء وحسن الطالع. وعلى الجانب الأيسر لينبوع البحر هذا جبل يُسمُّونه:

جبل رسوى

جبل شاهق بلا حاصل أو محصول. جميع المفسرين والمؤرخين يقولون إنه فى آخر الزمان سيظهر من هذا الجبل "محمد مهدى الحنفى" الذى يظنون أنه

هو وأصحابه قد دخلوا إلى غار فى هذا الجبل، وبأمر من الله سُدَّ الغار، وكان هو وأصحابه يرزقون من عند الله. وفى بعض الأزمنة يقول بعض سالكى الطريق أنهم قد استمعوا لصدى التوحيد، وهذا القول شائع على ألسنة أهل مكة والمدينة، "إن الله على كل شيء قدير" حتى أنه قد صدر الفرمان الأمر بالبقاء يومين فى ينبوع هذه، وإذا كنا قد عزمنا على زيارة هذه الأماكن إلاَّ أنهم منعونا، وبعدها توجهنا إلى ينبوع البحر وسنبين ذلك. ومن ينبوع البحر اتجهنا ناحية الجنوب فى طرق أحيانًا صخرية، وأحيانًا رملية، حتى وصلنا إلى:

قلعة ينبوع [ينبع] البحر

تحت سيطرة حضرة الشريف وإدارته، وبها قائمقام الشريف برتبة أمير لواء. وتدير أمور الحكومة بقوة قوامها خمسمائة جندى. وهناك قائمقام من طرف أمير جدة لضبط أعمال الجمارك التى يذهب نصفها لحضرة الشريف، والنصف الآخر يذهب لحاكم جدة لتوظف فى دفع المرتبات. وهى قضاء بمرتب ثلاثمائة، ويُعين صاحبه من قبل آل عثمان. ولكنها الآن توجه إلى مولى المدينة بوصفها إحسانًا يُضاف إلى العلوفة، ولكن يُحصل من جمركها لخزينة مصر.

ميناء مكة هو جدة... وميناء المدينة المنورة هو ينبوع [ينبع] هذا. وبينها وبين المدينة المنورة أربع مراحل أو منازل، والمأمول هو الوصول فى ظرف يومين. وهى مدينة صغيرة على شاطئ البحر، وليست مدينة كبيرة. جملتها مائة بيت متين البنيان، معمورة، بها عدة جوامع ذات محاريب، تُقام بها صلاة الجمعة والخطبة وعدا ذلك هى مساجد إدارة الجمارك على شاطئ بحر القلزم، أو البحر الأحمر. وتأتيها السفن سنويًا من الأقاليم السبعة محملة بشتى البضائع والأمتعة. ويؤخذ من التجار الزكاة وفقًا للشريعة والقانون، بها مجموعة من المحلات، وليس بها دار للحديث أو سوق للأقمشة النفيسة، لكن بها وكالات ومخازن على ساحل البحر ومقاهٍ.

جملة سكانها تُجار، وهواؤها كهواء المدينة لطيف، ومياهها عذبة، وتمورها أيضًا نظيفة ولذيذة. وفي بحرها سمك المرجان وسمك المسك الذي لا نظير له. يأتيها سنويًا خمسمائة سفينة ما بين كبيرة الحجم والصغيرة.

أوصاف سفن جَلَبَه، يعني السفن اليمنية

نوع من السفن الحصرية المختلفة، ويطلقون عليها جَلَبَه، وهي قادرة على مجابهة مخاطر البحر وأهواله في تجوالها وتنقلها بين الجبشة واليمن ذهابًا وإيابًا. وهي طراز عجيب وغريب من السفن، تُصنع من خشب الأشجار والليف والحصير، ومساميرها من الخشب، وتربط هذه المسامير بسلب من الليف والحصير اليمني والحبشي، وتربط الحصير بحبال الليف بعد أن تُشد جيدًا، ثم تُغطى بالزفت والقطران وزيت السمك، وبعد أن يغلي هذا الزفت والقار يصب داخل وخارج هذه السفينة فتصير كالقلعة المتينة. وهكذا تسير متهادية بين بحار الشعب المرجانية المترامية.

وتحمل آلاف الأرادب من الغلال وآلاف الركاب وتتجول بين الحبشة واليمن. وأشرعتها من الحصير، آلاتها من جذوع النخيل. وهذه السفن لا تدخل في صناعتها المسامير، فمياه بحر القلزم هذا تذيب الحديد وتقطع السفن إربًا إربًا. ولكن هناك غير سفن اليمن والحبش؛ فهناك سفن "المرادية" و"المحمدية" و"الخاصة السلطان" وجملتها اثنتا عشرة قطعة من سفن مكة والمدينة وتحمل الغلال الأميرية. وهذه أيضًا جميعها من السفن الخشبية، ولكن خشبها من الأشجار الهندية الصفراء، ومن أشجار الإبط والسنط، وهي لا تُصاب بأذى وسط بحار الشعب المرجانية التي هي كالمسامير. ولكن أشرعة هذه السفن ليست من الحصير كالجَلَبَه اليمنية، فجميع أشرعتها من قماش القطن الإسكندراني المنقوش، وكل واحدة منها تحمل ألف إردب من الغلال، وتتسع لما بين ألفين وثلاثة آلاف من الحجاج والتجار، وتلك السفن تُبحر في بحر السويس ذهابًا وإيابًا. وفي كل منها ألف ألف وخمسمائة زير من المياه. وجميعها مرصوصة بجوار بعضها البعض، ومفاتيح مخازنها مع

ربان السفينة، وهو المسيطر عليها، ولا يتم التجاوز ولو لقيراط واحد. وإذا ما تم الإفراط في استخدام المياه ففي هذا تهلكة خطيرة، فلا تُمنح قطرة مياه واحدة زيادة عن الحاجة، لأن بحر السويس هذا سرداب بحري، فاللهم عافنا.

ففي إحدى السنوات توقفت الريح من الاتجاهين. إحداهما متجهة من السويس إلى جدة واليمن، والأخرى هي الرياح الشرقية القادمة من اليمن وجدة. وكلتاهما لازمة للاتجاهين. وإذا تصادف ولم تهب هذه الرياح، فمن الممكن أن تظل السفن في هذا السرداب سنة كاملة. وربَّان السفينة يخاف أن يُصادف بمثل هذا الموقف؛ فلذلك فإنه وملاحي السفينة يسيطرون على المياه العذبة فيها، ويبذلون الماء بالتدريج... اللهم عافنا إذا ما سارت الأمور على غير المراد، وإذا ما تعطلت السفينة، أو تعرضت لمحنة، أو أُصيبت بعطب؛ فلا أمل في النجاة أو الخلاص.

فمياه هذا البحر تبتلع الجسد البشري وتذيبه في ساعة واحدة. وفيه سمك ملعون يُسمى سمك القرش؛ فهو يلتهم الإنسان كما يلتهم ثمرة التين. وحسب قول المؤرخين العرب فإن هذا النوع من السمك موجود في هذا البحر منذ عصر حضرة سيدنا موسى [عليه السلام]، ونتج عن غرق فرعون في هذا البحر. هو نوع من السمك المهيب والخطير، وإذا ما تم الخلاص من ورطة سمك القرش هذا، وإذا ما خرجنا إلى جانبي هذا البحر وشطآنه، فإن الأعراب والبدو والعرايا أولاد النصارى لا يعطون الأمان، ويقتلون الإنسان، وإذا لم تصادف أحدًا من الأعراب فإنك تُشوى من شدة الحرارة، ولو تم الخلاص من هذا فإن الأرواح تُهتك لعدم وجود العمران، اللهم عافنا.

أين وأين الخلاص؟ وأين مكان السلامة؟!!

وفقًا لمآل هذا القول فلا خلاص ولا نجاة في بحر القلزم هذا، ولكن إذا ما أحسن جناب الباري بأيامٍ موافقةٍ، فإن السفن الهندية تُبحر من ميناء السويس إلى الأعماق، وتصل إلى جدة بعد عشرة أيام وعشر ليالٍ. وهناك سفن عدة تُبحر لمدة خمسة أيام لهذه المسافة فقط. وأكثرها تضع ظروف الهواء في حسبانها، وحجاج

الرجبية يقضون فى هذا البحر ما بين خمسة أيام وعشرة ويصلون إلى جدة، ويجاورون الحرمين لمدة خمسة شهور، ويقضون رمضان الشريف فى مكة، ففى وسط البحر والأعماق لا توجد شعب مرجانية؛ ولكنها تكثر بالقرب من السواحل والشطآن، وكثير من صغار السفن والجلْبه والفرقاطات تذهب بالقرب من الساحل. ويُطلق على ملاحى هذه السفن من الفلاحين "ربان".

وفى مقدمة السفن ساق شجرة طويلة، يجلس عليها أو على مقدمة السفينة هذا الربان المرشد. وبينما تسير السفن بالأشرعة فإن هؤلاء المرشدين يراقبون البحر. وإذا ما كانت هناك شُعَب مرجانية فى خط سير المراكب، فإنه ينادى من مكانه أن تتجه السفينة إلى اليمين أو إلى اليسار؛ وعلى الفور يقوم الريِّس بتوجيه الدفة إلى الاتجاه المطلوب، وتتخلص السفينة من الشعاب، وإذا ما حرَّك الريس الدفة عكس الاتجاه المطلوب فإن السفينة تتعرض للشعاب المرجانية وتتحطم، ولا يكون هناك أى احتمال للنجاة أو الخلاص. ولكن إذا ما تلطف الخالق، وتم العبور بسلام تصل السفينة إلى مرساها فى وقت العصر، وتبيت هذه الليلة حيث تكون، فلا احتمال للإبحار ليلاً، وإذا لم يتم الوصول إلى مرفأ، وكانت الأيام مخالفة فإنها تعود حيث مرسى الأمس، وتلقى مراسيها للإقامة حتى الصباح. وخلاصة القول إن السفن تُبحر منزلة تبيت ليلاً وتُبحر نهارًا، ولكن السفن الهندية تتجه نحو الأعماق وتسير ليلاً ونهارًا دون انتظار.

قول فى وصف أشكال الشِّعاب المرجانية

إن خطاب البارى "كن" فكانت الأرض والسموات والبحار السبعة من العدم. ولم تكن هذه الشعاب المرجانية موجودة داخل بحر القلزم هذا. وبعد أن قصد جميع الأعداء هدم مكة المكرمة أو السيطرة عليها، وخاصة من أصحاب الفيل وأبرهة، وهذه كلها مسطورة فى الكتب المقدسة، ولماً نزلت رسالة النبوة على حضرة المصطفى وهو فى الأربعين من سِنَةِ المبارك دعا الله أن يحفظ مكة والمدينة، وأن يصونهما من الانقراض ما دام الزمن يدور، فأمر الخالق سبحانه بحر القلزم هذا من ناحية اليمن والحبشة وحتى السويس أن تكسوه الشِّعاب، فكان ذلك.

ولم يعلم كفّار البرتغال شيئًا عن ذلك. وعندما قصدوا الهجوم على مكة بثلاثمائة قطعة من السفن ووصلوا إلى جدة فإن السفن جميعها تحطمت على الشعاب المرجانية، وهلك الجميع. وحتى هذا الأوان قد تاب الكفار عن قصد مكة بسوء.

وخلال حكم الظاهر بيبرس لمصر استولى الكفار الإسبان على القدس الشريف، وظلت تحت سيطرتهم ثمان وسبعين سنة، وبتعاون من الدروز والتيمانيين!! والمروانيين جمعوا مائتى ألف من الكفار، وكانوا يقصدون هدم الكعبة المشرفة، ونقل الجسد الطاهر لصاحب الرسالة إلى القدس. ولكن عند وصولهم والآلاف غيرهم من الكفار عند المكان المسمى "جغيمان" بادرتهم أرواح مائة وأربعة وعشرين من الرسل وسبعين ألف روح من أرواح قطب الأقطاب، وجميع رجال الله، وقابلوا الكفار، وانضم إليهم عربان الموال وقبائل بنى زهد وأولاد آل عالى أمور، فسحقوا هؤلاء الكفار فى شتى النواحى، وعندما عادوا إلى ذلك المكان المسمى "جغيمان" أعمل الأعراب العرايا فيهم سيوفهم ورماحهم، وغنموا كل أموال الكفار وأمتعتهم، وهذا كلُّه مسجل ومفصل فى كتب الكفار. وحمدًا لله أن تاب الكفار عن القصد إلى مكة برًا أو بحرًا، وأصبحوا عبرة لكل الكفار. ومازال الكفار يحجمون عن الهجوم على مكة خشية من الشعاب المرجانية تلك المعجزة العظيمة. ولكن داخل أعماق بحر القلزم فإن أشكال الشعاب المرجانية عالم آخر، ففى أعماق البحر بأمر الله عالم من الأشجار والغابات الكثيفة بحيث يصعب وصفها أو التعبير عنها. وداخل البحر هناك شُعب مرجانية كأنها أشجار المرجان. ولكن فى نهايات أشجار الحور هذه أشجارًا أخرى من الحجارة؛ حتى إذا ما صعدت على سطح البحر فإنها تتحطم من شدة الحرارة.

ومياه بحر القلزم هذا من الصفاء لدرجة أن المشاهد يرى ما فى أعماق البحر لبعد قد يصل إلى ستين ذراعًا أو سبعين ؛ يرى الأسماك وجميع أنواع شجر الأخشاب والشعاب والمحار والقواقع. وبعض القلاع

الهندية السوداء أحيانًا تتعرض لبعض الرياح وسوء الأحوال الجوية، وتصل أخيرًا إلى بر السلامة بعد أن تكون قد حطمت العديد من الأفرع والأوراق، ولكن إذا كان المركب ضعيفًا فإنه يهلك بفعل الشّعاب المرجانيـــة. قـــضت حكمة الله أن تكون هذه أشجارًا من الحجارة "إن الله على كل شيء قدير".

ولو غرقت سفينتان من سفن السويس في هذا البحر "اللهـــم عافنـــا" يحـــدث القحط والمجاعة والغلاء في مكة والمدينة، وفي سنة ١٠٨٢ هـ عندما كان الكتخـــدا إبراهيم بـــاشا وزيرًا على مصر، فإن السفينتين المحمدية والمراديـــة، وســـفينتين أخريين قد غرقوا جميعًا وعلى متونها ستمائة ألف إردب من الغلال، وفُقِد أيـــضًا ألفان من التجار والحجاج وترتب على ذلك قحط وغلاء عظيمات في مكة والمدينة المنورة، لأن بحر السويس هذا بحر بلا أمان.

أوصاف بحر السويس، يعني بحر القلزم أو البحر الأحمر

هذا البحر كالجزيرة، على الجانب الشرقي من محيطه يقع بين اليمن والحبشة مضيق يسمى مضيق "زيلع"، وهو كاللسان أو مضيق ممتد كاللـــسان. وعلـــى قـــول الملاحين والربابنة فإن طول هذا البحر حتى السويس أربعة آلاف ومائة ميـــل، تبـــدأ من بدايته وحتى مخرجه في الجهة الشمالية. ومن بنادر اليمن يقع بندر على الجانـــب الغربي، يقع بندر جدة وهو يخدم مكة، ثم بندر ينبوع البحر ويتم المرور مـــن أرض تُهامة وعلى طريق مكة تقع "أزلم" و"مويلح" و"كفافي" و"قولوندر".

وهناك خليجا الحمام والطور وقلعتهما، ونهايتهما عند بندر السويس، وهـــو بندر عظيم. وفي جهته الجنوبية تقع بلاد أعالي الصعيد، وبندر وقلعة القُصير. وإن سكان مدينة "قباء" على شاطئ النيل يفدون إلى مرفأ القصير هذا، وبالـــسفن فـــي ظرف ليلتين تصل السفن منه إلى ينبوع. ومن هذا البندر يتم الانطلاق إلـــى بـــلاد الفونج حيث "بندرات"، ومنها على ساحل هذا البحر أيضًا يتم الوصول إلى "جبـــل

عجلولة" فى ولاية الحبش[١١٦] وبندر"دونقلاب" دنقلة، وبندر "آب" وبندر "سـواكن"، ومدينة "كيف" ومدينة "دهلك"، وجزيرة وادى موسى، أو "مـوص أووا " و"حـرق أووا"، وبندر "زولة" والقلعة الهندية، وبندر "طوزلة" وبندر "بهلولة" وبندر "زيلـع"، وهذه البنادر كلها تابعة للحبشة وعلى ساحل بحر القلزم. وعلى الشاطئ المواجـه، شمال البحر الأحمر، توجد سواحل اليمن، وفى مواجهة بندر زيلع تتسـع نـواحى اليمن. بعض أماكنه يبلغ اتساعها مائتى ميل، والبعض الآخر ثلاثمائة ميل. هكـذا فإن البحر الأحمر بحر بلا أمان، ولكنه أمان من الكفار، والسلام.

أوصاف قلعة ينبوع البحر

ونحن فى هذا البندر، تجولنا فى ينبوع البحر. والميناء فى مكـان مفتـوح، وترسو السفن بين الشعاب المرجانية. وعلى حافة هذا الميناء توجد قلعـة ينبـوع، وهى من مبانى السلطان من خلفاء مصر، وقد بناها سنة (...) على شكل مربـع. لها بوابة، وعليها محافظ ورجال حصار ودفاع عنها. يحصلون على تعييناتهم مـن حاصلات الجمارك، بها اثنا عشر مدفعًا سلطانيًا، وذخائرها وجبخاناتهـا مكتملـة. ويوجد داخل القلعة جامع قديم. وقد تجولنا فى هذا البندر أيضًا، وعلى بُعد مـسيرة ساعة تقع بلدة ينبوع البر. وفى هذا المكان أصدر أمير الحج المصرى أوزبك بـك أمرًا للحجاج المغاربة بالتحرك والتقدم، وسيرهم فى الطريق.

فى بيان حجاج قوم المغاربة

يتجاوز عدد حجاج المغاربة عشرة آلاف حاج. ولهم سردار، أو قائـد خـاص بهم، وهو من العلماء العباسيين. مدججون بالسلاح والبارود، وهم يتجهـون نحـو

---

(١١٦) الحبش: بعد أن ضم العثمانيون بلاد اليمن بعد الحجاز ومصر انتقلوا إلى الحبشة وربطوها فى بعض الأزمنة إداريًا بولاية جدة والحجاز، لكى يحكموا سيطرتهم على البحر الأحمر. وكانت أيالة الحبش وجدة مرتبطة بساليانة مقدارها ١,١٨٠٠٠٠ أقچه (بيضة) سنويا.

مصر، ولكن الأمر الغريب أنهم على الرغم من شدة الحرّ فإنهم يتابعون السير ويقطعون المراحل حتى الغروب. ومع الغروب يتوقفون وينصبون خيامهم ولوازم استراحتهم، يضعون سائر أموالهم وسط الخيام، وحولها صبيانهم ونسوانهم وبغالهم وخيولهم، ويُبرّك الهجّانة جمالهم فيما حولهم وعلى أطرافهم، ويقدمون العليقة لسائر الحيوانات. ويحيط جميع حجاج المغرب - كبيرهم وصغيرهم - بأموالهم، ويتعاضدون يدًا في يد وكتفًا في كتف في حماية أرزاقهم. ويتناوبون الحراسة حتى الصباح، وتحت إمرة قائدهم ما يقرب من ثلاثمائة بندقية وتحت تصرف راميها. وهم يتبادلون المناوبة والحراسة مع الجيش.

وإذا ما استغرق المغربي في نوم الراحة فإذا ما أعملت فيه حتى السيف لا يستيقظ، فالنوم عندهم آخر الموت. وكانوا يتبعون الوسيلة نفسها في مكة. وجميع الأعراب يعرفون أن عرب المغاربة سيوفهم قاطعة، وأموالهم وذهبهم كثير، ولهذا فإن البدو يكمنون لهم. وفي كل سنة يعتادون على ذلك. وهم ينتظرون في استراحتهم هذه حتى الصباح، ثم يبدأون سيرهم، ولكنهم قوم في غاية اللؤم والخسة؛ فمع كل واحد منهم حمولة ما بين جملين أو ثلاثة أو خمسة جمال وأحيانًا عشرة جمال محملة بالبضائع والأموال القيّمة. وهناك أيضًا من يسيرون على أقدامهم متكلين على الله من مرحلة إلى أخرى، ومن خيمة إلى غيرها وهكذا يصلون إلى مصر. وبعدها يظلون أربعة أشهر أيضًا في الصحراء، وينتقلون من صحراء إلى صحراء حتى يصلون إلى الجزائر وفاس ومرجانكس أو مرانكش، حتى تلمسان. خلاصة الكلام حجاج المغرب وحجاج بودين وتجار حجاج بلخ يصلون في سنة، وفي سنة يعودون، لأن بلادهم على مسافات بعيدة.

بعد ذلك يملأ الحجاج جميعًا قربهم بالمياه ويحملون جميع احتياجاتهم من المياه من ينبوع البئر؛ لأن أمامهم منزلين لا تتوافر فيهما المياه. بعد ذلك عُزِف النفير، وبينما كنا نعبر الأماكن الرملية المستوية متجهين نحو الغرب كنا نصادف بعض شجيرات أمّ غيلان أي شجر السَّمر، وبعض الممرات الصخرية

الضيِّقة. ففي المكان المسمى(...) سمعنا أنه كانت قد وقعت أحداث هنا سنة ١٠٨١هـ؛ حيث قام الشريف حمودة[١١٧] – على غفلة – بمهاجمة الحجاج المصريين، ودارت حرب وجدال عظيم. وبوصول الإمدادات إلى الأعراب تعرض الحجاج المصريون إلى التفرق والتشتت. واستشهد من العساكر المصرية ستمائة رجل على ساحة الرمال، واستشهد ما يتجاوز هذا العدد من الحجاج والخدّام، وتم دفن شهداء الجند واختلطت رءوس كل الشهداء وسيقانهم وأرجلهم، وظلوا كأخلاط القديد، وحتى خلال السنة التي كنَّا فيها كانت قد خرجت أجساد بعض الشهداء خارج الرمال. وتحولت من شدة الحرارة إلى حجارة متمددة فوق الرمال، وقد زرنا مرقدهم، وقرأنا الفاتحة على أرواحهم الشريفة، وبعد مسيرة اثنتى عشرة ساعة وصلنا إلى:

منـزل وادى نار

يُسمى هذا المنـزل باسم "وادى الخرزتين" أيضا. أى مكان الخرزتين، ويتملك الجميع هنا خوفان، أحدهما من العرب والآخر من رياح السموم. ويقدر الخالق على مئات من البشر أن يموتوا كل سنة هنا من رياح السموم فى وادى النار. وحتى فى سنة حَجِّنا وفى وقت الضحى وفى الشتاء هلك سبعة عشر رجلاً هنا فى وادى النار من رياح السموم. ووادى النار وادٍ مختلف، تُحيط بجانبيه صخور ملساء صلدة، تُشوى الرءوس من شدة الحرارة. ولا أثر فى هذا المكان لما يُسمى المبانى أو الماء، ولكن لابد من الوقوف فيه وتقديم العلف للجمال، وفى هذا

(١١٧) الشريف حمودة: من أشراف مكة وأمرائها الذين كانوا على رأس الإدارة فى بلاد الحجاز، وكثيرًا ما كان يقع الخلاف بينه وبين الإدارة العثمانية فى مصر، ومن أشهرها ما حدث عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١م؛ حيث هاجم قافلة الحج المصرية وفى معيته الكثيرون من البدو والأعراب، وأوقع خسائر كبيرة فى قافلة الحج والحجيج، ولكن تم تأديبه فيما بعد. وهو ابن الشريف عبدالله الذى يبدأ به فرع العبادلة. كان يحكم مكة مع الشريف ابن زيد سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦م ولما نشب الخلاف بينه وبين الدولة أقام فى ينبع. وقاوم القوات المصرية، ولكن لما اشتد عليه الضغط فر فيما بين البدو ولكنه فى عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١م عقد الصلح مع الشريف سعد وانسحب إلى الطائف. وتوفى هنالك سنة ١٠٨٥ هـ = ١٦٧٤م. (انظر: الرحلة الحجازية للمترجم هامش (١) صـ ١٧٩).

المكان يؤكل الثوم والنعناع، ويجب دهن الآذان بالثوم، ولابد من لفّ الأنف والفم بقطعة من القماش الحرير الأسود أو قطعة من قماش القطن البورقالين، ويجب عدم الخروج من المحفات والهوادج.

حمدا لله أن رياحا لطيفة قد هبت فى زماننا، وكان الجو معتدلاً إلى حد ما. ولكن أيضًا توفى سبعة عشر رجلاً. وسُرق الكثير من أمتعة الحجاج. ويجب الاحتراز من شرب الماء في هذه المنطقة، والبعض يضع فى فمه قطعة من الحصى أو الرصاص لتذهب العطش، ولا يحتاج لشرب الماء. ولكن للرصاص محاذير؛ فإذا ما لامس الرصاص الأسنان فإنه يُعطب الأسنان. ولكن مشروب التمرهندى المذاق يذهب الحرارة والعطش وهو يلائم الطبيعة هنا. هناك حديث شريف في صدد التمرهندى مجمله الحمضيات مقبضة إلاَّ التمر هندى. ولكن الحذر من كثرة شرب الماء فى هذه الطرق واجب. لأنه يحدث لينًا للإنسان، وإذا ما تم تناول القليل من مأكولات الزفر، فتحد من كثرة شرب الماء. وإذا ما شُرب فإنه يحدث إسهالاً، ونهاية الإسهال هو التسمم والعياذ بالله وينتهى بالموت، اللهم عافنا.

خلاصة الكلام يجب عدم تناول مثل هذه الأطعمة فى الطريق إلى مكة، ويجب شرب القليل من الماء. و بعد قطع سبع عشرة ساعة فى الطرق والوديان الرملية والصخرية العالية والمرور بين أشجار أمّ غيلان وصلنا إلى:

منزل نبط

وادٍ جبلى صخرى، لا زرع ولا ماء فيه. وقد هاجم الشريف حمود هنا أيضًا القوات المصرية، ولكن الجنود المصريين كانوا على أتم الاستعداد، وقد قُتل من المصريين خمسون رجلاً، ومن الأعراب والبدو خمسمائة وخمسون رجلاً لقوا حتفهم. إن هؤلاء الذين سقطوا من الطرفين كانوا ممددين فوق الرمال، وتحت الرمال كالقديد المضمحل، ولقد زرناهم أيضًا. ومن نبط اتجهنا أيضًا إلى الجنوب الغربى، وقد سرنا ثلاث عشرة ساعة بين الأشجار اللطيفة، وشاهدنا طيور القُمرى البيضاء وهى تتطاير فيما بينها، حتى وصلنا إلى:

منـزل الحورة

وهذا اسم منطقة حوران القريبة من الشام، ويسكن فى هذا الـوادى قبيلـة تُسمى "حوران"، وكان بنو حوران من أنساب حضرة شيت يعيشون فى هذه الولاية المسماة حوران.

وكانت مدينة ذات بناء عظيم، ولا توجد أطلال اليوم من هذه المدينة، ولذلك يسمونه وادى الحورة، مياهه كثيرة وتمرح فيه أعداد غفيرة من الظباء والغـزلان، وهو أيضًا تحت سيطرة حضرة الشريف، ويشمله الأمن والأمان، وعنـدما أُطلـق النفير وقت ظهور السحر عبرنا من مكان يُسمى (بين القرى)... وقد استمر سيرنا اثنتى عشرة ساعة، كنا نشاهد فيها الطرق الصخرية التى تكثر فيها الظباء، حتـى وصلنا إلى:

منـــزل حَنَك القرى

ويعنى فم القرى فى اللغة العربية. وهى مرحلة يابسة، ناقلـة بـلا فائـدة. وهواؤها ليس جيدًا أو ممدوحًا إلى حد كبير. وهذا الوادى أيضًا تحت حكم الشريف وسيطرته؛ فى غاية الأمن والأمان. وقد تحركنا منه، وسرنا إلى الجانب الغربى فى أرض منبسطة واسعة لمدة ست عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منـــزل أكره... Eğre

وادٍ بين جبال شاهقة، ولكن فيما بين جوانب جباله الأربعة قرى عامرة. كان صبيان البدو ونساؤهم والذين يقطنونها يحضرون متاعهم ويبيعونه للحجيج. ولكـن كانت مياه أكره هذه مالحة؛ فإن العربان كانوا يوزعون المياه التى يحملونها علـى بعيرهم.

وبالقـرب من أكره هذه توجد مدينة طرفها على حافة شاطئ بحر القلـزم، أو البحر الأحمر، خرابة حتى الآن. ولكنها كانت مدينة عظيمة، حتـى إن مـصر

بجانبها كانت تبدو بليدة؛ وقد كانت مدينة من مدن فريدون(١١٨). وما زالت أطلال مبانيها على شاطئ البحر، ومازالت منائرها وأعمدتها وقبابها ظاهرة للعيان. إنها أطلال تدل على أنها كانت ملاذ عمران.

إن فريدون كان قد آمن بسيدنا نوح[عليه السلام]، حتى إنه كان ممن ركبوا السفينة. وقد بنى هذه المدينة بعد الطوفان وظلت عامرة لمدة خمسمائة عام. حتى إن سيدنا هودًا [عليه السلام] ترعرع فيها وآمن فيها.

وفي بعض الأزمنة كانت هناك مدينة بالقرب من صخرة ناقة صالح على طريق الكعبة من ناحية الشام، وبأمر الله فإن الحجاج الذين يرون هذا الممر يسرعون، وعلى بعد ميل منها توجد منارة، مازالت ظاهرة حتى الآن، يسمُّونها "عمود فريدون"؛ فإن فريدون قد مدَّ جدارًا بين هذه الجبال حتى نعبر من هذا المنزل الذي أطلقنا عليه أكره أي المائل. وما إن نصل إلى بحر القلزم حتى نرى جدار الحدود، ومازالت أطلال المباني قائمة وظاهرة. وفيما بينها أشكال غريبة وعجيبة لا يُرى مثلها في العالم، حتى كأنها كتلك التي في مدينة أثينا في بلاد الروم.

ولما كان فريدون هذا معمَّرًا فقد كان له أحد عشر ابنًا، "طور" وابنه هو "رديم" Radim وابن "وديم" "پشنك" pişenk وابن "پشنك" "أفراسياب"(١١٩) Afrasiyab. وكان لفريدون ابن آخر هو "إيرج" وابنه هو "غوشنك" Guşenk، وابن "غوشنك" "منوچهر" Menuçehr.

---

(١١٨) مدن فريدون: وفقًا للتاريخ الأسطوري الإيراني القديم فإن فريدون هو الحاكم الخامس لسلالة البيشداديين. وهو حفيد جمشيد، وقد فتح عديدًا من بلاد الترك والعرب، ويعتقد البعض أنه مذكور في كتب الهند القديمة.

(١١٩) أفراسياب Afrasiyab: من ملوك إيران القدماء الذين ذُكروا في شهنامه الفردوسي، وهم من الأبطال الأسطوريين في الأدبيات الفارسية القديمة .

وقد آمن منوچهر بسيدنا موسى (عليه السلام) حتى إنه دخل صحراء التيــه مع حضرة موسى وطاف فيها. وقد عاش لمدة مائة وعشرين سنة. ولقد أمر بحفر الخنادق حول المدن والقلاع التى كانت تحت حكمه وسيطرته. وقد عُرف هذا عنه؛ حتى يقال إن هناك مدينة خربة عظيمة كانوا يُطلقون عليها "داديــان عراقـــى" أى "العراق العامر" على حواف جبل البرز. كانت هذه من تشييد مينوچهر هذا. وقــد بنى خندقًا على جوانبها الأربعة، ويقولون إنه كان عميقًا. وكان لفريدون ابنٌ آخــر يسمى "سلم" ابنه كان "گاو Gav الأصفهانى"، كان ابنه "فارب" بطلاً. كان هــؤلاء جميعًا إخوة، وأبناء إخوة، بعضهم يرقد فى بلاد "عراقى داديان" أى العراق العامر، والبعض يرقد فى مدينة غازان. وهرب أربعة من أبناء مينوچهر، ووصلوا حتــى ولاية النمسا، ومازال على الجانب الأيسر من قلعة أگره أطلال كثيفة لأرض يطلق عليها "أوروترك" وكانت قلعة منيفة؛ فسكنوها.

ومـــازال أقــوام النمســا إذا ما سألوا أحدًا قائلين له من أنت... ؟ فإن كان لا يعرف اللغة النمساوية، فإنه يُجيب باللسان الفارسى مَنْ جراز. "مــن جـــاردن" مازالت مستمرة فى اللسان المجرى. وحتى إن المجريين الحاليين هـم مـن نـسل مينوچهر. ولذلك فمازالت بعض الكلمات الفارسية مستخدمة فى اللــسان المجــرى لأن ذلك قد حدث فى بلاد العجم. ولكن بضعة من أبناء مينــوچهر بــن فريــدون مدفونون بالقرب من موقع (إجره) إگره الذى تحدثنا عنه عند الحديث عن طريــق مصر إلى الكعبة. والفقير قد رأى أطلال هذه المدينة الخربة، وبعدها ظللنـــا أربـــع ساعات نسير إلى الغرب من (إجره) إگره هذه؛ أحيانًا فـــى وادٍ منبــسط وأحيانًـــا أخرى فى طرق صعبة وعرة، حتى وصلنا إلى:

منـــزل قلعة وش(١٢٠)

ولها اسم آخر هو "وجه إبراهيم پـــاشا " لأن الذى بناها هو إبراهيم پـــاشا ، وقد أقامها على ربوة مرتفعة على شكل مربع. وهى قلعة متينة البنيان. جملة مـــا

---

(١٢٠) منـــزل قلعة وش: أى وجه، وقد بناها إبراهيم پـــاشا على ربوة عالية. متينة البنيان على شكل مربع. زارها الرحّالة أولياچلبى.

حولها دائرًا ما دار ثلاثمائة خطوة، لها قبة تطل إلى الشمال، وبداخلها عدة بيـوت عربية. وبها مسجد وبالقرب منه توجد بئر ماؤها ماء الحياة. تدار سواقيها بالثيران والأبقار وتصب فى بركة عظيمة خارج القلعة بحيث تتلاطم فيها الميـاه. يـشرب منها الحجـاج والدواب كافة حتى يزول عطشهم، وفى قلعتها "دزدار"[١٢١] ورجال أو جنود حصار. وهم مضادون للمصريين، وبعض المصريين يفدون إلى ما يقرب من منـزلين من هذا المكان ويبيعون للحجاج بضائعهم ومتاعهم.

وتبركًا تم إحضار ماء النيل إلى ما يقرب من سبع عشرة مرحلة مـن هـذا الموقع. وهذا المكان أيضًا تحت سيادة الشريف، يتمتع بالأمن والأمان. ومن هنـا أيضًا اتجهنا ناحية الغرب بين وديان موغيلانية وأماكن متدرجة تكثر فيها أشـجار السواك الذى كنا نقطعه، وبالقرب من شاطئ البحر يوجد مرفأ يـسمى "الوجـه"، والبدو الذين يسكنون فيما بين الجبال يحضرون بضائعهم إلى هذا المرفأ، وينقلونها إلى جبل الطور أى إلى حدود السويس. وعبرنا هذا البندر، وبعد أربع عشرة ساعة وصلنا إلى:

منـزل إسطبل عنتر

وادٍ واسع، ومكان تكثر فيه أشجار السواك وأشواك الجمال. وقد كـان فـى الزمن القديم إسطبلاً لخيول الملك عنتر[١٢٢]. ومنذ ذلك الأزل وهم يطلقـون عليـه إسطبل عنتر، وكانت هنا مدينة عظيمة فى الزمن القديم ما زالت أطلال آثارها تدل على أنها كانت بنايات مصنوعة من الطوب الأحمر. ما زال بها ثلاث آبـار ذات مياه عذبة. جوانبها الأربعة معمورة، ومن هنا يقوم ساكنوها من البدو والأعـراب

---

(١٢١) الدزدار Dizdar: مصطلح عسكرى يدل على محافظ القلعة. وينقسم الاسم إلى مقطعين، دز بمعنى القلعة أو الحصار بالفارسية، ودار بمعنى صاحب. أو أغا القلعة. وهو المسئول عن كل ما يتعلق بالقلعة. وترسل إليه الأوامر مباشرة. (انظر: پاقالين. ج ١ ص ٤٦٩).

(١٢٢) الملك عنتر: من الملوك القدماء، كثير الثراء. أنشأ فى الزمن القديم مدينة عامرة على الطريق بين مكة والمدينة. وكانت له خيوله الكثيرة وكان لها إسطبلها الكبير. وما زال يُطلق على المكان إسطبل عنتر على الرغم من اندثار آثار المدينة، وقد زار أوليا أطلالها ووصفها كما سبق.

بإحضار منتجاتهم من المأكولات والمشروبات وبيعها للحجاج. وهذه المنطقة أيضًا تحت سيادة الشريف. وعلى الجانب الشرقي لهذا المكان توجد جبال. ويتم الوصول إلى المدينة المنورة من هنا في يوم وليلة. وبها طريق سلطاني(١٢٣)، ولكن لم تكـــن

---

(١٢٣) طريق سلطاني: مصطلح إداري يطلق على الطرق الرئيسية الواقعة بين الحرمين الشريفين، ولما كان السلاطين هم الذين يهتمون بها فقد سميت بذلك، وكان حجاج بيت الله الحرام يتوجهون إلى المدينة المنورة بعد الانتهاء من مناسك الحج التشرف بزيارة المسجد النبوي الشريف، والسلام على النبي المصطفى، وزيارة الروضة المطهرة، والحجرة المعطرة، وكانت القوافل تسلك طرقًا عدة، رأينا أنه من المناسب الإشارة إليها، وخاصة الرئيسية أي السلطانية.

الطريق السلطاني: إن أول منـــزل للخارجين من مكة المكرمة هو القرية المشهورة المعروفة بـــ "وادي فاطمة". إن هذه القرية تبعد عن مكة مسافة ست ساعات سيرًا بالجمال. وتشتهر بعيونها الجارية، وحدائقها وبساتينها اليانعة التي تشتمل على النخيل وسائر الأشجار الأخرى. والمرحلة الثانية للخارجين من مكة المكرمة تكون عند البئر المسماة "بئر عسفان"، كما تسمى هذه المرحلة أيضًا "بئر التفل". وتبعد مرحلة بئر عسفان اثنتي عشرة ساعة عن قرية "وادي فاطمة"، ومياه تلك الآبار رقراقة وعذبة حلوة المذاق. ولما كانت مياه تلك الآبار مخلوطة بمياه وجه الأنبياء وبريق سيدنا ونبينا (عليه وعليهم التحية)، فإن مياه النيل والفرات، وربما ماء الكوثر تغطيها على طلاوتها. وهنا في هذا الموضع توجد البئر المشهورة بين العرب بـــ "بئر التفلة". والمســافرون من بئر التفلة يصلون إلى قرية "خليص" بعد ثماني ساعات من تحركهم، وقرية خليص تبعد عن مكة المكرمة بثلاث مراحل، وتشتمل على عدة من الآبار والعيون الجارية، كما أن بها الكثير من البساتين وحدائق النخيل المثمر.

وكانت القوافل المترددة بين مكة والمدينة تواصل سيرها إلى "قضيمة" بعد استراحة قصيرة تمكنها من الاستسقاء في مرحلة خليص. وقضيمة هي المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص اثنتا عشرة ساعة سيرًا بالجمال. ومرحلة قضيمة بها ثلاث آبار، إلا أن مياهها ملحة بعض الشيء، وذلك لقربها من البحر. ولما كانت هذه القرية المذكورة وفيرة الأسماك فقد لقيت استراحتها رواجًا بين المسافرين المحليين المترددين عليها.

والقوافل المتحركة من هذا الموضع تصل إلى "رابغ" التي تبعد مسيرة ست عشرة ساعة عن قضيمة من ناحية المدينة المنورة. ومع أن هناك بعض التلال الصغيرة الممتدة على طول الطريق بين مكة المكرمة ورابغ، فإنها غير مرتفعة بالقدر الذي يحجب الرؤية. ولذلك كانت معظم المواقع في هذا الطريق ترى البحر بسبب قرب منطقة رابغ من البحر كذلك. ولما كانت الطرق الموصلة بين قضيمة ورابغ معبدة ورملية في معظمها، فلذلك كان السير فيها مريحًا.

وكانت الطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تتعدد عند رابغ، وكان أكثرها استعمالاً يسمى "الطريق السلطاني".

والمرحلة الأولى للطريق السلطاني "الرئيسي" أي الاستراحة الأولى للقوافل المتحركة في رابغ، كانت في موقع "مستورة" الذي يبعد ست ساعات عن رابغ. وبهذه المرحلة التي تقع في الميدان الصحراوي المسمى "منخفض ميمون" بئران: إحداهما عذبة المياه، والأخرى مالحة. وبعد مرحلة مستورة تصل القوافل إلى استراحة "بئر الشيخ" وهي ذات نبع عذبة المياه، وتبعد اثنتي عشرة ساعة عن مستورة. =

الجمال والبغال والتخت روان تسلكه. وعلى الجانب الغربي من إسطبل عنتر كانت هناك طريق تتصف بالمطالع والمنازل قام أمير الحج رضوان بك بتطهيرها... وقد قطعنا خمس عشرة ساعة بالتوقيت الحنفي وسط أشجار السواك والبلسام وأشجار النبق وأشجار شوك الجمل، حتى وصلنا إلى:

والمسافرون من بئر الشيخ يصلون إلى قرية "صفرا" التي تبعد عن بئر الشيخ اثنتي عشرة ساعة. وبين هاتين المرحلتين بئر مشهورة تسمى "ابن حصاني".
وإذا كانت قرية صفرا كبيرة إلى حد ما ويقطنها حوالى خمسمائة نفس، إلا أنهم جميعًا مازالوا يعيشون حياة البداوة، هذه القرية المذكورة تمتلك المياه الجارية والأشجار المتعددة إلا أن معظم مغروساتها محصورة في أشجار النخيل والليمون والحناء. وبعد صفرا بثلاث ساعات تقع قرية "حمراء"، وهي أيضًا ذات مياه جارية وأشجار يانعة عدة، وتنتج هذه القرية أجود أنواع الحناء وزيت البلسان الذي يتجمهر عليه الحجاج والمسافرون عند المرور بها.
وأكثر القوافل المسافرة من صفرا لا تتوقف في الحمراء، بل تواصل سيرها إلى الموقع الموجود في مدخل "جديدة" الضيق والمسمى "الحوبة جية". والمسافة بين هذين المنزلين ست ساعات. وتوجد المياه الجارية في موقع الاستراحة. وتصل الرحلة بعد "الحوبة جية" إلى "بئر عباس"، وتقع بئر عباس على بعد خمس ساعات من المدينة المنورة من جهة "الحوبة جية" وعند التوجه إلى هذه المرحلة تمر القوافل من ممر "جديدة". وتوجد قريتان صغيرتان بين هذين المنزلين. والقوافل المسافرة من بئر عباس تصل إلى "بئر الشربوفي" بعد اثنتي عشرة ساعة، وهنالك أيضًا بئر مياهها عذبة حلوة. وبعد التحرك من "بئر الشربوفي" بأربع ساعات، تصل القوافل إلى موقع "شهدا"، وهناك أيضا بئر مياهها عذبة مستساغة.
وبين هذا الموقع والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة. وأهالي المدينة المنورة الكرام يستقبلون زوار مكة المكرمة وحجاجها القادمين لزيارة المدينة المنورة في البستان المسمى "أبيار علي" الواقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة.
وليس من المعتاد توقف المارة من هذه الطرق في هذه المنازل والبقاء بها؛ إنما الأمر حسب رغبة الجمالين الذين يودون التوقف في كل مرحلة بها آبار للتزود بالمياه. ولا يتوقفون في الاستراحات التي ليست بها مياه. وعلى أي حال فإن دخول المدينة المنورة في اليوم السادس من القيام من رابغ يعد من العادات القديمة التي تعودت عليها القوافل.
والطريق المذكورة قديمة بالنسبة للمحامل الشريفة وقوافل الحجاج، وعلى الرغم من قلة مياهها، فإن منازلها ومطالعها شبه معدومة، أما الطريق المذكورة آنفا فتوجد عليها سلاسل الجبال التي تحيط بجانبيها حتى مرحلة "بئر عباس". ولما كانت الطريق تمر ببعض الممرات الضيقة في أكثر مراحلها، فإن هذا كان يشجع البعض من عربان قبائل "بني حرب" على السيطرة عليه من حين لآخر والسطو على أموال القوافل المترددة. وربما وصل الأمر في بعض الأحيان إلى القتل والسلب معا، مما يدفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب الزوار وسائر المسافرين إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بـ "الفرع وغائر" والتي كان قد افتتحها حضرة السلطان منذ بضع سنين خلت بسبب عمرانها وعدم خطورتها. انظر للمترجم: الرحلة الحجازية...

منـــزل قلعة أزلم

وأزلم[١٢٤] هو اللسان العربي... وفي عام (...) قـــام (...) مـــن ســـلاطين مصر ببناء هذه القلعة. لها باب واحد. وفي كل ركن من أركانهـــا يوجـــد بـــرج. ومحافظ القلعة هو من متفرقة[١٢٥] مصر، وفي معيته سبعون من الأنفار، وعشرون قطعة من المدافع السلطانية من مستحفظان[١٢٦] البلوكات السبعة[١٢٧] ولها ذخائرها.

---

(١٢٤) أزلم: قلعة تقع على طريق الحج بعد إسطبل عنتر. وكانت بها في زمن أوليا چلبي قلعة ولكن لم يذكر شيئا عمن بناها. وهو يصفها ويصف قواتها كما هو في النص.

(١٢٥) المتفرقة Müteferrıka: مصطلح يُطلق على أرباب الخدمة الذين كانوا يعملون في خدمة السلطان والوزراء ورجال الدولة. وكان يُطلق على رئيسهم الذي يعمل في السراي "متفرقة باشي" أي رئيس المتفرقة. أول ما نصادفه عن هذه القوات كانت في "قانوننامه" محمد الفاتح. وهم الذين يعملون في خدمة الصدر الأعظم والوزراء. كما كان يتم أخذ أولاد القواد والنيشـانجية للعمل في خدمة السلطان تحت هذا الاسم.
وكان أبناء الصدر الأعظم الذين يلتحقون بهذا العمل يتقاضون ستين آقچه، بينما أبناء الوزراء يتقاضون خمسين آقچه، وأبناء الأمراء يتقاضون خمسا وأربعين آقچه. وكان يُطلق عليهم أحيانا "واجب الرعيا آغالر" أي أغوات يجب رعايتهم.
وكانوا في الجيوش الإنكشارية يمثلون الميسرة "متفرقة صولغان". كما كانوا في أوقات السلم يعملون في خدمة أغوات الإنكشارية في سائر بلوكاتهم. (عن محمد ذكي پاقالين ح٢ ص ٦٣٧).

(١٢٦) مستحفظان – مستحفظ Mustahfiz: مصطلح عسكري كان يُطلق على بعض من قوات الإنكشارية الذين يعملون في الحفاظ على القلاع والدفاع عن الدولة، وكانت أعدادهم تزداد أو تقل حسب عدد القلاع ومدى أهميتها. وليس بينهم وبين قوات الإنكشارية الأخرى فرق من ناحية التيمارات إقطاعات التي كانت تمنح لهم. وقد تم إلغاء هذه التشكيلات العسكرية مع إلغاء قوات الإنكشارية. كما أُلغيت تيماراتهم. (انظر: محمد ذكي پـاقالين ح ٢ ص ٦٣٠).

(١٢٧) البلوكات السبعة: المفرد بلوك Bölük ، بمعنى قسم أو جزء أو مجموعة، وكان في العصر العثماني يطلق على قسم من القوات التي تعمل في الولايات وتساعد على حفظ الأمن وجمع الضرائب، وكانوا يختلفون وفقا لمعسكراتهم، وفي بداية الأمر كانت الإنكشارية تتكون من مجموعات، كل مجموعة من ألف والألف من مئات والمئات من عشرات، وكان يُطلق على قائد البلوك لقب "ياياباشي" أي رئيس المشاة.
في بداية الأمر تشكلوا من أربعمائة في غاليبولي وانقسموا إلى ٨ بلوكات، وكل بلوك كان مكونا من خمسين نفرا. وكان أولاد العجم في إستانبول ٣١ بلوكا، وكان في مصر سبعة بلوكات في كل معسكر من معسكرات الإنكشارية، وكان يدفع ببعضهم للمساعدة في الحفاظ على القلاع. (انظر: محمد ذكي پـاقالين ح ١ ص ٢٤٢).

وداخل بابها الحديدى يوجد جامع، وبها حوالى خمسين دارًا متناثرة. وداخل القلعة بئر عذبة المياه وتُدار سواقيها بالأبقار والثيران فتجرى مياهها خارج القلعة، وعلى جانبها الأيسر أحواض شافعية، تموج بها المياه، يشرب منها سائر عباد الله فتجرى فيها الحياة.

وتقع هذه القلعة بين مصر ومكَّة. وجملة عساكر تجريدتها تصل فى يومين وتمكث بها. فيصير ما بها جيشًا عظيمًا. وجميع عساكر أزلم وأغواتهم يستقبلون الحجاج فى موكب عظيم، ويصطحبونهم إلى داخل قلعة أزلم، وعند دخولهم إلى قلعة أزلم تُطلق مجموعة من طلقات البنادق والمدافع ويصير بها ابتهاج عظيم. ويقوم قائد أزلم أيضًا بإطلاق دفعة من طلقات البنادق والمدافع والتى تصل طلقات المدافع التى تُطلق فيها إلى ست دفعات، ليعبِّروا بها عن سرورهم.

ويُشارك أمير الحج أيضًا فى هذه الاحتفال بإطلاق ست نوبات من مدافعه وبنادق جميع العسكر حتى إن سماء وادى أزلم تُظلم نهارًا من دخان المدافع والبنادق التى تُطلق. وينادى المنادون تباعًا بأن الأوامر قد صدرت بالقعود يومين. فيُنزل على الفور الجمال عشرة الآلاف التى جاءت فى صحبة عساكر أزلم، حمولاتها من الأمتعة والمأكولات والمشروبات، ويكون بدو القرى المحيطة بأزلم وعربانها قد أحضروا هم أيضًا منتجاتهم، ويصير هناك بيع وشراء عظيم، بعضهم يشترى أوقية البكسماط ببارة[١٢٨] واحدة أو بارتين.

وبهذا تعود الروح والحياة إلى الحجيج الذين كانوا قد أصابهم الإرهاق، ويرتوى الجميع ويسقون أبعارهم، وتصبح هناك سوق وكأنها سوق قلعة مزيريب

---

(١٢٨) بارة Para: مصطلح مالى يُطلق على عملة معدنية كانت تساوى ١/٤٠ من القرش، وقد استعمل للدلالة على النقود بصفة عامة.انتقلت من الفارسية إلى العثمانية بمعنى السكة، وكانت قيمتها أقل من الآقچة وأصغر منها فى التعامل، وكانت تمثل كسور القرش.
كانت تجمع فى محفظة كبيرة ثابتة العدد تسمى "پارة كيسه سى". أى حافظة أو كيسة النقود.
(انظر: محمد ذكى پاقالين ج ٢ ص ٧٥٢ – ٧٥٣).

فى الشام. ويستعيض الحجاج ما يكونون قد فقدوه من الجمال والأباعر والخيول والبغال استعدادًا لبقية الطريق، ويأتى من مصر لهؤلاء الحجاج من المأكولات والمشروبات والحلويات من أحبائهم فى مصر.

وبها يتحول وادى أزلم وكأنه وادى "حلوى"، وبها يتحول لسان جمّاليها وحمّاليها إلى حلو الكلام، وينالون من الحلوى الشىء الكثير، وكثيرًا ما ينال البعض منهم بقچه "صرة من القماش" بلا مقابل. وبعد نهاية اليوم الثانى ومع بزوغ النهار يُطلق النفير... وتتجه القافلة أيضًا ناحية الجنوب وسط أشجار أشواك الجمال وأشجار السواك والبلسام والطرق الرملية.و عبرنا هذه المسافة فى اثنتى عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منــزل القسطل

هكذا باللسان العربى؛ ويطلقون عليه أيضًا ساحل "سلمة" و"منــزل كفافى". وهو يمتد من قرب مكة ومن ينبوع رابعة، وينتهى ويغيب فى بحر السويس. وهذا المنــزل صار مشهورًا حيث قدم حضرة مرزوق الكفافى، وأنشأ قبة فوق صخرة عالية تطل على البحر وهو مدفون بها. ومرزوق الكفافى هو وأبوالسعود الجارحى من الذين نادوا على السلطان سليم الأول[١٢٩]، وهو مازال فى إسلامبول قائلين:

---

(١٢٩) السلطان سليم الأول ٨٧٥ - ٩٢٦ هـ = ١٤٧٠ - ١٥٢٦م: لُقِّب بـ"ياووز الفظ". وهو تاسع سلاطين آل عثمان، ابن بايزيد خان، حفيد محمد الفاتح ووالد سليمان القانونى. جمع بين السلطة والخلافة بعد أن ضم الشام ومصر والحجاز. وسّع من حدود الدولة فى آسيا وإفريقيا. شمل خير الدين بارباروس برعايته، تولى العرش ٩١٨هـ، وحاول خلق جنسية عثمانية تشمل كل العناصر الإسلامية التى دخلت حوزة الدولة ليخلق بذلك تكتلاً إسلاميًا يصد به الصفويين. وانتصر عليهم سنة ٩٢٠هـ = ١٥١٤م فى موقعة چالديران. ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبته فى كسر شوكة الصفويين لتعاملهم مع البرتغاليين. توفى عن إحدى وخمسين سنة بعد أن قضى فى السلطة ثمانى سنوات وثمانية أشهر فقط.
عند دخول سليم الأول إلى مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م كان الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد والأمر والنهى فى الديار المصرية... ولكن بعد أن استقرت الأمور له نقل الخليفة ومن فى معيته إلى إستانبول مع الآلاف من الفنيين والحرفيين المصريين وخلال المراسم التى تمت فى جامع الأياصوفيا تم التنازل عن لقب الخلافة وجُبَّتها من قبل آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث؛ وهكذا أصبح سليم العثمانى خليفة للمسلمين، وجمع بذلك بين السلطة السياسية والدينية فى البلاد. انظر: ابن إياس جـ ٥ حوادث ٩٢٣ هـ وكذلك . Osmanlı Padişahin Ansiklopedis. C. I. S 214

ياسليم، ياسليم، تعال اجلس على المصر". وقد استمع سليم الأول النداء فأنا أعلم أن هذا صدى قطب الأقطاب. وعلى الفور اتجه بإيمانه إلى مصر. ولسوف نحرر ذلك في موضعه إن شاء الله.

ومنـــزل قسطل هذا مكان رملي على شاطئ البحر، تكثر به أشجار النخيل الربّانية؛ أي التي نبتت بالعناية الإلهية ولم يغرسها أحد، ومياهها سامة للغاية. مكان تكثر فيه الرمال، وأي إنسان يسقي حيواناته من مياه بئر هذا المنـــزل، فإن كبده يخرج، ويصبح وكأنه فانوس الخيال. ومياهه مسهلة للغاية، والعارف بذلك يتصرف بحكمة وبعقلانية مع ماء هذه البئر. وعلى طريق مكة إذا لم تشرب الجمال والبغال لمدة يومين فلا يُصيبها ضرر.

وجميع الحجاج يقيمون استراحاتهم هنا على شاطئ البحر ويستمتعون بمشاهدته والاستحمام فيه، ولكن لا يجوز المكوث طويلاً، حيث إن مياه البحر تصيب عورة الرجل بالضرر، ولكنها تجلي العيون، وتزيد قوة الإبصار. إنه بحر زائد الملوحة، لكن أسماكه المتنوعة لا توجد في بحار أخرى، وكلها أسماك مائدة لذيذة. وجميع الحجاج يصطادونه بالشباك، ويأكلونه حسب القول الشائع "أكلت السمكة حتى رأسها"(١٣٠)، وعلى الجوانب الثلاثة لهذا المكان قرى عامرة بالبدو والعربان، فيأتون بكل متاعهم وبالماء الزلال الذي وضعوه في القِرَب، ويسقون الحجاج وحيواناتهم. وجميع هذه القبائل تأتي بجمالهم وأغنامهم ويغسلونها على شاطئ هذا البحر.. وجملة الحيوانات تصاب بالطاعون من تأثير المياه السامة. وإذا ما سقط حاج من الحجاج الذين يحطون رحالهم في براثن الرعشة فلا خلاص ولا علاج له، ولكن الذين يبقون خلف مياه هذا البحر فلا يصيبهم ضرر من المياه، ولكن كل الضرر من لصوص البدو والعربان وسارقي الجيش؛ بحيث يدخلون خيام الذين ينزلون إلى المياه ويسرقون متاعهم وكل ما تصل إليه أيديهم. فالاحتراس واليقظة لازمان وإذا ما اكتشف أمره فإن اللص يجد الخلاص بإلقاء نفسه في اليم.

والكثير ممن لا دين ولا أخلاق لهم يأتون من أزلم مع هذا الجيش، وما إن يلاحظوا أن البعض قد سقط نائمًا من شدة التعب والإرهاق، على الفور يدخل اللصوص، ويسرقون كل ما يصل إلى أيديهم صباحًا أو مساءً، حتى إنهم يمكنهم أن

---

(١٣٠) "أكلت السمكة حتى رأسها" قول شائع بين العرب يفيد معنى أنه أنجز الأمر وأنهـــاه، وأن هذا يدل على أن أوليا كان واقفًا وقوفًا طيبًا على اللغة العربية.

يسرقوا الكحل من العين... وإذا لم يجدوا كحلاً سرقوا العين ذاتها، ومن هنا فالحرص ألزم لأن جملة اللصوص فى شراكة مع القضاة، ولذلك فهم يبلعون الجمل وكأنه عصفور صغير. ويُطلق النفير أيضًا فى هذه المرحلة، وفى هذا المكان يتم الاستمرار فى السير فى هذا الطريق نحو الغرب على شاطئ البحر، ويكون قائد أزلم وجنوده قد بقوا فى المؤخرة وهم يعانون من المرضى والذين لا دواء لهم وقد أركبوهم على المحفاة الأميرية... ويسير الموكب وعن يساره اليم وعن يمينه بحر الرمال... ويستمر السير أربع عشرة ساعة، حتى نصل إلى:

منـــزل قلعة قويلان، يعنى قلعة المُويلح

قد تم بناؤها فى عصر السلطان سليمان خان[١٣١] سنة...، وهى قلعة متينـــة ثرية البناء على شكل مربع، مقامة فوق مكان رملى مستوٍ يبتعد عن شاطئ البحر،

---

(١٣١) سليمان خان: هو سليمان القانونى [٩٠٠ - ٩٧٤ هـ = ١٤٩٥ - ١٥٦٦م]، أعظم سلاطين بنى عثمان، ابن سليم الأول. اعتلى العرش سنة ٩٢٦ هـ ولقب بالقانونى لعدله وكثرة القوانين التى سنها، وصلت الدولة العثمانية فى عهده أقصى اتساعها. لقبه الأوروبيون بالعظيم MagniFique وصلت فتوحاته إلى المجر سنة ٩٣٦ هـ وحاصر فينا غربًا ووسع فتوحاته فى آسيا فضم كل إيران وبغداد وآذربيجان ووصل إلى خليج البصرة سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤م. كانت له عمارات فى كل العالم الإسلامى، وامتدت مدة سلطنته ٤٨ سنة. وكان عند وفاة السلطان سليم الأول واليًا على مغنيسيا (مانيصه) تولى السلطنة ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره. وكان عليه أن يتابع انتصارات والده، ففتح بلجراد وحاصر فينا، ولولا خيانة زوجته اليهودية روكسلانه (خرم سلطان) وصدره الأعظم إبراهيم باشا لتحولت النمسا إلى ولاية عثمانية. لقب بالقانونى لكثرة القوانين التى أصدرها لتنظيم حياة الإمبراطورية العثمانية. حول البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود وبحر مرمرة إلى بحيرات إسلامية عثمانية، لم تكن الأساطيل الأجنبية تستطيع دخولها بدون إذن سابق، وقد اعتمد فى ذلك على الأمير الجزائرى خير الدين بارباروس الذى عينه قائدًا للأسطول العثمانى.

لم يغفل السلطان سليمان القانونى عن إنشاء الصروح المعمارية، من جوامع وكليات الصحن الثمان، ودور الحديث، والجسور والخزانات والحمامات والاستراحات فى شتى ربوع الدولة العثمانية.

كانت للمدن الإسلامية المقدسة مكة والمدينة والقدس مكانة خاصة فى نفس القانونى، فأوقف عليها الكثير من الأوقاف الخيرية، وولاها خير قواده، وكفل لها تطورًا معماريًا وحضاريًا، ومازالت ماثلة للعيان حتى اليوم، فجدد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، وأمن قوافل الحج المؤدية إليها، وأقام المخافر والحصون والقلاع والآبار والمطاعم، على طرق القوافل لخدمة الحجيج.

أشرف على بنائها سليمان پـــاشا الطواشى البدستى(١٣٢). وليس هناك على الطريق

---

(١٣٢) سليمان پـــاشا الطواشى البدستى: وهو من الطواشية، والطواشية جمع طواشى Tavaşi مصطلح فى السرايات والقصور بدلاً من الخادم، وكانت هذه الطائفة تختار من الذكور الذين يتم خصييم لكى يحال دون قدرتيم على التناسل. فالخدمة فى القصور معروفة منذ أقدم العصور، وقد شاعت بين المصريين والبابليين والأشوريين القدماء، ثم راجت عند اليونانيين، ثم انتقلت الطواشية، منهم إلى الرومان والفرنجة، ويقال إن أول من قام بهذا العمل سميراميس الملكة الأشورية فى الألف الثانى قبل الميلاد.
ويسجل التاريخ أسماء عدة من الذين اشتهروا بالقيام بأعمال جليلة، وكانت ليم دراية وخبرة بكثير من الأمور، وأن البعض منهم قام بأعمال فدائية وبطولية كبيرة؛ منهم مرمس Mermes الرومانى، وكان منهم من تولوا المناصب العليا فى الهند وفارس والصين وكانوا من أصحاب النفوذ فى أواخر عهد الدولة الرومانية.
ويسجل التاريخ أيضاً أن بعض الخصيان "الطواشية" قد تولى المناصب العالية كالصدارة والوزارة فى العهد العثمانى أمثال على پاشا الخادم، وسليمان پاشا الخادم.
وقد تم الاستمرار فى هذه العادة فى العالم الإسلامى لعدة أسباب؛ كالخوف والغيرة على الحرم السلطانى وعلى الرغم من تحريم ذلك بل تحريم عملية الخصى هذه فإن بعض الحكام قد غضوا الطرف عن منعها وكان زيد بن معاوية أول من استخدم الطواشية فى الإسلام، فلقد استخدم يزيد طواشياً يدعى "فتح" فى وظيفة "ياور" له. ثم تبعه الخلفاء الذين جاءوا بعده فى هذه السنة، وهذا أدى إلى كثرة استخدامهم فى العالم الإسلامى.
ولما زادت الرغبة فى استخداميم زاد تجار الرقيق من اليهود فى أسعارهم، وبالغوا فى ذلك. وكان هؤلاء بهذا الشكل وقد لاقت رواجاً كبيراً على أيدى هؤلاء التجار اليهود وأسسوا مجموعةً كبيرة من المستشفيات للقيام بهذه المهمة وكانت أشهرها هى تلك التى تأسست فى مدينة ويردن Verdun وقد اكتسبت شهرتها خلال سنوات الحرب الفرنسية الألمانية. ولقد نشط تجار الرقيق خلال هذه الحرب، وجمعوا أطفالاً لا حصر لهم، وقاموا بخصيهم، وقد مات الآلاف منهم من جراء هذه العمليات الوحشية، ومن بقى منهم على قيد الحياة كانوا يرسلون إلى إسبانيا حيث يباعون للعظماء والأثرياء بثمن باهظ. ثم رويداً رويداً راجت عمليات تبادلهم بوصفهم هدايا مثل الخيول أو أدوات الصيد وما شابه ذلك.
فمثلاً كان حكام الفرنجة كى يداهنوا الحكام العرب المسلمين فى الأندلس كانوا يبعثون إليهم مجموعة من الطواشية ضمن الهدايا التى يبعثون بها إليهم. فعندما أراد حاكم برشلونة وطارغونة تجديد الصلح مع الخليفة المستنصر فى الأندلس أرسلا له عشرين طواشياً من أطفال السلاو، وعشرين قنطاراً من الفراء الثمين، وكان الخلفاء يشكلون منهم فرقاً خاصة لخدمتهم والعناية بأمور القصر والخدمة داخله، وكانت طوابير الطواشية تحتل مكانتها بين الطوابير الأخرى بالاحتفال بالجلوس على العرش، أو تعيين ولى للعهد أو سائر المناسبات الأخرى.
كان أكثر الطواشية جلبوا إلى العالم الإسلامى من الأندلس؛ حيث تتم عملية الخصى فى الأماكن القريبة منها، أو من ناحية خورلسان حيث كان بعض تجارها يشترون العبيد من بلاد السلاو ويقومون بهذه العملية لهم ثم يبيعونهم. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنهم كانوا يتدخلون فى شئون الحكم والإدارة لما يملكونه من نفوذ بسبب حساسية الأماكن التى كانوا يخدمون فيها. =

بين مكة ومصر قلعة تضاهيها فى المتانة. جملة مدارها ستمائة خطوة دائـرًا مـا دار، لها ثمانية أبراج قوية البنيان. ولها باب حديدى قـوى يطـل علـى الجانـب

=كما يقال إن بعض المتعصبين المسيحيين كانوا يقومون بإجراء هذه العمليات لأنفسهم لقتل الرغبة الجنسية والشهوة فى داخلهم ولكى يوقفوا حياتهم للحياة الأخروية، ومن أشهر هؤلاء أوريجان Origen الإسكندرانى وكان عالمًا كبيرًا فى العقائد المسيحية؛ بل شهدت العصور الوسطى بعضًا من المذاهب الدينية المسيحية التى كانت تقوم بهذه العمليات لوقف حياتهم على العبادة فقط وكان لهم صوتهم المسموع فى إيطاليا.
أما فى الدولة العثمانية فقد كان هناك الأغوات البيض أى الطواشية الذين يجلبون من البلدان الأوروبية، ويطلق عليهم أق أغا الأغا الأبيض، أما الطواشية السود فقد كان يطلق عليهم "خادم أغا" أى الأغا الخادم، وكانوا يجلبون من الحبشة أو من إفريقيا عامة.
كان مراد الثانى أول من استخدم الطواشية البيض للخدمة فى السراى. قاموا بالخدمة فى أول الأمر ثم رويدًا رويدًا بدأوا يكلفون بأعمال إدارية داخل السراى وفى أجنحة الحريم، وقد وصل البعض من هؤلاء الخدم البيض إلى الوزارة والصدارة العظمى.
أما الطواشية الزنوج فقد كانوا فى أدنى المراتب فى الخدمة، وكان يطلق عليهم (الأدنى).
وكان الخادم الجديد يمثل فى بادئ الأمر بين يدى أغا دار السعادة أى بين يدى خادم العتبة السلطانية، ثم يسلم إلى "أوضه لاله" أى مربى الأوضة وبعدها يصبح من الخواص. ثم يرسل أقدمهم تباعًا إلى الأغا "أى غلام الباب الرئيسى" لقيده فى سجلات السراى.
وكان جميع هؤلاء من الطواشية أى من الخصيان ثم يربون على الطاعة والخضوع، وأول دروسهم تقبيل اليد ممن هم أقدم منهم من المربين، وهم أيضًا من الطواشية. وكان يطلق على الحديث منهم "الأغا الأعجمى" أى الذى لا يعرف شيئًا بعد.
وكان خمسة منهم يتولون نوبة الخدمة على باب الحريم فى السراى السلطانى، أو على باب الحريم فى أى قصر. ويطلق على أقدمهم "قلفة النوبة". وكان آغا عتبة السعادة هو الـذى يسلمهم المفاتيح ويتسلمها منهم عند تجديد النوبة.
يتلوهم فى المرتبة "الأوسط"؛ وهم بدورهم أربع درجات، أقدمهم يتولى تنظيم النوبتجيـات أى النوبات أمام الأبواب ويشرف عليهم، وهم المسئولون عن فتح الأبواب وغلقها... ثـم يتدرج الأقدم فيعين غلامًا على الباب الرئيسى إلى أن يصل إلى أن يكون المسئول عـن بوابة السراى الرئيسة، ثم يحظى صاحب الحظ الوفير منهم على لقب "أغا عتبة السعادة".
وهذه أعلى منـزلة فى السراى السلطانى. وفى سنة ١١٢٧هـ = ١٧١٥م لما تولى داماد على باشا والى مصر الصدارة فى عصر السلطان أحمد الثالث، أصدر أوامره بإلغاء نظام الطواشة لكى يتخلص من لقب الطواشى الذى كان يلازمه خاصة وأن الطواشية الزنوج أى السود كانوا يجلبون من السودان إلى مصر ومنها إلى بقية ولايات الإمبراطورية. وبعد أن يتم خصيهم فى مصر. على الرغم من هذا المنع، فإن هذا لم يمنع الدولة العثمانية وإن كان بشكل أقل.
وكان أغا دار السعادة أى أغا عتبة السعادة عند تغيير السلطان، أو كبر سن الأغا يبعث به للعمل والخدمة فى الحرمين الشريفين.

الشمالى. فوق طاقته العلوية تأريخ لسليمان خان بالخط الجلى. ولكن لا يحيط بهذه القلعة أيضا أى خندق. بها محافظ من متفرقة مصر. وسبعون نفرا من رجـالات الحصار، وبها مستحفظان من البلوكات السبع. بداخل القلعة ثمانون بيتـا عربيًـا، وبها جامع وحمام. وبداخلها ما يقرب مـن عـشرين مكانـا لبيـع الاحتياجـات الضرورية.

وأمام بوابة القلعة شجرة نبق ضخمة للغاية، كما توجد داخل القلعة أيضا بئر جارية عذبة المياه، عليها ساقية تُدار بـالثيران والأبقـار، وتـصب مياهيـا فـى الأحواض الموجودة خارج القلعة والتى يُسقى منها سائر الحجاج ودوابهم. وحـول القلعة من جوانبها الأربعة بستان نخل يُسقى من بئر عذبة. وعند وصول الحجـاج المسلمين إلى هذه القلعة تُطلق طلقات مدفعية ووابل من الطلقـات الناريـة بهجـة وترحيبًا. ويبقى بها الحجيج لمدة يومين. توقد خلال لياليها - كما هو الحـال فـى بدرحنين - الفوانيس الشمعية والمشاعل والمصابيح، فتتحول ظلمة الليل إلى ضوء النهار. وفيها أيضا تقام سوق مؤقتة حيث يحضر القرويون من نواحيها الأربع كل محاصيلهم ومنتجاتهم؛ حيث تأتى بها النسوة والصبية والرجال فيبيعون ويـشترون ويحققون أرباحًا مزيدة وفوائد جمة لا يمكن التعبير عنها. وكانت غنمتـان وكميـة من الطعام بما لا يتجاوز دينارًا ذهبيًا وستة أسبات من التمر بألف بارة.

وعندما يتم الوصول من أزلم إلى هنا تكون بداية حدود مصر. وهذا المكان ليس تحت سيادة الشريف وحكمه بل هى تحت رعاية الشيخ (...)[١٣٣] من مـشايخ مصر. وإذا ما ضاع شىء يتم تعويضه من الشيخ. وخلاف قلعة المويلح هذه، فعلى شاطئ البحر توجد قلعة المويلح القديمة. وإلى جانب أنها صغيرة فقد تجمعت عليها عوامل الخراب، ويُقال إن سبب خرابها أن وصل إليها أحد الأولياء الواصلين قادما

(١٣٣) رعاية الشيخ: ترك الرحالة أوليا اسم الشيخ بدون أن يذكره على أمل أن يملأ هذه الفراغات فيما بعد، ولكنه لم يتمكن من ذلك. وقد تكرر ذلك فى ثنايا الكتاب كثيرا وبخاصة للأسماء والتواريخ.

من الكعبة الشريفة وأصابه المرض. وحين أرقده المرض ظنوا أنه يحمل دنانير كثيرة وحاولوا قتله طمعًا في الذهب. وعند تفتيشه لم يجدوا سوى بقسماطة واحدة، فندموا على محاولة قتله، ويتركونه عدة أيام دون رعاية فشاعت حكمة الله أن يشفى من مرضه ولا يتوفاه الله، فدعا عليهم قائلاً: "ليَنْل الخراب من بلدتكم. وألاّ تطول أعمار أنسالكم. وألاّ تعرف أبدانكم الشفاء من أمراضها"، ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم وأهلها يهلكون من شتى أنواع المرض. وأصاب الخراب حتى بنيان القلعة، وظلت خربة. وعلى باب هذه القلعة كتب: "عمَّر هذا القلعة المتين السلطان برقوق عزَّ نصره"[134].

وداخل بحر السويس أمام قلعة المويلح هذه بحر زاخر بمختلف أنواع المخلوقات والقشريات والحشرات، بحيث لا يوجد مثيل لها في بحر آخر أو بحيرة أخرى. بها سمك القرش الذي يبلغ طوله أربعين زراعًا أو خمسين زراعًا. وبحيث تخافه وتخشاه كل الحيوانات البحرية الأخرى، بعضها يدير عراكًا شرسًا في الأعماق مع السفن المتجهة إلى السويس، وإذا ما صادف أي إنسان في البحر يلتهمه، وكثيرًا ما تُشعل السفن نارًا في مؤخرتها لتخويفه، فهذا المخلوق يخاف من شعلات النيران ويهرب بمجرد إشعالها. ويحكى أنه في جزيرة دهلك Dahlek في بلاد الحبش بلع قرش من هذا النوع صياد لؤلؤ، ولما كان الغواص شجاعًا ومرنًا فقد قام على الفور بشق بطن سمك القرش المفترس هذا بالسكين التي كانت معه، ووجد الخلاص والإنقاذ بهذه الوسيلة. وهذه الحكاية مشهورة ومعروفة بين غواصي بلاد الحبش وملاحيهم. فلو خاف الغواصون من هذا القرش لما اصطادوا لؤلؤة واحدة ولما حصلوا على قرش واحد.

---

(١٣٤) السلطان برقوق: هو برقوق بن أنص – أو أنس – العثماني أبو سعيد سيف الدين الملك الظاهر، أول من ملك مصر من الجراكسة، تولى في دولة المنصور القلاووني أتابكة العساكر وانتزع السلطنة من آخربني قلاوون "الصالح أمير حاج" سنة ٧٨٤ هـ، وتلقب بالملك الظاهر وانقادت إليه مصر والشام وقام بأعمال من الإصلاح، وبنى المدرسة البرقوقية بين القرين بمصر، ومدة حكمه أتابكا وسلطانا ٢١ عامًا، ومن عمائره جسر الشريعة بالغور وقناة العروب بالقدس، وكان حازما شجاعا فيه دهاء ومضاء، مات في القاهرة سنة ٨٠١ هـ – ١٣٩٨م. (الأعلام ٢/٤٨).

وأمام قلعة المويلح هذه أنواع شتى من الأصداف والمحار والقواقع والثعابين وأصنام التنين وأسماك متحجرة وطاسات حجرية، وقواقع وقشور صدفية تشبه قلانس الدراويش، ورخويات تشبه حلوى المجاذيب وقشريات فراشات وزواحف وكأنها نفير البكداشية[١٣٥]. إن هذه النوافير القشرية بعضها يكون كالجواهر المصقولة، وبعضها يكون كطاسات المنقلة أى أنها تشع ضوءا وتوهجا كتوهج النيران، ولا مثيل لها فى ديار أخرى. وتدخل إلى بحر السويس أسماك ثعابين المحيط التى يبلغ طول بعضها ميلاً. وبعضها يشبه المنارة المضيئة. بعضها ينثر المياه من منخاره وكأنها فسقية أو نافورة يصل رذاذها إلى عنان السماء إذا ما اتجه نحو سطح الماء.

ورأيت فى بحر السويس أمام موقع مويلح هذا نوعا من السمك له قرون لا توجد إلا على أفراس البحر فقط. إن أنواع أسماك بحر القلزم هذه من العظمة والتنوع والغرابة ما إذا حاولت أن أحرر أو أكتب عما هو موجود منها فى بوغاز مويلح هذا لما اتسع المجال، ولا أمكن تخيلها حيث لا شبيه لها فى أماكن أخرى. وربما يصاب البعض بالملل من ذكر تلك الأنواع التى لم يرها أو يعرفها أو يعرف فوائدها. وما الامتناع عن الكتابة ناتجا عن العجز وعدم المعرفة، بل للاستمرار فى الرحلة والترحال.

والآن، ومرة أخرى نحو الغرب من المويلح هذه وعلى شاطئ البحر تمتد المناطق الرملية. وبمحاذاة البحر سرنا لمدة أربع عشرة ساعة فى طريق صخرى،

---

(١٣٥) نفير البكداشية: آلة كان ينفخ فيها البكداشية. وغالبا ما تكون مصنوعة من قرون الحيوانات. وكان البكداشي يعلقها في خصره وينفخ فيها إعلاما بوجوده بين الأهالي.
والبكداشية طريقة صوفية، مؤسسها حاجي بكداش ولي. ويرجعها البعض إلى سيدنا على كرم الله وجهه، ولد حاجي بكداش فى نيسابور عام ٦٤٥ هـ وفى عام ٦٨٠ هـ أشار عليه الصوفي أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول. فاستقر بالقرب من قيرشيير. توفى عام ٧٣٨ هـ. انتشرت طريقته في قرى الأناضول. ولهم دور كبير في توطين الترك فى الأناضول. أفكارها باطنية ولابد من المرشد. وتشكيلاتها سرية. كانت تستخدم مجموعة من الرموز و الإشارات الخاصة بها. انتشرت بين الإنكشارية فى الجيش العثماني. انتسب إليها بعض السلاطين. بها أفرع تختلف عن بعضها .

ولكنه على الجانبين مزدان بأشجار المسواك وشوك الجمل ونباتات عطرية تعبق الجو برائحتها التى تتسلل إلى الأنوف؛ فتصيب الأدمغة بالثملان، حتى وصلنا إلى:

منـــزل عيون القصب

تعنى باللغة العربية نيير قصب السكر، أو بئر السكر، بها عيون أو آبار عذبة المياه. هذه المنطقة تحت سيطرة مشايخ قبيلة أولاد النبى صـــالح (عليـــه الـــسلام) وحكميم. لو ضاع أى شيء فيم مُلْزَمون به، ويلزمون بإحضاره. ومـــا إن تمـــر ساعة ويقدَّم العلف للجمال حتى يعزف النفير ويتم السير. وســـلوك الطريـــق مـــع ظيور شفق النيار. وشاءت حكمة الله أن صادف طالعنا خلال هذا الحج الـــشريف أن وصولنا إلى طريق قافلة الشام مر سريعًا، وأننا أدينا فريـضة الحـــج وكانـــت عودتنا أيضا مصادفة لعودة قافلة الحج المصرية، ومرت هذه العودة أيضا سريعًا. وربما لو تصادف وأن تقابلت القافلتان لحدثت مشكلات، ولكن فى الواقع كان توجه قافلة الشام وسيرها رويدًا رويدًا، ولم تكن هناك عجلة فى كل زمـــان، بـــل كـــان المسير رويدًا رويدًا وتم الوصول بقافلة الشام خلال عشرين يومًا، وفـــى المدينـــة مكثنا اثنى عشر يومًا، وكم كان هذا لطيفا. وتم المكث فى كـــل الطـــرق ودخلـــت القافلة إلى الشام مع مولد الشير الجديد.

أما ذهاب القافلة المصرية إلى الكعبة فكان الأمر يتطلب المسير لمدة ثمـــان أو عشر أو خمس عشرة ساعة مستمرة. كانت تسير بتأنٍ. وتمكث القافلة المصرية فى مكة خمسة وعشرين يومًا يقضونيا فى الليو والصفاء، ولكن عند العودة كـــانوا يسيرون خمس عشرة ساعة أو سبع عشرة ساعة مستمرة. ويستريحون يومين فقط فى المدينة، ويتعجلون، وأحيانًا ما كانوا يجعلون المرحلتين مرحلـــة واحـــدة وهـــم متجيون نحو مصر. ليذا كان هناك القول المشيور والمعروف بين الحجاج الـــذى خلاصته: " ليكن ذهابك مع القافلة المصرية وعودتك مع القافلة الشامية"، والواقـــع كان كذلك، ويجب أن يكون كذلك، ولكن الفقير، توجه بسرعة من الـــشام وعـــاد مسرعًا مع القافلة المصرية، ولكن الحمد لله، فقد ذهبنا وعُدنا فى ذوق وصفاء.

ولكن هناك حالة طيبة للحجاج المصريين؛ ففى أيدى الدَّلالين ساعات لتبيان الأوقات الخمسة؛ ففى الوقت الذى تحين فيه الصلاة، فمهما كانت الراحلة من دابة أو حمل يوقفونها فى أى مكان ويؤدى جموع الحجاج الصلاة، ويقدمون العلف للخيول والجمال، حتى يتناولوا هم أيضًا طعامهم ويستريحوا ساعة كاملة، ويشرب آلاف الحجاج القهوة اللذيذة ويستريحون. وهم فى كل مساء فيما بين المساء والعشاء يحطون رحالهم ويعقلون جمالهم، وبعد أداء صلاتهم ينامون ويكونون كمن قيل لهم "موتوا بأمر الله"، ويصبحون نائمين وكأنهم فى وادى أهل الكهف، وينام جميع أفراد القافلة حتى الجمال والدواب الأخرى من كل ذوات الروح، يصيرون وذرات الرمال فى سكون تام ونوم عميق وذلك لأن طريق مصر هذا فى غاية الأمن والأمان.

وبعد ذلك ما إن يرفع الدليل الذى فى مقدمة القافلة رايته حتى يتبعه الآخرون وتنطلق الأبواق وتدق طبول المسير. وما إن تتحرك مقدمة القافلة حتى يصل الخبر فى ظرف ساعة إلى آخر مَنْ هم فى مؤخرة القافلة من العساكر، فيتحركون هم أيضًا، ذلك لأن طرق مصر هذه لما كانت فى معظمها تمر فى معابر ضيقة لا تتسع إلاَّ لمسيرة قطارين من الدواب بجوار بعضهما البعض، ولذا فإن بداية القافلة حتى آخرها كانت سبعًا وثمانين درجة؟ وخلال عامنا هذا تصادف أنه عام الحج الأكبر، فكان حجاج المسلمين كثيرين ولكن لا تكون هناك استراحات من تلك التى يطلق عليها "راده"، استراحة الساعة هذه عند الذهاب إلى الشام؛ لأنه ليس هناك أمن أو أمان فى طريق الشام. فأشقياء البدو فراعنة. وطريق الشام متسع فسيح وعلى جانبى الطريق صحراء ممتدة، والطريق يتسع لسير أربع تختروانات، وعلى جانبيها يمكن أن تسير أربعة قطارات، وربما ثلاثة قطارات عن اليمين وثلاثة عن الشمال وتسير الجمال مهتزة. وعن ميمنة قافلة الحج الشامية يسير قائد الميمنة وفى معيته عساكر القدس ونابلس، أما الميسرة فيحيط بها جند الشام، يسيرون ليلاً ونهارًا، ذلك لأن منازل الراحة بعيدة: رغم يؤدون صلواتهم ويتابعون

سيرهم فورًا. ولكن مياههم عذبة ولذيذة وطرقهم صحراوية. ولكن في العودة، هم أيضًا يستريحون في تلك الاستراحات التي يُطلق عليها "رادة" أي استراحة قصيرة ثم يتابعون سيرهم.

أما طرق مصر فهي صخرية أحيانًا وأحيانًا أخرى تعبر من وادٍ، ومياهها غير عذبة أو لذيذة. ولكن هناك أمنًا وأمانًا، فيحيط بحجيج مصر جنود سبعة بلوكات، يسير على الميمنة معتمد أي كتخدا أمين الحاج والجنود الشراكسة (الجراكسة). وعلى الميسرة يسير جنود أمير الحاج مع المُؤخّرة والسباهية Sipah أي الفرسان والكَنُلْيان گونوليان[١٣٦] Gönüllü Yan (المتطوعة) وجميع المستحفظان والعزبان[١٣٧]، ومدْفَعْجيَّة الخزينة وقطع المدافع والجميع مدجج بالسلاح. يسيرون فوق جمالهم ونوقهم وأفراسهم خلف أمير الحج. ويأتي قائد أزلم وفي معيته ست قطع من المدفعية في أعقاب الجند وكأنهم المؤخرة. وإذا لم يأت جنود أزلم خلف حجاج مصر فلا يكون لهم مؤخرة عسكرية. ولكن في قافلة الحج الشامية فالمؤخرة مُكلَّفة. ومن مغانم العساكر المصرية حسن حالهم؛ ففي الأوقات الخمسة، وفي الأماكن التي يستريحون فيها، يُشعلون مشاعلهم وفوانيسهم، وفي نصف الليل يقومون بمراسمهم حيث يُكلفون بإعداد القهوة ويوزعون على الناس والحجاج الحلويات والسكر والبوريك والفستق والبندق والجوز والتمر واللب،

---

(١٣٦) الكَنُلْيان = گونوليان Gönullüyan: قوات من المتطوعين الذين ينضمون إلى الجيش خلال الحروب، ولم يكن أي منهم ينتسب إلى الإنكشارية أو إلى القوات النظامية فيما بعد. وكان رئيسهم يُطلق عليه "گونللو أغاسي" أي الأغا أو الضابط المتطوع. وكان يحق لأبنائهم الانضمام إلى الإنكشارية. وهؤلاء هم الذين كانوا يُقيدون في دفاتر الإنكشارية ولهم علوفة.

(١٣٧) العزبان: تعبير استعمل بشأن الجنود الذين كانوا يستخدمون في الأعمال المختلفة، وعزب تعني من لا زوجة له، وكانت تستخدم في التشكيلات بلفظ الجمع "عزبان" وقد وظف العزبان في خدمات السفن في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وكانوا يشكلون من مجموعات من سبعة أشخاص إلى ثمانية. ويحصل الواحد منهم على أربع أقچات، وقد استمرت تشكيلات العزبان البحرية والقلعة حتى تُلغيت الإنكشارية في عهد محمود الثاني.ياقلين ١/١٢٨.

ويبذلون من العصيدة والعقيدة [السكر المعقود] والفواكه الجافة الشيء الكثير بحيث لا يعلم مقدارها سوى الله.

وجميع الناس يملأون جيوبهم بالحلويات والسكر والبندق، وطالما هم سائرون في الطريق وهم يتسلّون بها. وإذا كان المنزل قريبا، فيبقون ساعة ثم يُنادى أتباع "ابن حلوان البدوى" الذين يبلغون أربعين رجلاً وقد توشحوا بالوشاح أو الشيلان الحمراء قائلين وهم فوق ربوة عالية: "يا حجاج... الحمد لله... منزل ... مأوك قريب وبركاتنا كثيرة". ومن حكمة الله أن هؤلاء البدو يُسمعون صوتهم إلى كل الحجاج، فيسعد كل من يسمع النداء حيث إن المنزل أصبح قريبا. ولكن الحكمة في ذلك هي أنه بمجرد أن تسمع جملة الجمال هذا النداء حتى تسرع وتصير كالتنين ذى السبع رءوس، ولا يستطيع المترجل خلفها أن يلحق بها بأى حال من الأحوال ولكن قبل نداء هؤلاء المنادين - والله تعالى عالم بأننى قد تحققت من ذلك بضع مرات - فقد كانت بعض الجمال تسير ببطء وسط قطارها من ثقل الأحمال التى يحملونها وكانت تسير وهى نائمة على الرغم من مشاعل بنى البشر التى تشتعل خلفها. فقد كانت الجمال تسير وهى نائمة... ولكن الجمّالة ما إن يروا إن بعض الجمال نائمة تماما وأنهم قد جاءوا إلى منطقة صخرية صعبة المآل حتى ينبهوا الجمال، قائلين "إيدك... إيدك". ففى الحال تصحو الجمال ويمرون من هذا المكان الصعب.

وهكذا... فإن جملة الحُكام والسقائين وحملة المشاعل والطبّالة والجمع الغفير يمرون وهم يصفقون ويتغنون بعبارة "الله ينصر السلطان"، وهكذا وفى كل ليلة يعظمون الطريق، وإذا ما كان وقت الصبح بقريب ففى ظلمة الليل البهيم لا يصلون إلى المراحل التى يحطون فيها الرحال، لأنهم إذا ما حطوا رحالهم فى ظلمة الليل فإن صيحات الجند وولولاتهم تجعل الجميع لا يجد حتى زراعة فى هذا الظلام، وربما أن الذين بقوا فى الخلف لا يجدون من هم فى المقدمة، ويفقدون أثر القافلة ويقعون فى عسرة صعبة... ولذا فإذا ما كان وقت الصبح بقريب فإنهم يستريحون

بعد أن يكونوا قد أناخوا الجمال بحمولاتها. وهم عندما يكون السير ليلا فهم يخافون من شيء ما قبل الوصول إلى مكان الاستراحة.

في الحقيقة إن طرق مصر آمنة؛ ففيها ينام العظيم والجمال وحتى اللئام، فليس فيها لصوص أو حراميّة. ولكن فيما بين الحجاج أنفسهم ومن بين الجمّالة والحمالة والعُكّام والقواصين والسقّاء وعازفي الميتران[١٣٨] وحملة المشاعل - فيما بين هؤلاء لصوص - ومن بينهم وبخاصة فيما بين عساكر أزلم قد اندس وجاء معهم العديد من النشالين والنصابين والحرامية وفي بهيمة الليل فربما يسرقون، فهم يسحبون الجمل من القاطرة وينفلتون من العساكر، وما إن يصحو صاحب الجمل من النوم حتى يجردوه حتى من ملابسه، ويتركونه عريانا و"يبلع الجمل بما يحمل". وكثيرا ما تنطلق وسط سكون الليل الصيحات والصرخات والولولة.

وفي طرق مصر لا خوف إلاّ من لصوص المنازل هؤلاء. ولا بد من الاحتراز منهم والعياذ بالله. لهذا فإن الموكب المصري إذا لم يصل إلى مرحلة ما فإنه لا يحط رحاله ليلاً؛ وإنما أحيانًا ما يتوقفون عند وقت صلاة ويكون التوقف وقت الضحى.

---

(١٣٨) المهتران: مفردها ميتر، الـ"مهتر" اصطلاح موسيقي يعني الموسيقار الذي يقوم بعزف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار. وتجمع على مهتران؛ أي مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطني أو السلطاني أو النوبات المختلفة في الجيش. وكانوا يعزفون على الطبل والزمر، ويطوفون الأحياء تبشيرا بسير المحمل إلى الحجاز. ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض.
ومنهم "مهتران علم" أي الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم، أو السلام الوطني في وقت الحرب. و"مهتران طبل وعلم" وهي الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى في القصر السلطاني، وفي حضرة السلطان وقائدها يُسمى "مهترباشي". أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى "مهترخانة خاقاني" أو "مهترخانة همايون" ويقول هامر جزء ١ ص٣١٣: إنها فرقة الشرف التي تعزف أمام الوزراء والقواد وقت الحرب، وتذكرهم طبولها بأوقات الصلاة أيضًا عند الجهاد. ويبين أدوات الميترخانة كالتالي: ١٦ زورناء و١٦ طبلة، و١١ مزمارا و٨ نقارات و٧ أجراس أي "صاجات" و٤ أوستاذات. وكان عددهم ٧٢ فردا، أما إذا اشترك السلطان بنفسه في الحرب فيتضاعف هذا العدد. وقد ألغي نظام المهترخانة مع إلغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦ م، وسيتبدل به نظام موسيقات الباندو.

ولكن إذا ما كان المنـــزل بعيدًا فإن النفير يعزف وقت الظهر ويرحلون. ولكن إذا كان المنـــزل قريبًا فإن نفير التحرك يُعزف. وعلى هذا المنـــوال تُقطـــع المنــــازل والمراحل وتُطوى المسافات ويتم الدخول إلى مصر. وخلاصة الكلام؛ أنه قـــد تـــم التحرك من منـــزل عيون القصب وقت العصر. ومرة أخرى في اتجـــاه الغـــرب. وعلى ساحل البحر الأحمر كان السير ومشاهدة الجزر المختلفة التي تظهر من بعيد وسط البحر. كانت القافلة أحيانًا تسير وسط الرمال وأحيانًا فيما بين التراب وأحيانًا أخرى تمر فيما بين الصخور. وقطعت القافلة الطريق على هذا المنوال لمدة ١٤ساعة، حتى وصلنا إلى:

منـــزل مقابر حضرة النبي شُعيب (عليه السلام)

إن الحجاج المسلمين يمكثون في وادٍ متسع تكثر فيـــه البـــساتين والحـــدائق وبساتين النخيل. وعلى الجانب الشرقي من هذا المكان وعلـــى بعـــد ثـــلاث آلاف خطوة توجد قصبة معمورة وكأنها بستان إرم. بها جامع وحمام مختصر. وحولهـــا قرى عامرة معمورة بلا حصر أو عدد. ومن جملة هذه القرى قرية حضرة ســـيدنا شُعيب (عليه السلام) وهي قرية عامرة. وجميع سكانها من ذرية حـــضرة ســـيدنا شُعيب ونسله ويعيشون فيها.

ومن أعمدة السكان الذين يعيشون على حـــدود هـــذه الناحيـــة أولاد بنـــي شاهين[١٣٩]؛ فلو ضاع شيء على هذا الطريق فهم ملزمون به وبإرجاعـــه. وفيهـــا منـــزل حضرة شُعيب؛ وهو عبارة عن مغارة من بساتين النخيل. وما زالت الآبار التي حفرها بيديه الكريمتين قائمة وظاهرة، وإن كريمتي حضرة سيدنا شُعيب وهما ترعيان الغنم أحضرتا أغنامهما للسقي، ولكن كانت هناك صخرة عظيمـــة علـــى

---

(١٣٩) أولاد بني شاهين: من القبائل العربية المنتشرة في الشام وفلسطين وسيناء، وتمت أصولهم إلى آل شاهين من بني خالد. وكانوا – وما زالوا – في نواح أظنها الجُبيل في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. (انظر: معجم قبائل المملكة العربية السعودية. تحقيق حمد الجاسر – القسم الأول [١- ظ] ط١ الرياض. ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م).

فوهة البئر، ولم تستطيعا رفعها، فوقفتا وقد تملكتهما الحيرة، وشاءت قدرة الخـالق أن كان سيدنا موسى [عليه السلام] فى سياحته، وعندما وصل إلى هذا المكان شاهد حيرة هاتين الفتاتين، وعلى الفور أدرك السبب ونهض بإزالة الصخرة المـذكورة، وأسقى جملة أغنام سيدنا شُعيب، وعندما عادت الكريمتان إلى دارهما ذكرتـا مـا حدث لوالدهما، فأجابهما حضرة سيدنا شُعيب بأننى أعلم أن من يدفع هذه الصخرة لا بد وأن يكون صاحب قوة خارقة ومعجزة. وعلى الفور وصل إلى حضرة سيدنا موسى (عليه السلام) وزوّجه من إحدى كريمتيه.

وظل سيدنا موسى زمنًا طويلاً صهرا لسيدنا شعيب، وكان يرعى له أغنامه التى كانت تبلغ عدة آلاف، فقد كان سيدنا شعيب يملك أغنامًا كثيرة وكان نبيًّا منعمًا جدًّا، ولكنه كان ضريرًا مُنذ أن ولدته أُمه، ولم يكن قد ولد نبى غيره أعمى. وكان حضرة سيدنا يعقوب (عليه السلام) أيضًا ضريرًا، ولكن هذا كان نتيجة حزنه على فراق سيدنا يوسف (عليه السلام) ولكن بعد أن وصل إلى ابنه بعد سبع عشرة سنة فى مدينة الفيوم هو وأهله وعياله، احتضن سيدنا يوسف [عليه السلام] حتـى عـاد النور والضياء إلى عينيه الغزليتين، ورأى فلذة كبده.

ولكن سيدنا شعيبًا نزل من رحم أُمه مبصرًا وصار ضريرًا. وما زالت فـى هذه القرية أغنام لا يمكن أن تُشبهها الأغنام الأخرى التى كان يحضرها الحجـاج المسلمون، ولها طعم فى لذة الأغنام الرومية ذات الصوف الأجعد، ولهـا رائحـة مسكية، وحتى لو أكل الرجل غنمة واحدة لما شعر بثقل أو تخمة قط، فهـى - أى أغنام هذه القرية - سريعة الهضم. إن سكان هذه القرية على هذا الزعم لأنها مـن سلالة الأغنام التى رعاها سيدنا موسى فى هذه المنطقة.

زيارة بنات حضرة سيدنا شُعَيب

إن بنات سيدنا شعيب الثلاث مدفونات في غار هناك، وهذا المدفن مزار للحجاج المسلمين، وعلى الجانب الجنوبي لهذه القرية وعلى شاطئ بحر القلزم هناك مدينة "مَدْيَن"؛ كانت مدينة عظيمة، حتى أنها كانت من مدن مصر الأثرية العظيمة، وآثارها تدل على أنها كانت مدينة معمورة، والفقير قد زارها بهذا القصد، وما زالت فيها آثار لقباب وقلاع وأبنية عظيمة. وبها آلاف الأعمدة التي ما زالت رءوسها ظاهرة باهرة.

وقد بُعث النبي لقوم هذه المدينة، ولما لم يؤمنوا بسيدنا شعيب أهلكهم صاحب العزة والقدرة وخرَّب ديارهم. وكان شقيق سيدنا شعيب من سكان هذه المدينة وكان يُسمى مدين، ولما كان هو الذي بنى هذه المدينة فلذلك سميت بمدينة مدين. وفي الآية الكريمة ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [هود ١١/٨٤]. فالمقصود من هذه الآية الكريمة مدينة مَدْيَن. ولقد كانت هذه المدينة عامرة حتى نزل العذاب على أهل مدين هذه فصارت خرابًا. وحسب قول المؤرخين فإن نسبهم يعود إلى أزريا Azerya بن سام. وقد جاء حضرة سيدنا شُعَيب إلى بيت المقدس وحج به. ثم سكن في "خطبين"؛ وهي قرية تقع في الجانب الجنوبي لبحيرة "مينه" بالقرب من مدينة طبرستان ثم توفي بها. وهو مدفون في أعتاب عظيمة داخل صخرة عظيمة هنالك. أمّا بناته فمدفونات في قرية "شعيب النعم"؛ ولما كانت من حرم رسول الله فلا يُسمح بالدخول داخل المغارة، بل تتم الزيارة من الخارج، وفي هذا المحل يحفر كل فرد أمام خيمته بئرًا فتخرج منها المياه العذبة. وهذا لا يحدث مثله في قرى أخرى. فما إن يتم الحفر على عمق شبرين أو ثلاثة حتى تظهر عيون المياه كالمرآة الرقراقة.

وجميع سكان القرى الفقيرة المحيطة يدبرون احتياجاتهم من المأكولات والمشروبات من هذه القرية. ويحضرون عنبهم اللذيذ ويقدمونه غنيمة للحجاج. وليست هناك على طريق مصر مياه لذيذة وعذبة في عذوبة مياه هذه العيون ولذتها إلاّ مياه "الزعفرانية"، ولكن طريقها بعيد، وهي بعيدة عن الطريق، ويقولون

ان عين الزعفرانية هى عين قد حفرها سيدنا موسى بيديه الكريمتين بينما كان يرعى الغنم. وبسبب لطافة هواء وعذوبة مياه "شعيب النعم" هذه فإن الحبيب والمحبوبة فيها فى غاية اللطافة. وجميع الحجيج يملئون قربهم منها. وفى وقت العصر يُعزف نفير الرحلة... ونتجه أيضا نحو الجانب الغربى، ونمر أحيانا فى صحراء وأحيانا وسط رمال ووسط أشجار المسواك، ونستمر فى طريق سلطانى أى رئيس لطيف لمدة ١٤ ساعة حتى نصل إلى:

منـــزل شَرَف بَنِى عَطيَّة

يُطلق على القبائل التى تسكن هذه المناطق "بنى عطية"؛ لأنهم ينتسبون إلى ابنة سيدنا هود (عليه السلام) التى كانت تُسمى "عطية"، وكانت نجمًا منيرًا. وهم فرسان بدو، خيولهم كحيلانية، ويتجاوز عددهم عشرة آلاف. وهم مسيطرون على هذه النواحى حتى نواحى الشام. وهذه المناطق هى دعامتهم. وتوجه عطايا السلطان إلى بنى عطية. طريق تكسوه أشجار شوك الجمال وأشجار المسواك، وهو وادٍ لطيف. وفى هذا المكان أيضًا فإن بعض المهربين والمستقبلين يحضرون هداياهم ويبيعونها هنا للحجاج. كما يحضرون معهم المياه العذبة، لأن مياه هذه المنطقة مالحة.

وقد نهضنا أيضًا من هذا المنـــزل واتجهنا ليلاً إلى شاطئ البحر، وأحيانًا نكون بعيدين عن البحر، وأحيانًا قريبين منه، واستمر السير تسع ساعات. حتى وصلنا إلى:

منـــزل ظَهر الحِمَار

هكذا باللغة العربية ظهر الحمار، لأنها فى حقيقة الأمر منطقة رملية فوق ظهر صخرى. وهى عبارة عن قرية عربية مكونة من خمسين بيتًا، وسط أشجار النخيل السامق الذى يبلغ آلافًا كثيرة. مياهها أيضًا مالحة. ولكن حيواناتها نافعة. يمكث بها الحجاج المصريون وهم متجهون إلى مكة. ولكن مكثهم قصير،

واستراحاتهم بدون إنزال أحمالهم، وعندما يتحركون يكون مسيرهم موازيًا لساحل البحر. والاتجاه كما هو المعتاد كل يوم نحو الجانب الغربي.

وفي هذه المرة كان البحر مانعًا؛ مما اقتضى الاتجاه نحو الشرق على ساحل الخليج، فساحل البحر صخرى صعب مكسوٌ بصخور ملساء؛ مما كان يضطر الحيوانات أن تخوض في البحر مما يُسبب متاعب وإرهاقًا لبنى آدم والحيوانات معًا، ولما كانت هذه المسافة مسافة مرحلتين فقد اضطررنا إلى الاتجاه بسرعة نحو منزل كان الضباب يكسوه، وبعد مسيرة يومين كانت الطرق التى نسلكها تتراءى منها الجبال الواقعة على الجانب المواجه من الخليج.

ولكن من سلاطين مصر السابقين ظل يعمل كل من السلطان فرج(١٤٠) والسلطان برقوق لسبع سنوات أو لثمان سنوات، حتى ردموا فم هذا الخليج؛ وذلك حتى لا يلف حجاج مصر ويدورون لمسافة ست مراحل حول هذا الخليج متحملين مشاقٍ وصعابًا جمَّة. وقد نفذوا هذا بقوة السواعد وهمة النفوس، ولم يكونوا في تلك الأزمنة يفكرون في المكاسب أو في الأمور السيلة، ولم يقضوا أعمارهم في التنعم والتلذذ بالطيبات. فلقد ردموا الأماكن الرملية الرخوة على جانبي هذا المضيق لمسافة ألف ذراع في كل جانب. وفي الوسط بقى مكان يبلغ مائة ذراع طولاً وبعمق عشرة أذرع.

---

(١٤٠) السلطان فرج: هو الملك الناصر فرج بن برقوق (الظاهر) ابن أنص (أو أنس) العثماني أبو السعادات زين الدين، من ملوك الجراكسة بمصر والشام، بويع بالقاهرة سنة ٨٠١هـ بعد وفاة أبيه، وكان صغير السن. امتنع بعض ملوك الشام عن الطاعة له فخرج بالجيوش لقتالهم سنة ٨٠٢هـ فلقوه في الرملة بفلسطين فهزمهم ودخل دمشق وأعلن الأمان، وهدأت الأمور وعاد إلى مصر. وفي سنة ٨٠٣ هـ ناوش، طلائع تيمورلنك في الشام، ثم أظهر أنه مضطر للعودة إلى مصر فترك دمشق نهبًا لهم. قيل إنه أفرط في قتل مماليك أبيه فخرج بعضهم إلى غزة وبلاد الشام، والتف حولهم كثيرون من جبل نابلس وغيره، وانتظمت له الأمور سنة ٨١٤ هـ بعد اضطرابات عدة، ولكن باقي المماليك نادوا بخلعه حتى تم لهم ذلك فقيدوه وسجنوه في قلعة دمشق، ثم أثبتوا عليه الكفر وقتلوه في القلعة. (الأعلام ٥/٤٠).

وإذا كان سلاطين آل عثمان قد أصدروا فرماناتهم لواحد من وزراء مصر وتابعوا الحفر لكانت مهمة عظيمة، وبخاصة أن البوغاز المذكور على جانبيه صخور ملساء، ويمكن تفتيتها ببضعة ألغام من الألغام المعتادة في مثل هذه الأمور، وكذلك كان يمكن ربطه بالأجزاء المتينة في كلا الجانبين. وكان من الممكن أن الصخور المفتتة على كلا الجانبين تنصب في البحر.لم تكن هناك حاجة لحمل صخور صلبة وإحضارها من تلك التي تمثل غاية الأذى للجمال، ولكن السلف لم تكن لهم مهارة أو دراية كافية بهذه الألغام. كانت هذه العلوم في تلك الفترة وقفًا على البنادقة وآل عثمان فقط.

وإذا كان بوغاز "فم" هذا الخليج قد وصل إلى ظهر الحمار لكان في ذلك اختصار للحجاج المصريين بمسافة ست مراحل في الذهاب والإياب، ولما كانت هناك حاجة للمرور إلى العقبة التي تعرف بأنها برزخ المصائب في كل الآفاق، ولما كانت هناك حاجة أيضًا للمرور على قلعة العقبة، بل كان التوجه يتم مباشرة إلى ظهر الحمار، فلما كانت هناك مشكلة تم المكث في شرف بني عطية لمدة تسع ساعات. وعلى هذا المنوال هناك ثلاث عشرة مرحلة على طريق مكة إلى الطريق المصري. وبعد قضاء يومين في المدينة المنورة، كان من الممكن - مثل قافلة الحج الشامية - البقاء هنا اثنى عشر يومًا، ولكان من الممكن الخلاص من العذاب الأليم لمرحلة العقبة. والله تعالى فَلْيُيسِّر هذه المهمة العظيمة والخيرات الجليلة لسلاطين آل عثمان... آمين... يا مُعين.

وبعد ذلك نهضنا من ظهر الحمار عند وقت الظهر وفي الأماكن التي استرحنا فيها... ونحن متجهون نحو ساحل الخليج المذكور على الجانب الشرقي ظهرت لنا قوة عسكرية على الطرف الآخر وكانت عظيمة التسليح والزينة... وما هم إلاً عساكر العقبة الذين قدموا للاستقبال، والتقى بهم سائر الحجاج. واستمر المسير لمدة تسع ساعات حتى خرجنا من ظهر الحمار، ووصلنا إلى:

منـــزل قَلْعَة العقبة

أمر ببنائها السلطان سليمان خان سنة (...) وعند دخولنا إلى هذه القلعة أطلقــت المدفعية من داخل القلعة عدة طلقات، وكذلك أطلقت البنادق عدة دفعات؛ فــرد علــيهم جنود العقبة بالمثل بحيث صار احتفالاً عظيمًا. تم البقاء هنا يومين. وكان قــد صــدر الفرمان، فتم الشروع في ترميم القلعة وتعميرهـــا، وتـــم التفتــيش ورؤيـــة الـــذخائر والمهمات. وقد أمر السلطان سليمان خان وزيره المقبول والمقتول إبراهيم بــاشا [١٤١] ببناء سبعة أبراج داخل قلعة مصر. ووضع فيها الإنكشارية[١٤٢]. وقد تــم بنـــاء هـــذه

(١٤١) إبراهيم باشا: كان صدرًا أعظم في عهد السلطان سليمان القانوني. تولى الصدارة سنة ٩٢٩هـ وظل بها ١٧ عامًا. من أسرى البنادقة. ترقى في المناصب ورافق السلطان سليمان في الكثير من المعارك ولكنه اختلف معه حول فتح بغداد. وكان ذلك سببًا في إعدامه سنة ٩٤٢هـ.

(١٤٢) الإنكشارية: لغويًا "يني جرى"، ويطلق عليهم الأوروبيونJaniser. أما عسكريًا؛ فهو اسم يطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها الترك العثمانيون في القــرن الرابــع عــشر الميلادي الثامن الهجري، وأصبحت أكبر قوة عسكرية عندهم، وقد مكنــتهم مــن الفتــوح الواسعة التي قاموا بها.
ويطلق عليهم أحيانًا اسم الــ "قابي قولي" أي عبيد الباب السلطاني، أو الرقيق السلطاني، نظرًا لارتباطهم بالسلطان شخصيًا. وكانت هذه التــشكيلات العــسكرية موجــودة عنــد السلاجقة والمماليك، ولكن العثمانيين أدخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط، خاصــة في عهد السلطان مــراد الأول (١٣٦٠ – ١٣٨٩م = ٧٦٢ – ٧٩٢هـ) وكـــان تـــدريبهم وتعليمهم العسكري مركزًا على الطاعة وتحمل الجوع والعطش وكافة الصعاب. وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة، ولذلك أثبتت الإنكشارية وجودها في كل فتوحـــات الدولـــة العثمانية سواء في آسيا أو في أوروبا أو في شمال إفريقيا.
أما لباس الرأس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الأبيض، وتتدلى من خلفها قطعـــة مـــن القماش رمزًا للبركة التي منحها إياهم مرشدهم الشيخ حاجي بكداش كما يعتقدون. وعلــى لباس الرأس شارة عبارة عن ملعقة من الخشب، وكانت ألقاب الضباط بمختلــف مرافــق المطبخ كالچورباجي باشا (رئيس طهاة الحساء) وآشجي باشا (رئيس الطباخين)، وأهــم الأشياء في الكتيبة هو القدر الكبير (القازان). وكانوا يجتمعون حوله لا لتنـــاول الطعـــام فقط؛ بل للتشاور، وكان قلب القدر دلالة على العصيان والثورة.
وكانت الفرقة منهم تسمى أوجاف أي المعسكر أو الموقد، وتنقسم إلـــى وحـــدات حربية تسمى كل منها "أورطة" أي فرقة، وهي ثابتة العدد، مختلفة القوة، تتـــراوح مـــن ١٠٠– ٥٠٠ – ٣٠٠٠ جـــندي. وهـــذه الفـــرقـــة تـــقـــيم في ثكنات تسمى "أوضة"=

القلعة أيضًا في هذه السنة، قريبة من شاطئ البحر. ثرية البناء في فضاء رملي مسطح ومنخفض. قلعة متينة عامرة... مفرحة. على شكل مربع. دائـر مـدارها أربعمائـة خطوة. بها ثمانية أبراج، تطل على الغرب من خلال باب حديدي مكتوب عليه تـاريخ سليمان خان. داخل القلعة يوجد جامع وحمام وطاحونة مختصرة تُديرها الخيول. بهـا خمسون منـزلاً للأفراد. بها محافظ من متفرقية مصر، وستون رجـلاً مـن رجـال الحصار. ولا يوجد بها خندق. تُحيط بجوانبها الأربعة بساتين النخيل. وتم حفـر بئـر على عمق ذراع أمام كل خيمة، يخرج منها الماء العذب. وعند قبلة القلعة توجـد بئـر عظيمة وبركة كبيرة مياهها رائقة وهواؤها أيضًا لطيف، وفي شرق القلعة يُقام سـوق كبيرة وكأنها سوق دوليان[١٤٣] Dolyan، وعلى جوانبها الأربعة يسكن بدو قبيلة بنـي شاهين، وجميعها مناطق معمورة وعامرة.

وجملة العربان والأطفال والصبيان والنسوان يحضرون أمتعـتهم، يبيعـون ويشترون من الحجيج، ويكسب الجميع مكاسب عظيمة لا يمكـن التعبيـر عنهـا. وتُحضر الآلاف من الجمال المأكولات والمشروبات من مصر ومن غزة والرملـة وقاقون وعجلون ونابلوس وخليل الرحمن والقدس الشريف بحيـث يـصير شـيئًا

=(= غرفة = عنبر). أما في ميدان الحرب فكانت الفرق تقيم في سكنات عبارة عن خيـام واسعة مستديرة، وقد نقشت عليها شاراتهم المميزة لكل منهم.
كان يرأس الفرقة قائد رتبته "يكجرى أغاسى" أى أغا الإنكشارية. وهو يتولى، فوق عمله الخاص، أمر الشرطة وحفظ النظام في المدينة .
لقد تنوعت أسلحتهم الحربية في الدفاع والهجوم تبعًا للزمن الذي يعيشونه. ولكـن لكثـرة مشاكلهم وعصيانهم في فترات ضعف السلاطين، السلطة المركزية، ومعارضتهم لكل ما هو جديد أو أي تطوير في الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة – عندما أرادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد، مما دفع السلطان محمود الثاني بالقضاء عليهم في ٩ مـن ذي الحجة ١٢٤١هـ = ١٠ يونية سنة ١٨٢٦م في آت ميداني، وفي مذبحة شـبيهة بتلـك التي نفذلها محمد علي الكبير ضد المماليك في القلعة.
وكانت معسكراتهم تنتشر في كل الولايات العثمانية، وتسمى باسم الولاية الموجودة فيها؛ فهناك انكشارية الشام، وإنكشارية مصر وإنكشارية اليمن... إلخ (انظر: ياقالين).
(١٤٣) سوق دوليان Dolyan: يبدو أنها سوق مشهورة رآها الرحالة أوليا چلبي وأعجب بها، وضرب بها المثل هنا دليلاً على وفرة المعروض من المبيعات.

يصعب التعبير عنه. ويقوم من يشاء من الحجيج بتغيير جمالهم الضعيفة وتبـديلها، وتقف الجمال عند عين مياه العقبة ويشرب حتي الارتواء من الماء العذب الزلال، ويحمل الحجيج ما يشاءون من الأرزاق. وتصل مقدمات فرق الجند والحراسة أولاً إلى العقبة، فيقيمون الخيام عند وسط "ديودار بلى".

وجميع الجنود مدججون بالسلاح، ويقفون وهم على أهبـة الاسـتعداد. فلربمـا يهاجمهم العدو وهم عند مضيق العقبة، أو يغتنم العدو فرصة المرور من هـذا الممـر الضيق ويعلنون عليهم الحرب والجدال. فأولاً تعبر جنود العقبة لإصلاح ذات البـين إذا ما نشب أى خلاف، ثم تتلوهم قوة أمير الحاج أولاً. فإن الجانب الشمالى للقلعـة يطـل على البحر، ويستمر السير فى مناطق رملية فى اتجاه الشمال لمدة ساعة. أما الطريـق الرئيسى لفم العقبة الصخرى فهو طريق صخرى، كـل صـخرة فيـه وكـأن عـزم فرهاد(١٤٤) جعل كل واحدة منها تتجه إلى أوج السماء. ويتم عبـور هـذه الـصخور، وينـزل عن الجمال ويتم التنـزه فى وديان هذه المنطقة لمدة نصف ساعة. ثم يتم بعد ذلك الاتجاه نحو العقبة الكبرى وهى (نعوذ بالله) علامة من علامات يوم المحشر. وفيها يتم السير على الأقدام من قبل الجميع؛ الصغير والكبير والصبيان والنسوان. وكم هو صعب على أولئك السيدات الرقيقات الصعود إلـى أعلـى فـى الطريـق الرئيسى إلى ما يقرب من سبعمائة وخمسين خطوة، وبينما الجمـع يـصعد نحـو المكان المسمى "ديودار بلى" يكونون وكأنهم يصعدون فى طريق علوى نحـو أوج السماء لمسافة سبعمائة وخمسين خطوة أو كأنهم فى صعود نحـو الـسماء داخـل ميزاب يتجه إلى أعلى. وعند هذه المنطقة تكون البغال غير قـادرة علـى حمـل الأمتعة ونقلها خلال صخور "ديودار بلى"؛ مما يجعل جميع من عبروا ينتظـرون أمتعتهم لفترات طويلة.

---

(١٤٤) فرهاد: كان عاشقاً لشيرين، وتروى أساطير الفرس أخبارهما نثراً وشعراً؛ كانت شيرين ملكة وهى زوجة كسرى الثانى وذات أصل مسيحى. وكان فرهاد من كبار موظفى بلاط زوجها الذى علم بقصة الحب، طلب منه الزوج أن يحفر قناة لتوصيل الحليب إلى محبوبته. وعندما أنجز المهمة عرف الحقيقة، فألقى بالآلة التى كانت فى يده إلى أعلى فوقعت فوق رأسه وقتلته.
أوحت قصة حب فرهاد لشيرين وموته من أجلها مقطوعات غرامية وجدانية كثيرة لشعراء الفرس والترك وسواهم.

إن هذا المكان كأنه عنق بعير، فيو مطلع ضيّق ومعـــوج، بوغــاز جانبــه الشرقي وادٍ منحدر في هذا الموقع تُنهك الجمال والبغال والدواب أضعاف أضعاف ما تحمله من مكة حتى هذا الموضع، وأحيانًا ما يتم الإلقاء ببعض الجمال التي لــم تقو على عبور هذا الممر العلوي؛ فيلقون بها إلى أسفل بعد خنقهـــا، فتطيــر إلـــى الأعماق وكأنها طير يطير. وتتطاير أشلاء الحيوان المسكين، وبعضها يسقط بمـــا يحمل إلى أسفل من الزحام، ويبقى صاحبه وقد سيطرت عليه الدهــشة. وبعــض الجمال كانت تنفق؛ فيحلون أغلالها وينزلون أحمالها ويلقون بها إلى أســفل. وكــم نفق في هذا النفق من الحمير والبغال والجمال والخيول منذ أن فُرض الذهاب إلـــى مكة المكرمة...!كم هو مكان صعب، البعض يُشبهه كعنق البعير المعوج، أو أنــه بوغاز ممر ضيق جملته ثلاثمائة خطـــوة، ومحـــرر عليـــه ترميمـــات الـــسلطان الغوري[١٤٥] والسلطان سليم خان وتطهيرهما لهذا البوغاز؛ فقد تم تحرير ذلك على لوحة من الرخام الأبيض المربعة. ولم يتم تطهيره بعد ذلك إلاّ في عهد الـــسلطان مراد الرابع الذي أمر رضوان بك أمير الحاج بصرف مبالغ طائلة. وعدا هذا لــم يتم تطهيره بمقدار ذرة واحدة. ولكن لو استخدموا فيه أيضًا الألغام المتفجرة لصار طريقًا سلطانيًا أي رئيسًا.

خلاصة الكلام وحاصل المرام أنني العبد الفقير سيّاح العالم أوليا الـــذي زار وكشف عن ثماني عشرة سلطنة خلال سياحاته التي امتدت ٣٣ عامًا، لم يـــر فـــي حدة وارتفاع وضيق وخطورة مثل هذا المكان في أي مكان آخر. فاللهم احفظنـــا. وليس من الميسَّر السير بالجمال في هذا الطريق لأن أمانات العباد وحقوقهم أمـــر

---

(١٤٥) السلطان الغوري: هو قانصوه بن عبد الله الظاهري نسبة إلى الظاهر خوش قدم الأشرفي، نسبة إلى الأشرف قايتباي الغوري أبي النصر سيف الدين الملقب بالملك الأشرف ســلطان مصر، جركسي الأصل مستعرب خدم السلاطين وولي حجابة الحجاب بحلــب. ثــم بويــع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥ هـ، بنى الآثار الكثيرة وكان مولعًـــا بالموســـيقى والأدب، قصده السلطان سليم العثماني بعسكر جرار، فقاتله قانصوه في مرج دابق على مقربة من حلب؛ وانهزم عسكر قانصوه فأغمي عليه وهو على فرسه فمات قهرًا وضـــاعت جثتـــه تحت سنابك الخيل. مات سنة ٩٢٢هـ، الأعلام ١٨٧/٥.

مُشْكل، ولكن السير فيه بالخيول والبغال أمر ممكن، وما إن يتم الخروج من المكان المذكور باسم "ديويدار بلى" Düveydar Beli والصعود إلى سطوح العقبة فهناك مَطْلَع حاد لمدة ساعتين، ولكن المرحوم رضوان بك طيَّر هذا المكان بحيث لا يكـون هناك أى بشر يغدر به فى هذا المكان، فرحمة الله عليه. ولكنه مرتفع سـماوى أى يصل إلى عنان السماء... وأحيانًا ما كان يسمع صدى صوت الغرباء على وجـه السماء، أصوات مرحِّبة بسيدنا إدريس وسيدنا عيسى (عليهما السلام) وسيظل هـذا الوضع إلى آخر الزمان... والمعروف أن تجار الهند والـسند والـيمن وسـيَّاحهم يعبرون عقبة العقبة هذه المشهورة فى كل الآفاق بعقبة الجمل... وغيرهـا، فكـل العقبات الممتدة من بين مصر ومكة ميسرة. وكما سبقت الإشارة فإنه لا بـد مـن المرور والسير خلال هذه المراحل الست ذهابًا وإيابًا. فيه فائدة ففى كل يـوم يـتم صرف ألف دينار ذهبى، وإذا لم يكن هذا مُيسَّرًا، "فالْحَقيقَةُ المُجَرَّدَة هِى الـسُّلْطَنَةُ الْعُظْمَى".

وإلى جانب ما سبق فإن الهجَّانة يجوبون المنطقة لتحقيق الأمن، وبعد التقدم إلى الأمام تتم الاستراحة ما بين سبع ساعات أو ثمـان تكـون مـا بـين النـوم والاستراحة. وبعد هذا العناء الذى تتعرض له القوافل يتم التوجه من قلعـة العقبـة إلى مرحلة:

منـــزل سطوح العقبة

مرحلة ممتدة من السهل إلى التدرج العلوى، تستغرق يومًا وليلة للقعود بها، حيث يضطر الحجاج للانتظار من شدة الزحام، وما إن يتم عبور الجميع يتّجمعون على هذه السطوح التى هى عبارة عن صحراء عظيمة الاتساع ممتدة مـن جبـل العقبة حتى نهايته. لا يوجد بها أى ماء، إنما يُستجلب من البدو الذين يُحيطون بها، أو أن تؤمن المياه اللازمة من قلعة العقبة قبل التحرك. وأحيانًا يكون مـن حـسن الطالع ومن رحمة الله أن يهطل المطر وتتكون الخلجان ولكنها لا تمكث طويلاً فى

هذه الجبال من شدة الحرارة... ومن لطف الله أيضًا أن حرارة هذه المناطق يتحملها المرء أكثر من شدة البرد، فلابد من الاحتماء من شدة المطر ومن شدة البرد إذا صادف موسم الحج موسم الشتاء؛ لأن برد هذه المناطق شديد ومؤثر جدًا بحيث يمكن أن يؤدى بالمرء إلى الهلاك. وتتجمع جموع الحجاج فى هذا المنزل ويُطلق النفير استعدادًا للرحيل، ويتم الاتجاه نحو الغرب والنزول من هذا المطلع إلى أسفل إلى تلك الطرق التى تم تطهيرها وتعبيدها، وتُشاهد على الجانبين زهور النباتات البرية والجبلية. ويتم العبور من بين النخل العتيق بعد جمع الكثير من هذه الزهور، وبعد السير أربع عشرة ساعة يتم الوصول إلى مرحلة:

منــزل أبيار علائية

مكان واسع فسيح، به آبار ذات مياه عذبة وكأنها ماء الحياة، يطلقون عليها أبيار علائية. والأبيار جمع بئر، ولكن الكثير من آبارها مع مرور الزمن امتلأت بالرمال، وهذه المناطق أيضًا تحت سيطرة أولاد شاهين، وقد أطاعوا السلطان سليم وانقادوا له، ومنهم أيضًا مَنْ كان يعارض مصر ويتحصن بعقبات العقبة ويظلون بها... ومع أن جوانبها الأربعة معمورة إلاَّ أن مأكولاتها ومشروباتها تأتى من الأطراف والأكتاف المجاورة، ويحصل عليها الحجاج... وعند هذه المرحلة يتم انفصال حجاج القدس وغزة ويتجهون نحو القدس فى قافلة عظيمة. ومن هذه المرحلة ينطلق المبشرون[١٤٦] Müjdeciler نحو مصر. يصلون إلى وزير مصر وينالون الخلع الفاخرة وينالون العطايا والمراتب العالية.

---

(١٤٦) **المبشرون Müjdeciler مزده جيلر**: مصطلح إدارى كان يُطلق على مَنْ يبلغ السلطان خبر وصول قافلة الحج وخبر عودتها. كان يقوم بها بعض ممن يعملون فى خدمة أولياء العهد. وكانوا يرافقون القوافل فى الذهاب والعودة ويبشرون بسلامة الوصول. واستمرت هذه الأصول حتى انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية. وكان المبشر يتلقى الإحسانات والعطايا من السلاطين والولاة.

وكان رئيسهم يسمى "مزده جى باشى" أى رئيس المبشرين. وكان منهم مبشر أول ومبشر ثانٍ. ولهم مخصصاتهم ضمن مصروفات قافلة الحجيج.

ويستمر السير من أبيار علائية نحو الغرب فى طـرق صـخرية ووسـط أشجار المسواك والنبق والخروب... ويستمر السير وسط هذه الطرق الـصخرية المشجرة طوال الليل وحتى الصباح. وبعد خمس عشرة ساعة يتم الوصول إلى:

منـزل قلعة نخل

وهى من مآثر(...) سنة (...) بنيت على شكل مربع، بنيت مـن الحجـر. مدارها دائرة ما دار ثلاثمائة خطوة، لها محافظ من متفرقة مصر، وفـى معيتـه جنود من السبع بلوكات، بها ست قطع مدفعية بذخائرها. للقلعـة بوابـة، بـداخلها جامع وحوالى عشرين بيتًا للأنفار. وبداخل القلعة مصادر مياه.

وهذه القلعة تقع داخل وادٍ، وجملة الحجاج يحلون ويحطون رحـالهم داخـل المراعى والرمال لكى يستريحوا. ومع أن هذا المكان قريب من طور سيناء فـإن كل البرايا والرعايا يحضرون مأكولاتهم ومشروباتهم وثمارهم اللذيذة من النواحى القريبة ويبيعونها للعساكر. وقد قام الفقير بأخذ خمسة رجال مـن المـشايخ البـدو ومعى اثنان من مماليكى، وكنت أنا الفقير معهم فصرنا ثمانية رجال، وتوجهنا نحو طور سيناء كما سأبيِّن، أولاً شاهدنا أشجار الخروب داخل وادٍ من الحجارة بعد أن توجهنا إلى الجنوب وبعد أن خرجنا من قلعة نخل... وبعد هذه المـشاهدة سـرنا خمـس ساعات حتى وصلنا إلى:

أوصاف منـزل جبل طور سيناء

تُطلق طور على مجموعة من الجبال فى سيناء. وأصبحت كلمة طور علمًا على مجموعة من الجبال القريبة من القدس الشريف وطور سـيناء. وعلـى قمـة الجبل الشاهق الذى يلامس السماء فى جبل الطور توجد أطلال مدينة مَدْيَن لسيدنا شعيب[عليه السلام]. وجبل العقبة يبدو أسفل هذا الجبل، كما تبدو من بعيـد زرقـة مياه البحر الأحمر (القلزم)، ولكن على الجانب الأيسر من البحر وعلى بعد مسيرة ثلاث ساعات وسط الجبال يوجد مكان (...) هو ذلك المكان الذى كلِّم فيه الخـالق

تبارك وتعالى حضرة سيدنا موسى ثم سيدنا عيسى [عليهما السلام]. ولهذا أقام الإسكندر البطليموسى فوق ذروة هذا الجبل ديرا عظيمًا بحيث لا يوجد مثيل له على أرض الفلك الدوّار. وما زال هذا الدير مزدانًا ومزينًا بحيث إن كنيسة القيامة فى القدس الشريف وبيت الله "الكعبة" بجواره، وكأنهما من ناحية الزينة ذرة على وجه الشمس. وبه رهبان وقساوسة وبطارقة من أقوام ستة وعشرين قومًا من الأمة المسيحية. وفيه يقومون برياضات نفسية قاسية، فهم يعيشون على الشعير وقليل من الحنطة والتمور والزيتون واللوز مع فنجان من اللبن... ويأتيه زوّار من كل بلاد الكفر وكذا مساعدات... وداخل هذا الدير راهبات ورهبان هم غاية فى الجمال؛ يقومون بالخدمة فى الدير ليلاً ونهارًا... ومطبخ هذا الدير لمِنْ هم عدا الرهبان، وهو مزدان بكل ما لذَّ وطاب، وفيه ما ينافس مطبخ كيقاوس[١٤٧] من الطباخين... بحيث يمكنهم إعداد الطعام الذى تتمناه مهما كان. وفى مخازنه وعنابره كل ما تشتهيه النفس حتى من لبن العصفور وماء الحياة، وكلها تُقَدَّم للزائر ولمن يريد، وفى الواقع رهبان هذا الدير وراهباته كثيرون. ولكن منذ عصر سليم الأول وهو تحت سيطرة الروم الكفرة. ولو أردنا أن نسجل أوصاف هذا الدير فلسوف يطول الكلام، ولكن قمنا بزيارته ومشاهدته والتفرج عليه. وهو مضاء ليلاً ونهارًا بالقناديل، وله قبة وبه قبة ضيقة لسيدنا نوح. وقد رجونا حافظها العنيد فى الزيارة وطلبنا رؤيتها... فلم يقبلوا... فقلت: يوم أمس وصلت إلى الكنيسة، فلم يأخذنى الرهبان وليكن عهدى أن أحتضنك وأحملك إلى السيد المسيح يوم الحشر.

---

(١٤٧) كيقاوس (قابوس – كيكاوس): الأول قابوس شمس المعالى ابن وشمگير. رابع أمراء بنى زياد، خلف أخاه باهيستون فى حكم جرجان وطبرستان. ثار عليه الجيش وعزله، واغتيل. كان فلكيًا وشاعرًا وخطاطًا، وله قصائد بالعربية و الفارسية.
قابوس (عنصر المعالى كيكاووس) ابن إسكندر بن قابوس، ملك جرجان وطبرستان ١٠٤٩ – ١٠٦٩م. تنازل عن العرش. له (قابوس نامه) أو (مرآة الملوك).
وهناك اثنان من سلاطين السلاجقة يحملان نفس الاسم حكما آسيا الصغرى. الأول كيقاوس الغالب عز الدين (١٢١٠ – ١٢١٩م) أرغم الأرمن على دفع الجزية. والآخر كيقاوس عزالدنيا والدين، نزع أخاه ركن الدين السلطة، وحكم غرب قيزيل أرماق. توفى عام ١٢٧٩م فى القرم.

فما إن قلتُ هذا حتى فتحوا باب القبة خوفًا من حضرة سيدنا عيسى. فولجنا إلى الداخل فكان مقام حضرة سيدنا موسى ومقام حضرة سيدنا عيسى ومقام حضرة أمنا مريم البتول [عليهم السلام]، وعلى الجانب الشرقى من هذا المقامات كان هناك:

مقام الحواريين

وهو مكون من اثنى عشر مقامًا، ولقد زخرفوا وزيّنوا هذه المقامات بحيث لا يمكن أن يعبر عن جمالها اللسان أو يمكن وصفها بالكتابة. جملة مياهها فى الصهاريج وتُحمل من الوديان السفلى بالحمير. وهذا الجبل تحوّل إلى فُتات عندما تجلى صدى رب العزة لموسى عليه السلام... ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف٧/١٤٣] كما نزلت فى حقه آيةَ أخرى فى سورة المؤمنون، وقد نصت الآية ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون٢٣/٢٠] وينـزل الغمام - أى المطر - دائمًا فوق الجبل هذا وبخاصة على مكان التجلى، وما زالت هذه الآثار باقية وظاهرة إلى الآن. والحاصل أنها كانت أماكن زيارة عجيبة؛ ولكنها بقيت فى أيدى الكفرة؛ ولو بقيت فى أيدى المسلمين لتحولت إلى خرابات... ولكن الكفرة يرممونها، ويقدمون الهدايا إلى والى مصر وأعيان البلوكات السبع وأغا السويس وإلى مشايخ العربان أى البدو، وأوجدوا معهم العلاقات والألفة حتى يحافظوا على أوقافهم، حتى أنهم قدّموا إلى العبد الفقير دخانًا وجلدًا، وكأنها عجينة مسك يستنشقها المرء وكأنها خميرة عنبر. وقدّم بطريك الفرنج إلىَّ أنا العبد الفقير هدية عبارة عن ساعة وأوراق بايِنته تُفيد بأن رحّالة العالم قد قَدم إلى طور سيناء وزاره وتمتع بالزيارة وبأنه لا يستطيع أى من ملوك الديار السبع منعه من الزيارة حيث إن البطاركة السبعة قدّموا هذه الأوراق.

وبعد أن تسلمنا البايِنتات توجهنا إلى قلعة الطور ومن هناك عندما أردنا التوجه إلى السويس... فكانت الطرق صعبة. وقالوا لو أنك سلكت هذه الطرق فلن تلحق بالحجاج، وطلبوا العودة من المسالك التى أتينا منها. وأنا الفقير رأيت أن قلعة الطور قلعة صغيرة على شاطئ البحر، فقمت بمشاهدتها والتفرج عليها،

وعلى أى حال فإن هناك رهبانًا ينـــزلون من جبل طور سيناء إلى أسفل الجبـــل، وأقاموا في وادٍ واسع بساتين وحدائق غنّاء وكأنها حدائق إرم ذات العماد، وبهـــا حديقة مثمرة وكأنها بساتين العجم. وبهذا الوادى حدائق مثمرة وكأنها مرام قونيـــة Konyanın Meramı، ومياهها تشبه مياه ملاطيا المثلجـــة، وبهـــا تفـــاح لذيـــذ وكمثرى وسفرجل وتين، وثمارها تُشبه أجمل ثمار ديار العجم.

وسفن الطور تتنقل بين السويس والطور وتُحضر ثمارها إلـــى مـــصر أى القاهرة وتُباع هنالك، وداخل هذه البساتين الكثير من العيون الجارية، تجرى مياهها وكأنها مياه النيل وتصل إلى قلعة الطور وتروى مزارعها وبساتينها وحـــدائقها... وكل سفينة من سفن الطور هذه التى تذهب إلى السويس تحمل من تلـــك العيـــون المياه إلى السويس؛ لأن كل قربة تباع فى السويس بعشرة بارات، وقد قدَّموا إلـــى العبد الفقير الكثير من فاكهة هذه البساتين... وعلى الفور جرينا نحـــو الطريـــق... ورأينا أن الحجاج قد تحركوا من قلعة نخل وفى منتصف الطريق لحقنا بهم، وكان الوقت منتصف الليل ونسير على ضوء القمر. وقبيل الصباح اســـترحنا... فقمنـــا ببذل الثمار والفواكه إلى إخوان الصفا... ونال كل الأحبة ما اشتهى من الثمـــار... وفى وقت الشافعى(١٤٨) سلكنا الطريق المتجه إلى الناحية الغربية وسط الـــصخور وأشجار السنط والمسواك، وقطعنا تسع ساعات وسط الوديان حتى وصلنا إلى:

منـــزل رئيس الطغراء(١٤٩)

ليس به ماء، يابسة بلا مار Bi mar أى بلا ثعـــابين. وتوقفنـــا فـــى هـــذه المرحلة من أجل الاستراحة، وقُبيل وقت البزوغ صدحت النوافير واتجهنـــا أيـــضًا

---

(١٤٨) وقت الشافعى: أى الوقت الذى يسبق بزوغ شمس الصباح. وهو الذى تصح فيه صلاة الصبح حاضرًا.

(١٤٩) الطغراء Tuğra: اسم الإشارة التى تحمل توقيع السلطان فى العصر العثمانى. وكانت تختم أو توضع على الفرامانات والأوامر السلطانية والبراءات والمعاهدات بوصفها علامة على توقيع السلطان. وقد استخدمت منذ عهد السلطان أورخان حتى نهاية الدولة العثمانية. وكانت لها شروطها وأركانها اللازم اتباعها. انظر فى ذلك للمترجم "الوثائق العثمانية الدبلوماتيك دراسة حول الشكل والمضمون". القاهرة.

وتجد الحديث عنها بالتفصيل وصور كل طغراوات السلاطين العثمانيين فى كتاب "الوثائق العثمانية دراسة بين الشكل والمضمون" للمترجم.

نحو الغرب، وكانت الطرق ذات صخور ملساء ووديان ملتوية... وقطعنا ثماني ساعات حتى وصلنا إلى:

منـزل النواطير

وهذا أيضًا وادٍ صخوره ملساء وليس به ماء، وقد استرحنا فيه حتى وقت الشروق، وقدّمت الأعلاف إلى جميع الجمال والحيوانات، ومع ظهور الشفق أُطلقت نوبات التحرك ونادى المنادون والدلاّلون (بأننا – أيها الحجاج – سوف ندخل هذه الليلة إلى صحراء التيه، وياليها من ليلة. تراصوا وترابطوا مع بعضكم البعض، فمن يتخلف سوف يضيع. في هذه الليلة لن ينظر الأب إلى ابنه، أو الابن إلى أبيه، فلكل شأن يُغنيه. حافظوا على أمتعتكم وجمالكم وعضوا عليها بالنواجذ فرمال صحراء التيه كالبحر، يخرج منها البدوي قاصدًا أموالكم وأرواحكم، ولا يتورعون عن نهب كل ما تصل إليه أياديهم). ولقد تجوّل سيدنا موسى [عليه السلام] في بحر صحراء التيه هذه أربعين عامًا. لقد نادى المنادون على جميع الحجاج وشرحوا لهم هذا ولقد استمع الحجاج إلى هذا النداء، وفتحوا أعينهم من الدهشة وتوجهوا نحو الطريق، وكان كل فرد يحاول بكل عناية وبكل جهد الحفاظ على أمتعته وعلى مزاداتهم أي زمزمياتهم وعلى المياه المحفوظة في قربهم، وقطعنا المنازل بهذا الشكل. وبينما كنا ننـزل إلى بطن وادٍ ظليل وأشجاره يانعة الخضرة يطلقون عليه "خارتوب" كان لا بد من ذكر:

أوصاف برزخ التيه ووادي بحر الرمال والصحراء التي لا أمان لها

ما إن وطأت أقدامنا بحر الرمال هذا، والعظمة لله وحده، حتى غاصت أقدام الخيول والبغال والحمير وجميع الجمّالة في الرمال حتى ركبهم. وبدأ الحجاج والخدّام يصيحون ويتصايحون قائلين الله... الله. محاولين تشجيع الجمال وحثهم على السير، ولكن أي فائدة...! فالجميع كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فعيون كل الحيوانات قد ابيضت، أو كأنها طاس قد امتلأت بالدم، وعند وقت الغروب استراحت القافلة وبعد صلاة المغرب أُشعلت المشاعل بالآلاف وأُوقدت القناديل

والشموع بحيث سار الحجاج المسلمون على ضوئها، وتحولت ظلمة الليل البهيم إلى ضوء النهار المبهر. وعلى هذا المنوال استمرت القافلة في قطع المنـــازل، ولكـــن صحراء التيه هذه. يا لها من صحراء، وياله من وادٍ صامت بحيث إن المـــرء لـــو فقد رفيقه، ولو طال عمره مائة عام فلن يستطيع الخلاص من هذا الوادي الرملي، فالنجاة غير ممكنة.

مصراع: "فلا الباب الذي أتيت منه ظاهر ولا الممر المتجه إليه واضح"

فلا خلاص لمن يتوه في هذا التيه، فهلاكه محقق؛ إما من النسور والعقبـــان الجارحة أو من الحيوانات المفترسة أو من الحيات والثعابين السامة. والفقير إلـــى الله قد رأى بنفسه شيئًا كأنه كثبانٌ رملي، أو كأنه قطعة من الجبل الأسود فتعجبت، وسيَّرت جوادي نحوه لمعرفة كُنْه هذا الشيء. وعند اقترابي بدأ في التحرك، ومـــا إن أصبحت على وشك لمسة حتى توالت الصيحات المنطلقة حتى ارتعدت وارتبك جوادي الذي تحتي، فعاد الفقير القيقري على الفور، وما إن رأى الحجاج هذا الثور الوحشي حتى انطلقت من بينهم الصيحات فما كان من طائر العقـــاب هـــذا حتـــى ارتفع إلى عنان السماء، وغاب عن العيون. ومثله الكثير من هذه الطيور الجارحة، وغيرها من الطيور الضخمة كالنعام، وقد رأينا منها أفواجًا عديدة. وهـــذا العقـــاب أيضًا أمكنه صيد عجل جبلي، فتوجهنا نحوه أنا ومجموعة من الفرسان، فوجدناه قد فقأ عيني هذا العجل وأخذ يلتهمه، فأطلقت رصاصة، فانطلق هـــذا الطيـــر نحـــو السماء، وأخيرًا اندفع الخدّام الذين في معيّة الفقير نحو العجل وعـــالجوه بالـــذبح، وبدأوا يقتطعون لحمه من جانب وفي طرفة عين لم يبق سوى العظم.

وفي صحراء التيه هذه وفي غيرها من الطرق يمكن أن تجد بعض الجمـــال السائبة، فعلى الفور يذبحونها، وفي آن واحد يلتهمونها، ولو بقي هذا البعير فبقـــاؤه رحمة. وكانت المشكلة هي ذبح هذا الحيوان، لأن هذا التيه لا يجوبه أحـــد ســـوى الحجاج مرتين، وعداهم فهذا البحر أو هذه البحيرة الرملية هي مسكن الجن.

والواقع أنه مكان مخيف بلا أمان، حتى إن جميع كتب التواريخ تذكر أن سيدنا موسى [عليه السلام] ظل في هذا التيه لمدة أربعين سنة يحط ويرتحل. السبب هو أنه عندما كان سيدنا موسى في ديار مدين، وبينما كان متوجهًا إلى قوم ثمود، قام أهالي تلك الديار برجاء "بلعم بن باعور" حتى لا يقدم سيدنا موسى على مدينتهم. وكان لبلعم بن باعور امرأة مكّارة، وكان بلعم متيمًا بحبها. فلجأ هؤلاء القوم إليها، فقامت هذه المكارة بالدخول في أحضان بلعم بن باعور، وجعلته بشتى الحيل الشيطانية يقبل رجاءها. وعلى الفور قبل وتواءم بلعم بن باعور مع كلمات هذه السيدة. وما كان لنبي مثل بلعم بن باعور أن يصغى لها، ولكنه أصغى لكلامها ودعا ربّه ألا يصل سيدنا موسى بمن معه إلى هذه المدينة. وحينئذ قبل الباري دعاء بلعم بن باعور. وعلى الفور خلق الخالق حول جماعة موسى وجنوده من الجوانب الأربعة صحراء التيه هذه، فشد سيدنا موسى ومَنْ معه الرِّحال، ولكنهم وجدوا أنه قد ضُربت وخُلقت حولهم صحراء وبيداء بلا نهاية، ولم يكونوا قد رأوا من قبل هذه الرمال الشاسعة التي تُشبه البحر اللامتناهي، فمكث سيدنا موسى وجنوده في جانب من هذه الرمال، ورأوا أنهم على الصباح لم يغادروا هذا المكان.

وخلاصة الكلام، وحسب ما جاء في تاريخ الطبري، فإن سيدنا موسى ظل في وادي التيه هذا أربعين عامًا، وحسب رواية أخرى ظل أربعين يومًا يرحل ويحط رحاله ويرتحل من جديد ثم يجد نفسه يلف ويدور في المكان نفسه مما أوقعه في حيرة.

وبالنسبة لي فإن هذا القول هو الصحيح لأن سيدنا موسى لم يُعَمَّر طويلاً إلى هذا الحد؛ فلو أنه قضى من عمره أربعين عامًا تائهًا في صحراء وادي التيه... فمتى كانت حروبه مع فرعون وجداله معه؟ والقول إنها كانت أربعين يومًا وأربعين ليلة هو الأقرب إلى التصديق[150]. وخلال هذه المدة أنزل الباري على

---

(١٥٠) في القرآن الكريم ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (المائدة: ٢٦)

قوم موسى مائدة من السماء إحسانًا عليهم لدفع غائلة الجوع عنهم، وأغدق عليهم مع المائدة حلوى المَنّ والسلوى، وكان على المائدة تينٌ وعنبٌ وتمورٌ وخل وملحٌ وجرجير. وذلك الطعام الذى يُطلق عليه حلوى المن والسلوى ما زال معروفًا[١٥١]، كما أن هناك طائرًا يعيش فى الجبال القريبة من القبر الشريف الموجود بالقرب من القدس الشريفة يطلقون عليه طائر السلوى... وقد أُنزل على قوم موسى ضمن المائدة وهو مستوٍ وجاهز للتناول. وقد تناوله جميع قوم موسى ودفعوا به الجوع عن أنفسهم... ولكن يمكن الهلاك فى هذه الصحراء من العطش. فالعطش يوصل إلى الهلاك.

أوصاف تتمة صحراء التيه

صحراء تمتد من الطريق المؤدية من مصر إلى أن يصل الطريق حتى بحر القلزم. وفى نهاية صحراء التيه عند المرحلة السابقة، يصل حتى ناحية الغرب، وتتكمش وتضيق فى المكان المعروف بصحراء قطية وأم الحسن، ويصل أيضًا حتى أطراف ولاية النوبة، ولكن يطلق المؤرخون المصريون اسم "الرمال العربية" على بحر الرمال، وهناك جبال شاسعة داخل بحر الرمال وهى من الكثبان الرملية التى تكوّنها الرياح الشديدة، بحيث لا يستطيع بنو آدم السير فوقها، وتخفى حكمة الله جبل الرمال العظيم فى لحظة من ريح الصرصر، وفى الجانب الآخر تظهر الجبال الكبيرة، بينما كونت الحكمة الإلهية سلسلة من الجبال، تشاهد ألوانًا مختلفة من أى جانب، إنها حكمة عجيبة، وغضب جناب الحق على الأحجار الكبيرة الموجودة فى مبانى قوم عاد فصيَّرها رمالاً. هكذا، وقد تكونت الرمال هكذا، لذلك

---

(١٥١) المن والسلوى: عندما كنت فى إيران عام ١٩٧٦م ولمدة شهرين رأينا فيها حلوى تُسمى المن والسلوى، وهى تُشبه إلى حد كبير الملبن أو راحة الحلقوم. وقد قام العديد من الطالبات والطلبة ونحن بشراء كميات منها وتناولناها، وهى معروفة فى كل من إيران وأذربيجان وبين الشيعة.

من يشكك كثيرا فى ذلك يكون آثما، حيث توجد آية شريفة في السورة المخصوصة بهذه الأسرار. فالله جل وعلا ذكر فى الآية ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات٥١/٤١].

فى بيان مدينة قازان

بالقرب من صحراء التيه، وبالقرب جدًا من بحر القلزم، توجد مدينة "جراستان"، وتوجد بها مئات الآلاف من المغارات العظيمة القريبة لبحر القلزم والمرحلة القريبة فى صحراء التيه، وقد جمعت رفاة مائة ألف من البشر من بني آدم مرة واحدة فى داخل كل كهف، وهى رفاة الذين لم يغرقوا في بحر القلزم من قوم فرعون، وتوجد عظام الأذرع والسيقان في كومات كبيرة عبارة عن ثلاث أو أربع كومات سوداء اللون، وتمتد ساحات رءوس بنى آدم حتى قازان ووارنا، فالحق سبحانه وتعالى قد نكل بجبابرة فرعون، ولأن فرعون وقومه قد أغرقهم الله بالقرب من بوغاز قولون على شاطئ بحر القلزم. ولكن صحراء التيه تتسع مرحلتين على الجانب الغربى من تلك المدينة، ومدينة قازان أطلال خربة، يوجد حديث صحيح مآله فلتعمر مدينة أثينا ومدينة قازان في آخر الزمان.

حكـــــــاية

فى نهاية الأمر، بينما كان سيدنا موسى [عليه السلام] فى مصر رأى تجلى سبع بيضات. وكان النور المبين يستر جسده الشريف دائمًا، وكان يتجول بين الناس سرًا، وتعرض جميع شعب مصر لموسى بسبب تجوله المستور، وكانوا يقولون إن جسم موسى مصاب بالجزام، وكان موسى عليه السلام ذات يوم عريانا على شاطئ النيل، ووضع حوائجه على حجر صغير من أجل التهوية ونزل إلى النيل وبعد اغتساله خرج إلى البر، ولم يجد ثيابه فوق الحجر، وعلى الفور تحركت

الصخرة حتى لا تترك موسى عريانًا... وتعقبه الحجر حيث توجه داخل مصر. ودخل موسى حتى مصر عريانًا، ورأى جميع أهالي مصر جسم العصا البيضاء الشريفة والسبع بيضات لسيدنا موسى، ولسوء الظن أصبح نادما، وليست لحضرة موسى خرقة من الصوف كانت موجودة فوق الحجر، وضرب بالعصا التي في يده الحجر اثنتى عشرة (...) ، فانشقت اثنتى عشرة فتحة أو عينًا، وعلى أى حال تكلم الحجر المشقوق بأمر الله قائلا: يا موسى أنا أخذت ثوبك بإذن رب العزة وحملتها إلى المدينة، وأحدثت إيمانا بجسدك الطاهر، فقال حضرة موسى: يا حجر لم أعرف أنني ضربتك، وطلب منه المعذرة كما يقول الدراويش لشيخهم، فما كان من هذا الحجر إلا أن قال: يا موسى خذني وأخفني فربما ذات يوم يكون في وجودى شيء لمصلحتك، فأخذ سيدنا موسى الحجر بالإلهام الرباني، وأولج حبلاً في ثقابه وربطه حول عنقه.

ويقولون في رواية أخرى إنه ربطه في خصره، ويظل الحجر الموجود في رقاب الدراويش تذكارًا من سيدنا موسى. وبعد ذلك ومع مرور الأيام وبينما يمضي سيدنا موسى هذه الحوادث في صحراء التيه، وبينما كان يتجول متحيرًا قال جميع قومه: يا موسى لقد آمنا بك، وعندما صاحوا قائلين: أعطنا الماء في هذه الصحراء كمعجزة. وعلى الفور انطلق الحجر المذكور والموجود في رقبة سيدنا موسى وقال: يا موسى ضعني على الأرض وقل باسم الله واضرب بالعصا، فأنزل سيدنا موسى الحجر من رقبته ووضعه على الأرض، وعندما ضرب بالعصا اثنتى عشرة مرة بأمر الله؛ فانفجرت اثنتا عشرة عينًا من الحجر، وكان يشرب من إحداها جميع العسكر ومن واحدة أخرى جميع النسوان، ومن واحدة أخرى الحمير، ومن واحدة البقر، ومن واحدة الغنم، ومن واحدة التيس.

وحاصل الكلام أنه شراب عذب يَشرب منه عشرة مخلوقات من مخلوقات الله من اثنتى عشرة عينًا، وكانوا يدفعون به العطش. وأشار سيدنا موسى إلى الحجر فانقطع الماء، وأعاد ربطه في عنقه مرة ثانية، وعلى هذا المنوال يظل

سيدنا موسى يتجول الصحراء أربعين يومًا، وبشأن الحجر المذكور نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الحق عن طريق الحكاية ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة٢/٦٠] هذه قصة عظيمة ولكن

اختصرناها، وهى موجودة مفصلة فى تفسير سورة الأعراف.

وبعد ذلك كان الحجر المذكور ينتقل من دولة إلى دولة، إلى أن دخل تحت سيطرة الوليد بن عبد الملك وهو من الأمويين، وقد تم وضعه على المئذنة البيضاء التى سوف ينزل عليها سيدنا عيسى [عليه السلام] آخر الزمان، وهى على الجانب الشرقى من جامع الأمويين، ويشاهده جميع الزوار حتى الآن، وبعد ذلك من شدة ألم سيدنا موسى فى وادى هذه الصحراء قال: يا رب ماذا يكون هذا الحال، بقيت مع أمتى فى هذا الوادى أربعين يومًا وتجولت مضطربًا سيئ الحال، ما هذا الحال، وجاء النداء من الحق عز وجل بناءً على طلبه قائلاً: يا موسى دعوت عبدى المحبوب بالمجيء لمدينتى (لمكانى) قبلت رجاءك، وقال أنيكتك فى هذه الصحراء، وقال سيدنا موسى: "يا رب قبلت دعوتك هل تقبل رجائى، وعندما قال الحق عز وجل أقبل يا موسى، وكان سيدنا موسى سلطانًا عظيمًا، ورفع يده إلى السماء قائلا: إلهى أنت السلطان أطلب من الرب جل وعلا ألاَّ تحشرنا يوم القيامة بمحشر الكفار الذين هم سبب حيرتنا فى هذه الصحراء، فأصبح لسان بلعم بن باعور أخرس ونُسى فى التوراة والزبور، وكان سبب ذلك هو تواؤمه مع كلام المرأة الماكرة وابتعاده عن طريق الحق. ومضى ولسوف يبعث على الكفر. وما إن سمع ذلك حتى انعقد لسانه. إلا أنه جاء إلى سيدنا موسى بغرض الرجاء ولم يتلق ردًا فترك الديار واتجه إلى حضن الجبل، وهو مدفون فى جبل أكيرلى العظيم فى الناحية الجنوبية لقلعه أرضروم فى ولاية أرضروم، وتفوح رائحة كريهة من قبره وكأنها قطران.

قد حُرِّرَ هذا مفصلاً في سياحة عام ١٠٥٦هـ، ولكن جاء ابن بلعم بن باعور إلى سيدنا موسى ومرغ وجهه على قدميه الشريفة، فدعا سيدنا موسى له بكلمات خيّرة، وألقاها من بين شفتيه إلى فمه، ومسح بيده البيضاء على وجهه، وكان آخر نفسه هو النطق بالإيمان.

انظر... فالآن تلك المرأة الماكرة ماتت على الكفر مثل بلعم بن باعور، ولكن ابنه مات على الإيمان، وعلى جانب عجرود لصحراء التيه هذه وعلى شاطئ البحر:

زيارة هودن بن بلعم بن باعور

مدفون داخل قبّة عالية على جبل في المكان المعروف بمضيق الـقولوندر "بو غاز القلوندر"؛ الذي غرق فيه فرعون عند ساحل بحر القلزم، ويزوره جميع رهبان وملاحي السويس ويطلبون الإفادة من روحانيته، حتى عندما زرته أنا الفقير رأيت أن بناءه على الطراز القديم، وعندما سألت خدمته حيث كان التاريخ محررًا باللغة القبطية على الجدار فأشار قائلاً: بناه المقوقس القبطي الذي هو من ملوك مصر في زمن سيدنا عيسى. وبعد أن تخلص سيدنا موسى من هذا التيه، ودعا الله قائلاً "إلهي اجعل مصر في حرز الأمان من شر هزيمة بالجانب الشرقي ولتبيلك في صحراء التيه من يأتي على مصر بقصد الخيانة" ومازال تأثير هذا الدعاء قائمًا حتى الآن.

فمصر آمنة من هذه الناحية لأن الله عز وجل جعل صحراء التيه هذه عائقًا كالسد أمام العربان الخارجين على القانون، فهو مكان غير آمن (...) وفي الواقع أنا الفقير قد رأيت أماكن غير آمنة كثيرة، ولكن لم أر مكانًا بهذه الخطورة، فلقد تيسر لي رؤية بالوخان في موسكو (...) وقازان وهمشدك وزالاطير وسراي ووديان العراق وقلعة أزاق وقلعة بورغوسان وقلعة ترك في موسكو أيضًا وصحراء هيبات، وغيرها فيما بين القلاع والمدن في ديار موسكو، وبحر جيلان

الرئيسي الموجود بالقرب من بحر الخزر على الناحية الشرقية لهـذه الـصحراء. وعلى الجانب الغربي عند الوصول إلى بحر الأزاق المتفرع من البحـر الأسـود، فإن صحراء هيبات هذه طولها مسيرة خمسة أشهر من الشرق إلى الغرب. وعلى الجنوب مدينة "قوبان" حدودها ومياهها بلاد الجركسي. وعلى الجانب الشمالي منها يقع نهر "تن" الذي ينبع من موسكو. ومن الجنوب إلى الشمال فإن أراضي هيبـات هذه مسيرة شهرين. وفي بعض أماكنها مسيرة شهر، وبها الآلاف مـن النباتـات والحيوانات البرية. وتتنقل هذه الحيوانات في قطعان تبلغ مئات الآلاف لعدة مرات، وفيها يقطن مائة ألف مضروبة في عشر مرات من تاتار النوغاي، ويرتحل فيهـا كفرة العماليق بأعداد هائلة يأكلون ويشربون ويرتحلون دائما.

إنها صحراء بلا نهاية، ولكنها ليست في خطورة صحراء التيه، ولا حكمـة لكون الناس في غير أمان. فلا يُسأل عما يفعل ! وعلى الجانب الغربي لـصحراء التيه هذه لا تنتهي بحيرة التبنية Tebniye في صحراء أُم حسن. وفـي الطـرف القبلي تنتهي عند بندر السويس، وتصل حتى مرحلة النواطير التي نزلنا بهـا فـي الطرف المذكور، وتصل في الطرف الجنوبي حتى ساحل بحر القلزم، ومجمـوع مساحتها دائرًا مادار تستغرق مسيرة شهر، ولكن حكمة الله اقتضت أن يظل سيدنا موسى هائمًا أربعين عامًا، وفي رواية أربعين يومًا في هذه الصحراء، وتجول في طولها وعرضها ثمانية أقوام، ولكن عبرناها من زاوية ما مع حجاج مـصر فـي يومين وليلتين، ولكنها كانت كبحر آدم تتدفع رمالها كسيل جارف ونحن نعبرهـا، وأنشأ السلاطين الأوائل أعمدة على طريق التيه داخل الصحراء يقف كل منها مثل المنارة، وعندما كان حجاج المسلمين يعبرونها كانوا يعلقون علـى تلـك الأعمـدة قناديل مضاءة، وكان الـدلالون يسبقونهم ويسيـرون من عمود إلى آخر ليجـدوا أو يستكشفوا الطريق الصحيحة؛ وإلا فإن السبعين ألف حاج يصيرون كقوم موسى، ويظلون في تيه وادي التيه الصحراوي هذا. وبه خيرات عجيبة وعظيمة. وحمـدًا لله فقد عبرنا بسلام في غضون أربع وعشرين ساعة كاملة. وبعدها وصلنا إلى:

منــزل قلعة عجرود

بناها (...) فى تاريخ سنة (٩٨٥؟)، وهى قلعة جميلة ذات بنــاء حجــرى، شكله مربع على منحدر فى نهاية الطرف الغربى لصحراء التيه، ومحيطها دائــرًا مادار ٣٠٠ خطوة، ويوجد بها محافظ القلعة ورجال حصار من قبل أغـا متفرقــة مصر، ويوجد بها باب يُفتح نحو القبلة، وماؤها غير عذب ، ولكن يُـشرب عنـد الضرورة، وهو عذب بالنسبة للحيوانات. وتُوجد بركة فى الجانب الأيسر خــارج القلعة فيى حوض عظيم شافعى، ولكن لا يوجد بها بستان ولا حديقة ولا أشــجار النخيل، ولكن عند بندر السويس - التى تبعد مدة ساعة عن جنوب عجرود - يهب لمقابلة الحجاج بمياه الطور العذبة بالهدايا، وعند العودة وصلنا نحن الفقيــر إلــى السويس فى زمن ساعتين.

أوصاف ميناء السويس

وهو خليج عظيم طوله ١٥٠٠ ميل من البحــر المحــيط، ويطلــق عليــه المؤرخون بحر القلزم، وقد حده من الغرب بوغاز زيلــع الحبــشى مــن الناحيــة الشرقية، وعلى الجانب الغربى بندر السويس طولاً، وفى الطرف الجنوبى ولايــة الصعيد وولاية الحبش، وحتى الوصول إلى مدينة زيلع يوجد حوالى مائة وســبعين مرفئًا، وعلى الجانب الشمالى لأرض مكة حتى الوصول إلى نواحى اليمن يوجــد مائتا مرفأ، لأن نواحى مكة واليمن كلها معمورة، وقد سبق وشرحنا هذا البحر عند الحديث عن وصف قلعة ينبع.

ولكن بندر السويس هذا يقع فى صحراء رملية فى نهاية الطرف الغربــى لهذا البحر. وهو ميناء للهند ومكة والمدينة والحبش، ويحكمه أغا يُعين من قِبل أغا أى والى فى أيالة مصر ومن بين أغوات الباشا ، وبندر السويس هذا هــو واحــد من الأربع والعشرين آغوية، تأتيه سنويًا مائة قطعة من السفن التى تفد من الهنــد واليمن ومكة والمدينة والحبش، وتحصل رسوم على البضائع ومن جميــع التجــار

حسب القانون، ويُقدم الحساب كل سنة للـپـاشا ، لأن جمرك هـذا الميناء يـدخل ضمن التزام خزينة پـاشا مصر، وهو من مخصصات الـپـاشا والتزامـه، ولـو نقص يتم إكماله من قبل الـپاشا ، وتعطى مواجب لـوالى مـصر، وإنهـا أمانـة عظيمة، ويوجد فى الجمرك مائة خادم مع الحمالين والجمالين والصراف والكتبة.

ويقدّم الباشكاتب كيستين للـپـاشا ، وكذلك يقدّم الوزان خمس كيسات مصرية فى السنة، ولو ظهرت أى خيانة وإذا ما أُدين أحدهم بالرشاوى يعاقب، فهذا مكـان للموظف الخبير المدبّر والمتبصر، إنه مكان الأغـا المحـب لـسيده، لأن ميـنـاء السويس وميناء دمياط وميناء الإسكندرية وميناء بولاق هى التى تحفظ ماء وجـه الـپـاشا ، ولكن السويس أرفع منـزلة من الجميع؛ لأنها تحصل علوفـه للـپـاشا يوميًا من جمارك السويس خمسة قروش على كل بضاعة تدخل، ولو تاجر الأغـا الذى هو منعم فيكون نور على نور، وهو قضاء شريف سنويته ثلاثمائة پايـه[١٥٢] ناحيته غير معمورة بالقدر الكافى مائة درجة، ولكن يُحَصَّل منها خمـس كيـسات مصرية سنويًا على الرغم من أنها مدينة غير آهلة بالسكان، ولكن جميع منازلهـا وأبنيتها قوية وسطوحها جميعًا مكسوة بالجص، وجميع الجوامع ماعدا جامع (...) عبارة عن مساجد، ولا يوجد بها سوى مدرستين للصبيان ومدرسة وتكية وليس بها حمامات. وبها وكالات كالقلاع؛ فهناك، وكالـة صـقوللى محمـد پـاشا [١٥٣]،

---

(١٥٢) پايه: Paye: مصطلح إدارى يقابل الرتبة، وكان يُطلق ويمنح للموظفين المدنيين مع مبلغ معيّن يقدّم من ينالها، كما استخدم لأصحاب المراكز والمراتب العلمية. وما إن يذكر هـذا المصطلح حتى يتبادر إلى الذهن فورًا أصحاب المناصب العلمية. وكانت أصغر "پايه" تمنح للمدرس وأعلى "پايه" كانت تمنح لقاضى عسكر الروميلى. (انظر: باقالين ج ٢ ص ٧٦٤).

(١٥٣) صقوللى محمد پاشا = محمد پاشا صقوللى: تولى الصدارة لمدة ١٥ عامًا فى عهود كل من السلطان سليمان القانونى وسليم خان الثانى ومراد خان الثالث، ينسب إلى قصبة صوقل فى البوسنة، تربى فى السراى السلطانى، وعيّن فى الضواحى بلقب قبوجى پاشا، ثم أنعم عليه بالوزارة لما أبداه من شجاعة وحسن تدبير خلال فتح طمشوار فى بلاد الروميلى. ثم عيّن قبطانًا سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م، ثم صاهر السلطان بزواجه من "سميخان سلطان" سنة ٩٦٩ هـ - ١٥٦١ م، ثم أصبح الوزير الثانى عقب ذلك ثم رقى إلى مرتبة الصدارة سنة ٩٧٢هـ = ١٥٦٤م، وعندما توفى السلطان سليمان كتم خبر الوفاة حتى تم جلوس السلطان

ووكالة قولقيران أوكوز محمد باشا [١٥٤]، وهي بدون مياه ولكن على الجهة الشرقية من شاطئ البحر مياه عذبة يطلقون عليها نابه Nabe، وهي على بعد ثلاث ساعات من السويس، ولو أحضر صاحب الخيرات المياه إلى السويس يكون سببًا في إعمارها سبعين مرة، وبها مائة سوق محدودة.

لكن لا يُوجد بها مصانع نسيج للأقمشة النفيسة، وتوجد بها بضائع الهند والسند وسمرقند[١٥٥] وبخارى[١٥٦] وقندهار[١٥٧] وهي معروضة في جميع الوكالات، وميناء السويس مكان بعيد، يبعد مسافة مرحلتين أو منزلين عن مصر، وكان الملك طوطيس من فراعنة مصر في عهد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) من السلاطين الأقباط الحقيقيين. وكان في غاية المحبة لسيدنا إبراهيم، وكان يُرسل له الغلال وغيرها من الهدايا من مصر عن طريق بحر السويس؛ ولهذا أنشأ هذا المرفأ.

وكان قد أرسل له جارية مسلمة ورعة تُدعى هاجر، وتزوجها سيدنا إبراهيم وأنجب منها سيدنا إسماعيل (عليه السلام)، وكانوا يطلقون عليها الجارية هاجر،

سليم الثاني على العرش. أدار أمور الدولة بقدرة واقتدار. شارك في فتح عدة من مدن البلقان ودويلاتها. استشهد بخنجر أحد المجازيب سنة ٩٨٧هـ = ١٥٧٩م. مدفون في ضريح خاص به بجوار أبي أيوب الأنصاري. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي).

(١٥٤) قولقيران أوكوز محمد باشا: من الوزراء العظام وقد تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان أحمد الأول وعثمان الثاني. عيّن واليًا على مصر سنة ١٠١٦هـ ، تصدى فيها لكل المغتصبين ولكل حركات العصيان فيها. وأعاد الأمن والأمان بعد أن قتل بضعة آلاف من العصاة. ومن هنا لُقب في مصر بلقب "قول قيران" أي محطم العبيد. عاد إلى إستانبول بعد عزله. نال مصاهرة السلطان فلقب أيضًا بـ "داماد" أي صهر السلطان، وفي عام ١٠٢٢ هـ نال رتبة الوزير الثاني. عزل للمرة الثانية عام ١٠٢٨هـ وتوفي في حلب في العام نفسه. كان ثريًا وله وكالات تجارية تحمل اسمه.

(١٥٥) سمرقند: مدينة مهمة في جمهورية أوزبكستان المعاصرة.

(١٥٦) بخارى: إحدى مدن جمهورية أوزبكستان المعاصرة. وبها مرقد الشيخ البخاري جامع الأحاديث النبوية ومركز أبحاثه.

(١٥٧) قندهار: ولاية في أفغانستان الجنوبية. وتعد مركزًا تجاريًا مهمًا.

وسمع الملك طوطيس أن هاجر محبَّة لإسماعيل ولكن كانت محبته هو لسيدنا إبراهيم، فجعل كل احتياجات مدينة مكة من مصر، وكان يُرسل إليها الغلال من مصر عن طريق السويس. ولكن لما كان في مصر، ولما كانت كثرة ذهاب تصدير الغلال وجميع الاحتياجات غير الغلال من الظهيرة يستغرق وقتًا طويلاً عن طريق البر. جمع جميع مهندسي مصر، وأمرهم بتتبع ارتفاع مياه النيل حتى السويس، فوجد المهندسون أن هذا الأمر يسهل من جانب "بني سويف"، وفقًا لعلوم الهندسة. وبشروا الملك طوطيس بذلك. فوضع الملك كل ما في قبضته من مال وإمكانات تحت تصرف المهندسين، وسخر العمال الذين بلغوا مائة ألف في سبع مرات أي سبعمائة ألف عامل، وبدأوا الحفر من مقابل بني سويف، وحفروا نهيْرًا يُشبه الخندق. وتم إكمال العمل في سبع سنوات، وكان النيل المبارك يجرى حتى بحر السويس، وكان الملك طوطيس يرسل من أعلى الصعيد مائة سفينة من الذخائر لسيدنا إبراهيم وأهالي مكة في كل سنة، وظل نهر النيل يجرى مائتي سنة حتى عصر سيدنا صاحب الرسالة على هذا المنوال.

كان النيل يجرى إلى السويس، وبعد ذلك كان الملك روجيل من فراعنة القبط قد سمع بظهور حضرة صاحب الرسالة، وكان يغلق طريق النيل من خوفه قائلاً: "سيسيطر". مرددًا أن هؤلاء المحمديين سيسيطرون على مصر في النهاية، ومع مرور الأيام والزمان أصبح مملوءًا بالتراب والرمال وأصبح معطلاً، وبعده قام أحد سلاطين مصر هو "محمد أكراد" بمشورة وتعليم الإمام الشافعي بجمع مئات الآلاف من بني آدم لعدة مرات، ومدُّوه من السويس حتى قرب بلبيس داخل العباسية، ومن هناك حتى بحيرة "التَبْنيَه" Tebniye ومنها حتى اختلطت مياه بحر السويس بالبحر الأبيض [المتوسط]. وظل الأمر على هذا المنوال سبعين سنة... وأصبحت ولايات مصر وفونجستان وفاس ومراكش وسواكن عبارة عن جزيرة، ومع مرور الأيام امتلأ هذا أيضا ثم أصبح معطلاً، ولو كف آل عثمان عن الأخذ من خزينة مصر لظل مفتوحًا كالأول، وكان من الممكن أن تأتي السفن من

السويس إلى البحر الأبيض [المتوسط] ومن البحر الأبيض [المتوسط] إلى السويس، ولكن أفضلها كانت الترعة التى أمر الملك طوطيس بأن يجرى النيل فيها حتى السويس.

ولو تم فتح هذا الخليج لأخذت مكة والمدينة غنائم جمّة، ولأمكن كذلك فتح اليمن أيضًا بالأسطول العظيم، وكان من الممكن أن تقع تحت السيطرة آلاف القطع من السفن، ولكان حجاج مصر – وهم يذهبون إلى مكة وعند العودة – بإمكانهم أن يتجولوا فى الترعة المذكورة فيما بين المصانع بالسويس، والأماكن التى كان يجرى نهر النيل فيها إلى السويس ظاهرة، فهى خنادق عظيمة وكبيرة حتى الآن، وبعض أماكنها عميقة بقدر المئذنة، حيث تم تطهيرها بشىء سيل، وفى زماننا بينما كان الكتخذا إبراهيم باشا وزيرًا لمصر عرض الأمر على السلطان صاحب السعادة، وطمع فى أن يجعل اهتمامه بأن يجعل النيل يجرى كما كان فى البداية من مقابل بنى سويف، ولكن صدر له فرمان بفتح اليمن. وبناء مابين أربعين إلى خمسين سفينة حربية فى ميناء السويس، فأنشأ عشر قطع من سفن القادرغة الحربية وعشر من الغاليون، وكانت هذه القطع على أهبة الاستعداد فى البحر.

وجاء عقلاء مصر وكبار عمالها إلى ديوان مصر وتشاوروا فى حضور الباشا ، وقالوا فى حضرته: "لقد أصبح مسموعًا لدينا أنك طوال مدة بقائك وزيرًا على مصر – أمدّ الله طول عمركم – أنك سمعت أن أحد فراعنة مصر الأقباط قد مدّ النيل من قرب بنى سويف حتى السويس، وأنك تُريد أن تُعيد فتحه، فليسيل الله، ولكن إذا جرى النيل حتى بحر السويس، وعندما يصل من بنى سويف حتى دمياط ورشيد تكون ١٧٠ مدينة ومحافظة وألفان ومائة وستون قرية ميرية على جانبى النيل قد جفّت وأصابها الجفاف، ومنْ أين يحصل السلطان على آلاف الكيسات، وبعد انحسار النيل فكيف يكون فى التزامك عن ميناء دمياط وميناء رشيد، ولن تأتى السفن بعد أن يُصبح الجمرك معطلاً.فمن أين تدفع علوفة واحد

وعشرين ألفا من عبيد مصر. ففى فتحك لهذا الخليج عشرات المضار والمصائب، والباقى هو فرمان سلطانك".

عندما قالوا ذلك أدار الباشا الأمر فى رأسه، وصرف النظر عن إيصال النيل إلى السويس. ولكن المصريين تشاوروا مئات المرات، وظل الأمر فى بطن الشاعر. ولكن الفقير قد علم بأنه إذا كانت حرب اليمن هى التى حالت دون فتح هذا الخليج، فإن هذه الحرب لم تتم طوال عشرين سنة. ولكن الأعيان الذين اجتمعوا بالباشا قالوا له نحن أصحاب عيال وبنين، وسوف يصيبنا الفقر والعوز، وأن المال لا ينفصل عن الروح وأن هذا هو الذى صرف الباشا عن فتح الخليج. ولكن لو أن النيل قد جرى فى هذه الترعة حتى السويس لتخلص الحجاج من مشقة السفر بالبغال والقوافل ولتنقلوا بالسفن. ولصارت هناك تجارة ورواج فى مكة والمدينة. ونجح أهالى مصر فى صرف نظر إبراهيم باشا عن غزوه اليمن.

وحين عزله بيعت سائر الأخشاب التى كانت موجودة فى بندر بولاق وسائر السفن كذلك. وتم التخلص من فتح اليمن، ووصل أهالى مصر إلى مرادهم. ولكن لو تم تسيير ماء النيل كما كان مخططا أيام الملك طوطيس من بنى سويف لأمكن توصيل الغلال والحبوب إلى مكة والمدينة عند فيضان النيل، ولتم التخلص من هجمات العربان. ووصلت الغلال والحنطة طاهرة، ولما تم تحميل البغال والحمير والجمال مشقة السفر وقلة المياه. وتم التخلص من كراء هذه الدواب التى تبلغ تكلفتها مائتى كيسة مصرية. تم التجول فى السويس ومشاهدتها، وبعد أن عدنا سار الحجاج لمدة خمس عشرة ساعة داخل الرمال والصحراء الرملية. اللهم يسر والسلام.

حتى وصلنا إلى:

منزل مصانع

قام سيدنا موسى [عليه السلام] بمحاربة فرعون مصر والصراع معه فى هذا المكان. وفى هذا المكان التهمت حية عصاة موسى كل ما عداها. وظهرت معجزة

سيدنا موسى فى هذا المكان، ويسمون هذا المكان أيضا بـ "دار حمـرا"؛ حيـث إن جملة رمالها وترابها حمراء. ويذكر المؤرخون أن دماء فرعون وقومه هـى التـى خضبت هذه الرمال والأتربة. ولهذا أطلقوا عليها "دار حمرا". وهى صحراء بلا ماء أو عمران أو أعشاب... مكان يابس ومنخفض، ليست به إشارة للعمران. يُقدم مـن مصر حمل ألف جمل من المياه إلى هذا المكان. كما يفد إليه بعض مستقبلى الحجاج لا يحط فيه الحجيج، بل يتجهون صوب مصر. ولا يسير فيه سوى الخيَّالة والهجَّانة. وهذا المكان أيضا خاضع لأولاد شاهين. وفى هذا المكان أيضا يُضرب النفير، وعند العصر يتجه العزم نحو طريق مصر العظيم، ويتم السير وسط الـصحراء الرمليـة حتى نصف الليل حتى يتم الوصول إلى منـزل:

الأزيـــــــار

تتم الاستراحة فى المكان المذكور، ويمكث جالبى الخراج لوالى مصر هنـا بعدد يتراوح ما بين ٤٠و٥٠ خيمة، ويصطف أمير الحج وجميع الأعيان والحجاج، ويوزع ألف ثوب وألف من الجلاليب ومائة من لحم الخراف و٢٠ حمل جمل خبز من كيسة البـاشا على جميع الفقراء والخدام، ويُلبس ألف فقير بالثياب الجديـدة. وجرت العادة أنه فى مصر بقدر ما توجـد جمـال يوجـد آلاف مـن الأعيـان والأشراف؛ فبينما يذهب الحجاج المسلمون إلى مصر كل سنة، يوجد فى الموضـع المشهور أزيار فى مائة قرية سلطانية وجميع الأوانى الحجرية والأحواض الكبيرة وكلها من الفخار، ويتناوب الأعيان واحدا واحدا فى جمع جمال جميع أعيان مصر، ويحضرون إليها الماء، ليشرب جميع الحجاج وغيرهم من أصحاب الاحتياج ومـن الحيوانات، يشربون من الماء الذى تحضره الجمال، وعندما يذهب عطشهم يدعون لصاحب الخيرات بالخير، وبعد الوصول إلى هذا المكان هناك أربع مراحل مياهها غير عذبة. ومن هنا فإن الحجاج يرتوون من هذه الأزيار وينطلقون إلى الطريـق. وأكثر المصريين يأتون إلى هذا المكان لاستقبال الحجاج. ويأتون إلى مكان الأزيار

ويلتقى كل إنسان ويتشرف باللقاء. ومن هنا وحسب الوقت الشافعى، وبعد مسيرة ثلاث ساعات يتم الوصول إلى:

مصطبة إبراهيم أغا

فى هذه الصحراء يبدو بناء لطيف ومصلى رائعة للصوفية. يعبر جميع الحجاج هذا المكان، ومنهم من يمكث فى البركة ومنهم من يذهب إلى مصر، ولكن يأتى أمير الحج فى الوقت الشافعى إلى هذا المكان، ويقيم صحبته، ويستعد جميع عسكر الآلاى أى الموكب بمعداتهم، ويزينون أيضا المحمل الشريف، بعد ذلك يرفعون أذان صلاة الفجر، وبعد أداء الصلاة يخرج كتخدا الچاوشية ورئيس المتفرقة والحاصل جمعًا من أغوات السبع بلوكات وجميع الأرباب وأشباه الديوان لاستقبال أمير الحج بالمواكب العظيمة على نفقة مصر، ويقدم كتخدا الباشا الهدايا لأمير الحج؛ وهى عبارة عن حصان مطهم فوقه سرج مقصب وسائس لركاب السرج وذو آلة حرب مرصعة وطقم حصان مرصع، ويقابل رئيس كتاب الديوان أمير الحج على المصطبة، ويتقابل مع جميع أعيان مصر، ويتناولون القهوة معًا، ثم ينشدون الرحال مفتونين بالأناشيد التى تصدر عن فرقهم، ويمتطى أمير الحج فرسه الكحيلانية التى هى هدية الكتخدا، وتُقدم مع الفوج الكبير ثم يتعقبه فى مؤخرة الحجاج عازفين كل الآلات الموسيقية، وصار بجوار كتخدا الباشا ومع جميع الأمراء المصريين ووصلوا من المكان المعروف دار حمرا فى ست ساعات.

منزل قرية بركة الحج

عند فيضان النيل تأتى المياه إلى هذا المكان وتُصبح كبيرة مثل البحر، هى بلدة على شواطئها مائة منزل ومسجد وبستان وأشجار النخيل، لذلك يأتى إليها أعيان مصر وكتخدا الباشا وأغوات البلوكات السبع ويقيمون خيامهم ومقاراتهم. وينزل أمير الحاج إلى خيمة الكتخدا. وتُقام لأعيان مصر وأغوات البلوكات

السبع وأغوات الأوجاقات الچاوشية ولرئيس المتفرقة ولأغا الترجمان وكتخذا الـباشا ورئيس الكتاب وليمة عظيمة، وأنزل كتخذا الـباشا أمير الحج إلى خيمته واستضافه فيها، بعد ذلك ذهب أمير الحج بنفسه للخيمة الكبيرة، ويذهب كتخذا الباشا وجميع أعيان مصر إلى مصر، ويبقى أمير الحج فى البركة تلك الليلة، ويسعد بطلقات المدافع والبنادق والفشنك، وفى الصباح بينما يدخل إلى جامع جانپلاط من الباب الناصرى لمصر بالفوج الكبير يخرج وزراء مصر لاستقبال المحمل الشريف فى حالة روحانية محبَّبة وقبلوا المحمل الشريف، وأخذوا بلجام جمَّال المحمل فيهم بذلك فى خدمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكون ذلك فى خدمته الشريفة وبعد ذلك يُقال لأمير الحج أهلاً ومرحبًا بك وألبسه وزير مصر سمّورًا فاخرًا، وتوجه الباشا للمشاهدة والفُرجة.

ويمكث أمير الحج فى مسجد جانبولاط المذكور، وقد وُضع المحمل الشريف أمام باب المسجد، فيأتى أعيان مصر والرائح والغادى ليقبلوا أطراف المحمل، ثم جاء جميع العلماء والصلحاء والأئمة والخطباء والمشايخ فى مصر إلى هذا الجامع، وانتظروا المحمل الشريف، وظل الإنشاد الشريف حتى الصباح، وأحيوا هذه الليلة.

تشرفت أنا الفقير بلقاء أفندينا إبراهيم باشا فى قصر العدلية، فأحسن علىَّ أنا الفقير بكيسة مصرية، ودخلنا أم الدنيا التى هى نادرة العصر مدينة القاهرة فى اليوم السادس من شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٣هـ، وألحق إبراهيم باشا هذا الفقير إلى مجموعة الأغوات الذين فى معيته وأمر بتجهيز منزل قريب لحضرته، وتم فرشه بجميع الاحتياجات المعيشية والأوانى الحياتية. وتم صرف ألف قرش، وأُنعم على ببعض من فراء السَّمور. وطبقة من الثياب المتكلف وعبد طواشى، واعتبروا هذا الفقير بين الأقران. وحظينا بالمبلغ الكافى لاحتياجاتنا من المأكولات والمشروبات، وداومنا كل ذكر الدعاء بالخير، وتشرفنا بصحبته الشريفة ليلاً ونهارًا، وأصبحنا من طبقة الندماء الخواص، كما أحسن علىَّ بجواد من أحسن الجياد الكحيلانية التى تُسابق ريح الصبا، وكان مطيهما بركاب مُزيَّن ومذهّب

ومُغطى بغطاء من القطيفة المقصبة. وكذا أُنعم عليَّ بغدّارة سريعة الطلقات، وبهذا وبذاك اكتشفنا ارتفاع القدر من يوم إلى يوم.

وبعد ذلك فى صباح اليوم التالى فى يوم السابع من الشهر الشريف دخل أمير الحج للداخل من باب مصر مع الألاى الكبير المكوّن من أغوات البلوكات السبع وجملة الجاوشية، وقواد الحجيج من البلوكات السبع وجميع حكمدارات الحج من السبع بلوكات، وعلى هذا الترتيب أخذ الآلاف من البشر يتراصون أمام أمير الحج وساروا داخل المدينة ولكن لم تُشارك الإنكشارية أو جنود العزبان فى هذا الموكب، لكن العلماء والصلحاء والفقراء كانوا كثيرين، وتقدم قاضى المهمة وجاويش المكان وبدأوا يعزفون مع جميع جنود أمير الحج وطاقمه الموسيقى، وأخذ صاحب العلم برفع العلم الشريف ومروا (من روميلى ميدانى) أى من ميدان الروم(١٥٨) وفى قراميدان(١٥٩) قام أمير الحج بتسلم المحمل الشريف إلى الباشا الذى أخذ بيده لجام ناقة المحمل، وقام بتسلمه أيضًا للكتخذا، حضور جميع حضّار المجلس دوّن قاضى العسكر(١٦٠) بالسجل الرسمى المحمل الذى تم تسلمه للباشا،

---

(١٥٨) ميدان الروم أو روملى ميدانى: ميدان فسيح ينسب للروم الأتراك بالقرب من القلعة.

(١٥٩) قراميدان: اسم ميدان كانت بالقرب من القلعة فى العصر العثمانى، وكان يستخدم لسباقات الخيل.

(١٦٠) قاضى العسكر: من أرفع المراكز العلمية فى الدولة العثمانية، وقد كان منصب قاضى الجند أو العسكر موجودًا فى الدولة العباسية، والخوارزمية، ولدى سلاجقة الأناضول والأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، ويعد مراد الأول أول سلطان عثمانى أوجد هذا المنصب فى بلاده، وكان جاندارلى قره خليل أول من شغل هذا المنصب فى الدولة العثمانية. وفى عهد محمد الفاتح تشعب المنصب إلى قاضى عسكر الروميلى والأناضول. وبعد فتح بلاد الشام وديار بكرومصر فى عهد سليم الأول استحدث منصب "قاضى عسكر العرب والعجم" وعين فيه المؤرخ المشهور إدريس البتليسى. وكان مكانهم فى التشريفات بعد الوزراء مباشرة، ويجلسون فى صدر الديوان عند انعقاده، ويستقبلون بمثل استقبال الوزراء. ويدخلون على السلطان أربعة أيام أسبوعيًا كالوزراء، ويقف لهم السلطان عند استقبالهم فى الأعياد والمناسبات الدينية، ولهم الحق فى الدخول على السلطان بدون إذن فى وقت الحرب، وترتب

فأخذ أمير الحج الحجة الشرعية بيديه، فأمير الحج والكتخذا والديويدار[١٦١] وحامل علم حضرة الرسول وحملة المحمل وچاوشية المحمل وناظره وقاضيه وسـردارية أى قواد البلوكات السبع والكتخذاوات والچاوشية والحاصل قام الـبـاشا بإلبـاس عدد ١٧٦ خلعة لكل هؤلاء بمناسبة ذلك اليوم الذى تم فيـه تـسلم هـذا المحمـل السلطاني. ويذهب أمير الحج بالآلاى[١٦٢] أى الموكب مرة أخـرى مـع عـسكر الـبـاشا إلى منـزله، فأحسن على جميع أغوات الـبـاشا بكيسة[١٦٣] من النقـود،

لهم العلوفات أى المرتبات ويعقدون الديوان العسكرى، ويخصص لهم مساعدون، ويشتركون فى مناقشات الأمور الدينية التى كانت تعقد فى الباب العالى انظر:

Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimleri ve terimleri söslüğü, Ist, 1971.

(١٦١) الديويدار: مصطلح عثمانى كان يُطلق على حامل دواية الحبر والمسئول عنها فى أقلام الكتاب والخطاطين.

(١٦٢) الآلاى Alay: مصطلح عسكرى يُطلق على جماعة أو مجموعة متجانسة تمر فى موكب ما، وأصبحت تطلق على العرض العسكرى. أو الموكب الذى يمر أمام السلطان، والملك، أو الرئيس فى أيام معينة. ومن أهم الشخصيات فى المواكب أمير الآلاى، وقائد الآلاى، وأمين الآلاى. وكاتب الآلاى.
وكذلك أخذ يطلق على مجموعة فى التشكيلات والتنظيم العسكرى؛ فالآلاى يضم المشاة، والخيالة والمدفعية، ومن نظم الجيش العثمانى أن الآلاى يتكون من أربعة طوابير مشاة، وخمس بلوكات فرسان، وست بطاريات مدفعية فى كل بطارية أربعة مدافع بأطقمها.
وإن كان هذا التشكيل قد طرأت عليه الكثير من التغييرات على مر العصور. وأضيف إليها فى العصر الحديث إمام الآلاى، ومفتى الآلاى، وجاويش الآلاى. وكان لكل آلاى علمه الخاص به يرفعه عند المرور فى الموكب أو العرض العسكرى، وسوف نرى هذا بالتفصيل فى متن الكتاب. (انظر محمد ذكى پاقالين).

(١٦٣) الكيسة: Kese – Kise: مصطلح مالى. يدل على الحافظة التى كانت توضع فيها النقود الذهبية أو الفضية. وكانت تتغير قيمتها من عصر إلى عصر أخر، كان يطلق على العملة التى توضع فى الكيسة اسم الأقچة، وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوى أربعين آقچة. أول الأمر كان الكيس يساوى ٣٠ ألف آقچة أو ١٠ آلاف دينار ذهب، ثم بدأت القيمة تتغير وفقًا للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد.
والكيسة: اصطلاح مالى يدل على الكيس أو الوعاء أو الحافظة التى كانت تُستخدم لحفظ مبلغ معين من النقود الذهبية أو الفضية، وكانت قيمتها متغيرة حسب العصور. كما استخدم هذا المصطلح للدلالة على العملة، و(صرة) للدلالة على الذهب. وكانت الكيسة السلطانية

وأحضر كتخذا الـبـاشا المحمل الشريف من قراميدان إلى باب الوزير، وهنـاك أبرك ناقة المحمل الشريف، وفى هذا المكان تم فك هذا المحمل لأن بـاب القلعـة صغير جدًا ولا يمكن إدخال المحمل متكاملاً، بعد ذلك يحمـل الـشيالون المحمـل الشريف إلى قصر يوسف ويسلم كتخذا البـاشا الكسوة لناظر الكسوة، وفى شـهر المولد من السنة القادمة يباشرون خياطة كسوتين. والسلام.

المسكوكة فى طرابلس وتونس والجزائر تساوى عشرة آلاف، وفى سنة ٩٤٤هـ/سنة ١٥٣٧م كانت عشرين ألفا، وفى سنة ١٠٧١هـ ١٦٦٠ / ١٦٦١م كانت أربعين ألفا، ومنذ سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م أصبحت قيمتها خمسين ألف أقچة. انظر محمد ذكى پاقالين.

فى بيان منازل طريق الحج من مصر المحروسة حتى الوصول إلى مكة والمدينة وبيان الساعات والدرجات لكل منـــزل

من القاهرة مصر إلى الطرف الشرقي حيث منـــزل البركة أربع ســاعات، وما بين منـــزل البركة سبعون درجة. والمصانع تكون ٢٢٠ درجــة. وعجــرود خمسمائة درجة. وسبحة مائة درجة. ووادى التيه ٢٣١ درجة. ونخل الـــبلح ٢٣١ درجة. والعدوية ٢٣١ درجة. وهاران ٢٠٢ درجة. والعقبة ١٠٤ درجة. وظهــر الحمار ١٠٠ درجة. وشرف بنى عطية ٢٠٢ درجة. وعيون القصب ٢٠٢ درجة. والمويلح ٢٠٢ درجة. والشيخ مرزوق الكفافى ١٠٨ درجة. وأزنم ١٢١ درجـــة. وإسطبل عنتر ٢٣١ درجة. وقلعة الوجه ٢٢١ درجة. وأكره ٢٥١ درجة. وحنكى ٢٢١ درجة. وخورا ١٨٢ درجة. ووادى النار ٢٢١ درجة، وبنــدر ينبــوع ٢٢١ درجة. وسقيفة ٢٠٠ درجة. وبندر حنين ٧٠ درجة. والقاع ١٣١٤ درجة. ورابــغ ٢٣١. وطارق قديده ٢٠٠ درجة. وأصفان ٢٠٠ درجة. وفاطمة أنا واديسى ٢٢١ درجة، ولكن ذكر ما بين بدر حنين إلى المدينة المنورة ومن بدر حنين إلى البلــدة الجديدة جميعها ١٨١ درجة. ومن جديدة إلى منـــزل مقابر الشيداء ٢٠١ درجـــة. وبعد ذلك من بئر على إلى المدينة المنورة فى ٢٢٠ درجة، وعند الوصول مدينـــة ينبع يكون ٢٥٠ درجة. ومن منـــزل نقب على ٢٢٠ درجـــة. ويكـــون مجمـــوع الدرجات ٧٣٥٠ درجة. ولكن يكون مجموع حساب عـــدد الـــساعات ٤٩٠. تـــم التحرير، والسلام. وعند المجيء بحمد الله مرة أخرى إلى مـــصر تكـــون جملـــة الساعات والدرجات هكذا.

وبعد ذلك وقفت أنـــا الفقير هنا على قدر الطاقة على أحوال مصر التى هـــى أم الدنيا، وتتبعت بعض التواريخ ورأيت علامات الآثار. وتجـــرأت علـــى الكتابـــة وتسجيل ما اطلعت عليه وعلمته علم اليقين وعين الحقيقة وبحمد الله تعالى، فى هـــذه الفترة أكمل هذا المجلد من رحلتنا... تم والحمد لله.

باللغة الهندية (ايزد الاكيناه چلطى هونه) لك الحمد بلا حـد ولا غايــة ولا نهاية، حيث يسّر الله لحبيب الحق في مصر القاهرة نادرة العصر لكى تُصبح هـذه الأوراق المثلومة كلباس اللباد فى خرقة الدراويش وأصبحت كاملــة، وإذا كانــت بداية كتابة هذه الألفاظ ونهايتها في سنة... خلال أيام حضرة الأصفى... باشا قــد وجدت نهايتها، إلاَّ أن المأمول من أصحاب الفضل والعقول الذين يرونهــا غيــر كاملة أن يقبلوا عذرى لكثرة السياحة إذا كنت قــد تركــت فراغــات علـــى أمــل استكمالها ولم يتيسر ذلك، وكذلك قبول عذرى على أننى لم أكتب دائمًــا بعبــارات متماسكة أو مترابطة، وألاَّ ينظر إلى هذا التقصير، فبعضه كــان بــسبب الــسهو والبعض بسبب التقصير، وكنت قد كتبت بالقلم الرصاص علـــى أمــل أن أمحــوه وأكمل النواقص... إلاَّ أن هذا الفقير مملوء بالتقصير، المرجو والمأمول عدم نقــد السهو والخطأ، حيث إن مجموع سنوات رحلاتنا قد بلغت واحدًا وخمــسين عامًــا، وكنت فى بعض أيام هذه الرحلات أنزوى وأعتزل الناس لكـــى أتتبــع التــواريخ المختلفة ولكن هذا لم يتيسر.

كما أننا كنا لا نتمكن من التحرير الفورى لكل ما رأينــاه خــلال رحلاتنــا ونتركه على أمل الاستكمال، وعلى أصحاب العقول أن يقبلوا هذا العــذر. ولكــن وفقًا لما استمعنا إليه من أحاديث وتفاسير أستاذنا الشيخ على الشمرليسى فى مصر، وما كان يتلوه من آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة... فلقد أخذنا إذنــه الــشريف وحررناها خلال ما اعترضناه لمصر المحروسة. وبعد ذلك... وبعــد أن وصــلت مسوداتنا هذه إلى ختامها شرعت في كتابة رحلتنا مصداقًا للقول، والعــذر مقبــول عند كرام الناس... والمأمول هو قبول عذرنا وأن يذكرونا بالخير، والبــاقى هــو الباقى. قلنا اختم يا أوليا بهذا المثنوى:

[الحمد لله أن أوراق هذا الدفتر قد تم تحريرها ولم يبق أبتر وبينما ليــست هناك نهاية... فبختامه قد وصل هذا الكلام إلى النهاية] الكمال.

وهنا نصل إلى ختام الرحلة الحجازية التى قام بها الرحالة أوليا چلبى عــام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٢م.

المجلد العاشر

مصر والسودان وبلاد الحبش

أولاً: مصـــر

الجزء الأول: زيارة معالم القاهرة أمّ الدنيا

الدخول إلى مصر

توطئة

الحمد لله وحده وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا[١٦٤] عبده وحبيبه ورسوله.

وبعد الحمد الذى بلا حد والثناء الذى بلا عد. هو الخلاّق رب العباد. هو خالق كل موجود وكل الموجودات والأرض والسماوات، ومكوّن الكائنات من العدم بقوله كن ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف ٧/٥٤].

بيت :

هو ربى الخالق بلا تعب الكريم ∴ خالق الأرض رب العرش العظيم

هو الصانع المصوّر، هو الخالق الذى خلق الأزل، هو الذى أوجد حبيبه المصطفى محمدًا بحكمة علمه الأزلى. وهو الذى خلق من التراب صفى الله آدم أبا البشر بيد قدرته ليزيّن به وجه الأرض، ومنحه روحًا من روحه وجعله كاملاً مكملاً، فى جنة المأوى مع الحور والغلمان. كان يُخاطب ربه بلا واسطة. وقد سجدت له كل الملائكة، ولكن إبليس أبى واستكبر... الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ٢/٣٤]، عاش آدم مع حواء فى الجنّة فى ألفة وعشرة، وقال الله سبحانه وتعالى لآدم ذات يوم، ولا يسئل عما يفعل، آمرًا وناهيًا إياه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة٢/٣٥] وأطاع آدم ربّه ولكن بعد سنوات طويلة لما كان الإنسان مجبولاً على النسيان فقد نسى آدم أمر ربّه تحت تأثير من

(١٦٤) فى نُسخ أخرى "المصطفى" وفى نسخ أخرى غيرها لا توجد عبارة "سيدنا ومولانا".

أمنا حواء، وأكل حبّة من القمح وفجأة وجد آدم نفسه على وجه الأرض في جزيرة "سرنديل" في بلاد الهند. ونُفيَت الأم حواء إلى جدة ولم يعودا... وكان كلاهما يهيم على وجهه عريانًا يرتدي التاج والحلل.

وفي النهاية، ذات يوم أحضر طير الجنّة شعرة من لحية آدم هدية إلى حواء حسب ما ذهب إليه المفسرون، وحمل طائر الجنة أيضًا شعرات يفوح منها روائح العنبر، وقدّمها هدية إلى آدم. وكانت هذه الطيور هي سبب إجراء اللقاء بين آدم وحواء على جبل عرفات. وربما تكون سبب تسميته بهذا الاسم لأنهما التقيا وتعارفا من جديد عليه. وعرفات مشتقة من كلمة (عرف) العربية. ولما كان تعارفهما بواسطة عصفور الجنة فقد دعا كل منهما له بالبركة والخير، فما كان من عصفور الجنة إلاّ أن توجه إلى آدم راجيًا وهو يقول "... يا آدم إن لي مطلبًا لقاء ما قدَّمت لكما من خدمة، إن الأفاعي والثعابين خصومي... إنها تلتهم أفراخي وهي صغيرة، فلا تترك لي فرصة للتكاثر والتزايد. فمطلبي أن تدعني أعيش في رعايتك وحماك، وحيثما كنت أُقيم أعشاشي في دارك. ولتهب لي حواء شعرات، ولتهب لي أنت أيضًا شعرات من لحيتك. ولسوف أخلطها بالطين وأُقيم عشي في جمالك، لعلي أتكاثر وأتناسى". فقبل كلاهما آدم وحواء المطلب والرجاء فتناول طير الجنة شعرهما وخلطه بالطين وأقام عشًا ضئيلاً في دار آدم. وهذا هو أصل وجود هذا الطائر وتوطنه في بيوت بني آدم حتى اليوم.

كانت دار آدم في حضن جبل عرفات، ويُطلق عليها مطبخ آدم. وقد قام سيدنا نوح [عليه السلام] بترميمها وتعميرها بعد الطوفان، وتزار مُنذ قديم الزمان. ويذهب المفسرون إلى أن حواء قد حملت بابنها شيث في جبل عرفات. وهناك من المؤرخين مَن يذهب مذهبًا آخر، والمتفق عليه أن شيث ابن آدم. وإن كانت هناك عجيبة تروى أن مغزاها ماء ظهره أي "منيه" على تراب الأرض، وشاءت قدرة الله أن خرج بعد عام الابن شيث من تراب الأرض كما خرج أبوه آدم. ويرى البعض الآخر أن الذي خرج من ماء ظير آدم هو نبات ما زال ينبت في هضبة بنغول **Bingol** وفي

أرجيس Ercis وفي بورصة؛ حيث جبل الرهبان وجبال البرز ورماوند. ويُقال إن هذا النبات فيه ذكر وأنثى وله شعر ولحى، ويتمتع ببعض من صفات الإنسان كالفتوة والوهن. ويسمونه في العربية "يبروح الصنم وعبدالسلام".

يظن بعض الأطباء والحكماء أن أخشاب هذا النبات مقوية؛ ولذا يخلطونها بالمعاجين وفي صنع الأدوية... والأرجح عند المفسرين أن شيث ولد من حواء وهو ابن آدم، ولم يتزوج من المولودة معه، بل توجه آدم إلى ربه بالدعاء بأن يبعث إليه بحوريته من السماء. وجاء جبريل بالحورية فور الدعاء، فتزوجها شيث. وكانت عقدة الزواج والنكاح تُعقد بقول "لا إله إلا الله آدم صفى الله".

ذهب شيث بزوجته حورية السماء التى أسعدته وملأت عليه وحشته إلى جهة حُوران حيث بلاد الشام الفيحاء. ويُظن أن كلمة "حُوران"، مشتقة أو محرفة عن كلمة "حَوران" وقد تم تفصيل ذلك فى الجزء التاسع.

ومقام آدم حسب إرادة رب العزة كانت جزيرة سرنديب "سرنديل"، وجبل عرفات ثم مكة المكرمة. وشاءت قدرة الله تعالى أن يسعد آدم وتذهب عنه الوحشة فمنحه قصرًا من القصور التى كان يُشاهدها فى الجنة وأقامه فى مكة وسمى هذا القصر بـ "البيت المعمور".

يروى بعض الرواة أن البيت المعمور كان من الياقوت الأحمر، ويراه البعض الآخر من الدر الأبيض، ويقول المؤرخون إن الله - جلت قدرته - رفع هذا البيت المعمور إلى الجنة مرة أخرى قُبيل الطوفان الجارف، وخلال الرفع سقط الحجر الأسود من هذا البيت المعمور بعد أن خمد الطوفان واستقرت المياه فى باطن الأرض، ويقول البعض الآخر إن الحجر كان أبيض وإنه اسودّ بسبب فسخ العصاة ذنوبهم به.

وعندما فرض الله على آدم الطواف حول البيت المعمور هبط جبريل إليه، وعلّمه كيفية الطواف والعبادة. وظل آدم يعبد الله فى البيت المعمور فى مكة. يذكر

بعض المؤرخين أن ذرية آدم قد بلغت أربعين ألف ولد، وقد كانوا جميعًا مع أولادهم يطوفون بالبيت ويحجون إليه كل عام. ولكن لم يكونوا يجدون ما يسدون به رمقهم ويذهبون به جوعهم وعطشهم، لأن مكة مكان غير ذى زرع، فأوحى إليهم بالتوجه إلى مصر، فتوطنوا ساحل النيل وسكنوه. وهكذا أصبحت مصر الموطن الرابع، ففلحوا الأرض وزرعوا الكثير من الغلال والحبوب، وكانت السنبلة تغل بضع مئات من السنابل الممتلئة بالحبات.

ويذكر الرواة أن آدم ومن معه من ذريته دعوا لأرض مصر باللسان العبرى، ويبررون ذلك بأن آدم حين هبط إلى الأرض أنساه الله - بسبب عصيانه أوامره ونواهيه - اللسان العربى؛ وهو لسان أهل الجنة وخطابها، فعلّمه جبريل اللسان العبرى. وها هو العبد الفقير يورد هذا الدعاء بالعبرية ناقلاً إياه من بعض كتب التاريخ القبطية. وها هو النص وترجمته [كما أوردها]:

خدام طط زلم حوز چيزريا	:	يا ربى احفظ إيمانى من الشيطان
ملازريبا ملازريبا	:	أغثنى أغثنى...
شوزم شاكن طراز ولم شريزتنا	:	ولتساعدنى جميع الملائكة
صوازيرى زخربيا	:	هب لى القمح لأخبزه
رفذ دلم زيراز زيراز خدام كدام	:	وبعد مماتى عمّر
حرز بزيتى زادبنتى زارزيرينى	:	هذا البلد لأولادى
زار زيرينى		

هذا هو الدعاء العبرى الذى دعاه آدم لمصر وهو على وزن "مُفْتَعِيلن مُفْتَعِيلن" وببركة هذا الدعاء فهى أكثر بلدان الدنيا خصبًا وعمرانًا. إلى هنا.

لكن مَنْ دخل أرض مصر؟ و مَنْ ملكها؟ وكيف تم حكمها؟ وكم عدد أفراد حكام كل دولة؟ وما هى مدة حكم كل دولة؟ مُنذ الأمر الإلهى الشريف حتى اليوم الراهن؟

بيان أوصاف مصر العتيقة العظيمة
المحروسة درة الدهر، أعني القاهرة
المعزية أم الدنيا

وصل العبد الفقير إلى ربه أوليا المبرأ من الرياء إلى مصر في اليوم السابع من شهر صفر، عام ألف وثلاثة وثمانين من الهجرة النبوية (١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م) ودققت النظر في كل ما يخص مصر داخلها وخارجها، فلم يسعني إلاّ الدهشة، ولم أتمالك نفسي من العجب، فوضعت أنامل العجب والحيرة على شفتي؛ فما رأيته على أرض مصر من مبانيها العتيقة وآثارها الغريبة العجيبة لا مثيل لها إلاّ على أرضها. فمن أقام طلاسمها، وشيّد مبانيها الشاهقة... ؟

لقد قرأت الكثير من الكتب ذات القيمة والفائدة الجمة والتواريخ المعتبرة، وأنا أحاول جهد الطاقة معرفة كنه هذه الآثار[١٦٥].

---

(١٦٥) رجح المترجم إرجاء بيان أسماء كتب تواريخ مصر التي رجع إليها الرحّالة لكي تكون في نهاية الكتاب، مع المصادر والمراجع الخاصة بالهوامش، والتي رجع إليها المترجم.

الفصل الأول

فى أوصاف فسطاط مصر بقرب جبل المُقَطَّم

كان أول من نزل إلى مصر بعد هبوط آدم من الجنة هو آدم نفسه وولده شيث، فولده أنوش بن شيث فولده قينان فولده مهلائيل، فالنبى هود بن مهلائيل فابنه أخنوخ وهو هرمس. أخنوخ كلمة عبرية، وتسمّيه الملائكة وفقًا للسان أهل الجنة إدريس، وتسمى كذلك لأنه لقن الناس والملائكة دروسا، وكان مهلائيل ماهرًا فى علم النجوم فى عصره وعنه انتشر هذا العلم فى أرجاء الدنيا.

وفى عهد شيث كان الناس يسكنون الكهوف والمغارات، وقد رأى العبد الفقير[١٦٦] فى مصر آلاف المغارات التى تسع عساكر آل عثمان، وكانت أرض مصر فى عهد شيث تسمى إيلون.

ولد أخنوخ فى مصر وتلقى علم النجوم عن مهلائيل ثم أتقن علم الكتابة وحياكة الملابس عن جبريل، ولما بلغ الأربعين سنة من عمره جاءته النبوة فى مدينة أسوان فصار نبيًا للصابئة الذين خرجوا على أهليم واتبعوه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة، وكان ماهرًا فى الهندسة والنجوم وجميع الفنون الغريبة، وعنه انتشرت كل هذه العلوم حتى عم علمه أرجاء العالم، وما زالت المدن التى بناها على النيل قائمة عامرة حتى إنه ليوجد على أرض الجيزة المقابلة للفسطاط جبال الأهرام، وقد أمر ببنائها سوريد الذى أخذ العلم عن إدريس. وكان سوريد قد عُرِفَ بالعلم قرب طوفان نوح؛ فجمع كل كتبه وكنوزه وحفظها فى جبال الأهرام. ولما توفى آدم وإدريس صارت هذه الأهرام كعبة لأتباعه يزورونها كل

---

(١٦٦) يقصد الكاتب أوليا چلبى نفسه. وهذا الوصف "لازمة" فى معظم كتاباته.

عام، فيزور الرجل جبل الأهرام الواقع إلى الشمال، وتطوف النسوة بالهرم الواقع إلى الجنوب، وعندما كان هو وآدم على قيد الحياة كان يحج كل عام هو وأولاده وأحفاده إلى البيت المعمور الذى كان مكان الكعبة المشرفة الحالية ثم يعودون من حيث أتوا؛ فتارة يتجهون إلى مصر وأخرى يذهبون إلى حوران القريبة من الشام الشريف، وتقول تواريخ الصابئة إن إدريس كان عالمًا بكل أمور الدنيا وما فيها، وأنه كتب كل وقائع الدنيا وحفظها فى جبال الأهرام.

ويقال إنه لما مات شيث دفنه إدريس فى جبل الأهرام، ومن بين المدفونين فى الأهرام أيضًا الملك مصرايم والملك بيطر بن حام بن نوح عليه السلام.

وبعد ذلك أقام الملك نقراوش - وهو من حفدة شيث وكان كاهنًا من الكهنة - مدينة كبيرة فى المكان المعروف حاليًا بمصر القديمة وسمَّاها إمسوس؛ ومعنى كلمة إمسوس باللسان العبرى هو "المدينة الجديدة"، ولكن الأقباط سمُّوها الفسطاط وقد عمروها وأصلحوها بعد الطوفان وسمُّوها مصريم، ومن هنا صار اسمها الآن مصر، ويقال لها باللسان اليونانى مقدونية، وباللسان العبرى زاربنت، وباللسان العربى القاهرة المعزية؛ والسبب فى تسميتها هذه الأخيرة أنه فى سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥م وعندما كان ملك المغرب هو السلطان معز الدين وسلطان مصر هو الإخشيد، حصل معز الدين على موافقة سلطان الإخشيديين على بناء جامع فى مصر، وأرسل مملوكًا له أسود اسمه القائد جوهر ومعه ألف خزينة مصرية وخمسون ألف نجار وبنَّاءٍ وعامل وحمَّال، وجاءوا من المغرب وهم مدججون بالأسلحة ومجهزون أحسن تجهيز.

ولما أوشك البناء على النهاية حضر السلطان معز الدين من المغرب زاحفًا بجيش جرار يزيد عن مائة ألف، متنكرين فى ثياب العمال والصناع الذين سبق ودخلوا مصر بحجة بناء الجامع الأزهر. وهكذا انتزع المعز بلاد مصر قهرًا ونزعها من يدى أحمد بن على بن إخشيد، وبنى مصر الجديدة التى سميت القاهرة

المعزية؛ ولذلك لا يزال أهل مصر حتى الآن يستعملون عبارتي "يــا قهــار، ويــا قابض" الأمر الذي يجعل رجال الله فيها في حالة الانقباض دائمًا.

هذا، وإذا ما ذكرت أسماء البلدان جميعها لا يُطلق اسم "أم الــدنيا" إلاَّ علــى مصر هذه.

وقد سبق أن ذكرنا أن نقراوش الملك قد عمَّر بعد وفاة سيدنا آدم إمــسوس ومصر عمارة زائدة حتى كان طول العمران فيها يبلغ مسافة مسيرة ثلاثة أيــام، إذ مَلَكَ "نقراوش" مصر كلها وحكمها مائة وثمانين سنة، حتى إذا ما خرج مــن هــذه الدنيا الفانية عملوا على نقله وحمله إلى جبل الأهرام ودفنوه به.

وقد جاء بعده ابنه "نقراش" إلى الملك. وكان مثل أبيه أستاذًا بارعًا ذا كفــاءة وذكاء، فبنى المدن في ولاية الواحات. ولما توفي دُفن أيضًا في جبــل الأهــرام، وخلفه أخوه مصرايم بن نقراوش على عرش مصر، وكان هذا حاكمًا قادرًا وكاهنًا ساحرًا، إذ جعل بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة المرعبــة خاضــعة لأمره؛ بل إنه جعل الشياطين والعفاريت تسمع له وتحمل له عرشه. ولما مات دُفن في الأهرام، وتولى مُلك مصر بعده من أقربائه ملك يسمى "عبقام" فأجرى العــدل بين الأهالي والرعايا. وكان في عهده صعود سيدنا "إدريس" [عليه الــسلام] إلــى السماء في مدينة أسوان فتأثر قوم الصابئة من أمته تأثرًا عظيمًــا؛ حتــى مــنعهم الحزن عن الدوام في الطاعات وأداء العبادات، الأمر الذي انتهى إلى تمثل إبلــيس كثير التلبيس عليه اللعنة في صورة إنسان من أبناء آدم، وظهر بين هؤلاء النــاس في لباس الناصح الأمين وخاطبهم بقوله: "يا قوم ! لماذا تبكــون دون أن تتحرقــوا هكذا ؟" فقص عليه قوم إدريس أوجاعهم التي حدثت لهم. فبادر إبليس على الفــور قائلاً: "لا تحزنوا ولا تهنوا فإني موجد لكم صورة "إدريس" ليجعلها كل منكم فــي منــزله وليكتمها عن الناس، فإذا نظر إليها فكأنه رأى إدريس وبذلك ينال الــصبر والسلوان ويرتاح باله ويطمئن قلبه". ففعلوا كما قال. وقد وجدوا فيه ما يريح بالهم ويسر خاطرهم.

هذا، ولما انقضت أيام الصابئة وانقرضوا وجد من بعـــدهم أحفـــادهم هـــذه الصورة تراثًا فى بيوتهم خلّفه آباؤهم وأجدادهم السابقون، فعكفوا عليهـــا يعبـــدونها ويقدّسونها حتى تحوّل الصابئة إلى عبادة الأوثان والأصنام. وهكذا ظهرت عبـــادة الأصنام هذه وشاعت من عهد قوم سيدنا إدريس [عليه السلام]. ولما تـــوفى الملـــك الذى كان معاصرًا لإدريس – وهو عبقام – خلفه فى الحكم الملك "عرياق".

إن هاروت وماروت – وهما ملكان عظيمان – معلقان من أرجلهما فى كهف بمدينة بابل لا يزال يسمع صراخهما وفزعهما، وأوصافهما مذكورة فى "تـــاريخ ابـــن جرير الطبرى"، ولما توفى عرياق جاء بعده ابنه "الوخيم" إلى الملك؛ وهـــو الـــذى شيَّد مدينة "شرق أخميم" وأقام بها سبعمائة دير. وجاء محله بعد وفاته ابنه "حسليم" فى الملك، وقد عمَّر سبعمائة عام، وهو الذى أقام مدينة أسوان على ضفة النيل كما أنه أنشأ المقياس أعنى "أم القياس" الذى بمصر. وقد نظم هذا الملك جميـــع التـــرع والقنوات فى أرض مصر حسب القواعد الهندسية ثـــم زاد عليهـــا شـــق التـــرع والجداول وأجرى مياه النيل فى جميع أرجاء مصر، الأمر الذى أدى إلـــى تنظـــيم الرى ونمو المحصولات والمنتجات، ولم يكتف بذلك فحسب بل إنه بطَّـــن جميـــع الترع وفروعها بالرخام السماقى والمرمر الخام، وأنشأ على طول جـــانبى النيـــل سدودًا ومدنًا عظيمة، وأجرى مياه النيل إلى بلاد النوبة حيث أنشأ بها قنطـــرة ذات اثنى عشر عقدًا لا تزال أطلالها قائمة للعيان.

وكان ظهور سيدنا نوح عليه السلام فى عهد هذا الملك "حسليم"، وقد زاد فى عصره تعداد الإنس من بنى آدم زيادة عظيمة حتى ضاقت بهم الأرض الزراعية، فاشتد القحط وعم الغلاء فأجبر الناس على اللجوء إلى الوديان وشواطئ الجـــداول والبحار لصيد السمك يُذْهبون به جوعهم.

ولما توفى هذا الملك جاء بعده الملك "ترسان بن هرسال"؛ وقد آمن بالنبى نوح [عليه السلام] عندما جاءته النبوة وهو فى الأربعين من العمر. وبعده تولى الحكم الملك "شرياق" ثم ابنه "شيلوق" ثم ابنه "سوريد" الذى كان جبارًا عتيًا،

ففرض الخراج والضرائب على الناس لأول مرة، وهو الذى بنى الهرم الكبير بالقرب من بنى سويف حيث؛ يقال له هرم سوريد وهو مدفون فيه، يدل على ذلك أن حجرًا من أحجاره يحتوى على تاريخه بالخط العبرى. وقد جلس بعده ابنه "أفروس" فى الحكم، ولما توفى هذا دفن بجوار أبيه. وقد خلفه ابن عمه فرجون وقد حدث الطوفان وهو القيامة الأولى فى عهده، إذ بطلت بعده جميع أنواع السحر وانمحت العجائب والغرائب والطلاسم؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – قد أظهر جميع الكنوز والمعادن المدفونة والمحفوظة فى الجبال وقيعان الأنهار والعيون وفى الصخور من جراء طغيان البحار وفيضان المياه أربعين يومًا ليلاً ونهارًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت٢٩/٢٠].

هذا، وقد استقرت سفينة نوح عليه السلام بعد ذلك الطوفان على جبل الجودى بجوار الموصل، ولما كان الخلاص لكل من كان فى السفينة فى يوم العاشوراء عمد نوح فى يومه جمع ما وجد من المأكولات والمشروبات لديهم، وحفر حفرة فى صخرة ووضعه فيها وطبخه حتى صار طعام العاشوراء، فأكله ركاب السفينة الذين نجوا وشكروا الله الواحد القهار. وهكذا صار طبخ العاشوراء فى اليوم المذكور من كل سنة اتباعًا لسنة آدم الثانى وهو نوح عليهما السلام عادة ينبغى العمل بها دائمًا.

وهناك دليل قاطع على أن نوحًا قد وصل إلى بر السلامة فوق هذا الجبل؛ حيث يقول القرآن الكريم فى إحدى آياته ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود١١/٤٤] ولما استقر نوح بسفينته سالمًا على جبل الجودى أقام به لأنه أرض مباركة، وبنى نوح أول ما بنى بعد الطوفان مدينة "جودة"، وهى بلدة صغيرة فى سفح جبل الجودى بجوار الموصل. ومنها بعث إلى مصر بيمار بن حام، فبنى مدينة العريش فى أرض "حسان" القريبة من مصر، ثم توجه إلى مدينة بلبيس فأعاد تشييدها لأنه كان يعرف أنها موجودة من قبل الطوفان وأن سبعة عشر نبيًا

مدفونون بها. ومنها قدم "بيلر بن حام" إلى مصر فبنى "إمسوس" التى هى مصر القديمة. ثم أقام مدينة "منوف". وأما سام بن نوح فقد عمّر الشام ثم فلسطين، فأنشأ القدس التى ازدهرت وعمرت جميعًا بأبنائه.

هذا، وقد انتهى العبد الفقير إلى أن تاريخ "خطط المقريــزى" لهــو كتــاب عظيم؛ لأن مؤلفه كان ذا باع طويل فى معرفة اللغات العبرية والسريانية والقبطية والعربية واليونانية، وكان مثل فيثاغورث التوحيدى فى كثرة الطواف والترحــال. وأصدق الروايات التي وردت عن المنشأ الأول لمصر هى رواية هذا المؤرخ الذى يقول إن آدم عليه السلام توطن أولاً بمصر القديمة، ولمَّا توجه إلى الشام بأمر من رب العزة كان لشيث ابنٌ يدعى "عرباب" وللأخير ابن يدعى "نقراوش". ونقراوش هذا كان أذكى أولاد آدم وأرشدهم، وكان ماهرًا فى كل العلوم والفنون ولهذا أحبــه سيدنا آدم حبًا جمًا وسماه مصرايم، وكلَّفه أن يعمر مصر وتوجه هو نفــسه إلــى بيداء حوران الشام للاشتغال بالزراعة.

ولقد اضطر نقراوش هذا ومعه سبعون يسمون مصرايم إلى الجــلاء عــن الوطن من جراء ظلم قابيل؛ فأخذوا ييممون فى الأرض على وجوههم يبحثــون عن مرعى مناسب لهم حتى وصلوا جبل جداما[١٦٧] "جبل كده ماسى" مــن أرض مصر، فأعجبهم مناخه ولطف هوائه وكثرة أشجاره فأقاموا به واتخذوه موطنًا لهم، لأن جدهم سيدنا آدم – على الرغم من مكوثه مع أبنائه حقبة طويلة بمصر – لــم يترك بها شيئًا من الآثار المعمارية البنائية؛ فقد كانوا يكتفون فى ذلك العهد بسكنى الأكواخ والأخصاص.

أما نقراوش هذا بعد أن رزق بمصرايم فى أرض مصر وصــار صــاحب عشيرة كثيرة العدد فانتشروا فى أطراف الأرض يوجدون بها آثارًا وأبنيــة. وقــد كان نقراوش يقوم كل سنة بزيارة جده آدم صفى الله فى الشام وحوران وبمــصر

---

(١٦٧) جبل جداما: كذا فى الأصل، ولعله تحريف من جبل دامس فى صحراء طرابلس الغرب.

فينال بركات دعائه الطيب. وقد أطلق آدم صفي الله اسم "ملك مصرايم" على نقراوش هذا، فصار هو أول من نودي في اللسان العبري بلقب الملك، وقد ملكه مائة وثمانية عشر عامًا، كان حكمه نافذًا بين جميع العشائر والقبائل، غير أنه كان جبارًا عتيًا طيلة أيام حكمه. وقد أخذ عن أخيه "زرايل" كثيرًا من العلوم الغريبة والفنون العجيبة؛ فتوصل بها إلى اكتشاف الكنوز، واستخرج الدفائن من باطن الأرض. ثم أمر جميع أفراد قومه وعشائره بنقل الأحجار والصخور من الجبال لبناء مدينة في المكان الذي كانوا يقيمون خيامهم فيه، وقد سميت هذه المدينة بعد بنائها "أمسوس"، ولا تزال قائمة موجودة بشاطئ النيل وهي مصر القديمة. إذ إن الشعب القبطي أطلق عليها اسم "فسطاط". وكانت هذه المدينة عامرة حتى جاء الطوفان فخربت ولا تظهر أطلالها وحجارتها الضخمة الكبيرة إلا في بناء جبل الهرمين. حيث يبلغ حجم كل صخرة منها ٢٥ × ١٥ ذراعًا مما جعل بعض الذين رأوها من المعماريين يقولون إن هذه الأبنية من عمل الجان لا الإنسان الذي يعجز عن إتيان مثلها، فيؤلاء المعماريون الناكرون يعرفون أنه بعد هبوط آدم من السماء كان هناك أُناس عمالقة يتمتعون بمثل هذه القوة وطول الباع، وأن طول كل شخص منهم كان يبلغ مائة ذراع في حين أن قامة أي شخص في زماننا لا تزيد عن ذراعين أو ثلاثة، ومع ذلك فإن هذا الشخص قادر بواسطة علم جر الأثقال على نقل جبل بيستون من مكان إلى آخر، وكأن الذي يعارض في هذا وينكره منكر للقول المأثور والمثل السائر "همة الرجال تقلع الجبال"، ومنكر كذلك لقواعد علم جر الأثقال.

هذا، ولما اكتظ الناس وازدحموا في مدينة أمسوس هذه، جمع الملك مصرايم جنودًا كثيرين وزحف بهم إلى الشام للانتقام من "قابيل"، كما أن هابيل قد حشد جيشًا كبيرًا في مدينة فلسطين التي هي الرملة الحالية؛ حيث تقابل الجيشان والتحم الجمعان وسقط مئات من أبناء آدم من أنصار قابيل على الأرض يروونها بالدماء، فكان ذلك أول دم يُراق في سبيل دم هابيل. وكان المتقاتلان مصرايم

وقابيل. ولما كانت المعركة قد حدثت في صحراء الرملة فقد سميت تلك الجهات باللسان العبرى "فلسطين" ولقد هزم مصرايم قابيل وغنم منه غنائم كثير، وعاد بها إلى مصر؛ حيث استعان بها على تفريع النيل وتوزيع مياهه بحفر الترع والخلجان وتحويلها إلى السهول فجعلها صالحة للزراعة وإدرار الخيرات والمنتجات. لأن النيل كان يجرى على غير هدى فيتجه فرع منه عن طريق ولاية النوبة إلى بحر السويس، وفرع آخر يتجه نحو المغرب؛ حيث يصب فى خليج "كبرت" بولاية بنى هلال.

ولكن مصرايم - بفضل علم الهندسة الذى يمتلكه - قد أخذ ارتفاع كل الأراضى فأجرى النيل فى الترع والخلجان حسب ذلك وفق مراده ومبتغاه هو، ثم بنى جبل الهرمين تجاه مصر ليكون مدفنًا ومرقدًا للإنسان وكنوزه الكثيرة. وقد عاش ٧١٥ سنة، ولما ودع الحياة دفنوه بجميع كنوزه وخزائنه الكثيرة فى الهرم الكبير الذى كانت قد أعده خصيصًا لذلك، ولقد كانت له ذرية كبيرة عاشت حتى الطوفان فى مصر تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه. وملك أرض مصر من أولاده سبعون نفرًا، وكان الذى يجلس على عرش مصر حين حدوث الطوفان يسمى "فرعان".

وكان هناك كاهن من ذرية نقراوش "مصرايم" يُسمى "فليمون"؛ يعرف علومًا كثيرةً وفنونًا شتى، حتى إنه بفضل هذه العلوم والمعارف تنبأ بقدوم طوفان نوح عليه السلام وظهور الغضب الإلهى، فبادر إلى مغادرة موطن جده قبل وقوع الطوفان، ووصل إلى سيدنا نوح فى مدينة الكوفة وأعلن إيمانه بها، وهكذا استقر أولاده وعياله فى ولاية العراق. وكان لسيدنا نوح ابن اسمه حام، وهذا له ولد يدعى "بيصر" فزوجه الكاهن فليمون ابنته فأصبح بذلك إلى سيدنا نوح عليه السلام.

ولما جاء الطوفان ركب فليمون هو وجميع أولاده ومعه كل ما يملك سفينة نوح ونجا من الغرق، وقد استقرت السفينة بعد أربعين يوما على جبل الجودى

حسب النبأ القرآني ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود ١١/٤٤] فوصلوا إلى بر السلامة، وهنالك بادر نوح إلى إنشاء مدينة "جودة" التي تُعدُّ أول بلدة أنشئت على الأرض بعد الطوفان. وبعد هذا كله أذن سيدنا نوح إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر أو بيصر بالعودة إلى "أمسوس" التي بناها جده "مصرايم" وهي مصر القديمة الحالية؛ فقطعوا المراحل سالكين السبل التي نجت من فيضان طغيان المياه، حتى وصلوا المدينة المسماة "العريش" على مقربة من مصر فنزلوا بها. والعريش لفظ يُطلق في اللغة العبثية على المحل الذي يقيم فيه الإنسان أو يجلس، وفي أثناء استراحتهم تحت شجرة نجت من الطوفان جاء المخاض "زده زه" أو "جده جه" بنت الكاهن قليمون، فوضعت من زوجها بيصر بن حام ولدًا ذكرًا أسمياه – أيضًا – مصرايم. فكان هذا أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان وهو "مصرايم بن بيصر". وقد أقاموا الاحتفالات والولائم هناك بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة التي كانوا يستظلون بظلالها؛ حيث أخذوا يعلقون بها خرقًا بالية وثيابًا قديمة للذكرى، ثم رحلوا عنها إلى بلبيس فأعجبهم مناخها وجوها وقد أقاموا بها مدة. وكانت بلبيس هذه مدينة السحرة قبل الطوفان كما كانت مدينة معمورة. ولكنهم وجدوها خربة (خاوية على عروشها). ثم واصلوا السير حتى وصلوا أرض مصر فلم يجدوا بها أثرًا دائمًا من مدينة "أمسوس"؛ التي كان قد شيدها نقراوش "مصرايم الأول" جد الكاهن قليمون؛ وهي التي يقال لها مصر القديمة؛ حيث قضت عليها مياه الطوفان المتلاطمة. ولم يبق بها شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس تجاه النيل ليأووا إليه. ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان.

هذا، وقد قام قليمون وصهره بيطر بن حام بجولة في أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به من جديد، فلما وصلا أرض "منوف" وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ، يحيط بها النهر من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة، فما كان من قليمون وصهره بيطر إلا أن اختارا الإقامة في هذه الوديان الخضراء. ومكثا

بها حقبة من الزمن فى خيام وأكواخ أقاماها، وقد تناسلا وتكاثرا بمضى الزمان ومرور الأوقات فحصلوا على أموال كثيرة بفضل أعمال الزراعة التى امتهناها. ثم قررا أن يبنيا فيها ويستقرا بها لما رأيا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها؛ فبنيا بلدة صغيرة أطلقا عليها اسم "منوف"، ومعناه باللغة العبرية محل الصفاء والانتعاش.

ولا يخفى أن أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هى قرية جودة "الجودى" التى استوت عليها سفينة نوح عليه السلام، وهى بجوار الموصل. وثانى المدن هى بلدة "منوف". وسنذكر فى موضعه من الكتاب كيف أن بيطر أنشأ كثيرًا من المدن والآثار وعمرها وحوّل مدينة منوف إلى قصبة عظيمة، ثم أغراه تلمون فجلا عنها مصطحبًا أهله وعياله وسافروا إلى مدينة "أمسوس" التى هى مصر القديمة. ولما كانت هذه المدينة أيضًا مما أنشأ أجداد قليمون فقد باشروا تعميرها والسكن بها.

هذا، وبعد عام مات الكاهن قليمون فدفنوه فى الهرم الأعلى بجوار جده نقراوش مصرايم، وهو أول من مات بعد الطوفان ودفن فى الأهرام.

الفصل الثانى

فى بيان من مَلك مصر بعد الطوفان

من المعلوم أن بيطر بن حام بن نوح قد استأذن النبى نوحًا بعد انقضاء الطوفان فى أن يرحل مع حميّه الكاهن قليمون إلى مصر، فأذِن له نوح ودعا له ربه ثم مسح فمه قائلاً: "لا يجد الانقراض إلى نسلك سبيلاً، وأن تكون ملك مصر ويطول عمرك متمتعًا بسعادة الدارين". فوصل بيطر مصر وشيد بها مدينة "منوف" واتخذها عاصمة لملكه.

وقد أطلق المؤرخون اسم "أبى الأقباط" على بيطر هذا الذى خلف ثلاثين ولدًا؛ أولهم مصرايم المولود فى المكان المسمى بالعريش عندما كان قادمًا بأهله إلى مصر، وكان ذلك تحت ظل الشجرة. ولقد كان مصرايم هذا أعقل أولاده الثلاثين وأكثرهم حبًا للعمل؛ حيث كان قد علّمه الكاهن قيلمون، جده لأمه، علومًا غريبة حتى صار شابًا قويًا فريدًا فى عصره، وقد أطلعه على جميع الكنوز والدفائن، ثم توفى بيطر والد مصرايم بعد أن عمَّر ثمانمائة وخمسين سنة و١٦٨ يومًا. فدُفن فى الهرم الكبير بجوار حميّه الكاهن قليمون.

وقد تولى ابنه "مصرايم" المولود بالعريش الملك فصار ملكًا مستقلاً عظيمًا؛ ينفذ حكمه فى إسنا "إسن" والسودان[١٦٨] "إشودان" حتى بلاد الفونج (فونجستان)[١٦٩]، وعمد إلى أقاليم مصر فوزعها على الأخوة الثلاثين (وهو منهم)، ثم بنى كل واحد منهم فى المناطق التى يحكمها مدينة كبيرة لا تزال تُسمى بأسماء أولاد بيطر، بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام. مثال ذلك أن أحد أبناء بيطر كان يُسمى

---

(١٦٨) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى السودان.

(١٦٩) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى بلاد الفنج.

"رشيد"، فبنى المدينة التى هى الآن بهذا الاسم، والآخر كان يدعى "دمياط"، وثالث كان "إسكندر"، وآخر تينبر "تينه". وكذا "سيفه" الذى بنى مدينة بنى سويف، وآخر كان يدعى "مينه"، وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا "قنا" وقوس "قوص" وإسنه وأسوان "أثوان" وإبريم وصيانى وحلفا "حلفه" وسناره وسودان، وغيره من أمثال هذه الأسماء التى كان يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة وآهلة بالسكان على شواطئ النيل حتى الآن. إذ كان هؤلاء الأمراء أنجال الملك بمثابة أمراء العشيرة وزعماء القبيلة. ولكن أخاهم الكبير مصرايم كان ملكًا عظيم الشأن يخضع الجميع لأوامره ويطيعونه[١٧٠].

وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المكان المسمى بالعريش؛ حيث وضعت أمه تحت الشجرة التى كانت تستظل بها أثناء الوضع فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزينها بأقمشة مزركشة وأحجار كريمة. ثم اعتكف تحتها يعبد الله حق العبادة. وبعد ذلك شيَّد مدينة على مقربة منها أسماها "درسان" ومعناها باللغة العبرية "باب الجنة"، ولا تزال آثار البناء ظاهرة لمن يفد من غزة إلى مصر على الجانب الأيمن للطريق السلطانى، وقد هدمها "بختنصر" حينما جاء إلى مصر ودمرها.

ولقد عمر مصر فى الأيام الأخيرة كل من السلطان يوسف صلاح الدين[١٧١] والسلطان قايتباى[١٧٢] بإنشاء الجوامع والقاعات العظيمة فى أرجاء البلاد، بفضل الرخام والمرمر السماقى والعمدان العظيمة التى أخذوها من أنقاض مدينة

---

(١٧٠) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى بلاد الفتح .

(١٧١) **السلطان يوسف صلاح الدين** : يوسف بن أيوب صلاح الدين الملقب بالملك الناصر، من الأتراك، نشأ فى دمشق وتعلم الحديث بها، ودخل فى خدمة نور الدين محمود زنكى، استقل بملك مصر وخطب للعباسيين وأنهى الحكم الفاطمى سنة ٥٦٩هـ. كان أعظم انتصاراته يوم "حطين" أمام الصليبيين، والذى استرد بعده طبرية وعكا ويافا، ثم افتتح القدس سنة ٥٨٣ هـ. توفى فى دمشق بعد أن حكم مصر لمدة ٢٤ عاما وسوريا ١٩ عاما. خلف من الأولاد ١٧ ذكرا وبنتا واحدة. مات سنة ٥٨٩هـ (الأعلام ٨/٢٢٠).

(١٧٢) السلطان قايتباى المحمودى الأشرف (٨١٥ - ٩٠١ هـ = ١٤١٢ - ١٤٩٦م) : سلطان الديار المصرية. من ملوك الجراكسة، المماليك. بويع بالسلطنة سنة ٨٧٢ هـ واستمر إلى أن توفى بالقاهرة. وبلغت مدة حكمه تسعة وعشرين عامًا. (الأعلام ٥/١٨٨).

"درسان" هذه التى دفن بها أحد أبناء مصرايم، أول من بنـى هـذه المدينـة التـى أصبحت أثرًا مندثرًا، وله فيها قبة عالية تناطح السحاب لا تزال موجودة إلى اليوم. والسبب فى بقاء القبة سليمة حتى الآن هو أن الأقباط ينتسبون إلى هـذا المـدفون تحت القبة؛ ولذلك يحج إليها جميع الأقباط ويتعهدونها دائمًا بـالتعمير والتـرميم، واسم صاحبها "قبطيم بن مصرايم بن بيطر حام بن نوح عليه السلام".

أما مصرايم فقد عمَّر سبعمائة سنة، وبنى مصر القديمة وأشاع العمران فيها حتى أصبحت وكأنها قصر مشيد رائع. وقد كثر نسله وزادت ذريته فخلف مائتين من الأبناء، وصار لهم أولاد وأحفاد وكذا إخوته البالغ عددهم زهاء الثلاثين، فقد صار لهم من الأولاد والأحفاد حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت. ولقد كانوا كلهم على دين جدهم (نوح نَجِيِّ الله)، وكان كل واحد من أبناء مصرايم هذا حاكمًا على إقليم من الأقاليم طيلة عمره البالغ سبعمائة سنة؛ حيث لبى بعد ذلك نداء ربه حسب قوله تعالى ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ... ﴾، [الفجر ٢٨/٨٩] ودفن فى الهرم الكبير مع والده بيطر بجوار سوريد المتوفى قبل الطوفان، إذ كان جبل الهرمين فى تلك العصور مزارًا للخواص والعوام لأنه مقبرة يزورونها ويتطوفون بها مثل الكعبة. وقد دام الحال على هذا المنوال حتى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجاء بعده ملك بن قبطم بن مصرايم المولود من الذرية القبطية فى مدينـة "درسان"، وأخذ يتعبد تحت الشجرة التى خلَّف أبوه مصرايم بانى مدينـة درسـان تحتها، مما أفاد أخاه، ثم اندثر [هذا التقليد] إلى ظهور عبادة الأشجار ابتـداء مـن "قبطم" هذا دين جده نوح عليه السلام، وقد ظهر الخلاف والعناد بينه وبين إخوتـه وأعمامه البالغ عددهم حوالى الثلاثين؛ حيث اتجه كل منهم إلى انتحال نحلـة مـن النحل التى ظهرت من قبطيم بن مصرايم المعروف بعلو الشأن والملك العظيم حتى الآن. فالأقباط جميعًا يرجعون إلى نسل هذا الملك والتاريخ القبطى يبدأ به.

هذا، وقد أخذ قبطيم الملك العلوم عن عالم كاهن من نسل النبـى إدريـس؛ فتمكن بذلك من تأليف كتب التاريخ التى لا مثيل لها ولا نظير فى الأمم الأخـرى

سوى كتب الكفار من القبط الحاليين. لأنه بعد هبوط آدم انتشر علم الحساب والنجوم وفن الكتابة والخط، وهى تلك العلوم التى تعلميا الناس كلها عن النبى إدريس، ولم يَنْبُغ فى تلك العلوم أحد كما نَبَغَ الأقباط الذين ليس لهم مثيل فى تحصيل العلوم، ولا يزال أولو الأمر ورجالات الحكم فى مصر فى حاجة ماسة إلى معارف هؤلاء القبط، وذلك لإتقانهم علم الحساب، ولحسن فراستهم واستقامتهم وهم فى غاية الدهاء والمكر والأدب والحفاظ على العرض والكرامة، مما جعل أعيان مصر يعتمدون عليهم فى الإشراف على أهليهم وعيالهم وتربيتهم وقضاء المؤن منهم لدقتهم فى الحساب ومسك الدفاتر وتقييد المصروفات فى السجلات، فلا يعرفون حبة إلا ويبادرون إلى قيدها فورًا. فليس لهم مثيل فى غير بلاد مصر من البلدان.

إن الشعب القبطى يعتقد أن الملك قبطيم نبى ورسول؛ ولذا يدعون غالبًا بقولهم يا قبطيم، وهم متعصبون فى مأكلهم ومشربهم للغاية، والآن هم مسيحيون. وعلى قول تواريخ الصابئة أن هودا ولد فى بلدة "سمنود" فى عهد الملك قبطيم الذى كان الناس فيه يتكلمون باللسان العبرى من آدم حتى عهده. ولما كان هذا الملك متضلعًا فى العلوم والفنون فقد نشأت اللغات العديدة والألسنة المختلفة. ولقد كان يتكلم القبطية بفصاحة نالها من الرب العزيز، وبعد أن حكم أربعمائة سنة شرب من كأس المنية، فدفن بجوار والده مصرايم فى جبل الهرمين. وجاء بعده أخوه "أشمون" فى الحكم، وأشمون وأشمونين بلدتان بمصر من أعمال هذا الملك. وأشمون فى اللسان العبرى اسم للمَلَكِ الذى على صورة الثور وشكله الذى يحمل الأرض على ظهره. فلذا يوجد فى مدينة أشمون هذه عدد كبير من ذكور الأبقار (الثيران)، ولا يزال المثل يضرب بين عربان مصر بإطلاق بقر أشمونين على من كان متصفًا بالبلاهة والغباوة، غير أن المدينة ليست عامرة كما كانت فى أيامها الأولى، وهى حاليًا أطلال وتلال بالعراء ذو ثلاثمائة درجة حولها قرى مغمورة.

وقد خَلفَ هذا الملك بعد وفاته أخوه "أثريب" وتوفى بعد فترة، وخلفه أخوه "صالى" وهذا قد قُتل أثناء خروجه للصيد فى بلاد الفونج "قوبخستان" وكان ملكًا قويًا شجاعًا. ومدينة "صالى" وقلعتها هى خط حدود مصر من جهة بلاد الفونج هى من أعمال هذا الملك "صالى"، ثم خلفه ابنه "ترارس" على العرش وقد ولد فى عهد النبى صالح [عليه السلام]. ولما مات هذا خلفه ابنه "ماليق" الذى عاش مائة سنة فقط، ثم انتقل إلى دار البقاء فخلفه أخوه "خربتا" بن قبطيم، وجاء إلى الحكم بعده ابنه "كدكن" ومات بلا واد فخلفه أخوه "مالنه يه" بن "خربتا"؛ وقد أقام مددًا كثيرة فى بلاد النوبة حتى إذا ما وافاه الأجل المحتوم خلفه ابنه "طوطيس" فكان ملكًا عظيمًا وجبارًا عتيًا.

حكايـــــة

يحكى أن إبراهيم عليه السلام عندما كان قادمًا مع "سارة" إلى مصر، حدثت النفس الأمارة بالسوء الملك الجبار "طوطيس" بأن يمد يده إلى "سارة" ويراودها عن نفسها. فَشَلَّ الله – سبحانه وتعالى – يده فى الحال فطلب من إبراهيم أخيرًا بأن يدعو له ربه بأن يعيد الحياة إلى يده فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمارة بالسوء راودته مرة أخرى على اغتصاب "سارة" ومحاولة التعدى عليها، فَشُلَّت يده مرة أخرى وقد عفا عنه إبراهيم هذه المرة ودعا له بالشفاء فاستجاب الرب وبرئت يداه؛ وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم هذه ناطقًا بشهادة "ألا إله إلا الله إبراهيم خليل الله"، وصار مسلمًا ووهب إبراهيم الخليل أمنا هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام. فإسماعيل مولود من هذه الزوجة القبطية، ثم زاد على ذلك بإعطاء إبراهيم هدايا كثيرة قيمة وأرسله عن طريق بحر السويس إلى جده، ثم إنه – حبًا فى لقاء إبراهيم ومواصلة تأييده إياه – عمد إلى شق الجبال تجاه "بنى سويف" وتمهيد الطرق حتى مسافة ثلاثة أيام فى اتجاه بحر السويس حيث أجرى النيل إليه؛ وبذلك تمكن من إرسال مئات من السفن والمراكب المحملة بالمؤن

والذخائر لتكون نعمة وبركة على أهل مكة، ولقد عاش هذا الملك مائتى سنة منها مائة وثمانون سنة مدة ملكه وحكمه، إذ بعدها انتقل إلى الدار الباقية ليملك هناك أيضا. وقد دُفن بجوار والده "خربتا" فى جبل البرمين. ثم خلفته فى الحكم كريمته "خروبا" التى كانت أول ملكة على وجه الأرض، فحكمت سبعين عاما وهى على دين إبراهيم عليه السلام، ولما ماتت خلفتها فى الحكم بنت عمها "زالقا" التى كانت ماهرة فى السحر ولما جاءها الأجل دفنوها بجانب والدها "مأموم" ومازال القبط يزعمون أن هذه السيدة نبية من الأنبياء والرسل، فتحج طوائفهم إلى مرقدها فى مدينة "بينسا"، وتقول تواريخهم إن من معجزاتها حتى الآن إظهار المسروقات والمفقودات، ويُرَد على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى بنى البشر مائة وأربعة عشر ألفًا من الأنبياء والرسل ليس من بينهم أحد من النساء. هذا، وقد عاشت الملكة "زالقا" فترة طويلة، تكاثر قوم القبط وتناسلوا فى عهدها حتى استوطنوا جميع أقاليم مصر.

الفصل الثالث

فى بيان أحوال العمالقة

العمالقة هم أولاد عملاق، كان ملكهم آيدوس (= عيدوس = وليد العنيد)، طمع في خيرات مصر ورخائها الذى فى أيدى الأقباط فسير جيشًا كثيفًا إليهم؛ اشتبك في حرب ضروس مع "زايكا" بنت "ياموم" إلى أن أسفر القتال عن انهزام الأقباط أمام العمالقة. وهكذا تمكن الوليد البليد من التحكم فى مصر مائة سنة حيث جعلها كلها وقفًا على كنيسة آيا صوفيا، وقد ظل يحكم بالظلم والجور إلى أن سلط الله عليه سبعةً من الحيوانات المفترسة فقضت عليه وأنقذت أهل مصر من شره المستطير. كان ضخمًا قضت عليه وأنقذت الجسم كبير الجثة كأنه جذع شجرة ضخمة، وكانت كل سِنَّة من أسنانه تزن ثمانية عشر رطلاً؛ مما يدل على أن شعب العماليق كانوا أقوامًا ضخامًا.

وقد تملك بعد "وليد" هذا ابنه "ريان" الذى تفيد تواريخ الصابئة أن سيدنا يوسف [عليه السلام] كان فى عهده، ولقب الفرعون يطلق على ملوك مصر الكفار، فإذا أرادوا جمع اللفظ قالوا الفراعنة، هذا وعندما اختار "ريان" زاوية العزلة مبتعدًا عن الحياة خلفه سيدنا يوسف عليه السلام مائة سنة أخرى، وكان حكمه لمصر موصوفًا بالعدل التام فتقدمت تقدمًا كبيرًا فى عهده وعلت علوًّا عظيمًا.

الفصل الرابع

فى بيـــان كيفية بناء يوسف[عليه السلام] مدينة الفيوم وكيف حفر بأمر اللـه بحر يـوسـف

يقول الشيخ (السيوطى) - رحمة الله عليه - عندما أصبح يوسف فى صباه مملوكًا لعزيز مصر عشقته "زليخا" وافترت عليه الكذب فسجنه "ريان" فى مدينة الجيزة وقد ورد ذلك فى القَصص القرآنى؛ إذ يقول الله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف١٢/٣٦] ولا يزال هذا السجن حتى الآن فى جامع بلدة "بوصيرا" بالقرب من قصبة الجيزة فى مواجهة مصر العتيقة، وفى هذا الجامع أيضًا يوجد الصندوق الذى وُضِع به موسى وليدًا وأُلقىَ به فى اليمّ، أى أن يوسف قد نجا ببركة الصدق فى هذا السجن وأصبح ملكًا على مصر، وعندئذ دعا هذا الدعاء "اللهم إنى غريب فاجعلها لى!" ومن هنا فإن طوائف العبيد والغرباء هم القابضون على خيرات مصر وهم المعززون فيها.

هذا، وبفضل دعاء سيدنا يوسف أنزل الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض عشر بركات خيِّرات، جعل لمصر منها تسعًا ولسائر أقاليم الأرض واحدة، لأن مصر إقليم ليس كسائر الأقاليم، إذ فيه طلاسم عجيبة ومعادن وكنوز غريبة.

وبعد ذلك كله أدركت العناية الإلهية يوسف، فنـــزلت عليه النبوة وهو فى الأربعين من عمره بعد أن كان خليفة فى الأرض، وقد تملك وهو فى الثلاثين. ولما كانت مصر أرض الجبارين فقد تركها ونزل إلى وادى الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف؛ فسعد بها وانتوى الإقامة فيها، لذلك بنى مدينة الفيوم فى ألف يوم فسميت المدينة الفيوم تحريفًا عن عبارة "ألف يوم". ويجوز فى اللغة

العربية أن تخفف الكلمات؛ فتحذف الألف واللام ويقال "فيوم" بمعنى المدينة التى شيدت وأُنشئت فى ألف يوم.

وبينما كان يوسف ينقل التراب المتخلف عن حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمين بأن يهبط ويقدم يد المساعدة والمدد لحبيبه يوسف؛ فنـــزل جبريل كالبرق الخاطف أطاح بجناحه بحيرة الفيوم بضربة قوية؛ فأطار ترابها وأنقاضها وأطلالها إلى السماء وأنزلها إلى (أسفل الغبراء)، وضرب جناحًا آخر جهة الصعيد الأعلى ففتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التى لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والمخلوقات العجيبة والزواحف البحرية.

ويقوم أولياء الأمور فى مصر بتطهير الترع والقنوات كل سنة بمئات مـــن الأبقار والثيران والأنفـــار، فى حين أن الترعة اليوسفية هذه - لكونها من آثار جبريل الأمين - لا يحدث بها جرف أو شق ولا يبقى فيها طمى قط إلى توقف الفلك بل يجرى فيها النيل دائمًا. إن ماء النيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مرًّا أجاجًا. وفى ضواحى هذه البحيرة توجد ثلاثمائة وست وستون قرية، كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد أو جنة غناء. وسنذكر - إن شاء الله - وصف مدينة الفيوم فى المكان المناسب.

هذا، ولما اشتد فراق يوسف على والده يعقوب [عليه السلام] بادر بالرحيـــل من بلدة كنعان مع أولاده وعياله، وتوجه نحو مصر لزيارة يوسف الذى كان حينئذ مقيمًا فى الفيوم. وخلال ذلك خرج الملك "ريّان" من عزلته وتقـــدّم نحـــو يعقـــوب بموكبه طالبًا دعاءه، ثم أكرمه غاية الإكرام وبعثه وحاشيته إلى الفيوم فهب لمقابلته سيدنا يوسف بالحفاوة اللائقة. وقد اجتمعوا فى مكان لا يزال يسمى "ميلين يوسف"؛ على مسافة ميلين من الفيوم حيث البساتين والكروم. ولما تعـــانق الوالـــد والولـــد بحرقة وشوق وفرح وسرور جرى الانتعاش ودبت الحياة فى جسم يعقوب، وعـــاد النور إلى عينيه النرجسيتين اللتين فقدتا بصرهما من شدة البكـــاء علـــى يوســـف

وفراقه. ثم بادر يوسف إلى عتق تسعين غلامًا من غلمانه المماليك شكرًا لله، وفرح يعقوب فرحًا مزيدًا ودعا لابنه بالخير والبركة من صميم قلبه، وقد مكث بمصر ستة عشر عامًا متمتعًا ببصره الذى عاد إليه إلى أن وافته المنية وتوفاه الله، فبادر ابنه يوسف حسب وصية الأب إلى نقل رفاته إلى جبرون (أو) حبرون في القدس الشريف حيث يرقد بجوار خليل الرحمن.

ذكر وفاة سيدنا يوسف (عليه السلام)

وبعد وفاة يوسف هلك أيضًا "الريان" الذى كان ابنه "دارم" ملكًا يجلس على عرش بلاد أسوان، وما كاد يسمع بوفاة سيدنا يوسف حتى أعلن استقلاله والعمل على تنفيذ وصية يوسف بأن وضع جثته فى صندوق من النحاس الأصفر وألقى به فى اليم، فبقى هذا الصندوق فى النيل حتى عهد سيدنا سليمان [عليه السلام] حيث قدم ذات يوم إلى شاطئ النيل مع خَدَمه وحَشَمه وبطانته من الإنس والجن، فإذا بعجوز ساحرة شمطاء ذات عقل ودهاء تتقدم إليه وتقول: "يا سليمان لقد ألقى بالصندوق الذى يحتوى على جثة سيدنا يوسف فى هذا المكان. فمن الخير والحكمة أن تُسارع إلى إخراجه"، فما كاد يسمع سليمان ذلك حتى أصدر أوامره إلى العفاريت والجان بإخراج الصندوق، وفى لمح البصر تم انتشال الصندوق ونقلوه إلى القدس حيث دفن بجوار والده "يعقوب" فى جبل حبروت [كذا]. ولا يزال قبره معروفًا منورًا يزوره الناس.

الفصل الخامس

فى بيان آل الريان وذكرهم

لما طغى "دارم" وتجبَّر هذا الملك الريانى بعد وفاة سيدنا يوسف؛ حيث جنح إلى عبادة الأوثان واتخاذ الأصنام آلهة حتى غرق فى النيل، خلفه فى الملك "كاشم ابن معدان" وتولى بعده الفرعون ابن حريم بن كنورب بن زيد موسى، فكان هذا هو الملك الذى جاء قبل موسى [عليه السلام] بعشرين عامًا والذى جعل منوف عاصمة لملكه، وعمَّر أربعمائة عام وقد قضى أكثر أيامه فى قتال موسى [عليه السلام] حتى غرق بجميع جنوده فى المكان المسمى بمضيق "قلوندر" فى بحر القلزم أى البحر الأحمر. وهذا ثابت بالأدلة القاطعة فى جميع كتب التفاسير. ثم تلته فى الحكم السيدة المدعوة "دلوكة بنت زبياكه"؛ فاعتنت بعمارة مدينة "منوف" اعتناءً كبيرًا حتى أنها جعلت جميع العمدان المستعملة فيها من الحديد، وكست السطوح والسقوف بالرصاص وغطت الأبواب والشبابيك والدرابزينات بالشبة والنحاس فأصبحت لا نظير لها فى أرض مصر. ومنوف فى اللغة القبطية اسم للعروس بمعنى أنها مزدانة ومجلوة كعروس الدنيا. بعد ذلك سيطرت هذه الملكة المدعوة "دلوكة" على العالم بقوة السحر، وكان ذلك فى سنة (...)(١٧٣)، فكانت سلطانة أصيلة حكمت عشرين سنة وماتت بعد أن عاشت مائة وستين عامًا.

وخلفها فى الملك درجون (= دركون = درغون)، ولما هلك خلفه ابنه "تودس"، وبعده تولى الملك "لقاس" ثم "مرينا" وخلفه ابنه "اسمارس" فاغتيل وكان أول مَنْ قُتِل من الملوك؛ لأنه كان ملكًا جبارًا ظالمًا وحاكمًا جائرًا. وتولى بعده

---

(١٧٣) ترك المؤلف فراغًا ولم يذكر تاريخًا، ولسوف يتكرر ذلك، ولما كانت الفترة موغلة فى القدم فقد صعب تدارك هذه التواريخ .

الملك "بطولس بن مكاكل" فحكم أربعين سنة، ثم تلاه ابنه "بالوس" ثم أعقبه في الملك "مياكل" أخو "بالوس" فحكم مائة وعشرين عامًا، وهو الذى خرَّب بيت المقدس وقد هلك بسقوطه من فوق صهوة جواده الذى رفسه حتى مات. وخلفه ابنه "مرتنوس". وبعده تولى الملك "مرمورة" الذى أشاع العدل وأحب الرعيَّة ونشر العمران فى ربوع مصر والقدس وعمَّر ستين عامًا. ثم خلفه الملك "لقماس" الذى هوى فى ساحة الوغى، فأعقبه فى الملك "قوبش" فطاف البرارى والبيداء وساح فى كل البحار مغيرًا على أكثر من خمسين ولايةً وإقليمًا من الولايات والأقاليم المجاورة.

وكان فى عهد هذا الملك خروج بختنصر من كردستان إلى بلاد فلسطين؛ طالبًا دم النبى يحيى [عليه السلام] فأوغل فى البلاد حتى اجتاح حلب والشام وبليسر وطبرية ونابلس والرملة وصفط (أى صفد) وغزة ومصر والإسكندرية.

والخلاصة أنه استولى على أكثر من ألف وسبعمائة مدينة إسرائيلية، فخربها وجعلها أطلالاً وجعل أهلها أسارى معذبين، وذلك انتقامًا وثأرًا لدم يحيى المسفوك هدرًا وكان اليهود قد قتلوه. وظلت مصر نتيجة لهذه الغزوة خربة مدة بلغت أربعين سنة كاملة، وقد عثر بختنصر هذا على الأنبياء أرميا وإيليا ودانيال فى مدينة صفد، فألقى القبض عليهم وزج بهم فى السجن، وبينما هم فى الحبس بلغه أن الوحى ينـزل عليهم، فبادر إلى إطلاق سراحهم وقد أعاد إلى مصر الفارين من أهلها بفضل رجاء ثلاثة من الأنبياء من أولاد نوح [عليه السلام].

وحدث فى هذا العصر أن تسلط الشعب الرومى على إسرائيل بفضل بختنصر، وإلزام الملوك جميعًا باعتناق المسيحية، حتى لقد أشاعوا الطقوس المسيحية فى البلاد الإيرانية، كدق النواقيس والعزف على الأرغون. فآية ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝﴾ [الروم٣٠/١-٢]، التى نزلت فى عهد الرسول ﷺ إنما نزلت فى شأن هؤلاء الروم. وهنا سردت حكاية العمالقة وآل الريان.

الفصل السادس

فى بيان من دخل مصر من الأنبياء العظام

أُنزلت الصحف أول ما أُنزلت على آدم وشيث وابنه قينـــان. وكـــان لقـــب سيدنا إدريس هو "هرمس"، ومعناه بالعبرية (الشيخ).

هذا، ولا يزال السودانيون حريصين على تسمية أبنائهم بـــإدريس وحمـــد وحمود وهنو وجرجس وكفيل.

فالنبى إدريس قد بعث فى مصر وظل بها إلى قوم الصابئة، فأقام بأرض مصر هذه مائة وأربعين مدينة؛ لأنه كان ماهرًا فى علم الهندسة والنجوم مهارة كاملة. ولإكثاره من إلقاء الدروس على الناس سمى باسم (إدريس)، وهناك نص قاطع على أنه عرج إلى السماء وهو ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم١٩/٥٧]. ويقال إنه لا يزال فى جنة المأوى يُفصِّل الحلل والثياب إذ كان ماهرًا فى فن الخياطة والكتابة، كما أن إبراهيم وإسماعيل [عليهما السلام] بعد أن أتما بناء مكة جاءا إلى مصر فى عهد الملك "توتيس"، وأما يوسف فقد كان بمصر فوصل أبوه يعقوب إليها ومعه أبناؤه الأحد عشر، وأكبرهم "يهودا"، وبن يامن [بنيامين]، وسياح بن يهودا بن يعقوب، ومياثيل، وروفائيل، وشمعون، ومسحره، وزاخيل، ودارم، ولاوى، وأزريا، ورادم، وحسيان. فهؤلاء كلهم أولاد سيدنا يعقوب جاءوا لمصر بعد أن أجرموا بإلقاء يوسف فى غياهب الجب وادعوا أن الذئب قد أكله، واجتمعوا به مع أبيهم واستغفروه، وأقاموا بها ست عشرة سنة طيلة حياة أبيهم يعقوب. ثم عادوا إلى صفد جميعًا بعد وفاته، وهم مدفونون فى مغارة "بيت الحزن"، وبسبب أن بنيامين (ابن يامن) كان شقيق يوسف من أم واحدة فإنه أبقى عليه، وظل مع سيدنا يوسف فى الفيوم التى ولد بها أيضًا "أفرايم بن يوسف"؛ فأفرايم هذا وبنيامين

كلاهما مدفون فى قبة واحدة بجوار عمر بن الفارض[١٧٤] بمصر. وليس فى أرض مصر من أولاد الأنبياء من هو مدفون بها سواهما.

ومن الذين طالت أقدامهم أرض مصر من الأنبياء لوط [عليه السلام]، وموسى وهارون [عليهما السلام] وهما أخوان وُلِدا فى مدينة أرمن "أرمنت" قرب أسوان من أرض مصر؛ حيث خافت أم موسى على وليدها فعمدت إلى صندوق فوضعت فيه وليدها وألقته فى اليم خوفًا عليه من طغيان فرعون مصر. وكان من لطف الله ومن حسن التقدير أن كان السراى الذى يقيم به فرعون مصر على شاطئ النيل، وكانت زوجته "آسية" جالسة صباح يوم تشاهد النيل؛ فرأت صندوقًا يطفو على سطح الماء فأمرت بإحضاره فورًا، وما إن فتحته حتى رأت هالة إلاهية تتلألأ منها الأضواء والأنوار قد شملتها ليس مثل كل الأطفال؛ فحرصت عليه وحضنته وعنيت بتربيته حق العناية. ومن حكمة الله وحسن تقديره أن كان والد سيدنا موسى هذا هو بواب سراى الفرعون؛ كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص، فأعطت آسية الطفل لوالدته وأخذت تلاحظه عن بعد ومن وراء ستار. وقصة موسى وفرعون هذه مسطورة فى جميع كتب قصص الأنبياء. وكذا الأنبياء داود، والملك رجيم بن سليمان، وهود، وشعيب، وصالح بن ثمود الذى كان يقطن قريبًا من مدينة مصر، يقصد مصر القديمة، فكان يزورها دائمًا. وهناك فى مصر القديمة دير يحج إليه الأقباط ويزورونه ويطلق عليه دير آل ثمود. وكذا لقمان والخضر، وإن كان فى نبوتيهما اختلاف. وأما لقمان فقد كان أستاذًا حاذقًا أسمر اللون يسكن مدينة سودان.

---

(١٧٤) عمر بن الفارض: هو الشيخ أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على الحموى الأصل، المصرى المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، ولد فى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦هـ بالقاهرة، وتوفى بها يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ ودفن بالقرافة فى سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف ، كان من كبار الصوفية، له ديوان شعر رائق العبارة. وقد شاع شعره فى جميع أقطار العالم الإسلامى. (ديوان ابن الفارض، مكتبة زهران، القاهرة، بدون تاريخ، صـ٢).

وأما الإسكندر ذو القرنين ففيه آراء كثيرة، فهناك من يقول إنه نبي مرسل حيث وردت الآيات القرآنية في حقه وهي ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف١٨/٩٤]. وهناك أربعة يتسمون بالإسكندر على هذا المنوال، فالإسكندر ذو القرنين بن فيلكوس الرومي وهو يوناني. ومن بعض التواريخ أنه الإسكندر ابن "مرزية"، ومذكور أن اسمه "مرزيا" وكنيته الإسكندر. هذا، وكان في ذلك العهد يطلقون القرن على فترة أو مدة من الزمن مقدارها ٣٢ سنة، فمعنى القرنين يعني ٣٢ سنة مرتين أي أربعًا وستين سنة، وحيث إنه حكم أربعة وستين عامًا فوصفوه بأنه ذو القرنين. وفي رواية أخرى أنه كانت في جبهته قطعتان من اللحم تتدليان كالقرون فأطلق الناس عليه هذا اللقب.

حكاية شرفنامه[١٧٥]

يقول مؤلف كتاب شرفنامه وهو جد أمراء بدليس إن ذا القرنين لم يكن يتمتع بالراحة قط من وجع قرنيه وإيلامهما له دائمًا. وقد جمع حوله من الحكماء الماهرين والأطباء الحاذقين عددًا كبيرًا ليعالجوه ويزيلوا ما به من الألم، إلاَّ أن جهدهم كان يضيع هدرًا؛ فما كان منه إلا أن ضرب في الأرض باحثًا عن عين الخلود التي يقال إنها في الظلمات، ولما طال بحثه ولم يجدها عاد إلى إقليم العراق، وشرب من مياه شط العرب فسَكَنَ ألم قرنيه واستراحت نفسه قليلاً. ونام ورأى فيما يرى النائم أن هاتفًا يقول له: "يا إسكندر اشرب من ماء هذا الشط وسر فيه حتى

(١٧٥) شرفنامه: كتاب مؤلف باللغة الفارسية في مجلدين، في تاريخ الدويلات والإمارات الكردية ووصف بلاد الأكراد في العهد الإسلامي لمؤلفه الأمير شرفخان البتليسي الذي كان مقربًا من السلاطين العثمانيين، أتم تأليفه سنة ١٠٠٥هـ وطبع مرتين: إحداهما في موسكو سنة ١٨٦٠م والأخرى بالقاهرة سنة ١٩٣٠م. وهذه الطبعة بين يدي، وقد ترجمه إلى العربية محمد علي عوني، وراجعه يحيى الخشاب في جزأين (طبعة دار إحياء الكتب العربية) وإن كانت هذه الترجمة غير متوافرة .

الموصل، على أن تشرب في الطريق من كل ماء يقابلك ويصب في الشط، وإذا عثرت على الماء الذي يزيل ألمك فاتبع مجرى هذا الماء الصغير واصعد معه إلى أن تصل إلى منبعه فحط رحالك به، وأقم حوله أربعين يوما تشرب من مائه كل يوم حتى يزول ما بك من ألم القرنين وتحصل على الشفاء التام".

ولما استيقظ من النوم استدعى الأطباء والحكماء والخدم والحشم ورحل بهم جميعًا إلى ناحية الموصل، مجتازا عشرات من الأنهار والجداول حتى وصل ولاية جزيرة العمر [جزيرة ابن عمر] فشرب من نُهير "الخابور" الذي يسقيها؛ وعندئذ شعر براحة تامة وأحس بحياة جديدة فتبع شاطئ هذا النهر وسار فيه نحو منبعه حتى وصل إلى مكان يتفرع فيه النهر إلى فرعين، فشرب من ماء الفرع الذي يأتي من "حصن كيفا"؛ فشعر بانتعاش ونشوة فبادر إلى مواصلة السير حتى جاء إلى مكان ينشطر فيه هذا النهر النافع تحت قلعة "كغندور" قرب بدليس، فشرب من الشطر الذي يأتي من جبال مودكي، وعند ذلك صاح الإسكندر وهتف هتافًا تردد صداه في أجواء السماء من السعادة التي شعر بها. وعندما شرب من الفرع الذي يأتي من داخل المدينة استعذبه وانتعش به فأحبه كثيرًا؛ ولذا تابع سيره نحو ذلك الماء ونزل مكان مدينة بدليس ورأى النهر يتفرع مرة أخرى إلى فرعين من تحت القلعة، فشرب من القسم الذي يجري في السوق فلم يستعذبه فبادر إلى الشرب من القسم الذي ينبثق من تحت القلعة فاستعذبه ووجد لذة كبيرة وشعر بحياة جدية كأنها خالدة، فسقط أحد القرنين فورًا وبقي الآخر فشكر الله على ذلك، وتابع سيره على شاطئ ذلك النهر حتى رأى أنه يتدفق من صخرة عظيمة مهيبة، فأمر رجاله بحط الرحال وإقامة الخيام وعسكر بجيشه وأقام هنالك أربعين يومًا يشرب من ذلك الماء الزلال، حتى وقع قرنه الآخر أيضًا وزال ما به من الألم والوجع.

وهكذا نجا الإسكندر من قرنيه ومن آلامهما التي أسهدته حقبة من الدهر؛ فشكر الله الواحد القهار واهب العطايا، وتقديرًا لطهارة هذا المكان وقدسية هذا المكان الشافي وعذوبته أمر بأن يبنى هنالك قصرًا منيفًا وتكية أنيقة، عمرها

الدراويش وأهل العلم والمعرفة عيشا طويلا متمتعين بالسعادة والهناءة والراحة. ولا يزال هذا المحل محط أنظار أهل الصفاء في تلك الجهات.

وكان للإسكندر هذا خازن يدعى "بدليس" في غاية الذكاء والنباهة وحسن التدبير والشهامة، فأعطاه أموالاً وخزائن عدة وأمره ببناء قلعة عظيمة على هذه الغدير الدافقة قائلاً إنها يجب "أن تكون من الحصانة والمتانة وعلى مكانة يعجز عن فتحها والاستيلاء عليها أي فاتح، وحتى إذا قصدتها أنا الإسكندر بعظمتي وجلالي".

وفي سنة ١٠٦٥هـ حينما زرت "بدليس" بصحبة مولاي "ملك أحمد باشا" تكلمت عن أحوال هذه المدينة وقلعتها بالإسهاب. بيد أني رأيت في بعض التواريخ في شأن إسكندر ذي القرنين ما يلي:

إن الإسكندر ذا القرنين هذا هو الذي بنى السد العظيم ليتقي به هجمات يأجوج ومأجوج، كما أنشأ قلعة الإسكندرية بأرض مصر، وهو ابن تارخ بن يافث بن نوح عليه السلام. وفي قول آخر أنه الإسكندر بن "داراب" بن "بهمن" بن إسفنديار.

وحقيقة القول أن الإسكندر هذا قد ذهب إلى مصر وبنى بها قلعة الإسكندرية [سنة ٦٠١ ق.م]، ومدة حكمه ٦٤ سنة، ولقد مات في بابل ودفن في الإسكندرية. هذا، وكان سيدنا الخضر النبي رجلاً مسناً ذا تجارب وتدابيرات عظيمة في جيش الإسكندرية وكان يصحبه في رحلاته في أنحاء العالم. ويقال إنه لا يزال حيًا يُرزق وفي نبوته أيضًا اختلاف، ولكن قدومه لمصر ثابت بالقرآن الكريم (الآية...) [؟!]

وبمصر موضع يدعى "مرج البحرين" الذي هو اختلاط النيل المبارك بالبحر ببوغاز دمياط، وقدم الخضر مع سيدنا موسى في رحلاته إلى هذا الموضع المسمى "مرج البحرين"، حيث بادر إلى خرق سفينة صيد فغرقت، وجادله موسى [عليه السلام] في ذلك حتى دب الخلاف بينهما فأنزل الله تعالى على محمد المصطفى هذه الآية

﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف١٨/٧٨]. وهذا دليل كاف على أن سيدنا موسى كان ساكنا بمصر. وحيث إن موسى والخضر قد ترافقا فى مرج البحرين فيكون الخضر أيضا ممن دخل مصر.

ومن الأنبياء الذين دخلوا مصر سيدنا "يوشع" الذى ولد فى مدينة الفسطاط (= مصر القديمة)؛ فهو يوشع بن نون وليس زينون. وقد ولد زينون فى مصر القديمة أيضًا ، وكان حكيمًا حاذقًا من القبط، وقد كان زينون هذا ضمن الوفد الذى أرسل من قبل حاكم مصر "المقوقس" إلى صاحب الرسالة المحمدية حاملاً من الهدايا الجوارى الثلاث القبطيات وسيفا وبغلة، وحينما سلم زينون الهدايا لصاحب الرسالة قدَّم نفسه أيضًا للرسول عبدًا مملوكًا له، معربًا عن رغبته فى التشرف بالإسلام. فأعطى الرسول إحدى الجوارى إلى أبى بكر [رضى الله عنه] قائلاً: "خذ شمسة" Giz Şemsc فأولدها ابنه محمدًا، وأعطى الثانية للشاعر حسان وسماها (درة) فأولدها ابنه عبد الرحمن. وقد خص الرسول نفسه بالثالثة وسماها (مارية) التى ولدت حضرة إبراهيم ابنه. وبعد ذلك عاد "زينون" هذا مع عمرو بن العاص فى فتوح مصر، وقد استشهد فى وقت واحد مع "عقبة الجهنى العامرى" وهو من الصحابة الكرام، ولذا دفنوهما متجاورين.

وأما "يوشع بن نون" هذا فهو نبى توجه من مصر إلى طرابلس الشام ودفن بها. هذا، وقد أسر بختنصر النبى "دانيال" والنبى "أرميا" [عليهما السلام]، وقدم بهما إلى مصر حينما توجه إليها مُجتاحًا ومُشيعًا الخراب والدمار فى أرجائها، وفى عودته من مصر اصطحبهما معه إلى "كردستان".

وممن هاجر إلى مصر سيدنا عيسى [عليه السلام] الذى ارتحل هو وأمه من مدينة نابلس، فنـزلا فى قرية المطرية، وظلا بها ثلاثة أعوام غرسا خلالها أشجار الـ (بلسان) التى لم تكن معروفة على وجه الأرض حتى ذلك العهد. وكانت تلك الأشجار موجودة حتى عهد الدولة الكردية ولا تزال جذوعها باقية. ثم حفر سيدنا عيسى هناك بئرًا يشرب منها السعداء من الوزراء والكبراء أيام الفيضان

حيث يأتي النيل عكرًا كثير الطمي، ولا تزال الطوائف المسيحية تزور تلك البئر إلى اليوم، ثم سافر السيد عيسى مع أمه إلى مدينة بهنسا فأقاما بها ثلاث سنوات أخرى. هذا وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - حبيبه المجتبى بدخول عيسى أرض مصر بهذه الآية الشريفة ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون٢٣/٥٠]؛ حيث فسرها العلماء بدخول عيسى مصر.

وهكذا يكون هؤلاء الأنبياء هم الذين دخلوا مصر، وهذا وفق ما أجمع عليه ثقات المؤرخين والمفسرين، ولم يدفن أحد منهم بأرضها اللهم إلا بنيامين وابن أفرايم بن يوسف عليه السلام.

في بيـــان مَنْ دخل مصر منْ أهل بيوت الأنبياء

وأول هؤلاء أم سيدنا شيث ثم أمنا حواء، ثم سارة زوج إبـــراهيم الخليـــل، والسيدة آسية التى كانت زوج فرعون واستشهدت على يده وهى بكر، وكذا "يوحنه" أم موسى، وأم يوسف، وأم يهوذا بن يعقوب، ومريم أم عيسى. وعلى هـــذا اتفـــاق المؤرخين أجمعين.

في بيـــان مَنْ دخل مصر منَ الحكماء القدماء

ففى مقدمة هؤلاء إدريس الذى كـــان كاتبًـــا وخياطًـــا وحكيمًـــا. و"لقمـــان" و"فيثاغورس التوحيدى"، و"تيمون" و"فليسلة" و"أسلاوس" و"كاوس" و"يزدجرد" و"إبقـــراط" و"سقراط" و"أفلاطون" و"أقليطس" و"أرسطاليس" و"بطلمو" أو "بطليموس" و"أقلطموس" و"أرستطاليس" و"قلكوس" و"ذو النون المصرى" و"أبو على بن سينا" و"أبو الحـــارث"، ومن هؤلاء الحكيم والعالم والطبيب والفلكى والعارف بمواقع النجوم ممن لا تـــزال مؤلفاتهم تدرس ويعمل بها اليوم.

وخلاصة القول إنه فى مصر أم الدنيا هذه، من بعد هبوط آدم ومـــن بعـــد طوفان آدم الثانى نوح عليه السلام، قد تناسل بنو آدم وتكاثروا على أديـــم الأرض، فبعث فيهم مئات من الأنبياء والرسل والملـــوك والـــسلاطين، واشـــتهروا بـــالعتو والطغيان، وهم أربع طبقات.

الطبقة الأولى نسل داريون (الداريون). الطبقة الثانية (الكيـــانيون). الطبقـــة الثالثة (الأشكانيون). الطبقة الرابعة (الـــساسانيون) وهـــذه الجماعـــة المكروهـــة المذكورة ملكت أكثرها إيران وما وراء النهر وبلاد العراق ومصر.

الفصل السابع

فى ذكر فتح عمرو بن العاص مصر القاهرة فى خلافة سيدنا عمر ببركة معجزات محمد المصطفى ﷺ (١٧٦)

الدافع إلى فتح مصر هو أن اليونانيين كانوا قد ازدادوا شوكة وطغياناً بعد الإسكندر الأكبر، حتى وضعوا أيديهم على أقاليم الدنيا السبعة، وفيها مصر التى أذلوا ملكها القبطى "المقوقس" وجعلوه عاملاً لهم "بوى بكى" أمير عشيرة، ثم أخذوا يتأهبون لغزو مكة والمدينة عن طريق "بنى سويف" أثناء فيضان النيل، فبدأوا بمنع تسيير السفن فى النيل إلى السويس، الأمر الذى أدى إلى حدوث القحط والغلاء فى المدينة المنورة ومكة المكرمة. وهنا بادر صاحب الرسالة إلى العمل على إذعان الكفار؛ فبعث بسيدنا عمر [رضى الله عنه] على رأس جيش يتألف من ثمانين ألفاً إلى القدس، حيث فتحها عمر بنفسه، ثم أرسل النبى ﷺ عقبه خالد بن الوليد [رضى الله عنه] فانتزع الشام الشريف من يدى "هرقل" المجوسى العنيد، وقد حصل على أموال وغنائم كثيرة ذهب بها إلى المدينة وقدمها للرسول ﷺ فأطلق عليه رسول الله لقب سيف الله المسلول. فعلى هذا يكون خالد أول من غزا بلاد الروم.

هذا، ولما رفع كفار القدس والشام راية العصيان ضد المسلمين فُتحت البلاد كلها دفعة واحدة فى عهد سيدنا عمر، مما أوقع الكفار من الروم والقبط فى هرج ومرج وراحوا يتساءلون عما سيكون حالهم مع محمد العربى.

---

(١٧٦) فى هذا الفصل معلومات لا يمكن الركون إليها، وهى فى حاجة إلى تحقيق وتصويب من أهل الاختصاص.

وبينما هم كذلك إذا بالملك "هرقل" يتحرك من أنطاكية بجيش جرار قوامه أربعون ألف فارس، ومثله من المشاة وقد نزلوا الإسكندرية، فيرسليم منيا إلى مصر. وهكذا عادت الحياة والآمال الواسعة للكفار، وكان عمرو بن العاص لا يزال فى الجاهلية، وقبل أن يتشرف بالإسلام كان من ذوى المكانة والشأن فى قومه قريش، وكان يتردد على الشام وبُصرَى والقدس الشريف كل سنة، ففى ذات يوم بينما كان راقدًا تحت ظل شجرة على قارعة الطريق إذ بحيوان كبير كالثعبان العظيم قد ظهر وأخذ فى مهاجمة شخص نائم تحت شجرة أُخرى قريبة. فما كان من عمرو بن العاص إلاّ أن تناول قوسه ورمى الثعبان الهائل بسهم أصابه فى مقتل فترنح ساقطًا على الأرض يتلوى وينفث سمومه يمينًا وشمالاً. وفى اللحظة نفسها استيقظ النائم ونظر إلى ما حوله وقد تولاه الذعر وانتابته الدهشة فسأل عمرو بن العاص عن حقيقة الأمر، فأجابه بأن هذا الثعبان الهائل كان يقصده لينفث فيه سمه الزعاف وبأنه عاجله بسهم فقتله.

فما كان من هذا الشخص الناجى من الموت المحقق إلاّ أن ارتمى على يدى عمرو وقدميه يشكره على صنيعه. فأخبره عمرو أن مكة مسقط رأسه ووطنه وأنه من آل هاشم، فأجاب الرجل وقال: "أرجو أن تكون لى أخًا فى الدنيا والآخرة؛ حتى أستطيع القيام بما يجب علىَّ نحوك من الخدمة ورد الجميل، لما قدمته إلىَّ من هذا المعروف". فقال عمرو بن العاص: "إنى ما قمت بذلك إلاّ لوجه الله وأنا رجل أشتغل بالتجارة". فرد عليه الرجل قائلاً: "يا أخى وأنا كذلك تاجر ولى تجارة واسعة فى الإسكندرية وأكياس كثيرة مملوءة بالذهب وعقارات واسعة فى مصر. وأنا الخواجة شماس وقد قدمت لزيارة بيت المقدس. فأنا غريب مثلك عن الديار والوطن، وأملى كبير فى أن ترافقنى إلى الإسكندرية لأعطيك هنالك مبلغ عشرة آلاف سكة قبطية من الذهب الخالص، وعددًا من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة ومجموعة من الأقمشة الفاخرة ثم أعيدك بالعز والإجلال إلى مكة، ومعك بغلتان محملتان أموالاً طائلة من السلع والأمتعة". وقد بالغ من الرجاء والتضرع إليه حتى إن المستمعين من الحضور تأثروا بذلك ووافقوا على قوله.

وإزاء هذا الرجاء لم يسع عمرو بن العاص إلاَّ أن يوافق علـى مرافقتـه؛ فسارا من القدس راجلين وجعلا يقطعان الفيافى والبيداء حتى وصـلا الإسـكندرية بعد عشرة أيام. ونزل عمرو ضيفًا معززًا على الخواجة شماس فى منـزله، وأراد هذا بدوره أن يفي بوعده فأعطى ضيفه مبلغ عشرة آلاف دينار من الـذهب. ثـم اصطحبه إلى متنزهات المدينة ومناظرها ليتفرج عليها ويتمتع بها، وبينمـا همـا يتجولان في المدينة وقد مرا بميدان السباق وإذا بكرة الصولجان تطير وتقع بحكمة من الله على رأس عمرو بن العاص، الأمر الذى أثار إعجاب الناس ودهشتهم، ذلك لأن أهالى الإسكندرية كانوا يعتقدون أن من تنـزل كرة الصولجان على رأسه من بين النظارة والحاضرين فإن الحظ والسلطنة يقبلان عليه طائعين. وهذا ما جعـل هؤلاء الناس يتعجبون ويندهشون لنـزول الكرة على رأس هذا العربـى، فأخـذوا يستخفون به، متسائلين كيف يكون العربى ملكًا؟!؛ فالملك يجب أن يكون مـن ذوى الثراء والجاه ومن أصحاب الحول والطول في البلاد، وما شأن هذا الغريـب عـن البلد ؟

هذا، ولما غادر الخواجة شماس مع ضيفه عمرو ميدان السباق وذهبا إلـى منـزله نظر الخواجة شماس، وكان ماهرًا فى علم الإصـطرلاب، ليـرى طـالع ضيفه عمرو فوجد أنه سيمتلك عرش مصر ويحكمها، فبادر إلى إعطائـه حمـل سبعين جملاً من المال والأمتعة وأرسله فى اليوم التالى إلى مصر ليطوف خلالها، وقد لبث عمرو فيها ثلاثة شهور عرف أثناءها أحوال مصر وأسرارها وتعـرف على أحوال أهلها. ثم سافر إلى مكة بقافلة كبيرة محملة بالأموال والهدايا. ومـا إن وصلها حتى بادر إلى توزيع الهدايا على أهاليها الكرام. ثم أخذ يصف الإسـكندرية ومصر أم الدنيا ويبالغ فى مدحها، حتى لقد تمنى جنود الإسلام أن يمن الله علـيهم بفتحها، وقد تشرف عمرو بن العاص بمقابلة النبى ﷺ، وقدم له هدية طيبة فتقبلهـا منه بسرور. فما كان من عمرو بن العاص عندئذ إلا أن أعلـن إسـلامه وإيمانـه بالنبى ناطقًا بالشهادتين.

وهكذا التحق بزمرة الصحابة الكرام. وقد أخذ يصف للنبي أحوال مصر والإسكندرية على حقيقتهما، فسر النبي سرورًا عظيمًا حتى صاح داعيًا "اللهم يسر بالعمرين". وقد استمر عمرو كل يوم يسهب في مناقب مصر وأحوالها وما هي عليه من الخصوبة والبركة، حاثًا الصحابة والمسلمين على فتحها ثم فتح القسطنطينية. وفي خلال ذلك وردت مرارًا من المقوقس ملك مصر هدايا ورسائل إلى الرسول يقول فيها: "يا محمد نحن – معشر المصريين – مغلوبون على أمرنا في أيدي كفرة الروم وإنا لعاجزون كل العجز حيالهم فإنهم أخذوا منا مصرنا"، ومن جهة أخرى فإن السيد الرسول ﷺ بعد عودته منصورًا ومظفرًا من غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، قد حضر إليه أبو الدرداء وحاطب بن أبي بلتعة [رضي الله عنهما] فأرسلهما النبي بكتابه الدري الشريف إلى المقوقس بمصر، فوصلاها سالمين وأخذا يدعوان الملك المقوقس إلى الإسلام. والروايات مختلفة هنا فإحداها تقول إن المقوقس قابل الكتاب النبوي بالتبجيل والاحترام بل باللهفة والشوق إذ احتضنه وقبله وأعلن تشرفه بالإسلام، ثم بعث حضرة زينون إلى النبي بثلاث جاريات وسيفٍ وبغلة كما سبق ذكره فيما مضى.

والذي لا نشك فيه أن المقوقس كان يُكِنُّ الاحترام والتقدير للنبي ﷺ؛ ويقال – والعهدة على الراوي – إن أبا الدرداء وحاطب بن أبي بلتعة قد جاءا إلى الرسول ومعهما وفدٌ من المقوقس وأخذا يصفان مصر وأحوالها وجودة هوائها ووفرة خيراتها من المأكل والمشرب والحبوب والغلال، وقد بالغا في ذلك حتى إن الرسول ﷺ أحب مصر؛ فحدث عدة أحاديث شريفة عنها ثم أخذ يشجع أتباعه وأصحابه وأمته ويُرَغِّبُهُمْ في فتحها، ويتلو عليهم الآيات التي نزلت في حق مصر.

الفصل الثامن

ذكر وبيان الآيات القرآنية الشريفة التى نزلت فى حق مصر تصريحًا وكناية وتوضيحًا

ذِكْرُ المواضع التى وقع فيها ذكر مصر باعتبارها مدينة تصريحا وكناية ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة٢/٦١]، وعلى طريق الحكاية ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس١٠/٨٧]، وعن حكاية يوسف (عليه السلام) ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف١٢/٩٩]، والآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف١٢/٢١]، وحكاية فرعون ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف٤٣/٥١]، وقصة يوسف ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف١٢/٣٠]، والآية ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص٢٨/١٥]، والآية ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص٢٨/١٨]، والآية ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص ٢٨/٢٠]، وعن حكاية عيسى ومريم الآية ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون٢٣/٥٠]، والآية ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف ١٢/٥٥]، والآية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف ١٢/٥٦] والآية ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف ١٢/٨٠]، والآية ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص ٢٨/٤]، والآية ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص ٢٨/١٩]،

والآية ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف ١٢٨/٧]، والآية ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف ١١٠/٧]، والآية ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء ٥٧/٢٦] والآية ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [يونس ٩٣/١٠]، والآية ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة٢/٢٦٥] أعنى أن المفسرين قالوا إن المراد بربوة مصر، وقال البعض إنها الشام. وعلى كل فإن القائلين بأنها مصر كثيرون، والآية ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة ٢١/٥]، والآية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ [السجدة٢٧/٣٢]، والآية ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت ١٠/٤١]، والآية ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر٨٩/٧-٨] وقال بعض المؤرخين إن جنة إرم هى الإسكندرية.

ولكن المقريزى – المؤرخ العالم صاحب الخطط – يقول إنها كانت جنوبى مصر فى محل يقال له "سبيل علام" وقد أخفاها الله عن عيون الناس. ولقد رأى العبد الفقير بعينى رأسه بعض أحجار قيمة استخرجت من المحل الذى يطلق عليه "سبيل علام"، بيعت الواحدة منها بألف قرش، وعلى قول بعض المؤرخين إن "جنة إرم" هذه تقع بجوار الشام. ويقال إنه فى عهد الأمويين قد فقد أعرابى جمله فخرج للبحث عنه فى البادية، وقد وقع على محل غريب ومكان عجيب كأنه جنة من الجنات الخالدة؛ فملأ جعبته من أحجارها الكريمة وأشجارها القيمة ونباتاتها العجيبة وذهب بها إلى الخليفة بالشام ووضعها أمام جلالته، فعلم الحاضرون من الوصف أنها جنة إرم وأنها واقعة بالقرب من الشام. ولكن الذين يقولون بأنها فى مصر كثيرون؛ وذلك لأن منشئ جنة إرم وما بها هو "شداد بن عدن" وطنه الأصلى مدينة "أسوان" الواقعة بمصر، فهذا أقرب إلى العقل والصواب، ولذلك نزلت فى حق مصر الآية الشريفة ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف١٢/١٠٠].

والواقع أن بمصر كثيرًا من الفساق والجبارين ولا سيما بين الطوائف العسكرية كما قالت الآية ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف ٧/١٤٥] ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم ١٤/١٥] إذ إن جميع أهليا من قوم الفراعنة، فيم جبارون عتاة بحكم هوائيا ومائيا من أيام قابيل وهابيل، فينقسمون إلى معسكرين، أحدهما "بنو حرام" والآخر "بنو جذام" يتقاتلان كل يوم صباحًا ومساء. فالويل لمن يهزم لأن الغالب يشق بطون نساء المغلوب ويقتل الأجنة. فكما أن أهليا جبارون عتاة فإن خيوليا التي تشرب من ماء نيليا أيضًا شرسة جدًا؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى في حق تلك الخيول ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف ٧/١٣٧]. ولما كان نظر جناب الباري تعالى مراده المدينة القديمة فإن الجبـــارين والفســـاق والمغتصبين والنمامين والنمامين والمستهترين لا يعمرون فيها كثيرًا؛ فسرعان ما يلحقيم البلاء والعقوبة. كما أن الحكمة الإلهية قد اقتضت ألا يطول فييا عمر الجراد، حيث لا يلحق أي ضرر منه بفضل الله وكرمه بحاصلات مصر، حتى إنه في تاريخ (...) م حينما كان عبد الرحمن باشا والي مصر [١٠٩٢ هـ = ١٦٨١م] قد نزل جراد كثير بأرض مصر كثرة حجبت عنيا الشمس، وانعقدت في سمائيا سحب سود ثم نزلت على الأرض جملة واحدة؛ فاستبشر الناس بيا وأخذوا يجمعونيا ويأكلونيا بشيية حتى أتوا على أخرها في يوم واحد؛ وما تبقى من ذلك طار وسقط في النيل وغرق. وفي رواية أخرى أن الجراد المذكور هلك إثر ريح صرصر عاتية.

ويقال إنه في عيد السعادة النبوية أغار الجراد على مدينة "مكة المكرمة" ولاسيما على وادي فاطمة؛ ففزع أهليا إلى رسول الله ﷺ قائلين: "يا رسول الله إن الجراد قد استولى على مدينتنا فماذا يكون معه؟" فما كان من الرسول إلا أن رفع يديه إلى السماء وقال: "أرسل يا إليي هذه الحشرات إلى مصر"، ولكن الصحابة الكرام جميعًا تضرعوا إلى الرسول قائلين: "إن معيشة أهل المدينة ومكة جميعيم

تأتي من خيرات مصر ومنسوجاتها، فإذا ذهب هذا الجراد إليها فلا شك فى أن القحط والغلاء يستوليان عليها"، ورد الرسول عليهم قائلا: "لا تخافوا ولا تحزنوا إن مصر فى أمان الله وحفظه، وهى كنانة الله فى أرضه، وإن الموكلين بحفظها وحراستها هم النجباء البالغ عددهم سبعون رجلاً من رجال الله، فلا يعمر بها ظالم ولا فاسق ولا مستهتر أو مستهزئ". حقًا إن الجراد الذى وصل إلى مصر حينذاك قد هلك جميعه، وعلى هذا المنوال فإن من ينظر إلى مصر نظرة سوء أو تحقير يذله الله ويحقره، ومن يعدل بها وينظر إليها نظرة اعتبار وتقدير يمتعه بالسعادة والسلامة.

هذا، وهناك مئات من الأيات الشريفة فى حق مصر، ونكتفى منها بما ذكرناه معتمدين على ذاكرتنا وبإلهام من الله. وأما الرسول المجتبى محمد المصطفى ﷺ فقد قال ما معناه: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا"، وذلك لأن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مولود من "هاجر" وهى بنت من بنات أقباط مصر، كما إن الرسول ﷺ من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فعلى هذا تكون أم سيدنا النبى من مصر. وهذا الحديث وارد فى حق أمنا هاجر ومصر. وقال عليه الصلاة والسلام: "ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم دفترًا". وقال عليه الصلاة السلام: "استوصوا بالأدم الجعد – يعنى قوم الجعد – سمر اللون وهم القبط" وقال عليه الصلاة والسلام: "إن إبليس دخل العراق فقضى حاجته ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ ميسان، ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط مكايده". وقال عليه الصلاة والسلام" الجزة (لعلها الجزيرة) روضة من رياض الجنة ومصر خزائن الله فى أرضه"، وكما قال عليه الصلاة والسلام: "وإن أهل مصر معافون من الفتن ما يريدهم أحد بسوء إلا صرعه الله، وما يريد أحد هلاكهم إلا أهلكه الله، وما يقصدهم أحد بسوء إلا كب الله وجهه. ونهرها نهر العسل وماؤه من الجنة وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا". فهناك أحاديث كثيرة فى حق مصر، غير أن كاتب هذه السطور قد

اكتفى بهذا القدر. وقد مدحها كثير من العلماء والمشايخ والأدباء والشعراء وضمنوا مؤلفاتهم أوصافها ومحاسنها وخواصها، حتى إن الشيخ الكندى[١٧٧] قال فى حقها: "لا يعلم فى أقطار الأرض قاطبة قطر كمصر؛ أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالكرم والخير". كما أن كلا من الأئمة: الشافعى والليث[١٧٨] وعمر بن الفارض قد بالغوا فى مدح مصر والإشادة بفضلها حتى جعلوها كأنها إرم ذات العماد. هذا، وكان النبى ﷺ يمدح مصر وبنوه بفضلها حينما كان يرغب الصحابة الكرام فى فتحها، وما كان يقدم على غزوها لاشتغاله بمهام أخرى عاجلة مثل الغزوات النبوية وإرسال البعوث والسرايا إلى الأطراف قائلاً إن الأمور مرهونة بأوقاتها. ودام الحال على ذلك حتى التحق النبى – صلى الله عليه وسلم – بالرفيق الأعلى، وذلك لحكمة من الله سبحانه وتعالى. وقد انتقلت خلافته عليه الصلاة والسلام إلى أمير المؤمنين سيدنا أبى بكر الذى زادت فى عهده الحوادث تفاقمًا وظهرت مشاغل كثيرة صرفته عن الاهتمام بأمر مصر حتى لبى نداء ربه فتوفى إلى رحمة الله، وانتقلت الخلافة إلى سيدنا الفاروق الذى تم على يديه فتح مصر[١٧٩].

---

(١٧٧) الكندى: يوجد الكندى القاضى، والكندى الصحابى، والكندى الفيلسوف، والكندى المؤرخ .

(١٧٨) الإمام الليث: هو الليث بن سعد، إمام أهل مصر فى عصره حديثًا وفقهًا، أصله من خراسان ومولده فى قلقشنده بمصر ووفاته بالقاهرة سنة ١٧٥هـ (الأعلام ٥/٢٤٨).

(١٧٩) كل هذه الأحاديث فى حاجة إلى تحقيق وتمحيص من أهل الاختصاص .

الفصل التاسع

ذكر فتح مصر فى عهد خلافة

عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص رضى الله عنهما(١٨٠)

يجمع المؤرخون على القول بأن فتح مصر على أيدى المسلمين لأول مرة كان فى خلافة سيدنا عمر [رضى الله عنه]، بعد ثمانية عشر عامًا من انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. كان "خرقيل" قد استولى على القدس الشريف وأعمل فيها الفساد، الأمر الذى دفع بسيدنا عمر إلى تجريد حملة عسكرية قوامها أربعون ألف جندى إلى القدس واستعادتها منه. ثم أرسل من هنالك عمرو بن العاص المقداد بن الأسود بأربعين ألف جندى إلى مصر لفتحها وعاد هو إلى مكة. هذا، وقد اختار عمرو بن العاص فى بادئ الأمر جيشًا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة فارس من أبطال العربان وأربعة آلاف من المشاة المنتخبين من العرب الشجعان، وسار بهم ليل نهار يقطع المراحل ويطوى المنازل قاصدًا أرض مصر، إلى أن وصل مكانًا بين الرملة والعريش قرب مصر، فاستراح به برهة جاءه خلالها رسول من قبل سيدنا عمر يحمل خطابًا منه يتلخص فيما يأتى:

"يا عمرو، إن كنت حين يأتيك كتابى قد وطئت قدمك أرض مصر فادخلها وازحف عليها وليسهل الله أمورك. وإلا – إن كنت لم تدخلها بعد – فعد من حيث أتيت بعسكر المسلمين؛ لأن حربًا وقعت فى العراق تقتضى عودتك". ولما قرئ هذا الخطاب بادر عمرو إلى جمع أهل الرأى وأعيان تلك الجهة لديه وسألهم الرأى بقوله هل العريش هذه من أرض مصر أم هى من فلسطين ؟ فأجاب الجميع بأنها

---

(١٨٠) الأحداث التى وردت فى هذا الفصل أيضًا فى حاجة إلى تمحيص ودراسة من أهل الاختصاص، مع الوضع فى الاعتبار أن الكاتب رحالة وليس مؤرخًا.

من أرض مصر وأنهم الآن متوغلون فيها بمقدار مرحلتين[١٨١]. وعند ذلك كتب عمرو رده إلى سيدنا عمر، ثم أخذ يرحل بالجيش ومعه الهجانة نحو مصر، مُوفدًا من قبل سيدنا عمر ومتوكلاً على الله الملك القدير. وكان ذلك في الوقت الذى يتحصن فيه الملك المقوقس بمصر القديمة منتظرًا مصيره على ما ستجرى به الأقدار، وما تأتى به كتبه ورسله إلى عمرو بن العاص.

ومن جهة أخرى كان ملك الروم هرقل اللعين قد أعد جيشًا كثيفًا أرسله من أنطاكية وطرابلس وعكا فى ألف سفينة إلى فضاء بلبيس الفسيح، حيث وقعت المعركة الدامية التى استمرت شهرًا كاملاً، كان القتال فيها سجالا بين الطرفين؛ إذ استعملا جميع أنواع الأسلحة وأدوات القتال ومعدات الدمار وكأنهما بحران يتلاطمان تلاطمًا صاخبًا. ففريق منهما من جيوش الدين المبين والآخر جماعة أهل الشرك منكرى الدين، وقد باع كلا الفريقين أرواحهم رخيصة فى ساحة الوغى حيث تمزقت الحراب والسيوف والجواشن والخوذات، فتبارح الأرواح الأجساد مودعة وتتركها جثة هامدة، إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين؛ فخرجوا من المعركة ظافرين منتصرين على أعدائهم الكفار الذين جرُّوا ذيل الفشل والخزى والعار. وهنا حضر رسول من حاكم مصر من طرف المقوقس الذى يسمى بـ "أسقف القبط" يحمل كتابًا منه إلى عمرو، فرأى هزيمة الروم وانكسارهم ورأى ذلك بعينيه، ولما عاد إلى مصر أخبر المقوقس بما رأى فأخذ القبط يهاجمون الروم ويتحرشون بهم.

ثم غادر عسكر الإسلام مكان المعركة وحطوا رحالهم فى مكان يقال له "قزاصر" وضربوا به خيامهم. وقد رأى الشعب القبطى "القبابطة" ما عليه المسلمون من قوة وشوكة وعزة؛ فتعجبوا من بسالة الجندى العربى قائلين: أليس هؤلاء

---

(١٨١) المرحلة أو المنزل أو الاستراحة أو الموقف أو القوناق: كلها مصطلحات تدل على المسافة التى كانت تقطعها قوافل الحج أو التجارة، والمرحلة مسيرة يوم واحد بالجمل؛ أى مسافة سبعة وعشرين ميلاً تقريبًا.

الجنود هم جند محمد العربي الذي يحبه ملكنا المقوقس، أليسوا هم الذين أينما توجهوا حازوا النصر والظفر ولا محالة؟

ثم اتجه الجيش الإسلامي من بلبيس متوجهًا نحو مكان يدعى "أم دنين" على مقربة من "الخانكة" وأقام به. ثم خرج جيش للعدو من مصر القديمة والتقى بالجيش الإسلامي في صحراء "الخانكة" مرة أخرى. وبعد قتال دام سبع ساعات إلى أن غربت الشمس انعقد الصلح بين الطرفين، وقد استشهد في ذلك اليوم من الصحابة الكرام سبعون نفرًا (رحمة الله عليهم). وفي صباح اليوم التالي جاءت نجدة للإسلام من طرف عمر قوامها أربعة آلاف جندي من الأبطال المختارين فأعاد الحياة والنشاط إلى قلوب المسلمين؛ إذ بادروا في ذلك اليوم إلى ضرب نطاق الحصار على "قلعة بابليون" حيث وقعت أمامها معركة حامية أقدم في عقبها كل من الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود [رضي الله عنهما] على اقتحام المهالك، بالولوج من الثغرات التي فتحتها المنجنيقات في سور القلعة. وتم فتح القلعة على هذا المنوال بأسرع مما كان متوقعا. وقد وقعت غنائم كثيرة وأموال وفيرة في أيدي الغزاة والمجاهدين المسلمين.

ومن نعم الله تعالى الخفية وأفضاله أن وردت يوم الفتح نجدة مكوّنة من أربعة آلاف من الأبطال راكبين ألفي هجين يتقدمون مثنى مثنى. وبذلك صار عدد جند المسلمين ثمانين ألفا. كما أن رسائل التشجيع والحث جاءت من سيدنا عمر فأشاعت السرور والغبطة والبهجة بين المسلمين.

وقد استقر رأي عمرو بن العاص، بعد المشورة والتداول مع أهل الرأي، على مهاجمة الجوانب الأربعة لمصر وتدمير أطرافها وضرب نطاق الحصار عليها، ثم التوجه نحو قلعة الإسكندرية فحاصروها حصارًا شديدًا؛ غير أن طريق البحر كان مفتوحًا أمام المحاصرين، فكانت النجدات تأتي لهم عن هذا الطريق دوما. ومع ذلك شدّد الجند الإسلامي الحصار عليهم حتى اضطر القبط بعد تسعة شهور أن يخرجوا من القلعة طالبين الأمان، فأجيبوا وذهبوا سالمين إلى مدينة

"حوش عيسى" القريبة من دمنهور. في حين إن الجنود التابعين للملك "هرقل" اللعين امتثالاً لرأى ملكهم هذا وتدبيره قد أصروا على مواصلة الحرب رافضين الصلح والتسليم.

وأخيرًا حينما هلك هرقل ودب الخلاف بين المحاصرين من كفار الروم بالإسكندرية،علم المسلمون بحقيقة الأمر فانتهزوا الفرصة وهاجموا القلعة من الجهات المتهدمة من أسوارها، ففتحت قلعة الإسكندرية الحصينة الجميلة التي كأنها قطعة من الفردوس في يوم الجمعة من شهر المحرم من السنة العشرين الهجرية. وقد لاذ بالفرار والهرب من بقى حيًا من الكفار ولجأوا إلى المراكب والسفن التي توجهت بهم إلى عكا وصيدا. ومنهم من جرب حظه بضرب الرمل فذهب إلى الرملة. وقد دخلت الجيوش الإسلامية المدينة وحوّلوا أديرتها وكنائسها جوامع وتكايا حيث تُقام فيها الشعائر الإسلامية المحمدية. وقد أرسل عمرو بن العاص بشائر الفتح المبين لسيدنا عمر مع عشرة آلاف صندوق من الذهب ومئات الألوف من الأسلحة والعتاد والهدايا، ولما وصلت هذه الأنباء السارة والهدايا العظيمة إلى سيدنا عمر أرسل بأوامر ومراسيم يقول فيها: "عليك بالاستيلاء على مصر ولا تحاول الزحف إلى القلاع الساحلية فإن المحافظة عليها لمن أصعب الأمور لتعرضها لاستيلاء الكفار كلما أرادوا ذلك، بخلاف الجهات المتوغلة في البر فإنهم ينهزمون بها بأمر الله فورًا". وكان مع رسول الخليفة خلع فاخرة لعمرو بن العاص وقواد جيشه وضباطه.

هذا، وقد غنم الجيش الإسلامي في الإسكندرية أموالاً كثيرة من الأسلاب والغنائم؛ حتى ليقال إن أدنى واحد منهم قد خصه مائة ألف دينار ذهبًا من دنانير "دقيانوس"، ومثلها من الأمتعة والسلع.

هنا تذكر عمرو بن العاص القائد العظيم ما كان قد سبق له عند قدومه في العصر الجاهلي من القدس إلى الإسكندرية ونزوله ضيفًا على الخواجة "شماس" في بيته، وكيف أنه ذهب إلى ميدان الصولجان (حلبة السباق) ثم سقطت كرة

الصولجان على رأسه. فبحث عن صديقه الخواجة شـمـاس حتـى وجـده طـريح الفراش، فبادر إلى معالجته بضعة أيام حيث شفى مما ألم به فأهداه من الأموال ما يقدر بأحمال سبعين جملاً. ثم دعاه إلى الدخول فى الإسلام، وما وسع الخواجة شماس إلا أن لبى طلبه وتشرف بالدخول فى دين الإسلام.

هذا، وقد أرسل الملك المقوقس إلى الغزاة المسلمين بالإسكندرية من المـؤن والأغذية المجموعة من قرى النواحي والضواحي شيئًا كثيرًا. ومع ذلك فهو نفـسه كان متحصنًا مع الجند الرومى فى مصر القديمة وكان مضطرًا إلى هذا؛ لأنه فـي ديارهم، وسنذكر إن شاء الله تفاصيل وصف الإسكندرية فيما يأتي من السطور.

هذا، ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات العظيمة إلى مسامع الخليفة عمر سُـر بها أيما سرور واغتبط بها أيما اغتباط، وقد سعد بها أيضًا جميع الصحابة الكـرام، وأقاموا مع أهل مكة والمدينة الاحتفالات وعلائم الانشراح والـسرور، وصـدرت الأوامر العالية من عمر إلى عمرو بن العاص رضى الله عنهما بإسـناد حكومـة مصر إليه والاستقلال والتفويض التام، فتفرغ لتـصريف شـئون الدولـة بالعـدل والمساواة مع الاهتمام بعمران البلاد وتقدمها، وقد شرع فى إنـشاء جـامع كبيـر وحمام فى المكان الذى كان قد أقام فيه خيمته حين محاصرته لمصر، وقـد سـموا الحمام باسم "حمام الفارة"؛ لأنه ظهرت فى أساس الحمام مغارة مليئة بالفئران التى انتشرت منها إلى جميع أنحاء الدنيا، وكأنما كانت هذه المغارة كنزًا مطلسمًا مملوءًا بالفئران.

وفى هذه السنة أيضًا كان بناء عمرو بن العاص قلعة بجهة مدينة الجيـزة، كما أنه بنى فى جزيرة أم المقياس قلعة أخرى سماها قلعـة الروضـة، ولا تـزال تُسمى كذلك فهى روضة من رياض الجنة؛ إذ فيها آثار الأبنيـة القديمـة ظـاهرة وقائمة.

هذا، ومن القبائل العربية التي أعانت عمرو بن العاص بنواحي مصر قبيلة بني مالك بن هابر [حابر،خابر] ثم قبيلة بني يشكر القاطنتان بجبل الكبش، وهم الذين بُنيت مدينة الفسطاط في مكان خيمتهم المسماة فسطاط. وهذا المكان كان يسمى جبل الكبش، إذ كان هناك في عهد الكهنة القدماء كبش مصنّع مطلسم كلما رفس وحفر الأرض برجليه كثر الغنم بمصر. ومنها قبيلة "بني حجر" وقبيلة "بني سيف" وقبيلة "نافع" وقبيلة "همدان". فجاءت هذه القبائل كلها وقدمت الطاعة لعمرو بن العاص العربي وتوطنوا في البلاد الممتدة من الجيزة إلى الغرب حتى "أوجله". وكذا أطاعت قبائل "بني همام" وقبيلة "بني جواره" وقبيلة "بني عابد" وأقامت في الصعيد الأعلى.

ثم إن الملك المقوقس قد قدّم إلى عمرو بن العاص خزينة من الذهب المدموغ، ورجاه أن يسمح له بأن يتخذ قمة جبل المقطم الذي يقع في اتجاه القبلة والمطل على القلعة مقامًا له يقيم به. ولكن عمرو بن العاص لم يقبل الذهب المعروض ولم يلمسه، بل كتب في شأنه إلى عمر في المدينة يستشيره في ذلك. فجاء جواب عمر يقول: "يا عمرو إن ذلك المكان المطلوب لهو أرض مباركة، فاجعلها قرافة (مقبرة) لموتى المؤمنين لأن فيها قبر سيدنا عامر بن المغافرين فهو مدفون في التربة الأولى، وبها أيضًا قبور خمسة من المشفعين. وكذا قبور عبدالله السحيمي بن حذافة. وعبدالله والحارث من مدينة (زبيد عيش) موجودة بها، كما أن بها قبري أبي ناصر الغفاري وعامر بن عقبة الجهيني، هذا إلى مئات الألوف من الأنبياء والمرسلين قبل الطوفان وبعده من أولاد الأنبياء والرسل عليهم السلام. فيجب ألا تكون تلك الأرض إلا مقبرة وقرافة للمسلمين". وهكذا امتنع عمرو بن العاص عن تسلم الأرض للمقوقس وصارت حتى الآن قرافة كبرى للمسلمين دفن بها كبار العلماء، وعلية القوم من المصريين وسيأتي ذكرهم في محله فيما بعد.

هذا، وعلى قول ابن الحكم - رحمه الله - فإن الأراضي الممتدة من القدس الشريف ومن جبل خليل الرحمن بجوارها إلى جبل عرفات المشرف على مصر

ومنيا إلى الرها الواقعة بساحل نهر الفرات مارة بحلب وأريحا واللاذقية وعلى طول شاطئ البحر حتى بلاد مصر كلها أراضٍ مقدسة. كما يروى كعب الأحبار مثل هذا القول. ولكن بعض المفسرين والمحدثين وغيرهم من المؤرخين متفقون على أن أرض حاسان هى مدينة بلبيس، وأن الأراضى التى بعدها حتى مصر ليست بأرض مقدسة، فأى هذه الأقوال صحيحة؟...

غير أن التواريخ القبطية تذكر أن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشور. وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء إدريس ودانيال وعزير [عليهم السلام]. إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضًا شديدًا ونام سبعة أيام فى ظل جبل المقطم شفى بإذن الله. وفى طلوع الشمس من وراء هذا الجبل يمتد ظل الجبل حتى مصر العتيقة الواقعة على شاطئ النيل. ولعل قول وهب بن سفيان إن الأراضى التى يقع عليها ظل جبل المقطم تسمى كلها أرضًا مقدسة قول صحيح؛ لأن مئات الألوف من الأنبياء وأولاد الرسل قبل الطوفان مدفونون بها، فضلاً عن أن ثلاثمائة وأربعين من الصحابة الكرام مدفونون بها وفى جامع مصر وداخلها، فلهذا كانت أرضًا مقدسة، لا شك فى ذلك. وفي قول آخر إن مصر عمرت فى عهد حكومة عمرو بن العاص وازدهرت حتى صارت عروسًا كأنها زفت من أمها حديثًا.

وكان الملك طوطيس قد أسال نهر النيل إلى بحر السويس فى عهد سيدنا إبراهيم [عليه السلام]، وبعد ذلك حينما سمع والد الملك المقوقس بطلوع شمس صاحب الرسالة المحمدية بادر إلى سد ذلك الخليج نكاية بالرسول؛ ولبث النيل لا يصل إلى السويس كما كان عهده، إلى أن جاء عمرو بن العاص ففتح الخليج وأخذت مراكب النيل تسير حتى السويس حاملة الحبوب والغلال حيث تنقلها المراكب الكبيرة إلى جدة وينبع، فيأخذها أهالى مكة والمدينة ويتمتعون بها مسرورين. لأن الله – سبحانه وتعالى – قد فتح أربعة أبواب من أبواب الجنة على

وجه الأرض: أحدها على بندر جدة، والثانى على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غاونية Gaviniye، والرابع ولاية الإسكندرية التى هى بلاد مصر، والسلام.

ولما انتقل الخليفة عمر إلى رحمة الله فى المدينة تولى الخلافة بعده عثمان [رضى الله عنه]، وقد انتقل إلى رحمة الله عمرو بن العاص فى مصر فى عهد هذا الخليفة الذى بادر إلى إسناد حكومة مصر إلى محمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق، وكان كاتبه مروان بن الحكم يرى غير ذلك؛ فبادر إلى حيلة ماكرة حيث كتب على لسان الخليفة عثمان مرسومًا إلى أهل مصر يقول فيه: "إذا جاء الأمير فاقبلوه"، ولم ينقط كلمة "فاقبلوه" وختمه من سيدنا عثمان ثم قلب الباء تاء فصارت "فاقتلوه"، وأعطى مروان هذا المرسوم لنجاب خاص وأمره بإحضاره إلى مصر. ولكن الحكم الإلهية أوقعت هذا النجاب والمرسوم فى أيدى رجال محمد الأكبر؛ فبادر هذا إلى رد هذا الكتاب المزور إلى المدينة فيعرضه أهل المدينة على الخليفة عثمان ويسألونه عن سر ذلك، فقال عثمان: "ليس لى علم بذلك"، وعندئذٍ ثار أهل المدينة وطالبوا بتسليم الكاتب مروان إليهم للفتك به، ولكن الخليفة أبى أن يسلم كاتبه وتحصن بسرايه وبقى فيها أربعين يومًا؛ حيث اقتحم الغاضبون القصر فى اليوم الواحد والأربعين وأذاقوا الخليفة عثمان كأس الشهادة وهو يتلو القرآن متعبدًا. كما سبق ذكر ذلك فى وصف المدينة المنورة فيما تقدم من السطور.

بعد هذه الحوادث انتقلت الخلافة إلى سيدنا على رضى الله تعالى عنه، إلاَّ أن الأمور اضطربت واختل نظام الدولة اختلالاً كبيرًا؛ فشبت الفتن والقلاقل وعمت مصر بحيث إن الجند كان يعزل حاكمًا وينصب آخر فى اليوم نفسه.

وسوف نذكر أسماء من تملكوا الحكم من الأمة المحمدية بمصر من ذلك العهد حتى عصر السلطان محمد الرابع، ومَنْ حاولوا الخروج على السلطان والاستقلال بها، وشرح أحوالهم وأوصافهم وألقابهم ومدد حكمهم وعدد من ملكوا منهم.

الفصل العاشر

ذكر السلاطين وغيرهم من دول الملوك مع ذكر دولة آل عثمان حتى عهد السلطان محمد خان الرابع بن إبراهيم خان

يقول أوليا البرىء من الرياء: إن الباعث على تأليف هذا الكتاب المستطاب وتدوين هذه الأوراق هو بيان أول من سكن الأرض واستوطنها كما سبق ذكره، فبحسب أقوال مؤرخي الروم[١٨٢] وغيرهم من أصحاب العقل والفهم أن أبا البشر آدم صفي الله أول من ظهر على سطح الأرض، وانتشر أولاده فيها من بعده حتى استولوا على جميع الأنحاء من كل الجهات، غير أن هناك خلافًا كثيرًا في عدد الأمم الغابرة والملوك السابقين. ومما لا شك فيه أن الله - الحي القيوم سبحانه وتعالى - اقتضت حكمته الباهرة أن يخلق مصر وبلاد الفيوم أولاً وقبل كل شيء؛ لتكون مقام الأمة المحمدية المصطفاه ومقصد الأنبياء والرسل ومقر السلاطين والملوك الكثيرة.

هذا، وما إن خلت سنة ٢١هـ = ٦٤١م إلاً وقد دخلت مصر أيضًا لأول مرة تحت حكم عمر [رضي الله عنه] من خلفاء سيدنا الرسولﷺ، وكان ذلك على يدى عمرو بن العاص رضي الله عنه. ومصر جزيرة محسوبة من بلاد المغرب تُشبه جزيرة الإنجليز من حيث الحجم والمسافة؛ حيث تبلغ ثمانية آلاف ميل، وكان فيها ثمانية عشر ملكًا ضَرَبَ كل منهم سكة مستقلة. وعلى الرغم من ذلك فقد قدموا الطاعة والولاء لعمرو بن العاص، على حين نرى كثيرًا من المغيرين والقواد العسكريين قد هاجموا مصر في حقب مختلفة بجيوش جرارة وجموع عظيمة،

---

(١٨٢) الروم: المقصود بالروم هنا الترك الذين أقاموا دولتهم في آسيا الصغرى أي الأناضول؛ حيث كانت بلاد الإمبراطورية البيزنطية الشرقية. ويفتخر كثير من شعراء الترك بأنهم شعراء الروم.

إلاّ أنهم لم ينالوا منها شيئًا ورجعوا على أعقابهم خائبين خاسرين، بل كانوا يدفعون لها الجزية وهم صاغرون. وما ذلك إلاّ لأن عمرو بن العاص كان يتمتع بالشجاعة وعلى جانب عظيم من البسالة والإقدام، فضلاً عما اشتهر به من فرط الذكاء والدهاء في السياسة والملك، ويلقب أصحاب الرسول الذين تولوا الخلافة من بعده "الأربعة الأصحاب المصطفين" وتارة "أمراء المؤمنين" وتارة أخرى "الخلفاء الراشدين" وقد انتهت الخلافة إلى الإمام الحسين. وأما الإمام الحسن فقد تنازل عنها طواعية ورضى ليزيد بن معاوية[١٨٣] الذى خرج أخيرًا من الشام بألوف من جنوده اليزيدية إلى الكوفة وحارب بهم الإمام الحسن لامتناعه عن المبايعة، الأمر الذى أدى إلى نشوب القتال فى ظروف عصيبة واستشهد الإمام الحسين سنة ٦١هـ =٦٨٠م، وهكذا انفرد يزيد بملك الشام واستقل بالبلاد.

هذا، وقد كان معاوية والد يزيد هو كاتب الوحى النبوى.

آل أمية [١٨٤]

يُذكر أنهم أربعة عشر نفرًا. أولهم معاوية، وأمه هى هند بنت عتبة ابن عبد شمس وقبل أن يتزوجها أبو سفيان والد معاوية كانت زوج عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي. وقد أنجبت ولدها معاوية لأبى سفيان. وكان عمر معاوية حينما تولى الخلافة ثمانية وخمسين عامًا، وقد حكم تسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر. وعاش ثمانية وسبعين عامًا. تولى بعده الخلافة يزيد بن معاوية فحكم ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر. وعاش ستة وثلاثين عامًا ثم توفى فى الشام. ويقال إن أبا مسلم – وفى رواية تيمور لنك – قد فتح قبره ونبش تربته حيث وجد جثته غضة سليمة فأحرقها بالنار. وآلت الخلافة من بعده إلى معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم،

---

(١٨٣) يزيد بن معاوية: هنا لبس بين يزيد بن معاوية ومعاوية بن أبى سفيان ذاته، حيث كان التنازل للأخير.

(١٨٤) دام حكم آل أمية من سنة٤١ إلى ١٣٢ هـ = ٦٦١ – ٧٥٠م .

ثم عبدالملك بن مروان، ثم الوليد بن عبدالملك، ثم عبد الملك بـن الوليـد وبعـده سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن هشام، ثم الوليد. وبعده إبـراهيم، ثـم مروان الحمار؛ وهو الخليفة الأموى الذى اقتتل هو وجيوش العباسيين على شاطئ الفرات وانهزم ولاذ بالفرار إلى مصر لاجئًا إلى قرية تدعى "بوصير" فى الجانـب الغربى من النيل تجاه مصر القديمة؛ حيث أدركه كل من عـامر بـن جزْجـانى وعبدالله بن مازن وقطعا رأسه ورفعاها على الرماح وأرسلاها إلى أبـى مـسلم. وبذلك قُضى على الأمويين وكانت مدة حكمهم ٩١ سـنة فـى العـراق العربـى والعراق العجمى وبلاد المغرب وفى سبعمائة جزيرة. وهؤلاء الأمويون هم الـذين عينوا أبا أيوب الأنصارى [رضى الله عنه] قائدًا للحملة المرسلة لفتح القسطنطينية، حيث تمكن من الاستيلاء على نصف مدينة إسلامبول.

هذا، وتفصيل أحوال الأمويين وآثارهم مذكورة فى وصف بلاد الشام [فـى المجلد التاسع ص ٥٢٩ – ٥٦٥] فليرجع إليه. وقد انتقلت الخلافة بعدهم إلـى آل عباس وقد تولوا الخلافة (سنة ١٣٢هـ = ٧٥٠م).

وصف دولة العباسيين(١٨٥)

. عدد حكامهم جميعًا سبعة عشر حاكمًا. أولهم المستنصر بـالله الـذى ملـك مصر، ومنهم عشرون قد ملكوا بغداد. فيكون مجموعيم بمن ملكـوا مـصر ٣٧ حاكمًا.

ولقد انقرض عباسيو بغداد فى أيام المستعصم، فكان أولهم بها عبد الله بـن العباس بن عبد المطلب. وقد بلغ حكمهم جميعًا خمسمائةً وأربعةً وأربعـين عامًـا.

---

(١٨٥) فى هذا القسم أيضًا خلط الرحّالة بين بعض الأحداث، وأطلق فى النص الأصـلى علـى الحكام العباسيين لفظ "ملوك" ١، ٢، ٣، وفيها أخطاء تاريخية ومعلومات غير صحيحة، على أهل التاريخ تصحيحها .

وسيأتي ذكر انقراض العباسيين الذين كانوا بمصر في شخص المتوكل على الله بن محمد بن المستمسك بالله يعقوب. وتفصيل ذلك وسببه هو أن الناصر الطوسي[١٨٧]

---

[١٨٧]) الناصر الطوسي: محمد نصر الدين الطوسي بن حسن؛ ولد في همدان وفي بعض المصادر في مدينة طوس في السابع عشر من شهر (فبراير) / شباط ١٢٠١م = ٥٩٨ هـ، وتوفي في بغداد في السادس والعشرين من شهر حزيران / (يونيه) ١٢٧٣م / ٦٧٣ هـ، عالم آذاري موسوعي ورجل دولة، تلقب بالطوسي نسبة إلى مدينة طوس التي تلقى فيها علومه. كان مُعلّمه الأول هو جدّه، وبعد ذلك تلقى العلم على أيدي معلمين أكفاء في مدارس بَهْمَنيار Bəhmənyar وابن سينا. ولقد نجح في تحويل المرصد الفلكي الذي بناه في مراغة Marağa بأذربيجان – وخلال مدة قصيرة – إلى مرصد كبير مُجهّز بكل آلات الرصد، وأقام إلى جواره مكتبة ثرية بالمصادر والمراجع والكتب، مما جعله مركزًا علميًا وفلكيًا كبيرًا. واجتذب إليه كبار علماء الفلك والرياضة من كل أنحاء العالم وأجزل العطاء للعلماء؛ فألفوا آثارًا ذات قيمة علمية عالية، في مختلف ساحات العلوم، تحت إرشاده وتوجيهاته. ووضع في أثره المسمى "زيج الخان" مقاييس رياضية، ظلت دقيقة بالقياس إلى مشاهدات الفلكيين الآخرين حتى القرن السابع عشر الميلادي أي الحادي عشر الهجري. ووضع في هذا الأثر القيّم جداول فلكية ورياضية وجغرافية زادت من قيمته. ووضع جداول بالحدود الجغرافية للمدن التي كانت معروفة ومشهورة حتى القرن الثالث عشر الميلادي = السابع الهجري. وقد أفاد المعلم كلومبو الطوسقانلي من هذه الجداول. وقد تمت طباعة هذا الجدول في لندن "أوكسفورد" عام ١٠٦٣هـ ١٦٥٢م ، كما طبع في نفس العام باللغتين العربية واللاتينية.

إن كتاب "تحرير – اوكليدس" للطوسي أعطى دفعة في اكتشاف علم الهندسة، وقد تم نشره في روما بالعربية عام (١٠٠٣هـ = ١٥٩٤م) ونشر باللغة اللاتينية في القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري. وقد أفاد منه علماء الرياضة الإنجليز والإيطاليون. وظهر تأثيره واضحًا في أعمالهم.

كان مفهوم الطوسي للأعداد يتفق مع مفاهيم عصره، وقد سبق بهذا التصور علماء الرياضة الأوربيين بأربعمائة سنة على أقل تقدير. وكتابه "شكل القطاع" طبع باللغة العربية والفرنسية في إستانبول عام ١٨٩١م = ١٣٠٩هـ. وله أيضًا (جليل الحساب) وهي طريقة للحساب باستخدام الخشب والرمل، وكتابه "تحرير المِجِسطي" و"التذكرة الناصرية" هي من أعمال الطوسي الأصلية والتي سبق بها غيره من علماء الرياضيات. وللطوسي أيضًا أعمال تتعلق بالفيزياء؛ طرح فيها أفكارًا جديدة حول طبيعة المادة وخصائصها واختلافها وتحولها.

ولقد وصل نصر الدين الطوسي إلى كوهستان Kuhistan في الثلاثينيات من القرن الثالث عشر الميلادي = السابع الهجري، وبناءً على تكليف من الناصر رئيس الإسماعيلية المحليين ألف له كتابًا عن التربية والأخلاق، أطلق عليه اسم " أخلاق ناصري ".

تم إلقاء القبض على الطوسي وهو في كوهستان. وأُلقي به في سجن قلعة ألموط Ələmut ولم يُطلق سراحه إلا عندما استولت جيوش المغول بقيادة هولاكوخان على هذه القلعة، وعيّن=

قد حرض "هولاكو" على الزحف على بغداد والاستيلاء عليها، فجاء المشار إليه وقتل الخليفة المستعصم بالله. وكان المستنصر عندئذ في صحاري بغداد وبوادي العراق هائمًا على وجهه من خوف التتر الزاحفين لا يستطيع العودة إلى بغداد. فما كان من ملك مصر الظاهر بيبرس(١٨٨) إلا أن أرسل إلى المستنصر يدعوه إلى

= بناءً على طلبه هو – مستشارًا للخان المولى حديثًا. واستطاع نصر الدين الطوسي من هذا الموقع أن ينقذ الآلاف من العلماء والنابيين من سيوف المغول. وبعد وفاة هولاكوخان عام ٦٦٤هـ =١٢٦٥م. أصبح الطوسي وزيرًا لابنه أباقه خان Abaka han.

ولقد تشكلت الرؤية الفلسفية لنصر الدين الطوسي تحت تأثير بَهْمَنيار، وفي صفحات "شروح الفلسفة والمنطق" لابن سينا قدَّم شروحًا لرؤية ابن سينا الفلسفية. وشرح شخصية الإنسان المثالي في "أخلاق ناصري" وله أيضًا "شرح الإشارات".

كما حاول الطوسي شرح ظواهر طبيعية؛ مثل كسوف الشمس والقمر وخسوفهما وخفوت الضوء وانقسام قوس قُزَح.

هناك من المؤرخين من يجعل نصر الدين الطوسي أول من وضع نظرية الدولة في تاريخ الفكر السياسي الأذربيجاني. كما أنه عالم متعدد الاتجاهات والمعارف والعلوم، فله –كما سبق القول– أعمال في الرياضيات، والفلك والهندسة والفلسفة وله في الطب أيضًا.

توفي الطوسي ودفن في بغداد. وعلى قبره كتابة تشيد بعلمه وبأنه صاحب دولة العلم التي لم تُنجب البلاد مثله بعد...

تم طبع أعمال الطوسي في روسيا وإيران وتركيا والهند والبلاد العربية ومصر، وتزدان مكتبات هذه الدول وغيرها بالعديد من كتبه ومنسوخات خطية من مؤلفاته...

لقد تمت دراسة تراث الطوسي، ولعب المؤتمر الذي عُقد في طهران عام ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م دورًا مهمًا في عملية تحقيق هذا التراث. وكذلك شهد عام ١٤٠٢هـ=١٩٨١م الاحتفال بمرور ٧٨٠ عامًا على ميلاد الطوسي في كل من باكو وناخچيوان وگنجه أي غنجه وشماخي.

وتخليدًا للطوسي فقد أُطلق اسمه على المرصد الموجود في شماخي وعلى جامعة معلمي الدولة في أذربيجان.

(١٨٨) الظاهر بيبرس: هو الملك الظاهر سيف الدين الصالحي البندقداري. ٦٢٠-٦٧٦هـ = ١٢٢٣-١٢٧٧م وهو السلطان الرابع للمماليك البحرية. اختلفت الروايات حول مولده، وهو قبجاقي في الأصل. اختطفه تجار الرقيق هو وأخاه في الرضاعة وأحضر إلى سيواس ومنها إلى حلب ثم أخيرًا إلى الشام. نال أخيرًا حريته على يد ملك مصر الأيوبي الملك الصالح نجم الدين. أحبه شعب مصر لسلوكه الطيب تجاه الشعب. كوّن إمبراطورية مصرية أصبح لها كلمة مسموعة في العالم الإسلامي. ما زالت آثاره على مستوى العالم العربي والإسلامي ماثلة للعيان... وخاصة في القاهرة وحلب والشام والحجاز... ويعدُّ من أهم الحكام الذين أعطوا أهمية قصوى للمنشآت المعمارية؛ من جوامع، ومدارس، ومستشفيات، وأسبلة=

مصر. وقد وفد المستنصر إلى مصر وجلس على عرش الخلافة سنة ٦٥٩هـ = ١٢٦٠م مستقلاً، حيث بايعه الظاهر بيبرس ومعه جميع أعيان مصر وقد صار صاحب سكة وخُطْبَة، ثم غادر مصر على رأس جيش جرار إلى الشام ومنها إلى بغداد تاركًا حكم مصر مرة أُخرى إلى الظاهر بيبرس. فوصل بغداد وأعاد حكم العباسيين إليها مرة أُخرى.

هذا، وقد كان في ذلك العصر أيضًا الحاكم بأمر الله من الخلفاء العباسيين، يقيم في قلعة الكبش بمصر خوفًا وفرارًا من هولاكوخان. فعاش باسم الخلافة بها إحدى وأربعين سنة، ولم يكن أحد من الخلفاء يشبه الحاكم في انغماسه في الشهوات وخوضه في السفاهات. وكان قد تعطل عن الحكم في عهد الملك المنصور محمد بن قلاوون الذي كان موجودًا في السنة العاشرة بعد السبعمائة من الهجرة النبوية، وقد كان الحاكم يتوارى حياءً من الناس. وفي آخر الأمر أمرت به أُخته فقُتل. وجلس ابنه المستكفي بالله بن سليمان الحاكم بأمر الله المولود بمصر على سرير الخلافة عوضًا عن والده في قلعة الكبش؛ بيد أن الحكم الحقيقي كان في يدي الظاهر بيبرس سنة ٧١٠هـ =١٣١٠م، فلذا كان بين المستكفي بالله هذا وبين الظاهر بيبرس خلاف عظيم من جراء وشاية المنافقين وسعاية المفسدين؛ فأفضى هذا إلى ارتحال المستكفي بخدمه وحشمه إلى قوص في الصعيد الأعلى حيث توفي إلى رحمة الله سنة ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م.

ثم ظهر أن الحاكم بأمر الله كان في حياته قد لقب ابنه محمدًا بالخليفة المستكفي بالله. وقد توفي إلى رحمة الله صغيرًا قبله، فلذا عين ابنه الصغير خليفة ولقبه المستكفي بالله، بيد أن الملك الصالح لم ينفذ الوصية وفضل ابن أخيه إبراهيم عليه وجعله خليفة وسماه الواثق بالله. ولما كان هذا ميالاً للعب واللهو، فقد نفي إلى قوص فخلفه محمد بن إبراهيم في الخلافة، وهذا أيضًا كان سفيهًا رذلاً فأبعد إلى

=كان رجل دولة من الطراز الأول؛ له بصماته في ميادين الحرب، وتشكيلات الجيش، وإدارة أمور الدولة. جمع السلطات في يده لكي يضمن الأمن من البلاد، ويحول دون فساد المماليك.

قوص وقد دفنوا جميعًا بها. وبعد ذلك صار أحمد بن المستكفى بالله سليمان خليفة بمصر، ودامت أيامه ثلاث عشرة سنة حيث مات بطاعون سنة ٧٥٣هـ = ١٣٥٢م بمصر فى عهد الملك الصالح بن الملك الناصر، وقد دفن بجوار السيدة نفيسة [رضى الله عنها]. وبعدها تولى المعتضد بالله حكم مصر ولما مات هذا دفن أيضًا بجوار السيدة نفيسة، ثم تولى الخلافة المتوكل بالله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر فى مصر.

وفى سنة ٧٨٥هـ = ١٣٨٣م تولى الخلافة برقوق من الجراكسة، فبادر إلى خلع المتوكل من الخلافة بحجة أنه طامع فى السلطنة، وقد حبسه فى قلعة الجبل ستة أشهر أخرجه بعدها من الحبس وعينه خليفة. وفى سنة ٧٩٧هـ = ١٣٩٤م بعث يلديرم خان(١٨٩) من سلاطين آل عثمان رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا يجدد بيعته من باب التبرك به، فدعا له الخليفة بالخير والتوفيق وردّ رسول السلطان ومعه منشور شريف وسجادة ثمينة نفيسة.

هذا، وقد دام حكم الخليفة المتوكل ما يتراوح بين عزل وتنصيب وحبس ثم تنصيب خمسًا وأربعين سنة، حتى توفى إلى رحمة الله بعد ذلك فى عهد فرج بن برقوق ودُفن بجوار السيدة نفيسة. ولقد كانت الأحوال العامة سيئة جدًا فى مصر والشام فى عهد المتوكل هذا؛ إذ هاجم تيمور لنك أخيرًا بلاد الشام سنة ٨١٦هـ = ١٤١٣م ودمرها تدميرًا، وكان ذلك فى وقت انقطع فيه فيضان النيل وعم القحط والغلاء البلاد وظهرت الفتن والفساد بها من جراء ذلك. ثم تولى الخلافة الواثق بالله عمر ابن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله، وقد توفى إلى رحمة

---

(١٨٩) يلديرم خان: بايزيد الأول: ١٣٨٩/١٤٠٢م ولد سنة ١٣٦٠م. تولى السلطنة وعمره ٢٩ عامًا أطلق عليه لقب "يلديرم الصاعقة"، لأنه كان ينقض فى حروبه انقضاض الصاعقة. له دور كبير فى توسيع رقعة الدولة العثمانية، وإرساء دعائم قيامها بوصفها دولة إسلامية. استمرت مدة حكمه ثلاثة عشر عامًا اتسمت بالعمل الجاد والشقاق، وإلى جانب شدته كان عادلاً. ومن أوائل الذين حاصروا أسوار مدينة إستانبول وإن وقع فى أسر تيمورلنك. ويقال إنه انتحر فى الأسر...

الله في مصر سنة ٧٨٨هـ = ١٣٨٦م وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة. ثم جاء بعده المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله محمد، فبقى في الخلافة ٣٣ سنة، حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٨٤٥هـ =١٤٤١م وقد سار في جنازته السلطان چقمق، وقد دُفن بجوار السيدة نفيسة. وخلفه أخوه المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على الله محمد على عرش الخلافة، ولبث تسعة أشهر فقط إذ توفى إلى رحمة الله وحضر جنازته أيضًا الملك الظاهر السلطان چقمق، وقد دفنوه عند أخيه المعتضد في قبة بجوار السيدة نفيسة، وحكم بعده القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل على الله محمد، والذى غضب عليه بعد خمس سنوات من خلافته "إينال"[١٩٠] سلطان مصر ونفاه إلى الإسكندرية فمات بها سنة ٨٦٣هـ =١٤٥٩ م، ودفن بجوار أخيه المستعين بالله، ثم تولى الخلافة المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد، مدة سنة حيث مات سنة ٨٨٤هـ =١٤٧٩م وحضر جنازته السلطان قايتباى. ودُفن أيضًا مع سائر آل عباس في المدفن الخاص بهم بجوار السيدة نفيسة. ثم صارت الخلافة إلى المتوكل على الله وجاء بعده عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله فتولى الخلافة سنة ومات سنة ٩٠٣هـ = ١٤٩٧م ودفن بجوار السيدة نفيسة في عصر الملك الناصر محمد السلطان قايتباى.

ثم تولى المتوكل على الله بن المستمسك بالله يعقوب، وقد كان في عهد فاتح مصر السلطان سليم الأول منزويًا ومنقطعًا عن الناس، وقد اصطحبه السلطان عند عودته إلى إسلامبول وأكرم وفادته وبالغ في إكرامه حتى توفى السلطان سليم إلى رحمة الله، وتولى السلطان سليمان القانوني فأكرمه أيضًا إكرامًا زائدًا حتى أغرقه في بحار إحسانه وإنعاماته. فهذا الخليفة هو الذى قلد السلطان سليمان في جامع أبى أيوب الأنصارى لأول مرة سيف الخلافة، وبايعه على ذلك. لأن هؤلاء

---

(١٩٠) السلطان إينال: هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال (٧٨٤/٨٦٥ هـ) = (١٣٨٢/١٤٦١م) من ملوك دولة الجراكسة بمصر، بويع بالسلطنة بعد وفاة الظاهر جقمق سنة ٨٥٧هـ، وظل سلطانًا حتى توفى بالقاهرة بعد أن تنازل عن السلطنة لابنه أحمد جـ٢ ص ٣٥. (٢٢٥) الدولة الكردية (ص ٥٨)

العباسيين هم الخلفاء القدماء. ومن الغريب أنه لما جاء المتوكل على الله نعى أبيه المستمسك بالله فى مصر، أذن له السلطان سليمان فى السفر إلى مصر محفوفًا بالتجلة والإكرام ليحل محله فى الخلافة.وهكذا دامت أيامه ٢٣ سنة؛ حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٩٠٥هـ = ١٤٩٩م فى عهد ولاية درويش باشا لمصر. وقد دُفن بجوار السيدة زينب [رضى الله عنها]، فانقرض به آل عباس بمصر أيضًا إذ كان المتوكل على الله هذا آخر خليفة منهم بها. وكان عددهم ١٧ خليفة، بلغ مجموع حكمهم ٣٣٢ سنة.

هذا، وقد كانت خلافة هؤلاء العباسيين بمصر إسمية وتعظيمية فقط؛ لكونهم من آل عباس العظام، أما أمور الربط والحل والعقد والقبض والبسط من مظاهر السلطان والقوة فكانت فى أيدى المماليك الجراكسة قوة واقتدارًا، وما كان عليهم إلاَّ أن يأخذوا منهم البيعة لأنفسهم.

هذا، ويطلق على هؤلاء الخلفاء خلفاء رسول الله. وقد جاءت بعدهم:

دولة آل طاهر(١٩١)

هم ملوك البلاد الخراسانية، عددهم خمسة؛ وأوليهم الخليفة طلحة، ثم الخليفة عبدالله، ثم الخليفة على، ثم الخليفة محمد (...) ومدد حكمهم جميعًا تبلغ (...) ولم يملكوا مصر قط. وبعدهم:

الدولة الصفارية(١٩٢)

كانوا ملوكًا لخراسان أيضًا وبلخ والعراق وأصفهان. عددهم تسعة؛ أوليهم يعقوب بن الليث، ثم عمر بن الليث وطاهر بن الليث، ويطلق على هؤلاء الليثيون

---

(١٩١) دولة آل طاهر [٢٠٥ – ٢٥٩ هـ =٨٢١ – ٨٧٣م].

(١٩٢) الدولة الصفارية [٢٥٤ – ٢٩٦ هـ =٨٦٨ – ٩١٨م].

(الليطيون) وهم أبطال مشاهير بلغت مدة سلطنتهم... ولم يملكوا مصر أيضا، وجاءت بعدهم:

الدولة السامانية[١٩٣]

كانوا تسعة ملوك؛ أولهم إسماعيل الساماني، وأحمد الساماني، وناصر الساماني، ونوح الساماني، وعبد الملك الساماني، ومنصور الساماني، ونوح الساماني، ومنصور الساماني، وعبد الملك الساماني. هذا، وعوضًا عن أن يُقال ليهم سلطان أو خليفة يطلق عليهم لقب "سامان" فإذا أرادوا الجمع قالوا "السامانيون". وقد حكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وبلغت مدد سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

دولة آل زيار (الدولة الزيارية)[١٩٤]

حكموا بلاد خراسان وجرجان وطبرستان والعراق. ويُقال إن أنوشيروان كان قد اعتزم الزحف من بغداد إلى بلاد اليمن لكي تبايعه اليمن، وقدموا له الطاعة فعدل عن ذلك. وعددهم ستة. يطلق المؤرخون عليهم هذه الأسماء: "مرداويج العادل" و"مكير العادل" و"بيسترين العادل" و"قابوس العادل" و"منوجهر العادل" و"أنوشيروان العادل". مدة سلطنتهم...؟ وقد روى أن النبي ﷺ قال: "إني ولدت في عهد ملك الكفار أنوشيروان العادل". ولكني لم أر ذلك في التواريخ. ومما لا شك فيه أن أنوشيروان هذا قد عاش كثيرًا. وبعدهم:

دولة آل بويه (الدولة البويهية)[١٩٥]

هم سبعة عشر ملكًا مدة سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

---

(١٩٣) الدولة السامانية [٢٦١ – ٣٨٩ هـ = ٨٧٠ – ٩٩٩ م].

(١٩٤) الدولة الزيارية [٣١٦ – ٤٧٠هـ = ٩٢٨ – ١٠٧٧م].

(١٩٥) دولة آل بويه [٣٢٠ – ٤٤٧هـ = ٩٣٢ – ١٠٥٥م].

دولة آل سبكتكين (الدولة السبكتكينية)[١٩٦]

هم أربعة عشر ملكًا، مدة سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

دولة آل غورة (الدولة الغورية)[١٩٧]

هم خمسة ملوك، مدة سلطنتهم (...) سنة، بعدهم:

الدولة الخوارزمية

هم تسعة ملوك، مدة سلطنتهم (...) سنة، حيث كانوا ملوكًا في خوارزم، بعدهم:

دولة آل سلچوق (الدولة السلچوقية)[١٩٨]

السلاچقة ثلاث طبقات، الطبقة الأولى حكام إيران وما وراء النهر وعددهم أربعة عشر ملكًا، يقال لهم سلاچقة إيران، مدة سلطنتهم (...) سنة.

الدولة السلچوقية الثانية[١٩٩]

قامت ببلاد كرمان وعدد ملوكها ١١، ومدة سلطنتهم... سنة.

دولة سلاچقة الروم[٢٠٠]

هم أربعة عشر ملكًا. قدموا فى الأصل من بلاد ما وراء النهر إلى ديار اليونانية؛ أعنى بلاد قرامان وقونية وسيواس والروم فملكوها وتحكموا فيها. فيطلق على هؤلاء الملوك لقب "كيانية الروم"؛ لأن أوائل أسمائهم مصدرة بلفظ (كى) مثل كيقُباد وكيخسرو وكى أرسلان؛ لأجل هذا سمي هؤلاء الملوك بـ "كيانية الروم".

---

(١٩٦) دولة آل سبكتكين [٥٣٩ – ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ – ١٣٣٣ م].
(١٩٧) الدولة الغورية [٥٤٣ – ٦١٢ هـ = ١١٤٨ – ١٢١٥م].
(١٩٨) الدولة السلچوقية [ق ٥ – ق ٨ هـ / ١١ – ١٤م].
(١٩٩) سلاچقة آل كرمان [٤٣٣ – ٥٨٣ هـ = ١٠٤١ – ١١٨٧م].
(٢٠٠) سلاچقة الروم [٤٧٠ – ٧٠٨ هـ = ١٠٧٧ – ١٣٠٨م].

هذا، هو السبب فى علو شأن آل عثمان ورفعة قدرهم، هم هـؤلاء الملـوك الكيانيون، وسيأتى ذكرهم فى محله إن شاء الله. بعدهم:

دولة تاج الدولة[٢٠١]

هم ستة ملوك، يطلق عليهم فى الألقاب السلطانية لقب آل التاجية، حكموا الـشام والعراق، ومدة سلطنتهم (...) سنة. بعدهم:

دوله آل أتابك (الدولة الأتابكية)[٢٠٢]

قامت فى دمشق الشام، وملوكها ستة ومدتهم (...) سنة، بعدهم:

الدولة العمرية (دولة آل عمر)[٢٠٣]

هذه الدولة ظهرت للوجود بعد مضى مائتى سنة من الهجرة النبوية؛ حيـث فتح أحد ملوكها الأمير عمر الموصل وجزيرة ابن عمر وآمد وملطية واتخذها دارًا للملك، عدد ملوكها ثلاثة: أولهم الأمير زياد وابنه الأمير سقمان وابن هذا الأميـر عمر الذى فتح ملطية حيث انتقلت الدولة والحكم بعده لذريته من البنات، وقد بلغت مدة سلطنتهم (...) سنة. بعدهم:

دولة أتابك الكبير (الدولة الأتابكية)

حكامها ستة. أولهم نور الدين الشهيد الذى كان ملك الشام وسلطانها حينما كـاد الكفار يعمدون إلى إخراج النبىﷺ من قبره الشريف، حيث جاءه الرسول فـى المنـام وقال له: "أدركنى يا نور الدين فأنقذنى" فبادر السلطان إلى المدينة المنورة وفتك بالكفار الذين قصدوا قبره الشريف بالسوء، ثم أخذ يحيط التربة الـشريفة بـسياج مـن حديـد وصُفْر ورصاص ملمع. وبذلك يكون نور الدين الشهيد ابن سنقر اليوسـيفى أول مـن

---

(٢٠١) الدولة التاجية [٥٤١ – ٥٧٧ هـ = ١١٤٦ – ١١٨١ م].

(٢٠٢) الدولة الأتابكية [ق ٦ – ق ١٠ هـ = ١٢ – ١٦ م].

(٢٠٣) الدولة العمرية [٦٣١ – ٦٦٠ هـ = ١٢٣٣ – ١٢٦٢ م].

بنى القلعة فى مدينة الرسول. وقد تملك هذا السلطان الشام والعراق وأذربيجان والبصرة والحسا وسيس وطرطوس وأدنة. بيد أن الأتابكية هؤلاء قد انقسموا إلى ست طبقات، كل واحدة تتألف من ستة ملوك، أولاها:

دولة آل صلاح (الدولة الصلاحية)[٢٠٤]

كان هؤلاء فى خدمة دولة نور الدين الشهيد. ولما هاجم فرنجة إسبانيا الأشرار بلدتى رشيد ودمياط واستولوا عليهما وأطلقوا بهما يد النهب والسلب، قد استنجد أهالى مصر بالسلطان نور الدين الشهيد. فما كان منه إلا أن عين من أمرائه وقواد جيشه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب قائدين لحملة عسكرية قوامها مائة ألف جندى وأمرهما بالزحف إلى مصر. ولقد جاءا واستوليا على عسقلان ويافا ورشيد ودمياط حيث أعاداها من أيدى الكفار؛ الأمر الذى جعل أهل مصر يعجبون بشجاعة صلاح الدين وبسالته الفائقة. وقد صار حاكمها المطلق ولكنه لم يجعل الخطبة والسكة باسم مولاه نور الدين، بل باسم الخليفة العباسى المتقى بالله. ولما سمع نور الدين نبأ هذا الأمر بالشام تأثر من ذلك وبادر إلى طلب صلاح الدين يوسف ليحضر إليه بالشام؛ ولكن صلاح الدين ساوره القلق والخوف على نفسه فتباطأ فى الطريق ملتمسًا الأعذار والعلل. حتى أنه أخذ فى سنة ٥٧٢هـ = ١١٧٦م فى إنشاء قلعة مصر الداخلية بأموال الغنائم الكثيرة التى كان قد حصل عليها من الكفار. ثم بنى حول مصر من جوانبها الأربعة سورًا عظيمًا بلغ طوله سبعة وعشرين ألفًا وثلاثمائة ذراع مكى ولا يزال قائمًا حتى الآن، وفى أثناء ذلك جاءت الأخبار بأن السلطان نور الدين قد توفى إلى رحمة الله فأصبح صلاح الدين يوسف ملكا مستقلاً بمصر. ثم استولى على الشام وحلب، وهكذا خضع له فى جزيرة مصر السبعة عشر ملكًا الذين بها.

---

(٢٠٤) الدولة الصلاحية : (٥٦٩ – ٦٥٠ هـ = ١١٧٤ – ١٢٥٢ م).
فكما أن هناك خلطًا فى المعلومات التاريخية، فإن هذه الدول لم تحكم أى منها مصر... ولم يكن هناك أى داع لسردها فى رحلة تخص مصر، وقد ترك الرحالة مدد سنوات حكمهم فراغًا على أن يسجله بعد ذلك، ولكن لم يتم ذلك، وقد قام المترجم بذكر هذه السنوات فى الهامش تكملة للفائدة.

وجملة هؤلاء الملوك الصالحين تسعة أنفار، ومدة سلطنتهم (...)

وفي عهد صلاح الدين هذا قامت حرب ضروس سنة ٥٦٢هـ = ١١٦٦م بينه وبين الكفار الإفرنج في برج العظام، لا يزال صداها في آذان الناس، وتحكي أخبارها ووقائعها في كتب التواريخ وبالأموال الكثيرة التي اغتنمها في هذه المعركة الدامية؛ ابتنى - رحمه الله - مدرسة عالية بجوار الإمام الشافعي بمصر لا تزال آثارها ورسومها باقية على الدهر. ثم جاءت بعدهم طبقة أخرى من الأتابكية.

دولة أيوب بن شادى الكردى

يذكر بعض المؤرخين أن يوسف صلاح الدين أيضًا من هؤلاء الأيوبيين. وعدد ملوكهم سبعة؛ فمنهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى ضرب حصارًا حول عكا لمدة أربعة وأربعين يومًا، خاض خلالها غمار حرب ضروس ثم فتحها فتحًا مبينًا. بادر على الفور إلى هدمها هدمًا كاملاً حتى لا يستولى عليها الكفار مرة أخرى، وسنسجل ذلك في موضعه. وأعقبه الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين وهو مدفون في جامعه. ثم جاء الملك الكامل وصار خليفة وأعقبه الملك الأشرف الذى في عهده تم تسليم القدس صلحًا للإفرنج في سنة ٩٣٥هـ = ١٥٢٨م، وقد كان هذا الخليفة من الأيوبيين، وقد ساءت أعماله وصبت عليه الويلات والمهالك فمات غمًّا وحزنًا في الشام وعمره ستون سنة ودفن بها. وتولى المُلك بعد ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد مات بمصر ودفن بها. وهؤلاء هم آخر المماليك البحرية، وكانت أولهم الملكة شجرة الدر خاتون. وعددهم جميعًا ٢٨ نفرًا، مدد سلطنتهم ١٣٦ سنة، واشتهروا في التاريخ باسم المماليك البحرية، وبعدهم:

دولة الجراكسة (أو المماليك البرجية)[٢٠٥]

لما كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى من السلاطين الأتراك وكان ولى نعم الجركس والأباظية، فأطلق على هؤلاء الجركس

---

(٢٠٥) دولة الجراكسة أو المماليك البرجية (٧٨٤ – ٩٢٣هـ = ١٣٨٢ – ١٥١٧م).

لقب (المماليك البرجية). وقد تولى بعده الملك الكامل محمد الذى توفى بالمنصورة وقد بلغ من العمر ستين عامًا، ونقل نعشه إلى مصر القاهرة ودفن فى جامعه، وقد شيد هذا الملك فى منطقة بين القصرين أربع مدارس خاصة بالمذاهب الأربعة، وأنشأ قلعة فى جزيرة الروضة لا تزال آثارها باقية، واستدعى بعده المعظم طورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب حينما توفى والده فى المنصورة، إذ كان حينئذ فى بلدة "حصن كيفا" بكردستان. وقد أخفت والدته شجر الدر خبر وفاة زوجها بالمنصورة حتى يعود ابنها المعظم طورانشاه من حصن كيفا سريعًا بصحبة المبعوث إليه. وصل المعظم فى ثلاثة أشهر إلى مصر التى كان الكفار قد احتلوها فانتزعها منهم، وأعمل فيهم سيفه تقتيلاً.

وقد ثار مماليك هذا الملك العظيم عليه وأردوه قتيلا، والتحق بالشهداء من الملوك والخلفاء فى سبيل الله. فتولت الحكم والدته شجر الدر، وهى الملكة التى كست الكعبة المعظمة بالأستار السوداء لأول مرة، ولا تزال آثارًا إسلامية خالدة يُطلق عليها اسم الكسوة الشريفة. ولم يتيسر هذا لملك من الملوك قبلها قط.

وتولى الملك بعدها زوجها المسمى أيبك التركمانى، وتلقب بالملك المعز.

آل التركمان (الدولة التركمانية)

هم ستة ملوك من جنس الأتابكية. ولقد امتعضت شجر الدر أخيرًا من زوجها أيبك التركمانى سابق الذكر فغضبت عليه غضبًا بالغًا؛ إذ كان سببًا فى مقتل ابنها المعظم طورانشاه، وزاد الطين بلة أنه تزوج عليها ابنة أتابك الموصل، فأثار كل ذلك غضبها عليه ومنحها الفرصة لتأليب جواريها على زوجها حيث هاجمنه وهو فى الحمام. إلا أنه لم يكن غافلاً عما يدبر له فى الخفاء فأشهر سلاحه الذى كان يخفيه فى وجوههن، وماذا عسى أن يعمل شخص واحد أمام مائة امرأة! بينما كان الشجار دائرًا كانت شجر الدر تتابع من الشبابيك القائمة فوق سطح الحمام. فانهارت القبة بحكمة الله وسقطت شجرة الدر بجوار أيبك التركمانى محطمة فبادر خصمها إلى قتلها فورًا، تاركًا الجوارى لحالهن. ولكنهن انتهزن هذه

الفرصة وهاجمنه جميعا هجمة واحدة فقتلنه هو الأخر شر قتلة. ولا يزالان مدفونين فى قبة واحدة جوار السيدة نفيسة [رضى الله عنها] فى حى المخلاتية بمصر، كما أن ابنها الشهيد المعظم طورانشاه مدفون هناك أيضا. وبذلك انقرضت دول آل أيوب وانتقلت السلطة إلى مماليكهم الذين نصبوا خلال ذلك على البلاد ابن أيبك التركمانى، المدعو "على" البالغ من العمر الخامسة، وهو من بنت ملك الموصل سابق الذكر ولقبوه بالملك المنصور. وقد حكم ثمانية أشهر وعاصر علو شأن هولاكو التترى. وهاك صنف آخر من الأتابكية:

دولة أكراديان (دولة الأكراد)

تفرع ملوك هذه الدولة من "شادى الكردى" وبلغ عددهم سبعة أيضا، وقد اضطربت أمورهم فى مصر حتى اضمحلت دولتهم وذهبت ريحهم. ومدة سلطنتهم (...) سنة، وكان أعظمهم شأنا هو السلطان محمد الكردى، وهو الذى ساعد الإمام الشافعى واستقدمه مصر مرة أخرى. وقد تم له فتح بلاد النوبة سنة ٦٦٧هـ = ١٢٦٨م، وانتزع طرابلس الشام من أيدى الإفرنج سنة ٦٨٧هـ = ١٢٨٨م. وتوفى إلى رحمة الله فى ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ = ١٢٩٠م، وقد دام حكمه إحدى عشرة سنة وعشرين يوما. وقد تلاه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين الذى توجه إلى عكا وفتح قلعتها وانتزعها من أيدى الإفرنج.

ولقد وصل بعد هذا الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى كرسى الحكم للمرة الثالثة فى سنة ٧٣٣ هـ = ١٣٣٢م، وقد عثر فى عهده على الحاكم بأمر الله مقتولا فى جبل الجيوشى، فأقام عليه قبة عالية حصنها بالرصاص الأزرق السماوى اللون. وهو نفسه مدفون بجوار والدته فى أرض مدفن الإمام الشافعى. بعدهم:

الدولة القراخطائية

عدد ملوكهم ثمانية وهم من الأتابكية. شيدوا دولتهم فى ولاية كرمان، ومدة سلطنتهم ٨٤ سنة.

دولة آل أيوب

رجال هذه الدولة هم الذين صاروا حكام اليمن وعمروها، وقد بلغ عددهم سبعة، وجدهم أتابك، وهم مدفونون بمدينة "مزيب" باليمن. مدة سلطنتهم ٥٧ سنة.

دولة آل الملحدة

عدد ملوكها ثمانية، حكموا ولاية "قوهستان". مدة سلطنتهم ١٨٢ سنة.

دولة بنى أرتق (أو الدولة الأرتوقية)

ظهرت فى بلاد حلب وملطية وديار بكر، وعدد ملوكها بلغ خمسة وعشرين. وكانت دولة عظيمة. يطلق لقب "مرازبان" عليهم من بين ألقاب التشريف. ومدة سلطنتهم ١٣٤ سنة.

دولة آل مروان (أو الدولة المروانية)

حكموا ديار بكر والموصل والجزيرة. عدد ملوكهم سبعة، ومدة حكمهم ١٠٩ سنة.

دولة بنى مرداس الكلابى

جلس ملوكها على عرش حلب ومرعش، عددهم سبعة، وألقابهم الملكية كلمة "كوردون" وهى تحريف كوردان أو الأكراد. ولا يزال أكراد جوم من سلالة هؤلاء الملوك والحكام. ومدتهم ٥٨ سنة.

دولة بنى الأسد

حكموا الحلّة وتكريت وشيرزور. بلغ عددهم سبعة. ويطلق على هؤلاء لقب "آل شيران" بمعنى "بنو أسد" فى كردستان. وعنوانهم فى الألقاب السلطانية هكذا: يزدن شير، وإبدال شير، وضياء الدين شير. مدة سلطنتهم ١٤٢ سنة.

دولة بنى حمدان (بنى همدان)

ظهرت دولتهم فى ولايات الموصل وحرير وأردلان ورومية ومُدمى ودمبولى، عدد ملوكهم ستة.

دولة بنى عقيل بن أبى طالب

عقيل هو أخو سيدنا على رضى الله عنه، أقام أولاده الحكم والملك فى الموصل والحلة وتكريت. عدد ملوكهم عشرة ومدة حكمهم ١٠٣ سنة، هذا ولما أرادوا التوجه إلى مصر حال الأمويون بينهم وبين ما يريدون، ونشبت حرب ضروس بين الطرفين فانهزموا.

دولة آل التركمانيين

ملوكها خمسة بلقب أمير. وكان أولهم الأمير كربوغا الذى حارب الإفرنج وجاهدهم فى أنطاكية وانهزم أمامهم سنة ٤٩٥هـ = ١١٠١م؛ فلجأ إلى أصفهان، وهو مدفون فى ضاحية مدينة هويدا. مدة سلطنتهم...

الدولة الدانشمندية

اعتلوا عرش سيواس وبافرة وأماسية وقيصرية. عددهم سبعة ملوك. أولهم مدفون بقلعة نيكسار ويدعى ملك غازى. وهم أول من أعملوا السيف مع آل سلجوق فى رقاب الروم. ومدة سلطنتهم ٢٠٦ سنة.

دولة آل قرا يوسف

ملوكها من جماعة القراقوينلية. وهم من عظماء الحكام والملوك وعددهم عشرة، استطاعوا الاستيلاء على ولايات كل من بكر وآذربيجان والعراق وفارس وتلقبوا بلقب "بك"، منهم "أوزون حسن" الذى تبع تيمور فاقد البصيرة والنور ومشى فى ركابه، ولما قضى تيمور أجله أسرع أوزون حسن بمحاربة أولاد تيمور

وهزميهم شر هزيمة، واستولى على بلادهم وصار سلطانًا صاحب شأن، وبنى في ولاية أرزن الروم قلعة سميت باسمه "قلعة حسن".

ولما دارت رحى الحرب بين أوزون حسن وأبى الفتح السلطان محمد الفاتح تم القضاء على جيش أوزون حسن في وادى ترجان، وتمكن هو من الفرار إلى تبريز حيث مات بها كمدا وغيظا ودفن بصحن جامعه الذى بناه هناك، ولقد صارت عبارة "بطلان كيد الخائنين" تاريخًا لتلك المعركة التاريخية الدامية. مدة سلطنتهم ٩٢ سنة من ٧٨٢ إلى ٨٧٤هـ (=١٣٨٠ - ١٤٦٩م).

دولة الآق قوينلية (أو) الشاة البيضاء

صار ملوك هذه الدولة أيضا حكامًا في ولايات ديار بكر وآذربيجان والعراق، وهم تسعة وألقابهم "باي"، وقد كانوا كرامًا محسنين وعلى جانب كبير من الصلاح والزهد والتقوى، فلقبوا لذلك (باى) ومدة سلطنتهم حوالى ١٠٨ سنة، وإليهم ينتهى فرع من فروع الشجرة العثمانية السلطانية، فكلاهما جاء من بلاد ماهان.

وقد سجل محمد چلبى الأدرنة لى في تاريخه أن أوزون حسن من أسرة وعشيرة الآق قوينلى الشاة البيضاء. ولكن غيره يذهب إلى أنه من أسرة القراقوينلى الشاة السوداء. وأما كاتب السطور الضعيف فيقول إنه من أسرة وعشيرة القوينلية؛ سواء أكانت هى آق بيضاء، أم قارة سوداء.

دولة آل شاهشاهان إيران وتوران

ظهر ملوك هذه الدولة في أردبيل من سلالة الشيخ صفى الدين من شيوخ الطريقة في بلاد العجم يحكميا بالقطبية، خلفه ابنه الشيخ جنيد الذى صار قطب الأقطاب وذاع صيته في الآفاق. ثم ابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ الخواجة على بن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفى الدين أبى إسحق الأردبيلى الذى يُعد أول هؤلاء الملوك الذين بلغ عددهم حتى الشاه عباس الأول خمسة ملوك.

يطلق عليهم "الشاه" فى الألقاب السلطانية. وهم الآن يملكون بلاد آذربيجان وإيران وتوران وكنجه وشيروان، وينعتون في اللسان العجمي بألقاب "خداوند كار" و"شاهشاهان" و"شه" و"شاه" و"شاهنشاه" و"خسرو" و"شهريار" و"سرُوَر" و"تاجدار" و"صرحبقران" و"شاه إيران وتوران".

دولة آل الدَّرْبَنْدِيِّين

(أو الدولة الشيروانشاهية أو الدربندية)

تسعة ملوك يُلقب كلٌ منهم "ملك الملوك"؛ امتد حكمهم حتى بلاد كَنجه وسواس وشماقى وباركو وباب الأبواب. وكانوا فى غاية التمسك بالسنة. وهم من نسل أنو شيروان. وقد زالت دولتهم بتسلط الشاهات ملوك إيران؛ فبلادهم تارة يحكمها سلاطين آل عثمان وتارة يخضعها لأمرهم ملوك إيران، والحال على هذا المنوال حتى الآن.

دولة آل شمخاليان (أو الدولة الشامخالية)

حكام هذه الدولة أيضًا من نسل أنوشيروان وهم فى غاية التمسك بالسنة، ولايزالون يتلقبون حتى الآن بلقب شام كال (أو شام خال). وشمخال اسم طائفة من الغز (أو غوز) ولا يزال[٢٠٦] لهم من الجند نحو ثمانين ألفًا، يخطبون فى جوامعهم لسلاطين آل عثمان ويذكرون أسماء ملوكهم بعد هؤلاء السلاطين. وموطنهم فى شمالى جبال ألبرز، ولهم من الأراضى هنالك ما تتسع لسبعة خانات وحكام.

وقرابوراق خان من هؤلاء الملوك، له من المدن طرخو، وقووز، وأندرى، وطابسران. وفى شمالهم يقع باب الأبواب الباب الحديدى "دميرقبو" على شاطئ بحر الخزر. وفى شرقيهم گنجه وشيروان وشماخى، وفى جنوبهم بلاد تيمور خان من مملكة "گرجستان" ولا يزالون[٢٠٧] يحكمون بلادهم فلهم شأن ودولة (أيد الله دولتهم)؛ إذ هم فى جدال ونضال مستمر مع العجم، وبلادهم جبلية صعبة المرتقى وعرة المسالك فضلا عن مهارتهم الفائقة وحبهم للغزو والكر والفر.

---

(٢٠٦) المقصود حتى عصر الرحّالة.

(٢٠٧) المقصود حتى عصر الرحّالة.

دولة آل الأوزبك أو الدولة الأوزبكية

ظهرت دولتهم في بلاد بلخ وبخارى وخراسان. وقد دخلوا في الإسلام بخطاب نبوي وصلهم على يد رسول من قبل سيد المرسلينﷺ. فكبار أولياء الله في الإسلام قد نشأوا في إقليم خراسان. فلا يزالون مؤمنين صادقين وموحدين متقين. دولتهم باقية مؤبدة. لم يملك من هؤلاء بلاد مصر لبعد دارهم؛ فإنهم مقيمون في الإقليم السادس والسابع. فجميع جيادهم وغزواتهم مع العجم والهند.

دولة آل جنكيز

ذكر في تاريخ ميرخوند أن جلوس جنكيزخان كان في سنة (...) هذا، وملوك هذه الدولة ينتظمون في اثنتى عشرة فرقة. كل منها ينقسم إلى عشرة خانات أو خمسة عشر خانًا أو ميرزا، وكخانات القرم والداغستان والمغول أو البغول والقوموق والقالموق أيضًا اثنا عشر ملكًا "طايس". ولكل طائفة ملك منهم يسيطر على مليون من الجند (عشر مرات مائة ألف).

كل هذه الأقوام والشعوب منحدرة ومتفرعة من جنس التتر؛ وهم: القزاق، والأزبك، والنوغاني، والهشدك، والمسكوف، والصين، والختاى، والختن، والفغفور، واللبقة، والبادران، والهند، والسند، والعجم، وأتراك التركمان، وآل عثمان.

وحسب تاريخ تحفة الدول الذي هو تحفة بمعنى الكلمة، كان سيدنا آدم [عليه السلام] أيضًا على الحالة التي عليها التتر الآن من حيث الظعن والرحيل والإقامة. لأن الله - سبحانه وتعالى - قد زين وجه الأرض في بادئ الأمر بأقوام التتر الرحل، ثم ظهر العرب بعد سيدنا إسماعيل [عليه السلام] الذي إليه ينسب نشوء اللغة العربية. ويذهب هذا القول أيضًا إلى أن امرأة شيث [عليه السلام] من حيث إنها كانت حورية من الجنة تتكلم العربية التي هي لسان أهل الجنة، بخلاف أولاد آدم الذين كانوا يتكلمون لغة أخرى دامت لعهد سيدنا إسماعيل حيث شاعت العربية بعدها.

وفى الواقع لا توجد حتى الآن أقوام على وجه البسيطة أكثر مـن العـرب والتتر. فلقد قام الضعيف كاتب هذه السطور بسياحاته الكثيرة ورحلاته العـدة فـي بلاد القرم والداغشيان والقالمق والنوغاى والهشرك وفى سهول القفجاق، فلـم يـر أقوامًا أخرى سوى التتر إلا قليلا، وكلهم - ما عدا القالموق - مؤمنون موحـدون بالله وملوكهم مسلمون.

دولة آل جنكيز (بشبه جزيرة القرم)

تقوم هذه الحكومة فى جزيرة القرم البالغ مساحتها سبعمائة وسبعين مـيلاً. لها جيش يبلغ مائة ألف، ولهم من الخيول مائة مرة مائـة ألـف (يقـصد عـشرة ملايين). إذ ليس لهم من مظاهر الدولة والثروة سـوى الخيـل والجمـال والغـنم وقطعان البقر. ولقب ملكهم "خان" وينعتونه هكذا "كراى خان"، وقد اسـتولى مـن هؤلاء الملوك (خانات) "طوختمامشن خان" على بلاد القرم، وانتزعها مـن أيـدى الكفار الجنويزيين أى البنادقة.

ويتولى أحد أقرباء الخان أو أحد أولاد إخوته منصب وزير اليمين، ويلقـب بـ "قالغا سلطان" ويقيم فى المدينة المسماة "آق مسجد" أى المسجد الأبيض، كما أن لقب وزير اليسار "نور الدين سلطان" ولقب وزير الوسط "أغا". وأما رؤساء القبيلـة فألقابهم: شيرين، ومنصور، وسجود، وأولان هو الذى ولد الخان من نباته. ويطلق على طائفة الجند والعسكر لفظ "قراجى"، ولقب قوم القرم واسمهم "بارداق".

ولما فتح السلطان بايزيد الثانى من آل عثمان قلعتى أقكرمان وكيلى، جـاءه من خانات القرم أولا "منكلى كراى" ودخل فى طاعة العثمانيين، وكان وفيًا بعهـده دائما حيث أمدَّ العثمانيين وسك نقوده بأسمائهم. وللآن يذكرون أسماء سـلاطين آل عثمان فى الخطبة على المنابر قبل أسماء ملوكهم، يقولون بعـد ذكـر الـسلطان العثمانى "كراى خان الغازى". وقد بلغ عدد الخانات حتى عهـد الـسلطان محمـد الرابع عشرين خانًا. أيد الله دولتهم، فإن هذا الضعيف قد نال شيئا كثيرًا من نعمهم وإحسانهم.

الدولة الجنكيزية فيما وراء النهر

ينحدر ملوك هذه الدولة من نسل الأزبك أيضًا. يبلغ عددهم اثنى عشر ملكًا، أيد الله ملكهم إلى آخر الزمان. وقد دخلوا فى الإسلام سنة ١١٩هـ = ٧٣٧م فى عهد هشام بن عبد الملك حيث كان خليفة الشام، إذ أرسل إليهم كتابًا يدعوهم فيه إلى الإسلام فأسلموا. ولا تزال سلطنتهم باقية.

الطبقة الثالثة من آل جنكيز

ظهرت هذه الدولة فى بلاد إيران وتوران وصحراء القچا والصين والخطا والخُتن، وكان عدد ملوكهم ثمانية عشر. ولقد أقدم من هؤلاء التتر "هولاكو" على الزحف إلى بغداد بجيش جرار يقرب قوامه مليون جندى بتحريض من الناصر الطوسى وخيانة من الوزير ابن علقمة، فجعل عاليها سافلها وقتل المستعصم بالله العباسى حيث انقرضت دولة آل عباس بموته. فما كان من أولاد وأنسال العباسيين الصغار الذين كانوا يهيمون على وجوههم فى البرارى والصحارى إلا أن هربوا إلى مصر لاجئين، فتولوا هنالك الخلافة وصاروا كالمشايخ.

هذا، وكان هولاكو هذا يملك جيشًا كثيفًا عظيمًا. وجملة ملوك هذه الطبقة تبلغ ١٨ ملكًا حكموا ٤١٥ سنة، ولقبهم أيضًا "خان".

الطبقة الرابعة من آل جنكيز وهى دولة آل تيمور كوركان

صاحب الخروج والطغيان

ظهرت دولة هذه الطبقة فى الممالك الإيرانية والتورانية وفى صحراء القبچاق والهند والسند وملتان والماچين والخطا والختن والمسكوف والبلغار وبولنده والقرم والداغستان وبلاد الكَرخ "كرجستان" والعراقين العربى والعجمى، وبلاد الروم والشام وفى سائر الممالك المحروسة، فكان يمشى فى ركابه واحد وأربعون ملكًا مترجلين مذعنين له. حتى أنه بعث بكتاب إلى السلطان ييلديرم بايزيد العثمانى يدعوه إلى تقديم طاعته ومبايعته له، إلا أن السلطان بايزيد طرد رسوله، مما حدا بالأمير تيمور المحروم من النور أن يزحف بجيش لجب يموج كالبحر، نحو ييلديرم والاشتباك معه فى سهل "أنقرة"؛ حيث دارت رحى معركة حامية أسفرت عن اندحار جيش آل عثمان من جراء سوء تدبير وزراء "ييلديرم بايزيد" الذى واصل مع ذلك الحرب والقتال، وهو مهموم ومغموم، وإن كان رابط الجأش ثابت الجنان، يصول ويجول فى ساحة الوغى وحيدًا ممتطيًا جوادًا غير مدرَّب يطارد التتر أينما كانوا، وإذا بجواده يكبو به فيسقط تحت سنابك الخيل، ولكنه يقوم ويتلقى هجمات التتر الذين يُحدقون به من كل الجهات، بكل ثبات وقوة جنان. ولكنه اضطر للتسليم ليم بعد مقابلة ساعة من الزمن، فأخذوه إلى تيمور فأكرمه غاية الإكرام وأحسن وفادته بتخصيص خيمة خاصة له بجانبه للإقامة بها، ثم تقديمه إياه فى المجالس السلطانية على جميع العظماء والملوك الذين لديه. وذلك بالرغم من أن ييلديرم بايزيد كان يكلم تيمور بكل جرأة وشجاعة من غير أن يتولاه الجزع والخوف فكان يناقشه بكل صراحة وقوة جنان.

هذا، وقد اقتضت حكمة الله جلت قدرته أن يتوفاه الله إليه وهو أسير فى أيدى تيمور من مرض الحمى المحرقة التى انتابته، فنقل جثمانه إلى "بروسه" ودفن فى صحن جامعه بها.

ولما شرع تيمور في الرحيل من هنالك بادر السلطان "محمد چلبي" بن يلديرم بايزيد إلى مطاردة تيمور، وتعقب جيشه انتقامًا لوالده حتى أدركه في سهل يقال له وادي طاشاق "طاشاق أو واسي"، فجرت بينهما معركة دامية، أظهر خلالها السلطان محمد من الشجاعة والبسالة ما تذكره الألسنة والمجالس بإعجاب وتقدير، فقد سلخوا جلود عسكر التتر والمهزومين وأقاموا منها خيامًا أقاموا بها بضعة أيام في ذلك السهل الفسيح، فسمي السهل المذكور "طاشاق أو واسي" أي سهل الخُصى، وهذا اسم ناب ليس من الأدب شرحه وتفسيره. وبعد أن هرب تيمور من ميدان المعركة بمن بقي من جيشه توجه نحو "قراباغ" وأمضى الشتاء به، وما أقبل أول الربيع إلا وأقدم على فتح بلاد الشام فجاء إليها وغنم منها ألف خزانة مصرية من الأموال، ثم عطف نحو مصر. ولما وصل المحل المسمى "عزت الهاشم" [لا شك أنها محرفة من غزة الهاشم] تلقاه ملك مصر السلطان برقوق من جهة والأمير فرج من جهة أخرى، كما هب لمنازلته جنود "كُرتباى" وهكذا أحيط بالتتر من كل جانب فاقتحموا جموعهم واكتسحوا صفوفهم كما تنقض الذئاب الجائعة على قطعان الغنم حتى قضوا عليهم جميعًا. ولا تزال عظام قتلاهم في المعركة الدامية المذكورة موجودة في تلك الصحراء واسعة الأرجاء تتألف منها أكام وتلال هنا وهناك.

وهكذا فشل تيمور وجيوشه في الاستيلاء على مصر، وعاد منها مهزومًا مدحورًا، وهو مدفون في بلد سمرقند ومدة سلطنته [٣٦] سنة.

الطبقة الخامسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان

قامت دولة هؤلاء في ممالك إيران وتوران وهمذان وأصفهان الموصوفة بأنها نصف العالم ووان وجيلان وآذربيجان. بيد أن بلاد أولاد تيمور هؤلاء تفرعت إلى إحدى وأربعين مملكة، يحكم كل واحدة منها واحد منهم، ثم صاروا ستة معسكرات متطاحنة ومتصادمة. ولما كان أوزون حسن زعيم الآق قوينلية من الملوك الذين اضطروا إلى المشي في ركاب تيمور كوركان، فقد انتهز الفرصة واعتزم الثأر لنفسه من أولاده، فأقدم على الفتك بعدة من هؤلاء وبسط سلطانه على

ولايات ديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وآذربيجان، وصار ملكيا المستقل صاحب الحول والطول. هذا وأولاد تيمور وأحفاده لم يعيشوا كثيرًا ما عدا ابنه الكبير الذى بقى حتى صار سلطان الهند.

الطبقة السادسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان

سلاطين الهند والسند

دولتهم قديمة. وقد اعتنقوا الإسلام عندما تلقوا الكتاب النبوى الدرى بالقبول والإذعان. ولهم ملوك ذوو شأن عظيم على مذهب الإمام أبى حنيفة يسيطرون على بلاد واسعة الأرجاء. إذ إن أول من ملك بوجه البسيطة بلادًا عظيمة مترامية الأطراف هم ملوك الهند ثم ملوك آل عثمان. هذا وإن كان لملك المسكوف أيضًا بلادٌ واسعة تمتد حدودها إلى بحر الظلمات إلا أن أكثر ولاياتها غير مسكونة من هول الشتاء وشدة البرد، كما أن الهند بلاد حارة جدًا بيد أن هواءها معتدل ومناخها لطيف. ولهذا كانت قراها وبلدانها عامرة وغنية. ولقب ملوكها وحكامها راجا "رايا" فمثلاً يقال الراجا أورنكزيب، بحيث إذا مثَّل أحد الرعايا بحضرة الملك فبدل أن يخاطبه "يا مليكى" يقول "يا راجاى". هذه هى ألقابهم السلطانية. وبلاد الهند من السعة بمكان تحتوى على ١٧ مملكة كل منها تعتنق مذهبًا بعينه ونحلة مستقلة.

دولة سلاطين السند

لقب ملوكها "موغان" فيقال موغان سيد، موغان تاد، موغان راى، موغان سرشاد، وهكذا. بيد أنهم تابعون لملوك الهند وهم يعبدون النيران. ولا تزال دولتهم باقية إلى اليوم.

دولة سلاطين مونتان

أسماء ملوكها هكذا: داريا مونتان، رادود مونتان، هلاس مونتان، وتسمى رعاياهم "بنيان" وهذه الطائفة توجد بكثرة في الحبشة وسواكنها وفى خارقوا ومصوع. وهم يتعممون بعمامات بيضاء وكلهم من عابدى النار. وملوك مونتان

تابعون أيضا لملوك الهند. فلا يزال سلطانهم ممدوذا ودولتهم باقية، وجميع شعوب هذه البلاد تعبد النيران والأبقار والفيلة والشمس والقمر والأشجار. ومع ذلك فإنهم مُقرُّون بوجود الله البارى.

هذا، ولو أردنا أن نكتب شيئًا عن هؤلاء مثلما هو مدون فى كتب التاريخ لطال الشرح وضاق المقام. وليس من عادتى - أنا هذا الضعيف - التصدى لنقل ما لا أعلمه علم اليقين أو لم أره رأى العين. وقد ذكرت هذا بقدر ما اقتضاه المقام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

إن بلاد هذه الدولة، وإن كانت غير واسعة الأرجاء مثل الهند، إلا أنها بلاد سهلة فسيحة الأرجاء تحتوى على اثنتى عشرة ألف مدينة فى ساحل البحر المحيط ويطلق على ملوكها اسم خاقان. لا يخافون أحدًا من الملوك والسلاطين، ولهم رعايا كثيرون وجمهور كبير. فإذا ذهب تاجر من بلد ما إلى بلد فى الصين فأول شيء يعمله هو أن يقدم متاع تجارته إلى ملك الصين بوصفها هدية، قائلاً: "إن ملك الهند وملك العجم مملوكا سدتكم السنية يسلمان على صاحب الجلالة" فبهذه الطريقة الأدبية يحظى التاجر بمقابلة ملك الصين وينال عطفه عليه؛ حيث ينعم عليه لدى عودته إلى بلاده من الأموال القيمة والأمتعة النفيسة ما يساوى عشرين ضعفًا فأكثر من أمتعته التجارية. وهكذا يعود التجار من الصين إلى بلادهم مسرورين سالمين غانمين، ولا تزال دولتهم قائمة.

أحوال دولة السلطان فغفور

تمتد حدود هذه الدولة إلى عالم الظلمات. وكل من ملَك هذه البلاد يقال له "فغفور". فى سنة ١٠٣٠هـ هاجمها القالمق واستولوا عليها ومزقوا شمل مئات الألوف من الشعب الفغفورى وأكلوهم أكلاً، حتى إنهم قبضوا على الفغفور "رحجنان شاه" وطبخوه ثم أكلوه أكلا. لأن القالمق من الشعوب التى تأكل لحوم الإنسان أيضًا. فمن ذلك اليوم انقرضت دولة الفغفور ولا يزال القالمق يحكمون بلادهم حتى الآن(٢٠٨).

---

(٢٠٨) ولا يزال القالمق يحكمون بلادهم حتى الآن.

ذكر أحوال دولة ملوك الديالمة

يطلق على ملوكها في الألقاب السلطانية اسم "كاشانيان" أي الكاشانيون، وهم سبعة عشر ملكًا سنيًا، تبلغ مدة سلطنتهم مائتي سنة، بلادهم هي الديلم وكاشان وكرمان.

ذكر أحوال ملوك بلخ

وهم ملوك سنيون يطلق عليهم في الألقاب السلطانية اسم "دارا". ولقد هـزم اليونان (فيما مضى) الملك دارا هذا في محل يقال له "قرادره" بجـوار الموصـل. وبذلك صار الشعب الرومي مسيطرًا على البلاد الإيرانية "إيرانـشهر"، وبـات العجـم خاضعين لليونان يدفعون لهم الخراج. ولا تزال هذه الدولة قائمة وملوكها سنيون.

دولة آل إينجو (دولة آل إنجوليان)

ملوكها هم ملوك الشعب المغولي. فبلسان المغول يطلق لفظ "أنجور" علـى ملوكهم. حكمهم كان جاريًا في البلاد الإيرانية، وهم ثلاثة ملوك. وفي سنة ٧٠٠هـ ثار الشعب المغولي ثورة عامة على أنجور هذا وقتلوه، وينعت ملوكهم هكذا: حيدر أنجور، وأسعد أنجور.

دولة آل مظفر

قامت هذه الدولة في فارس والعراق وكرمان. عدد ملوكها ثمانيـة. يطلـق عليهم لقب جعفر مظفر. دامت حكومتهم مائة وخمسًا من السنين. وهذه أيضًا مـن طوائف الملوك.

دولة آل چوبان

قامت في البلاد الإيرانية وأذربيجان. عدد ملوكها اثنا عـشر ملكًـا. لقـبهم "أمير"، مدة سلطنتهم (...)

دولة آل إيلكان (الدولة الجلايرية)

قامت في بلاد أذربيجان. وعدد ملوكها ستة ويطلق عليهم لقب "قامي"، وهم من طوائف الملوك، وكانوا في غاية من العدل والإنصاف. مدتهم ٧٥ سنة.

دولة آل كرتباى

قامت فى خراسان وبلاد الغور. وكان ملوكها يذكرون فى الخطب على المنابر باسم الملك كرتباى. وكانوا ملوكًا سنيين، وعددهم ثمانية، ومدة سلطنتهم ثمان وثمانون سنة.

الدولة السربدارية (دولة آل سربدران)

قامت هذه الدولة فى ولايات سبزوار وخراسان. ويطلق على ملوكها "سربداران"، عددهم سبعة، ليسوا على شيء من الحسب والنسب. ولقد صاروا ملوكًا تغلبا وغصبًا. وهم أيضا من طوائف الملوك.

بيان أوصاف دولة آل عباس

ظهرت هذه الدولة فى مدن بغداد ذات العمران كالجنة وفى مدن البصرة والإحساء واليمن ومكة والمدينة؛ حتى امتد سلطانها إلى أم الدنيا مصر والشام وحلب ومرعش وديار بكر وأرضروم حتى بلاد الكرخ.

هذا، وفى الزمن الغابر كان يُطلق لقب كسرى على الذين يملكون بغداد القديمة وجمعه "أكاسرة". وقد خضعت بغداد هذه للعباسيين بعد بعثة صاحب الرسالة المحمدية. وعدد ملوكها جميعا ثلاثون. مدة حكمهم خمسمائة وثلاثة وعشرون عامًا وشهرٌ واحد ويوم فقط. والعباس هو عم الرسولﷺ وابن عبد المطلب وهو أكبر من الرسول بسنتين، عاش ٨٥ عامًا، ومات بعد الهجرة النبوية باثنين وثلاثين عامًا، وقبره فى البقيع بالمدينة المنورة. وقد خلفه فى الحكم ابنه السفاح الذى حكم تسع سنوات وثمانية أشهر وعاش خمسين سنة، وقبره فى الكوفة. وجاء بعده ابنه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبدالله محمد المهدى، وابن هذا محمد الهادى، ثم جعفر بن عبدالله، ثم ابنه الأخر أبو منصور هارون الرشيد، وأربعة من أولاد هارون الرشيد تولوا الخلافة؛ وهم أبو عبيد الله، وأبو العباس، وأبو إسحق محمد المعتصم بالله، والخليفة المأمون. فالمأمون قد وصل إلى مصر وزار جبل الهرمين

واستخرج منها الكنوز والدفائن ثم ترك مصر إلى اليونان، ونزع منهم بلاد أذنة وسيس ومسيس وقرا كُورِكْ وطرسوس، وهو مدفون فى زاوية مظلمة من زوايا جامع النور بداخل القلعة إلى اليسار. هذا ولما كانت عقيدة الخليفة المأمون مختلفة وكان ممقوتاً ومكروهًا من الناس فلا يزار قبره. وكانت خطب الجمع قبل عهد العباسيين تُتلى على المنبر والخطيب جالس، ولما جاء أبو العباس عبدالله السفاح بن محمد بن على ابن عبدالله بن عباس وتولى الخلافة تلاها وهو واقف. وهكذا بقيت العادة حتى الآن.

ويوصف العباسيون فى اللغة العربية بهذه الألقاب: الخليفة وأمير المؤمنين والسلطان والملك والخاقان والمؤيد من عند الله... وخلاصة القول إن ثلاثين خليفة من العباسيين كانوا يرسلون ولاة من قبلهم إلى مصر من بغداد فيحكمونها بواسطتهم، ودام الحال على هذا المنوال حتى استولى هولاكو الملعون على بغداد وانقرض به ملك الخليفة المستعصم بالله وهرب أولاده إلى مصر.

وقد أنشأ المنصور الدوانقى ملطية سنة ٣٠٥هـ، ثم عمد إلى مكة ووسع حرمها الشريف فأحدث بها منارة (مئذنة)، ومات سنة ٣٥١هـ (كذا) بالغا من العمر ثلاثًا وستين سنة، فدفن بالمعلا بمكة المكرمة رحمه الله.

وكانت فى عهد هؤلاء الخلفاء العباسيين اثنتا عشرة طبقة من الملوك فى سائر البلاد، كلهم مسلمون يذعنون لهم ويسكون النقود ويخطبون بأسمائهم.

دولة آل ساسان (الدولة الساسانية)

عدد ملوكها تسعة، ومدة سلطنتهم ٩١ سنة.

دولة الديالمة

عدد ملوكها خمسة عشر ومدة سلطنتهم ١٠٣سنوات. ثم قام فرع من دولة آل عباس فى بلاد الكرد "كردستان" وانقسم أيضا الى اثنتى عشرة طبقة.

الدولة العباسية الكردية (دولة آل عباس الأكراد)

تولت الطبقة الأولى منها على جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل، حيث إن لحكامها الآن عشرين ألف جندى من حملة البنادق.

والطبقة الثانية هى حكومة سيد خان الذى تحت إمرته الآن أربعون ألف جندى.

والطبقة الثالثة هى حكومة حاكم صوران التى تملك عشرين ألف رجل من الجند.

والطبقة الرابعة هى حكومة أردلان التى لها عشرة آلاف رجل من الجند.

والطبقة الخامسة هى حكومة حاكم حرير التى تملك خمسة عشر ألفا من حملة البنادق.

والطبقة السادسة هى حكومة بنيانشى التى لها من المقاتلين خمسة آلاف.

والطبقة السابعة هى حكومة حاكم المحمودى الذى يملك ثمانية آلاف عسكرى وهم فى غاية الشجاعة وحسن التنظيم والتدريب؛ حيث يتفوقون فى ذلك على جميع عساكر كردستان الأشداء.

والطبقة الثامنة هى حكومة حاكم حكارى الذى يملك زهاء أربعين ألفًا من المشاة والعتاة حملة البنادق وعشرة آلاف من الفرسان المدربين.

هذا، وإن كاتب هذه السطور حينما انتدب بعد تخلى أفندينا إبشير باشا سنة ١٠٦٥هـ عن إيالة وان لملك أحمد باشا لحمل المقرر والخلع والكساوى التشريفية لحاكم حكارى (يزيد بن شير) عز الدين شير، شاهد عن كثب مدى ما عليه ذلك الجيش الحكارى العظيم من التدريب والتنظيم وإتقان فن إطلاق النار.

والطبقة التاسعة هى حكومة حاكم حيزان الذى يملك عشرة آلاف من العساكر.

والطبقة العاشرة هى حكومة حاكم بتليس الذى يملك عشرين ألفًا من الجنود، ويهيمن على عشرين عشيرة قوية.

والطبقة الحادية عشرة هى حكومة حاكم حظو (أو حزو) الذى يملك ثمانية آلاف من أقزام خالتى وجكوانى ويزيد من الأكراد.

والطبقة الثانية عشرة هى حكومة حاكم بالو الذى يملك عشرة آلاف جندى. هذه الحكومات الاثنتا عشرة مستقلة فى شئونها، وحسب قانون نظام السلطان سليم الأول لا يسرى على حكامها العزل والتنصيب، وينتقل الحكم والولاية من الحاكم إلى أولاده بعرض الوزير وتصديق السلطان على ذلك وإقراره؛ حيث تكتب فى البراءات والأحكام الصادرة عبارة "جناب عزت مآب"، كما أن أهالى تلك الولايات يطلقون على حكامهم هؤلاء لفظ أو لقب "خان"، ويعد حكام هذه الولايات الاثنتى عشرة أنفسهم من سلالة العباسيين وأحفادهم.

علاوة على ما تقدم فإن للأكراد إمارات وراثية يبلغ عددها مائتى "أوجاق" أسرة قديمة، وفى ولايات أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرزور وبغداد، حيث إن أمر تنصيبهم وعزلهم فى يد والى الولاية. وذلك كلواء "أكل" و"ميافارقين" و"كارنى" و"هروان" و"إسبير" و"وزريقى" و"باركيرى" و"ملازغرد" وغيرها من السناجق.

وقد قمنا بالسياحة والمنة لله فى هذه البلاد الجبلية الصخرية الكردستانية زهاء سبع سنوات، حصلنا خلالها على معلومات قيمة ومشاهدات عجيبة وكبيرة لو أردنا تدوينها كما رأينا وشاهدنا لتوجب علينا أن نسطر مجلدًا ضخمًا. إن "كردستان" هذا لو لم يكن سدًّا منيعًا وحاجزًا قويًّا بين آل عثمان والعجم لكان العثمانيون فى حرج وقلق وخوف مستمر من العجم الذين هم أعداء ألداء وخصوم أشداء.

هذا، وإن الذين ملكوا مصر من الأكراد هم من هؤلاء الأكراد العباسيين.

الدولة الكيانية (دولة آل كيانيان العجم)

قامت هذه الدولة فى بلاد إيران وما وراء النهر، وعدد حكامها أحد عشر حاكمًا.

الدولة الأشكانية (دولة آل أشكانيان)

عدد ملوكها سبعة، بلادها همذان ودرجزين وأردبيل. مدة سلطنتهم ٧٨ عامًا، كان آباؤهم وأجدادهم ملوكًا أيضًا فى زمن الجاهلية قبل الرسالة المحمدية، فهؤلاء السبعة صاروا ملوكًا فى العهد الإسلامى بعد المأمون، وأطلق عليهم لقب الإشكانيين.

دولة آل قروانيان

عدد ملوكها ستة، ومدة سلطنتهم (...)[٢٠٩] سنة.

دولة مامانيان

عدد ملوكها (...)، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

الدولة الساسانية (دولة آل ساسانيان)

عدد ملوكها (...) نفرًا، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

دولة آل ماهان

ظهرت هذه الدولة فى أول الأمر فى ديار ماهان من بلاد ما وراء النهر، بيد أن ملوكها اضطروا إلى الرحيل والهجرة منها إلى بلاد أخلاط بسبب مطاردة آل جنكيز لهم، ملتجئين إلى السلطان أوحد الله الذى هو جد حكام "بتليس"؛ ولما كان هؤلاء الملوك على جانب عظيم من البسالة والشجاعة افتتن الأهالى بهم ونصبوهم

---

(٢٠٩) ترك المؤلف فراغات ربما لكى يكتبها بعد ذلك، ولكنه لم يفعل ذلك وإذا تركنا مكانها فراغًا كما هو .

أمراء وحكامًا عليهم مدى الأيام حيث دام حكمهم في "أخلاط" مدة مائـة وسـبعين سنة. فاضطروا بعد ذلك أيضًا إلى الجلاء والنزوح عن الوطن تـاركين أمـوالهم وأملاكهم فرارًا من مطاردة آل جنكيز لهم أينما حطوا وحيثما وجدوا. وقد التجـأوا إلى السلاجقة بقونية. وبينما هم يواصلون السير في الطريق إلى الروم مروا بنهـر "مراد"، فأخذ رئيسهم سليمان شاه في النـزول إلى النهر بجوار قلعة حعبد الواقعـة عليه ليغتسل فيه فغرق في الماء. واختير أرطغرل رئيسًا على القوم فتوجه بهم إلى صحراء قونية، وإذا بحرب عظيمة تدور رحاها بين السلاجقة وبين جموع التتر، وكان أرطغرل وأتباعه يشاهدونها من فوق جبل عال. ولما تبينوا الغلبة فـي جانـب التتر والهزيمة لاحقة بالسلاجقة لا محالة بادر أرطغرل الشهم الهمام إلى الهجوم بمن معه من الجنود البالغ عددهم سبعمائة فتى علـى هـؤلاء الغـالبين مـن التتـر، وأمطروهم بوابل من السهام وأخذوهم بالسيوف البواتر من كل جهة حتى مزقـوهم شر ممزق، لأن حب الانتقام وأخذ الثأر من هؤلاء التتر مازال كامنًا في نفوسـهم من يوم خروجهم من ماهان.

ولا شك في أن هذه الفتوحات العظيمة الفجائية قد أحيت السلاجقة من جديـد وجعلتهم يلهجون بألسنة الشكر والدعاء لأرطغرل وقومه، فأغدق سلطان السلاجقة عليه بالإنعامات والخلع والرتب، وجعله أميرًا من أمراء السدة السلطانية ثم أعطـاه مالاً كمال قارون، وأباح له امتلاك جميع الأراضي التي يفتتحها من تكفور بروسه ونصبه قائدًا على تلك الجهات.

ومن حكمة الله البالغة ودلائل توفيقه أن النجاح كان حليف أرطغـرل أينمـا اتجه، فكان ينتصر في جميع حروبه ويوفق في جميع غزواته وجهاده ويعود إلـى البلاد محملاً بالأسلاب العديدة والغنائم الكثيرة فيوزعها علـى القاصـي والـداني. وأرطغرل الماهاني هذا هو جد آل عثمان. فلا تزال جثث هؤلاء الملوك والحكـام موجودة غضة بكامل أسلحتهم علي عروشهم الاثني عشر تحـت القبـاب العاليـة بمدينة أخلاط المذكورة. ولقد رآها كاتب هذه السطور حين زيارتـه لهـا. ومـن

الأمثال الشهيرة المتداولة بين الأصدقاء والأحبة القول (أن فلانًا أصبح كقدير أخلاط)، ففى هذا إشارة إلى الجثث التاريخية فى أخلاط.

ولا شك فى أن آل ماهان هم أجداد العثمانيين المؤيدين من الله إلى قيام الساعة، والمسيطرين الآن على جميع بلاد العراق وعاصمتها بغداد الشبيهة بجنات الفردوس والخلد، وعلى أم الدنيا مصر القاهرة نادرة العصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد المجر والروم والعرب والعجم. وهم الموصوفون بسلاطين البرين والبحرين وحماة الخلافة.

ذكر دولة آل رسول

عدد ملوكها خمسة عشر. ملكوا اليمن وعدن وصنعاء وصنعان. ويُطلق على بلاد اليمن اسم جزيرة العرب، وهى من الأقاليم العربية، يحيط بها بحر القلزم من الشرق إلى الجنوب ومنه إلى الغرب. والجهات الأخرى محاطة بالبر، بحيث يقطعه خط من الشرق إلى الغرب من بحر الإحساء إلى بحر اليمن.

هذا، وهناك عدة وجهات نظر فى تسمية هذا الإقليم باليمن:

١- إذا توجه المرء نحو الشرق فى بلاد اليمن بقى هذا الإقليم عن يمين الشخص؛ فقالوا اليمن من اليمين.

٢- وقالوا إن الإقليم يقع عن يمين الكعبة الشريفة. وفى الجاهلية كان يُطلق لقب "تُبَّع" على ملوك اليمن ويجمع على "تبابعة". ولكن حكامها الآن يسمون ملوكًا من يوم ما ملك هؤلاء السادة الكرام. وأما الآن فيسمى واليها "الإمام". وقد خضعت اليمن للسلطان مراد الرابع العثمانى(٢١٠)، ولكن أهاليها

---

(٢١٠) السلطان مراد الرابع العثمانى: (١٠٥٢ - ١١٠٥ هـ = ١٦٤٢ - ١٦٩٣م) بعد تنحية السلطان إبراهيم عن العرش بالقوة فتح الطريق على مصراعيه أمام ولى العهد محمد لكى يكون سلطانًا. فتولى العرش فى الثامن من أغسطس سنة ١٦٤٨م وهو مازال صغيرًا، مما أدى إلى زيادة القلاقل. ولكن عندما اشتد عوده عين فى الصدارة من هم على علم وخبرة ودراية. وعقد العديد من المعاهدات مع النمسا والصرب، ولكنه قام بحروب على روسيا وكريت وفتح الأخيرة. وتوجه إلى ليهستان للمرة الثانية سنة ١٦٨١م، وعقد معاهدة صلح مع الروس، وفى سنة ١٦٨٢م قرر الدخول فى حرب=

ينتحلون مذهب الزيدية الذى يبيح نكاح المتعة جهارًا؛ أعنى أن الواحد منهم يستأجر امرأة لنفسه لبضعة أيام يتصرف فيها ثم يتركها لآخر. وينقسم الإقليم إلى أربع حكومات لا تخضع الواحدة للأخرى. وسكان الجبال منهم أعراب صغار الأجسام مجردون من الثياب، ولكنهم رماة بارعون ومحاربون ماهرون. والشعب عامة فى غاية الصلاح والتقوى؛ لأن أكثره من الشرفاء وأحفاد الصحابة الكرام. ففى عهد النبى - عليه الصلاة والسلام - قد نزح أكثر الصحابة إلى إقليم اليمن. وقد ورد فى حقه حديث (عليكم...) وكم به من الأولياء ذوى الكرامات الظاهرة.

دولة شرفاء مكة أعنى آل هاشم

قامت دولتهم فى الحجاز والطائف والمدينة ووادى القرى حتى مدينة ثمود. وقد اتحد شرفاء مكة هؤلاء مرارًا مع شرفاء اليمن فبذلوا الهمة والجهود للاستيلاء على بلاد مصر، غير أن عملهم لم يكلل بالنجاح قط. وعدد ملوك هذه الدولة ثمانية وثلاثون حسينيًا من النسب الطاهر. لا تزال دولتهم قائمة حتى الآن، ويطلق عليهم آل الحيدرى أيضًا.

دولة شرفاء مكة أعنى آل قتادة

عدد ملوكها سبعة؛ ينتهى نسبهم إلى على بن أبى طالب [كرم الله وجهه] ويزعمون أنهم من أولاد الأنبياء من عهد إسماعيل عليه السلام، وأن أجدادهم قبيلة "جرهم" التى هاجرت من اليمن إلى مكة وتوطنت بها، حيث تقدم إسماعيل إليها وتزوج منها بنتًا فأنجب منها سيدنا... الذى بلغ من العمر أربعين سنة فنزلت عليه صحف باللسان العربى، ويقال إن اللسان العربى تمت المحافظة عليه من ذلك اليوم.

=ضد النمسا، ولكن نتيجة للهزيمة التى منى بها الجيش تم إعدام الصدر الأعظم قره مصطفى باشا المرزفونى. وخلال سنتى ١٦٨٤ و١٦٨٥م فقدت الإمبراطورية بعض قلاعها المهمة، وسقط بعضها الآخر فى أيدى الأعداء دون حروب تذكر، وفقدت المجر تمامًا بعد سقوط بودين فى يد العدو سنة ١٦٨٦م، ثم موهاج ١٦٨٧م، وأثينا سنة ١٦٨٧م، وعلى الرغم من كل ذلك، افتتح فى عهده العديد من الجوامع والمؤسسات المعمارية الكبيرة. أنزل عن العرش فى الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٦٨٧م. (انظر .(Osmanlı padişlarım Ansık

ومن جهة أخرى نصرح بأن هناك في الممالك المحروسة التي زرناها مئات الألوف من العشائر السيارة في البراري والصحاري والسهول لها رؤساؤها وأمراؤها، كما أن في جبالها الصخرية وصحاريها المقفرة قبائل وطوائف وجماعات لها زعماؤها وحكامها، ولكن ليس لهم خُطب تتلى ولا سكّة تُضرب. فلذا صرفنا النظر عن ذكر هؤلاء مع أنهم أيضًا من أصحاب السيف والقلم وحكوماتهم مؤيدة من الله الحكيم الذي أعطاهم الحكم وأسباب السيطرة؛ بحيث يتمكن خليفة وجه البسيطة بواسطة هؤلاء الرؤساء والزعماء من تأديب العبيد العنيدين، فيقي الناس شرورهم وفسادهم في الأرض، كما ورد في الشعر الفارسي.

[وهنا أورد المؤلف بيتًا من الشعر معناه]:

إذا لم يكن السلطان قائمًا في بلد فإن بيوت المظلومين تكون طُعْمَة للظلمة

وما ذلك إلا لأن الله تعالى جعل نفع الخلفاء لعباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب الطاهرين. فماذا لله تعالى إذا لم تكن الخلافة العظمى وأسباب السلطنة العليا قائمة على وجه الأرض، فإذن لما لم يكن هناك إيمان ولا إسلام ولا تقوم قائمة للاعتقاد والطاعات ولا العبادات ولا سائر الأوامر والنواهي الإلهية، تختل الأمور الدينية ويسودها الفساد، كما في الآية الكريمة في سورة الحج ﴿ ... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [الحج ٢٢/٤٠]. فهي دليل قاطع على ما نقول نسأل الله تعالى أن يديم عيد الخلفاء على ظهر الأرض. وكذا الحديث الشريف الذي معناه "لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا" ففيه تأكيد على موضوع الخلافة[٢١١].

---

(٢١١) هذه الدول والملوك لم تكن لهم أي علاقة بمصر. ولذا فأنا أرى أنها تخرج من نطاق رحلة مصر والسودان وبلاد الحبش. ولكن أمانة الترجمة اقتضت أن نترجمها في سياقها، ولعلها تفيد في رسم صورة عامة للدول التي كانت معاصرة لمصر خلال رحلة أوليا چلبي.

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

أول من أقام الخلافة على وجه الأرض في الإسلام هم الخلفاء الراشدون المرشدون وكلاء صاحب الرسالة المحمدية. وإليك أسماؤهم الشريفة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى[رضي الله عنهم]. ولقبهم في اللسان العربي "أمير المؤمنين" ويُطلق هذا اللقب أيضًا على الإمامين الحسن والحسين والخلفاء الأمويين والعباسيين. وأول من ملك مصر من هؤلاء الخلفاء الأربعة الراشدين هو سيدنا عمر بقيادة عمرو بن العاص. ثم من بعده ملكها الأمويون، ثم العباسيون الذين هم طبقتان: إحداهما كانت ترسل من قبلها نُوّابًا من بغداد، والأخرى هم هؤلاء الخلفاء الذين أتى بهم الظاهر بيبرس، وهم آل عباس الذين تشردوا في الصحارى والبرارى فرارًا من التتر، بعد استيلاء هولاكو على بغداد وانقراض العباسيين بها، وقد أقامهم خلفاء بمصر.

بلاد مصر والإخشيديين

جميعهم خمسة حكام، ومدة سلطنتهم ٣٥ سنة. في عهد هذه الدولة جلس ملك عظيم الشأن من الفاطميين على بلاد المغرب يُدعى معز الدين "قاهرة" إلى عبد من عبيده السود الأحباش يُدعى أزهر، وسلَّمه مبلغ عشرين ألف كيسةٍ، وأرسله إلى مصر يستأذن الإخشيديين في مصر في السماح له لبناء أثر له عظيم بها. ولما جاء العبد المملوك أزهر إليها وأجيب طلبه شرع في بناء "جامع الأزهر" الذى صار سببًا في تدفق حشد من البنائين والحَفَّارين والعمَّال من بلاد المغرب إلى مصر فملئوها عن آخرها. وبفضل إحسان "أزهر الحبشي" إلى علماء مصر وإغداقه الإنعامات وإجرائه الصدقات على الناس من كل الطبقات، تمكن من ملء الجامع قبل أن يتم بناؤه بآلاف من الطلاب والعلماء ومن ذوى الحاجات. وبينما الأمر يجرى على هذا المنوال إذا بأهل مصر يسمعون ذات يوم حينما أوشك الأزهر على الانتهاء من البناء أن معز الدين "قاهرة" قادم إلى مصر. وقبل أن يستعدوا للدفاع

عن مصر دخل معز الدين مصر وانتزعها من أيدى الإخشيديين وأمّ جامع الأزهر وصلى به. وقد سميت مصر القاهرة لأن فاتحيا من المغرب هو معز الدين "القاهرة". عدد الملوك أربعة عشر، ومدة سلطنتهم مائتان واثنتان وستون سنة.

المماليك البحرية (آل بنى البحرية)

عددهم ثمانية وعشرون. ودامت حكومتهم مائة وستًا وثلاثين سنة. هذا، ولما اغتال مماليك مصر الظافر بالله بن الحافظ لدين الله من الفاطميين وأقامت عوضًا عنه أبا القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله، وشاع خبر هذا الحادث فى بغداد وبلغ ذلك مسامع المتقى بالله من الخلفاء العباسيين، ابتهج لذلك أيما ابتهاج، فبادر إلى تعيين أحد وزرائه - وهو الملك نور الدين محمود بن زنكى - حاكمًا للشام ومصر. ولقد قَدم هذا الوالى بعساكر جرارة وفتحها ثم ذهب إلى الشام وحاصر قلعتها، ولكن حاكم الشام المدعو ناصر الدين طغتكين قد بالغ فى الدفاع وأبلى بلاء حسنًا فى القتال، ثم اضطر إلى التسليم بمن فى القلعة صلحًا لنور الدين محمود وكان ذلك فى سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨م.

الدولة الجركسية (دولة آل جراكسة)

أول ملوكها برقوق وآخرهم طومانباى. ومدة سلطنتهم ١٣٩ سنة. وجملة ملوكها ٢٥ نفرًا. وهؤلاء الجراكسة قد تخلفوا أولاً عن نجم الدين الصالح الذى كان له اثنا عشر ألف مملوك من الخيّالة والفرسان. وفى رواية أخرى أن أصل هؤلاء المماليك هم أولئك المماليك والأرقاء الذين اغتنمهم السلطان فرج من تيمور المحروم من البصيرة والنور، حيث عاد بهم إلى مصر محملين بالمال الكثير والرقيق الوفير، الجركسى والأباظى والكرخ والروس، وقد بقوا فى مصر منذ عهد السلطان فرج.

فالسلاطين الذين حكموا مصر كما أوضحنا سابقًا مذكورون على الترتيب. وبعد هؤلاء الجراكسة جاء العثمانيون.

أول من ملك مصر من آل عثمان

هو السلطان سليم الأول، وسنذكر - إن شاء الله - في محله جميع وقائع غزوه مصر. هذا، ولقب ملوك مصر القدماء لفظ فرعون وجمعه فراعنة. ومنهم من كان يُلقب بـ "عزيز" ومنهم من يُدعى قبابطة، وجمعه أقباط.

وبعد أن فتح السلطان سليم مصر أطلقوا عليه خادم الحرمين الشريفين وذلك بموجب الخطبتين اللتين أنشأهما كل من أحمد أفندى ابن كمال باشا وأبى السعود أفندى[٢١٢]. كما أن السلطان سليمان "القانونى" حين افتتح المجر "انكروس" لقب بـ "صاحب قران زمان". وفى سنة ٩٢٩هـ = ١٥٢٢م حينما سيطر السلطان سليمان على جزيرة رودس من أيدى كفار مالطة أفضى ذلك إلى فتح سبعمائة وستين جزيرة أخرى فى البحر الأبيض المتوسط، بادر أيضًا كل من ابن كمال باشا وأبى السعود أفندى إلى نعت السلطان وتلقيبه بسلطان البرين وخاقان البحرين. وكذا أطلق علماء الروم لقب سيد العرب والعجم على السلطان سليمان القانونى حينما فتح بغداد الشبيهة بالجنة. وكذا وصف هذا السلطان بعبارة فاتح المغرب حينما تم له فتح طنجة والجزائر وتونس وطرابلس من بلاد المغرب، وكذا وصف السلطان بفاتح المغارب والمشارق حينما أتم الطواشى سليمان باشا والى مصر - بإذن من السلطان سليمان القانونى - فتح سبعة أقاليم وسبعة بنادر فى بلاد الهند. حقًا إن السلطان سليمان الذى

---

(٢١٢) أبو السعود أفندى: شيخ الإسلام أبو السعود أفندى (٨٩٦ - ٩٨٣هـ = ١٤٩٠ - ١٥٧٥م) محمد أبو السعود أفندى، هو شيخ الإسلام الرابع عشر فى الدولة العثمانية. والده من علماء الدولة، والدته هى سلطان خاتون ابنة العالم على قوشجى. عرف أيضًا باسم خوجة جلبى. تلقى علوم عصره على أشهر علماء الدين والعلوم المثبتة. السلطان بايزيد هو الذى أطلق عليه لقب جلبى وهو مازال طالبًا وقد أحسن إليه براتب يومى مقداره ٣٠ آقجة،بدأ فى سلك التدريس منذ سنة ١٥١٦م، واستمر بها حتى عُين قاضيًا لبورصة سنة ٩٣٩هـ = ١٥٣٣م. ثم نقل إلى قضاء إستانبول ثم عين قاضيًا للعسكر، وبعدما قضى ما يزيد عن ثمانى سنوات فى هذه الوظيفة عين شهرًا. له عدة مؤلفات، وله تفسير للقرآن الكريم يسمى "مزايا القرآن العظيم" ويطلق عليه سلطان المفسرين. كما أن له إلى جانب الفتاوى أشعارًا باللغات الإسلامية الثلاث العربية والتركية والفارسية. انظر للمترجم: "إستانبول عبق التاريخ روعة الحضارة"، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص ٦٦.

حكم البلاد ثمانية وأربعين عامًا قد أكثر من فتح البلاد والقلاع بالأقاليم السبعة من المعمورة وأضافها إلى ممالك آل عثمان رحمة الله عليه.

هذا، وكان آل عثمان في بادئ الأمر يلقبون هكذا: غازى عثمان بك، وأورخان بك، ويلدرم بك، ومراد بك...، إلى أن تولى الحكم أبو الفتح محمد الثانى "الفاتح" فأطلق عليه علماء الروم لقب "ألو الأمر"؛ لأن أبا الفتح كان محبًا للعلماء ومقدرًا للفضلاء، فاستقدم جميع العلماء المتبحرين والمشايخ الفطاحل من الأقاليم السبعة وقربهم إليه وأخذ يُقربهم منه ويجالسهم ويباحثهم إذ كان هو أيضًا من السلاطين العلماء العاملين، وأصحاب الكمال المجاهدين فى سبيل الله. ولما كان جالسًا على سرير ملكه كان يتحلى بزى العلماء فيضع على رأسه عمامة مثلهم، ويجلس مجلسه بالديوان السامى على نسق مجلس العلماء. ولم يكن قبله أحد من السلاطين يلبس زيًا عرفيًا هكذا سواه. وإن وصف تيجان الملوك السابقين وعمائمهم ليس فى الإمكان الآن، ولكنه غير خاف على أهل الدراية وأصحاب الحب والهيام الواردين على مدينة بروسه.

عندما فتح السلطان أبوالفتح إسلامبول كان فى معيته أثناء ذلك سبعون شخصًا من كبار أولياء بلاد العجم والعرب وخراسان والعراق؛ أمثال الولى آق شمس الدين وأنصار ده ده الولى الكورانى. ومن المجاذيب الولى، ومن العلماء الملا الكوارنى وأمير بخارى و... وغيرهم من كبار العلماء. ومنْ هؤلاء العلماء مَنْ لقبوا السلطان بأبى الفتح محمد الثانى، ولكن علماء الروم اقتصروا على تلقيبه بالسلطان، وأما مشايخ العجم فإنهم لما شاهدوا مدى إحسان السلطان يوم الفتح وكيف يغدق النعم على الناس وكأنه ملك الإحسان، فقد بادروا إلى وصفه بلفظ "خنكار" خانكار. وقد جمع أبو الفتح محمد الثانى عساكر الإسلام فى إسلامبول بعد الفتح فى ميدان السهام "أوق ميدانى"، وأقام لهم مأدبة فخمة وملأ طرف ثوبه خبزًا "خوانًا" ووزعه على الغزاة المسلمين. و"خوان" يطلق فى اللغة الفارسية على الخبز. وحيث إن السلطان قد وزع فى ذلك اليوم المشهود "خوانًا" فقد سماه علماء

العجم بلفظ "خوانكار". وفي رواية أخرى أنه في أثناء محاصرة السلطان لمدينة إسلامبول أنشأ جلالته مائتي سفينة من نوع الفرقاطة في المكان المسمى الآن "لوند جفتلكي"، وقد جرها مفتوحة الأشرعة فوق الجلود المفروشة في ميدان السهام حتى حديقة ترسانة وأنزلت إلى البحر، وذلك بواسطة عساكر "عزبان" ورأى القبطان "شاه قولي" فظلت هنالك هذه السفن على أتم الاستعداد مجهزة بكل التجهيزات من عدد ومعدات. ولا تزال آثار السحب والجر في ميدان السهام ظاهرة بادية، ولما رأى الملك الملقب بـ "تكفور" - وهو واقف في المكان المسمى الآن "سراي تكفور" بداخل قلعة إسلامبول - أن سفنًا تمشي على الأرض وهي مفتوحة الأشرعة ساوره القلق وتسرب إلى نفسه اليأس من نجاة القسطنطينية من العدو. لأنه كان قد قرأ في كتبهم، بقوة علم النجوم، أن [محمدًا معمم بعمامة القضاة من قوم محمد وملته سوف يأتي إلى القسطنطينية على رأسه عمامة قاض، وهو راكب بغلة وبساطه من السيور والقايش، وثيابه من الصوف وحذاؤه باللون السماوي الأزرق، وأنه سيجري السفن على الأرض وسيتمكن من الاستيلاء على القسطنطينية] وهذه العبارات مسطورة في العمود المربع المنصوب في ميدان السباق "آت ميداني" وهي ظاهرة لمن يمعن النظر فيها.

هذا، ولما شاهد الكفار ورأوا أن السفن تجري من البر إلى البحر اتجهوا إلى البحث عن تدبير يجنبهم الورطة التي وقعوا فيها. وإذا هم يرون في الأفق أن نجدة قادمة إليهم بإذن الله وهي ظهور اثنتي عشرة قطعة من سفن "الغليون" أمام القرن الذهبي أمام "سراي بورني" مرسلة من قبل كفار فرنسا. وهكذا كان الكفار جميعًا مطمئنين لناحية البحر منهمكين كلهم في القتال في الجهات البرية، وكان الملك تكفور حينذاك في سراي تكفور في "اكري قبو"، فلم يكن يتصور أحد قدوم أو ظهور شيء في جانب البحر أو أن يطير طائر في السماء في تلك الجهة. لأن ألف مدفع من "مدافع باليمز" كانت موضوعة في "سراي بورني" ومائة مدفع في "قيز كله سي" وخمسمائة مدفع في الطوبخانة القديمة التي يقال لها الآن "كراج قبوسي" في حي غلطه.

ولقد رأيت وأنا صغير تلك المدافع موجودة فى كراج قبوسى تُطلق فى أيام العيدين ابتهاجًا وفرحًا. ولما عيّن السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا على بغداد ونصبه قائدًا عامًا لحمايتها، صُيرت تلك المدافع وصنُعت منها مدافع صغيرة من نوع "بالميز" وأرسلت بالسفن إلى الإسكندرية ومنها إلى قلعة "بيره جك" "ألبيرة" فى مدة ثلاثة أيام، حيث أرسلت منها إلى بغداد بمراكب تسمى "كلك طوف" فى نهر مراد.

ونقول إن مضايق الذهبى المثلثة (ساج آباغى) (سراى بورنى) هذه كلها كانت مُحَصَّنة ومُجَهَّزة بمدافع "بالميز" بالجبارة؛ فلذا لم يكن يعتريهم أى خوف ولا قلق على أنفسهم، وقد تقدمت السفن القادمة بنجدة لهم بلا وجل إلى ميناء البطريكخانة المسمى "فنار قبوسى"، وأطلقوا وابلاً من نيران البنادق وبضع طلقات من المدافع ابتهاجًا بسلامة الوصول ثم ألقوا المراسى، وأخذ بعضهم ينزل إلى البر.

وبينما هم كذلك وإذا بسفن السلطان محمد من الفرقاطات البالغ عددها مائتين تتجه إلى الميدان بقيادة الرئيس "شاه قولى" كالصاعقة وتنقض على سفن الكفار وتستولى عليها جميعها دون أن تترك لها الفرصة لأن تُطلق طلقة واحدة. وحينما تمت السيطرة على تلك السفن البالغ عددها اثنتى عشرة سفينة، وأخذ يجرها ويسحبها إلى حديقة الترسانة، كان من فيها من كفار فرنسا يصيحون بلغتهم الخاصة بقولهم : Ki Perlar Sinyor Ki Perlar "كى پرلار سينوركى پرلار"[٢١٣] فيجيب عسكرنا: "نحن لا نقسمها بل نأخذها كلها ونقوم بتشغيلكم فى أعمال التجديف وفى التشهير بكم فى البلاد سائحين فيها معكم لنأخذ الكفار كلهم من نواصيهم ونوقعهم فى ذلك الأسر". ومما لا شك فيه أن هذا الحادث المفاجئ قد فت فى عضد الكفار وأوقعهم فى حيرة.

وما إن علم السلطان نبأ الفتح المبين والانتصار الباهر - وقد كان يجاهد فى باب أدرنة - حتى بادر إلى الركوب من مرفأ ياودود زورقا وجاء إلى حديقة

(٢١٣) المعنى المقصود هو أن جنود الفرنجة يطلبون اقتسامها فيرد عليهم الجنود العثمانيون بأنهم لن يقسموها.

الترسانة، حيث شاهد فيها اثنتى عشرة قطعة من السفن الضخمة تبدو كالكتل السوداء من الجذوع والأورمة الجهنمية، مليئة بالغنائم والأسلاب، فأخذ منها العشر الشرعى حسب الأصول، ووزع الباقى منها على المجاهدين الذين قاموا بالغزو والهجوم.

وقد كانت إحدى تلك السفن تحمل بنت ملك فرنسا وهى بارعة الجمال كأنها الشمس يبهر سناها العيون، وكانت مخطوبة لملك إستانبول الملقب بتكفور، وقد كان هؤلاء الكفار قد هاجموا بلاد الإسلام ليأخذوا منها جوارى خاصة لهذه العروسة العظيمة والدرة اليتيمة، وقد أغاروا على بلاد عكا وغزة والرملة وأسروا منها زهاء ألف بنت من بنات الأمة المحمدية وهن كالأقمار والشموس. وكانت هذه الجوارى الأسيرات أيضًا موجودات بين تلك الغنائم حيث سلمهن السلطان لأمانة الشيخ آق شمس الدين، وذهب هو بنفسه لمتابعة حصار القلعة وإتمام فتحها. وقد تم ذلك بإذن الله وأمره الكريم فى اليوم الذى عيّنه وحدده بالضبط الشيخ آق شمس الدين من شهر تموز "يوليو" فى سنة ٨٥٧هـ = ١٤٥٣ م. وقد وقع لفظ "آخرون" تأريخًا لذلك حيث إنه يساويه بحساب الجُمَل.

ولما فرغ السلطان محمد من فتح القسطنطينية عقد قرانه على بنت ملك فرنسا، وأمر بالأفراح العظيمة وتوزيع الصدقات وبذل الخلع، بعد أن دعا له الشيخ آق شمس الدين بالبركات، قائلاً له: "إنى لأرجو منك أن تقوم بواجبات السلطنة والحكم كما ينبغى، وأن تفرق الخبز وتوزع الخيرات والإحسانات على الغزاة المؤمنين الذين شاركوك فى شرف فتح إسلامبول حتى يكون إطلاق لفظ "خوانكار" عليك صحيحًا وجديرًا". فما كان من السلطان محمد الفاتح إلا أن أنعم بالإقطاعات الكثيرة، والتى بها تيمارات وزعامات على جميع الغزاة المسلمين، وبذلك تلقب بخنكار "المنعم والمحسن". وجريًا على عادة تلقيب السلاطين بالألقاب فقد أصبح سلاطين آل عثمان يلقبون بلقب غازى، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر،

وسيد العرب والعجم، وصاحب قران "المسعود" الشرق والغرب. هذا هـو سـبب تسميتهم بلفظ "خُنكار"، والسلام.

هذا، وإن عربان مصر يصيحون بقولهم "الله ينصر السلطان سـليم" حينمـا فتح مصر. وأما العجم فيطلقون على آل عثمان عبارة "شاه بلاد قيصر" كما يقولون لشاههم "شاه بلاد إيران" ويطلق على أمير الحج بمصر لقب سلطان البـر، وإنـه لجدير بأن يطلق عليه لقب السلطان؛ لأن إعانة جيش آل عثمـان لقافلـة الحجـاج المسلمين خدمة كبيرة وعظيمة. كما أن هناك من بـدو البيـداء بعـض أصـحاب البيوتات الشريفة نزلنا عليهم ضيوفًا فى أكثر سياحاتنا وعديد رحلاتنـا. ويطلـق العربان على هؤلاء الرؤساء أيضًا لفظ سلطان البر. بينما عربان بر الشام وسـكان باديته يطلقون على مدن صحاريهم هذه الألفاظ : آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل رياع وآل بنى زهد، وكذا يقولون نظام الدولة وكافل مصر ووالى مـصر، كمـا أن رجـال شرطة مصر "صوباشية" يختارون من بين رجال فرقة "المتفرقة" فيلقـب رئـيس شرطة مصر أيضًا بعبارة والى مصر؛ لأن وظيفة الصوباشية "الـشرطة" قديمـة جاءت إلينا من عهد الفراعنة، إذ الفرعونية أيضًا ناشئة من الصوباشية(٢١٤) وذلـك أن أحدًا من الصوباشية عثر ليلة من الليالى بملك عصره طائفًا متنكرًا فقبض عليه فى سوق الصليبة فورًا، ونادى بنفسه سلطانًا وفرعونًا مستقلاً هاتفًا بقوله "أنا ربكم الأعلى"، ثم مرت الدهور والشهور فلم يبق بعدها أثر لوظيفة الصوباشية قط، حتى إن سيدنا الإمام الشافعى حينما قدم إلى مصر لم يكن بها "صوباشى".

---

(٢١٤) الصوباشية: أمين البلدية أى مدير الأمن؛ اصطلاح إدارى عثمانى كان يُطلق على كبـار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى. وكانت أعمالهم تـشبه أعمـال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى. وكان عثمان خان – مؤسس الدولة العثمانية –أول من أسند هذا المنصب إلى أخيه. كما أسند أعمال الحكومة إلى ابنه أورخان بك، وذلك بعد فتح قره حصار. (عاشق باشازادة تاريخى ص ٢٠) كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين "سليمان بك" صوباشا بك على إستانبول بعد فتحها، وفوضه فى أمر تعميرها وإعمارهـا. [تاج التواريخ جـ١ ص ٤٤٧].

حكاية غريبة

عندما جاء الإمام الشافعي من بغداد إلى مصر ووطئت قدماه أرضها واستقر بها، أغار اللصوص على بيته وسلبوه جميع تأليفه وثمرات اجتهاده التي كانت مدونة في أوراق كثيرة غير منظمة تقدر بالأحمال ومئات المجلدات. فتألم الإمام كل التألم لما أصابه من ضياع تلك الكتب والتصانيف التي أفنى عمره في تأليفها وجمعها، ولذا هرع إلى مقر السلطان "محمد أكراد" وطلب منه أن ينصب فورًا من رجاله رجلاً شديدًا في وظيفة الصوباشية ليقوم بالمحافظة على الأمن. فأجاب السلطان طلبه وعين رجلاً شديد البأس في وظيفة الشرطة، وإذا به رجل حازم عارف بخفايا مصر ملم بأمورها فقد عمد أول ما عمد إلى إقامة حفلة مولد[٢١٥] في منـزله في ليلة من الليالي، ودعا إليها جميع علماء مصر .

---

(٢١٥) حفلة مولد: المولد النبوي الشريف: عرف الأدب التركي نوعًا من الشعر الديني عرف "بالمولد"، وهي مدائح نبوية. وأهم هذه الأعمال هو "وسيلة النجاة" لـ "سليمان جلبي) [٨٢٥ هـ = ١٤٢٢م]، الذي نجح في التعبير عن عواطفه الدينية بطريقة صادقة، أقنع بها الطبقات المثقفة جنبًا إلى جنب مع الطبقات الشعبية.

وقد استخدم المولد للدلالة على تلك القصائد التي تنشد بمناسبة المولد النبوي الشريف، وما يصاحب الذكرى من ابتهالات دينية. وقد اختلفت الآراء الدينية حول الاحتفال بالمولد، فمن يقول إنها بدعة، ومن قائل إن الإنشاد وقراءة القصائد الدينية ليس بدعة، وإنما البدعة هو ما يصاحب ذلك من طبل وطرق للدفوف وما شابه ذلك، ومن قائل إنها بدعة حسنة وأن العرب هم أول من احتفلوا بمولد النبي صلى الله عليه وسلم عن زيارة المنـزل الذي ولد فيه يوم ميلاده. وأقام الفاطميون الاحتفالات الباهرة في مصر، ثم انتشرت حتى شملت العالم الإسلامي. وبدأ الاحتفال بالمولد النبوي في الدولة العثمانية يأخذ شكلاً رسميًا، مُنذ عهد مراد الثالث (٩٨٢ – ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ – ١٥٩٥م). وأنه قد أخذ مكانًا في تشريفات السلطان منذ سنة ٩٩٦ هـ وما زال ينشد إلى يومنا هذا في تركيا في مناسبات كثيرة خاصة مولد سليمان جلبي. انظر: (د. نجلا پك اولجاى إسلامي تورك، آنيسالتي، إستانبول سنة ١٩٦٦ ص ١٤٠١ – ١٥٣).

ومولد سليمان جلبي هذا كتابه ألفه مؤلفه وهو في الستين من عمره، حين كان يعمل إمامًا في مسجد بورصة في عهد بايزيد الثاني (٨٥١ – ٩١٨ هـ = ١٤٤٦ – ١٥١٣م) رغبة منه في إظهار فضائل الرسول محمدﷺ، ومكانته بين الرسل.

وعدد النسخ الموجودة في مكتبات إستانبول وحدها إحدى وخمسون نسخة لموالد مختلفة. وأرجح الآراء حول عدد أبيات هذه القصيدة هي أنها ٣١٧ بيتًا.

وفي أثناء السمر وتجاذب أطراف الحديث في شتى الموضوعات قال الصوباشي: "يا مشايخ، هلا سمعتم أن الإمام الشافعي تكرم علي وتسبب في تعييني صوباشيًا لمصر. وهذا حسن، ولكنه الآن يطالبني بأن أرشوه وأعطيه العطايا مقابل عمله ذلك، فهل هذا جائز في المذهب الشافعي؟ فأنتم علماء مصر هل تقبلون أن يلحق بنا هذا الظلم؟" فما كان من هؤلاء العلماء الذين كانوا يكنون الحقد والحسد للإمام الشافعي، لأنه صار صاحب مذهب مستقل، إلا قالوا جميعًا: يا أيها الوالي إياك أن تُعطيه فلسا واحدا فإننا غير معترفين بمذهبه، فالمذهب القديم لصاحب التفسير الجريري "جرير"، وأما كتبه الحديثة غيرها كلها فقد سرقناها منه وسنحرقها بعد بضعة أيام كلها بالنار ثم نرجمه هو أو نبعده إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشي هذا الخبر الخطير بكل هدوء ولباقة، وقال: "أيها النقباء والأساتذة الفضلاء أكملوا تلاوة المولد فستأخذون صرركم وعطاياكم كاملة مستوفية". قال هذا وانصرف هو بحجة القيام بطواف في المدينة وذهب إلى قصر السلطان "محمد أكراد" رأسًا ورفع إلى مسامعه ما سمعه من هؤلاء العلماء كلمة كلمة من غير زيادة ولا نقصان، فما كان من السلطان إلا أن ركب جواده وذهب بنفسه مع الصوباشي إلى مجتمع العلماء في بيت الصوباشي، وكبس عليهم وضرب نطاق الحصار عليهم وحبسهم هناك حتى تم تفتيش بيوتهم، فوجد بها جميع أموال وأوراق الإمام الشافعي المسروقة. وانعقد الديوان السلطاني في صباح اليوم التالي وصدر عنه تفويض تام من السلطان وبإذن الإمام الشافعي وموافقته إلى الصوباشي باتخاذ ما يلزم نحو مجازاة هؤلاء العلماء السارقين، وعلى هذا قتل الصوباشي مائتي عالم من الذين خالفوا الشافعي ولم يبايعوه على إمامته وارتكبوا جريمة

وأهم المباحث التي تناولتها القصيدة توحيد الباري والتماس الدعاء، وبيان خلق العالم، وبيان فطرة العالم، وروح محمد، وبيان ظهور النبي محمد، وبيان معجزاته صلى الله عليه وسلم ومعراج النبي، وهجرة النبي من مكة إلى المدينة، وبيان ما يجب أن تكون عليه أمة محمد، ثم بيان بالنصح والإرشاد. انظر: (د. الصفصافي أحمد القطوري، ود. إدريس نصر، دراسات في الشعر التركي، القاهرة، ١٩٧٨م، مولد سليمان شلبي، صـ ٣٥/٥٣).

التشيّع، وعامل مائتين آخرين بالصفح والمغفرة لقبولهم التوبة عما بدر منهم في حقه، وتعهدهم بالعمل بمذهبه كما يريد. وهكذا ظهرت كتب الإمام الشافعي للعيان وراج مذهبه بمصر منذ ذلك الزمان.

هذا، ولا يزال يقوم الصوباشي كل صباح في مصر بالأمر، ومعه ثلاثمائة قواص حاملين النبابيت في أيديهم واثنا عشر جلادًا يفتحون له باب الشرطة في حضور جميع أتباعه وجنوده، ويرفع الجميع أيديهم إلى السماء داعين الله تعالى بقولهم: "اللهم ارحم قدوتنا وباعث رفعتنا سيدنا الإمام الشافعي" ثم ينتشرون في الأرض ويلجون الأزقة والشوارع متجسسين وباحثين عن اللصوص والسارقين والنشالين.

فيلقون القبض عليهم أينما كانوا، إذ إن جميع أولاد الزنا من لصوص مصر وأهل الفساد منهم مسجلون ومقيدون في دفتر الصوباشي الجبار. وإذ كان الصوباشي حاملاً تفويضًا مطلقًا فإنه يسمى "والي الولاية"، ويهابه الأشقياء على اختلاف ألوانهم ومشاربهم لأنه يقدم على قتل من يشتبه في أمرهم فورًا سواء أكان مذنبًا أم غير مذنب، وذلك بمجرد المرور أو العثور عليهم إذا كانوا متلبسين بأوضاع غير مقبولة.

إلا أنه يُقال لا يمكن ضبط فلاحي مصر "أهل مصر" إلا بهذه الطريقة، فالأمن لا يتوطد والنفوس لا تصلح إلا بها. ولا سيما أن بين هؤلاء الأشقياء والعابثين بالأمن من يتواطأ مع من هم على زي العلماء والمشايخ ذوي العيون المكحّلة وحملة المسابح والمساويك من الوعاظ والناصحين في الجوامع والزوايا.

وصفوة القول إن علماء مصر قد يرتكبون أنواع الأعمال غير المشروعة، فمنها أنهم يبيعون وقفًا من أوقاف الله باسم الإجارة الطويلة إلى الغير لمدة تسعين سنة، فيتبادله نسله بطنًا بعد بطن بالوراثة كالملك تمامًا، وعلى هذا المنوال قد وضعوا أيديهم على مئات من الأوقاف كدور القراءة والحديث، والمدارس،

فجعلوها بيوتًا ومنازل لهم؛ فلهذه الأسباب لا بد لمصر من حاكم حازم جبار شديد البطش. ومع ذلك فإنهم يثورون ضد نفوذ الحكومة دائمًا، والأمـــر الآن لـصاحب الملك والأرض فقط.

الفصل الحادى عشر

بيان الثمانية والأربعين سلطانًا وملكًا من حكام جزيرة مصر(٢١٦)

ليكن معلومًا لرحَّالة بلاد الروم "الترك" أن البارى تعالى قد خلق فى الربع المسكون من الأرض الأقيانوسات والمحيطات والبحر المتوسط وما فيها من مئات الألوف من الجزر الآهلة بالسكان من بنى آدم، والعلم عند الله. غير أن الله سبحانه وتعالى قد خلق فى بحار الهند والصين والسند اثنتى عشرة جزيرة. وحيث إن كاتب هذه السطور الفقير لم يتيسر له السفر إلى جانب الهند فقد امتنع عن الكتابة عن تلك الجهات.

هذا، وإن سبعمائة وستين جزيرة – ما بين صغيرة وكبيرة فى البحر المتوسط – تخضع لحكم آل عثمان، فمثلاً جزيرة القرم فى البحر الأسود وجزيرة قبرص وكريت المفتوحة حديثًا، كل واحدة منها تبلغ مساحتها سبعمائة وستين أو سبعين ميلاً على قول المهندس بطليموس وقول پادار "أوكولون" فاتح الدنيا الجديدة، وكذا جزر مدللى، ولمنى، وساقز، واستانكوى، ورودس، كلها تحت حكم آل عثمان، وهى جزائر ذات خصب وحدائق غناء، يبلغ مسطح كل واحدة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل. وفى البحر المتوسط أيضًا جزيرة تدعى "مسينا" مسطحها يبلغ سبعمائة ميل فى غاية العمار والخصوبة؛ لم يدخلها من يوم إعمارها أحد من الغزاة

---

(٢١٦) يطلق المؤلف على مصر "جزيرة مصر" ذلك لأن طوطيس أحد قبابطة مصر، الذى كان محبًا لسيدنا إبراهيم، أجرى نهر النيل من عند بنى سيف إلى بحر السويس لتمكين السفن من نقل الغلال من صعيد مصر إلى مكة. فصارت مصر جزيرة. وكان الرحالة يطلقون عليها "جزيرة مصر". انظر ذلك فى الجزء الخاص [بعد الفراغ من الحج].

والمعتدين، وهى خاضعة الأن للإسبان ومملكتيهم مثل جزيرتى ميورقة ومينورقة اللتين يبلغ مسطح كل واحدة منها سبعمائة ميل أيضًا، وهما من الخصوبة والعمران على جانب عظيم. وهناك فى البحر المتوسط جزيرة كورسيكا على مقربة من بلاد الجزائر يبلغ مسطحها سبعمائة ميل، على جانب عظيم من الخصوبة واتساع العمران، وتخضع تارة للإسبان وأخرى للبرتغال وهى الآن فى حكم الإسبان.

وإذا خرجت أيها القارئ من مضيق سبتة "جبل طارق" وتوغلت فى المحيط مسافة ألفى ميل إلى الغرب تصل إلى جزيرة الإنجليز، وهى جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس، وتقع عاصمة الملوك الإنجليز المسماة إنجلترا "لوندرا" الواقعة على نهر "لوندار" فى تلك الجزيرة الكبيرة، وهى مدينة عظيمة جدًا، وهناك غيرها من المدن فى غاية العمران يبلغ عددها سبعمائة مدينة كما يذكرها الرحالة الروم "الترك" حسبما هو مشهور فى أنحاء العالم، وهناك جزيرتان أخريان فى المحيط تدعى إحداهما برنده والأخرى؟! يبلغ مسطح كل واحدة منهما ألف ميل، وهما خاضعتان دائمًا لحكم الإنجليز ولكنهما ليستا عامرتين آهلتين بالسكان كجزيرة إنجلترا.

وصف الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة مصر

هى أرض القاهرة المعزية وهى جزيرة أكبر من جزيرة الإنجليز. ولقد قام جميع المهندسين والحكماء الأقدمين من كل الملل بالطواف حولها ألف مرة فى البر والبحر، وسجلوا طول النهار وعرض البلد وحالة الجو والمناخ، فوجدوا أنها جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية عشر ألف ميل، وأن شكلها مربع وجانبها الشمالى المتجه إلى النجم هو البحر الأبيض المتوسط الذى يبتدئ من مضيق سبتة حتى بحر العريش، حيث يبلغ طول السواحل فى تلك المسافة ألفى ميل، وتحتوى على بلاد سبتة، وطنجة، والجزائر، وتونس، وطرابلس، وجربة، وكريت، وبنى هلال وقضى

فى الصحراء ثلاثة أشهر حتى وصل إلى الإسكندرية ورشـيد ودميـاط (هكـذا!)، والإسكندرية (بعد مرور الصحراء فى الصحراء لثلاثة أشهر) ودمياط، وقلعة التينة، والعريش، وبعد مسيرة يومين فى طريق برى لا بحرى يأتى بحر السويس.

هذا، ولقد ذكرنا أن السلف من الملوك كانوا قد قطعوا هذه الأرض وحفروها بحيث صارت مصر جزيرة. وإذا سرت فى ساحل البحر السويسى تأتى أرض الصعيد الأعلى وبها من المدن والبنادر كثير. كما أن فى الساحل الشمالى لبحر السويس المتجه إلى النجم مقابل الساحل السابق الذكر فى أرض الكعبة "الحجاز"... قلاع المويلح، وينبع، وجدة وأراضيها. وفى الجانب المقابل لهذا أيضًا حيث جزيرة مصر توجد أرض الحبشة التى توجد بساحلها المطل على بحر السويس بنادر بُرغا، وقصيرة، وريدة، وأبريش، وآجون، ودنقلاب، وبندرات، ومدينة سواكن التى هى مركز باشا الحبشة، وبندر مدينة قف، ثم جزيرة دهلك، ثم جزيرة قلعة مصوع، ثم قلعة خارق أوا، ثم بندر زولة Zule، ثم قلعة هندية، ثم بندر توزلة، ثم بندر بيلولة، ثم بندر مدينة زيلع؛ حيث المسافة من ميناء السويس إلى هذا المحل تبلغ ألفى ميل. فهذه البنادر والمدن الواقعة فى ساحل بحر القلزم[٢١٧] – أعنى بحر السويس – مدن عامرة محسوبة أيضًا من جزيرة مصر.

هذا، والأراضى الواقعة وراء ذلك مبتدئة من البحر المحيط حيث مضيق زيلع المعدود من جزيرة مصر مارة بمنبع نهر النيل حتى مضيق سبتة، يبلغ طول مسافتها أربعة عشر ألف ميل، وهى تحتوى على بنادر ومدن عامرة كلها تخضع لملك البرتغال وليس لأحد غيره سلطة عليها. لأن هذا الملك قد تمكن من الإحاطة بالأربعين حاكمًا الذين هم فى جزيرة مصر من الجيات الثلاث. ولقد كانت مصر جزيرة عظيمة وكبيرة جدًا بحيث كان خط الاستواء واقعًا فى الشلال الكائن على مسافة عشرين منـزلاً ومرحلة من بلاد مصر، فإن كاتب هذه السطور حينما كان بها كان الليل متساويًا مع النهار بربع الدائرة.

---

(٢١٧) المقصود هنا ببحر القلزم البحر الأحمر.

فالإقليم الأول والثاني واقعان في جزيرة مصر، كما أن أول الأقاليم – بعدهما – الثالث يحوي مدن إسكندرية، ورشيد، ودمياط، وقلعة التينة؛ فهي لذلك جزيرة واسعة الأرجاء وعديدة الأقطار، يشقها النيل المبارك من الوسط حيث يأتي من الجهة الجنوبية نابعًا من جبل القمر الكائن في صحاري وبراري قاحلة مليئة بالحيوانات السامة والزواحف، لا يقطعها المرء بالسفر في أقل من سبعة شهور، فيصب في بحيرة متكونة من النيل نفسه الذي يأخذ بعده في قطع مسافة الطريق التي تبلغ مدة سبعة أشهر حتى يصل فرع منه إلى رشيد ويصل الآخر، وهو الأصل، إلى دمياط، ويطلق عليه حين يلتقي – وكأنه البحر – بالبحر الأبيض "مرج البحرين" إذ النيل يحلي الماء الأجاج في البحر لمسافة ثلاثمائة ميل، ويجعلها حمراء بحيث إن ركاب السفن القادمة من الروم إلى مصر حينما يريدون التحقق من اقترابهم لمياه مصر يعمدون إلى شرب ماء البحر؛ فإذا وجدوه سائغًا لذيذًا تيقنوا أنهم على مسافة مائتي أو ثلاثمائة ميل من رشيد أو دمياط، وإذا كانت السماء صحوًا والنهار منيـــرًا فيرون لون البحر أحمر من ماء النيل فيحمدون الله على ذلك ويضحون في سبيله الأضاحي والقرابين.

هذا، وفرع آخر من النيل يجري نحو السودان الواقع غربي جزيرة مصر. ويقال إن فرعًا آخر منه كان يصب في البحر الأبيض مارًا ببلاد بني هلال الواقعة في المغرب، تجاه جزيرة كريت، ومازالت مجاري ووديان هذه الفروع ظاهرة للعيان، حتى جاء سيف ذو اليزن وقطع مضيق الشلالات، وجرى النيل كله إلى مصر وانقطع عن الجري إلى بلاد بني هلال التي أملحت بعد ذلك وصارت قاحلة. كما أن فرعًا من النيل – بعد أن ينبع من جبل القمر – يجري إلى ولاية السودان الواقعة في الغرب ويصب في البحر المحيط.

وفي بلاد مصر مئات وألوف من الترع المتفرعة من النيل، إلا أنها ليست أصيلة بل اصطناعية؛ حيث تجري فيها المياه عند طغيان النيل، وسنذكر إن شاء الله الترع بالتفاصيل في محلها. وهناك أرض خالية تقدر بأراضي إقليم تقع بعد خط الاستواء جنوبي جزيرة مصر، لم يطلق عليها اسم إقليم ما لعدم توطن الإنسان

فيها لشدة الحر وكثرة الزواحف السامة بها، ولقد نقل لي محمد إدريس في بلاد الفونج أن تلك الأراضي يسكنها ويمتلكها الآن البرتغاليون الجدد.

وبلاد مصر هذه جزيرة يحكم أكثر من نصفها سلاطين آل عثمان، وعلاوة على سياحتي في هذا القسم من هذه الجزيرة الكبيرة، فإنني قد ارتدت البلاد الجنوبية أيضا، وها أنا أذكر أوصاف مدنها وسلاطينها أصحاب الخطبة والسكة، وغيرهم من الملوك مع ألقابهم، فأولا:

سلاطين شرفاء آل الأدارسة

ظهرت دولتهم في بلاد المغرب وعدد حكامها خمسة. ولما كان أولهم يدعى إدريس فقد تسموا جميعا بالأدارسة. يصل نسبهم إلى سيدنا علي[كرم الله وجهه]، وكلهم حسنيون، ومدة خلافتهم (...) سنة.

سلاطين آل حمود

ظهرت دولتهم في الأندلس وعدد حكامها ١٣ نفرا. أولهم الناصر لدين الله وثانيهم المؤمن بالله وهكذا لهم مثل هذه الأسماء، ومدة دولتهم ٤٢ سنة.

سلاطين الموحدين

قامت دولتهم في بلاد المغرب وجزيرة الأندلس. عدد ملوكها ثلاثة عشر، وابتداء ظهورهم ونشأتهم من الشام. مدة دولتهم ١٤٤ سنة.

سلاطين آل طاش

قامت مملكتهم في فاس ومكناس، عدد سلاطينها سبعة، ومدتهم (...) سنة، ويطلق على هؤلاء أيضا لقب الملك.

سلاطين آل الملثمين

قامت دولتهم في بلاد المغرب والأندلس. وعدد ملوكيا ستة. وكانوا على العموم ملوك جزيرة مصر ما عدا إقليم الحبشة. وأصل هؤلاء الملوك من بلاد اليمن من قبيلة حمير الذين حضروا في غزوة الشام في عهد الخليفة عمر. ثم التحقوا جميعًا بعد فتح الشام بجيش عمرو بن العاص، ووفدوا معه إلى مصر حيث استمروا في معيته هنالك، وصاروا من أتباعه وأنصاره حتى عُيِّن رئيسهم حاكمًا على بلاد أوجلة.

وعندما جردت حملة عسكرية قوامها خمسون ألفًا من الجنود من مصر إلى طنجة بلاد المغرب حيث كان كفارها قد طغوا وبغوا، وكانت الحملة بقيادة موسى بن نصير، وكان الملثمون قد أرفقوا أيضًا بحاكم أوجلة هذا. ذهبت الحملة وحاصرت قلعة طنجة حتى انتزعتها بحد السيف. وقد استوطن الملثمون هذه القلعة ولبثوا بها وتناسلوا حتى صاروا خلفاءها، فخلافتهم الآن جاءت من هذه الناحية. ومدة سلطنتهم مائة وخمس عشرة سنة.

سلاطين شرفاء آل كامل

قامت مملكتهم في المغرب وفاس ومراكش "مراكش"، وعددهم سبعة، يطلق عليهم لقب "شرفاء الكاملية"؛ إذ كانت أسماؤهم هكذا: ناصر الدين الكاملي وسليمان الكاملي. ولقد زحف منهم سبوع الكاملي إلى مصر بجيوش جرارة كالبحار المتلاطمة؛ فلما اقتربوا من مصر ودخلوا بلدة منها تدعى "حوش عيسى"، وهي لا تزال موجودة في أرض البحيرة، هلكوا جميعًا بريح صرصر عاتية أغرقتهم في بحار من الرمل الكثير. وهكذا انتهت أيام شرفاء الكاملية هؤلاء بانقضاء أيام هذا الملك المسمى بـ سبوع الكاملي. فجاء الكمال مؤذنًا بالنهاية المحتومة.

سلاطين بني مرين (سلاطين آل بني مرين)

وهم من ملوك فاس ومراكش "مراكش". وعدد ملوكهم سبعة عشر، فبعدما حكموا مائتين وثمانين سنة انتقلت دولتهم بكل مذلة ومسكنة إلى الغير. بيد أنهم

كانوا شجعانًا وأبطالاً إذ أخضعوا الإسبان والبرتغال لأمـــرهم، بفـــضل إغـــارتهم الشعواء بألف قطعة من السفن عليهم وإطلاق يد النهب والسلب فيهم.

دولة بنى الأغلب

قامت دولتهم فى إفريقيا. وعدد ملوكها عشرة يسمون "الأغلبيون"، كانوا دائمًا فى نضال وقتال مع الإسبان. مدة حكمهم ١١٢ سنة. ولا يزالون مضرب المثل. فـــإذا تكلم أحد باستعلاء قيل له: أمن بنى الأغلب أنت؟... إذ كان عشرة منهم – بإذن الله وحكمته – يغلبون أضعافهم من أعدائهم أينما كانوا وأينما توجهوا.

دولة بنى كلب فى جزيرة صقلية

عدد ملوكها تسعة. وتنحصر مهارتهم فى الانتقام من الأعداء بفضل ســـفنهم القوية، مدة سلطنتهم ١٢٨ سنة.

دولة آل باديس (من بنى حماد)

قامت دولتهم فى ولاية إفريقيا، وعدد ملوكها ثمانية، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

دولة بنى حفص (حفظ)

قامت فى ولاية تونس وإفريقية. وعدد ملوكها اثنان وعشرون. فـــى ســـنة ١٠٣هـ فتح هذه الديار عبد المؤمن الأموى بتجريد ألف قطعة من السفن عليها. وقد ترك بنو حفص هذا حاكمًا فزادت شوكتهم وعلا قدرهم يومًا فيومًا؛ حتى صـــاروا خلفاء. لقبت ذريتهم وسلالتهم بآل بنى حفص، نسبة إلى بنت سيدنا عمر المـــسماة حفصة [رضى الله عنها].

دولة سلاطين فاس

فى بلاد المغرب بلدة عظيمة تدعى "فاس"، ولما كانت عاصمة سلاطينها فقد اشتهر ملوكها بسلاطين فاس. ودولتهم قائمة من يوم عهـــد العباســـيين. وأســـماء ملوكها هكذا: هارون فاس، منصور فاس... ويمتد سواد بلادهـــم حتـــى شـــواطئ

البحر المحيط، بيد أن البرتغال يغيرون عليهم ويستولون على قلاعهم أحيانًا لأنهم مشاعون ومشتركون مع هؤلاء الإفرنج من البرتغال.

دولة سلاطين مرانكش (مراكش) العظام(٢٠٨)

لا يوجد أقدم من هذه الدولة من الدول التي قامت في جزيرة مصر، تسيطر على ألف من العساكر كلهم مالكية، فلم تتعرض دولتهم إلى الغزو والتعدي من أية جهة. ولقد وهب الله بلاد مراكش وبلاد الهند المال الكثير الذي يربو على مال قارون. هذا، ويطلق على ملوكها اسم السلطان، ويقال إن وجوه سكانها بيض تلمع وتضوي كالنور. ولكني لم أرهم ولم أجتمع بهم فلم يتيسر لي السفر إلى بلادهم. وهذه الدولة أيضًا مجاورة للبرتغال وتقع في جنوب بلادهم.

دولة سلاطين السودان

يُطلَق على ملوكها بدل السلطان لفظ "سودان"، هكذا: سودان محمد، سودان عبدالله، سودان علي. هؤلاء وكثير غيرهم من الناس يعتنقون جميعًا مذهب الإمام مالك، ولا يتم الاعتراف بخلافة أحد منهم حينما تنتقل من واحد إلى آخر إلا إذا اتفقوا على اختيار واحد منهم، فدولتهم الحالية قائمة بالحكم منذ سبعمائة سنة. ولها عسكر لا يحصى ولا يعد، وقلاع حصينة يبلغ عددها سبعمائة. رجالها في غاية الشجاعة والبسالة يحاربون البرتغال دائمًا. وقد اختلط هذا الضعيف كاتب هذه السطور بأفراد هؤلاء القوم في بلاد الفونج فرآهم بيض الوجوه والأجسام، كبار العيون والحواجب، ضخام الأجسام، وأكثرهم ملاحون.

أوصاف دولة سلاطين بلاد الفونج

الفونج قوم سمر اللون يسكنون شواطئ النيل في أراض ذات حرارة شديدة، تقع على مسافة عشرين مرحلة في داخل منطقة خط الاستواء، ويلقب حكامهم "الملك"، ولهم اعتقاد تام بآل البكري في مصر، وملوكهم شديدو الإيمان بالله

---

(٢٠٨) دولة سلاطين مرانكش (مراكش) العظام: هذه الدول أيضا لا تدخل ضمن رحلة مصر والسودان والحبشة، ولكن تركناها للفائدة...

والتمسك بعقيدة التوحيد مع تقوى وزهد كبيرين، وليس لهم عملة خاصة. بيد أنهم يوصفون في الخطب على المنابر بقولهم (الملك عطاء الله)، وقد يلقبون بلفظ "ماي" الذي معناه السلطان.

وإلى الجانب الشمالي من هذه البلاد تقع:

دولة ملوك البربرستان

يُطلَق على مدينة هذه الدولة اسم "دنقُلة" وهي تقع على شاطئ النيل، وجميع أهاليها وسكانها سمر اللون إلاّ أن فيهم حسانًا من الرجال والنساء على جانب عظيم من الجمال. وليست لدولتهم عُملة خاصة. ولكنهم في خطب الجمع يذكرون ملوكهم؛ فيقولون الملك إدريس والملك حمد والملك حسن، وسيذكر هذا إن شاء الله في محله. وسكان بلاد البربر هذه أناس متقون موحدون صلحاء وهم شافعيو المذهب... وينعت ملكهم بألقاب: قولو دنقول، وعبد الدنقول، وإدريس دنقول، وحامد دنقول، وهكذا. ولغتهم هي اللغة العبرية رأسًا؛ لأن سيدنا إدريس [عليه السلام] بعث لأهالي هذه الديار.

دولة آل قرمانقة

يطلق على ملوكها "قاقان"، فمثلاً يُقال: عادى قاقان وزوال قاقان وإدريس قاقان، وهم ملوك مسلمون، سحنهم ووجوههم ضاربة إلى الحمرة. والشعب قوم من الكفار يأسرهم الجلابون فيأتون بهم ويبيعونهم في مصر أرقاء، وحديثهم بالسريانية وهي لغة صعبة وغامضة جدًا.

دولة آل بُغه ونسكي (بجانسكي)

يُطلَق على ملوكها "بُغنَسكي"، تقع بلادها في الجانب الغربي من الصحراء، وسكانها قوم من البدو، زرق العيون، حمر الوجوه، سريعو العدو والجري، يبزون الغزلان في العدو، وليس لدولتهم سكَة. ويوصف ملوكهم حينما يذكرون في خطب

الجمع بلفظ "عمران" ومعناه السلطان؛ فيقولون مثلاً: على عمران، وكمال عمران. هكذا يضيفون لفظ عمران على آخر أسمائهم مهما كانت كصيبيب عمران أيضًا.

وخلاصة القول إنهم قوم عرايا كثيرو العدد جدًا لا يحصون، يحتلون ما بين النيل المبارك وبلاد الحبشة من البلاد واسعة الأرجاء الممتدة حتى ساحل البحر المحيط، فلهم أراض مشتركة ومشاعة مع البرتغال. وسلاحهم يتألف من القرون؛ قرون الغزلان والوعول، وهي في غاية الحدة والمضاء تنغرز في جسم الإنسان مثل النصال والأسل. وأكثر اختلاطهم وحياتهم مع البرتغال في البيع والشراء والأخذ والعطاء. فلديهم من عروض التجارة عاج الأفيال المعمرة ألف سنة وقرون الخرتيت "الكَركَدن" وجلود الضب والتمساح، وكذا التبر والزباد "المسك". ولا يعرف أحد لسانهم ولهجتهم سوى أولاد الحرام من البرتغال الذين وفقوا إلى التفاهم معهم بواسطة علامات وإشارات رتبوها فيتعاملون بها. على أن أئمتهم في خطب الجمع يبينون لهم ما هو الحشر والنشر والبعث بعد الموت بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ولسانهم عمراني كما يقال، ولكني ما سمعت مثل هذا اللسان، وسأذكر إن شاء الله نبذة من ألفاظه بالإجمال.

دولة ملوك ذى اليزن

يُطلق على ملوكها ألقاب كهذه: ناصر اليزن، قاسم اليزن، وذلك مخفف من قولهم "ذى اليزن". أعنى أن نسبهم ينتهي إلى سيف بن ذى اليزن فلذا يُقال لهم "آل ذى اليزن". فهم مسلمون موحدون شافعيو المذهب سودانيو السحن، ليست لدولتهم سكة نقدية خاصة، إلا أن خيرهم وتبرهم كثير جدًا، لكنهم لا يعرفون قدره.

ولقد رأيت في بلاد الفونج مدينة تدعى "شولمقاى" مشتركة ومشاعة بين ذى اليزن والفونج، فوجدت بها أناسًا من ذى اليزن كلماتهم غامضة ولهجتهم صعبة؛ فاضطررت للاستعانة على فهمها بواحد من الفونج يعرف لغتهم فاتخذته ترجمانًا لي وسألتهم؛ فقالوا: "إن لنا اثنى عشر ملكًا، كل واحد منهم يملك مئات الألوف من الجنود ونحن محيطون من الخلف ببلاد الحبشة، فلو لم نكن موجودين لكان

البرتغال قد استولوا عليها". بيد أن الذى نقل لنا هذا القول منهم كان يُشبه تمام الشبه نسناسًا وقف برجليه، فهؤلاء الناس كلهم مخلوقات ضعيفة ونحيفة. كأنهم نمل أسود له أرجل الجراد، ومع ذلك يهابهم بنو آدم وذريته عامة. وهناك أقوام أخرى لا يعرفون ما هو الكفر والضلال ولا الجنة ولا النار، وكأنهم نوع من الحيوان الناطق. ولكن هذا الضعيف لم يرهم قط.

دولة بنى هلال(٢١٩)

تقع بلاد هذه الدولة فى ديار المغرب بجانب "أوجلة"، وهى الآن مدينة بنى هلال تجاه جزيرة كريت "كرميوين". وكانت مدينة عظيمة جدًا أغار عليها الإسبان وقتلوا ملكها. إذ كان آل هلال ملوكًا عظامًا انقرضوا من هول تلك الإغارة الشعواء والصدمة القتالة. فقوم بنى هلال الموجودون الآن هم من ذرية هؤلاء الملوك والحكام، وهم الآن عربان وبدو رُحّل يبلغ عددهم مئات الألوف، كما أن لهم كثرة هائلة من الأغنام والمواشى التى تنتج كميات كبيرة من السمن النفيس ذى الرائحة المسكية، حيث رأيته بعينى رأسى حينما كنت فى كريت مع عسكر الإسلام. وتُصدَّر من هذا السمن أيضًا إلى مصر كميات لا بأس بها.

وقديمًا كان يُطلق على ملوك هذه الدولة أسماء مثل نور الله الهلالى وصنع الله الهلالى وفضل الله الهلالى، وهم يحتلون صحارى بلاد المغرب.

دولة آل أفاريقة

يتألف رجال هذه الدولة من جنود عظام يسكن كثير من أغنيائهم المدن بوصفهم حكامًا وضباطًا، يُطلق عليهم "أفريقة" جمعه أفاريقة.

---

(٢١٩) بنو هلال: قبيلة عربية يرجع نسبها إلى سيدنا إسماعيل؛ وتبدأ بهلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس عيلان. كانوا يعبدون الأوثان فى الجاهلية، وكانوا يعيشون فى نجد واليمن. ولهم آبار ومزارع نخيل كثيرة بالقرب من البصرة، وهم الذين كانوا يقيمون سوق عكاظ الشهير. وهم الذين زحفوا إلى شمال إفريقيا... وتتحدث عنهم سيرة بنى هلال، ولهم أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة والثقافة واللغة العربية بالذات.

دولة ماى بورنو (بورنق)[٢٢٠]

ملوك هذه الدولة سُنِّيُّون على المذهب الحنبلى متمسكون بدينهم أشد التمسك، والشعب أيضًا موحد مؤمن شديد الإيمان. أيضا يُطلق على ملوكهم "ماى"؛ فمثلاً يقولون ماى سنجال، ماى عباس، ماى صادق، يعنى بدلاً من أن يقولوا سلطان يقولون: ماى. وليست لدولتهم عملة خاصة ويستوردون بدل ذلك خرز البغال من مصر فيشترونه بالتبر؛ حيث يضعه ملوكهم ونساؤهم فى رءوسهم بدل الدر واللآلئ. وحجاجهم يأتون كل سنة إلى مصر قاطعين الصحارى والفيافى فى ثمانية شهور؛ حيث يُغرقون مصر فى قدومهم هذا بتبر الذهب، ويُقال لملكهم "ماى سنجال الدين"؛ وقد تيسر لى ملاقاته حينما قدم مصر حاجًا ومعه ألف جمل من المال، فوجدته يستر وجهه مثل النساء حينما يقع نظره على المحارم وينام على وجهه فى الأرض وينكفئ ثم يكلم الناس ويحدثهم، وكان هذا الملك رجلاً أسمر اللون أدكنه. وقد توفى إلى رحمة الله؛ حيث وقع فى عقبة الموت الذى لا بد منه فى مدينة العقبة نفسها لدى عودته من الحج، وقد دفن بها.

دولة آل آفنو

رجال هذه الدولة سبع قبائل، إحداها مسلمة، وليست لهذه الدولة عملة خاصة ولكن الخُطب باسم ملوكها، وهم سمر اللون. والقبائل الأخرى لا تعرف شيئًا عن الضلالة والإيمان. ولما كانوا لا يختتون قط فإنهم معرضون للأسر والرق بعد القتال وإثارة الحرب، حيث يساقون إلى أوجلة ومصر فيباعون.

هذا، وإن هناك كثيرًا من الملوك والحكام فى هذه الجزيرة الكبرى، إلا أن كاتب هذه السطور لم يتمكن من الاتصال بهم والاطلاع على أحوالهم. وفى الجملة

---

(٢٢٠) فى نسخة يلدز: بورنق.

من المستطاع أن يُقال إن فى مصر وأقطارها الواسعة من الأمم العرايا بقدر ما هو موجود على وجه البسيطة من الأناس اللابسين المكسوين.

دولة الجزائر

كانت أراضى هذه الدولة مملكة ذات سكة خاصة خاضعة لأمــر الإســبان. ففى سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م فتحها السلطان سليمان خان على يد الباشا خير الــدين بارباروس. ولا يزال يحكمها باشا له رتبة وزير. وللمملكة خطبتها وسكتها وجيشها الذى يقدر باثنى عشر ألفًا من الضاربين بالنار.

دولة ولاية تونس

كانت هذه أيضًا مملكة ذات سكة خاضعة للإسبان، وفتحها السلطان ســليمان خان فى سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م على يد قلج على باشا وسنان باشا "فــى الأصــل طورغود"، فهى الآن إيالة يحكمها وزير. ولها سكة وخطبة وعشرون ألف جنــدى من الأشداء.

دولة ولاية طرابلس (الغرب)

وهذه أيضًا كانت خاضعة للإسبان، فتحها ســليمان خــان ســنة ٩٥٨هـ = ١٥٥١م على يد الباشا "طوغور"، ولا تزال عملتها رائجة وخطبتها قائمــة، ولهــا جيش قوامه عشرون ألف جندى، يخافهم الكفار ويهابهم العدو ويرتعد منهم فرقًــا، وكانت خاضعة للكفار وكانت أيضًا ذات سكة وبلاد واسعة الأرجاء يحكمها ملــك. وكان يكتب على سكتها "صاحب النصر صالح النصر ضــارب البــر والبحــرين السلطان بن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره"، ولها ذهب مُمــسَّك "صــاف ومركز" لأن تربتها تحتوى على كميات هائلة من التبر. وفيها نجوع عربان تدعى "محلات" يذهبون إلى قتالها فى بعض الجهات بأشد الجيوش فتكًا، مثل الجزائرليــة والتونسية والطرابلسية؛ لاستيفاء مال السلطان منها.

فلو أننا استرسلنا فى وصف مشايخ هؤلاء العربان لاحتجنا إلى مدونات كبيرة.

هذا، وفى سكة غيرهم من السلاطين يكتب عادة بعد لفظ "لا إله إلا الله محمد رسول الله" اسم السلطان الذى أصدرها وضربها. ولا شك فى أن هؤلاء المذكورين من الملوك والسلاطين يسيطرون على عدد من المساجين والمعتقلين، من أقوام وشعوب أفنو وبورنو وقرمانق وبفنسكى وفونجى؛ بحيث إن كل ملك أو سلطان لا يزال فى قتال وحرب مع هؤلاء؛ مما يتيح الفرصة للنخاسين والجلابين للاستحواذ على عدد كبير من هؤلاء الأقوام فيعرضونهم فى مصر للمزايدة بالأسواق. وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى فى تلك الجهات النائية مخلوقات مضحكة يتخذها الناس هزوًا.

وقد بينا لك أيها القارئ وصف السلاطين بالجانب الغربى من بلاد مصر. والآن نشرح لك الجانب الشرقى منها. فإذا سألنا سائل عن الشرق والغرب من الجوانب؛ فنقول إن النيل المبارك يشق جزيرة مصر من وسطها فتقطع الجزائر، وفاس، ومرانكش، والسودان فى الغرب. وأما الشرق فالحبشة، ودهلك، وزيلع، وبلاد الفونج.

دولة ملوك دومبية

هى دولة لقوم سود الوجوه لا يعدون ولا يحصون. مذهبهم "بنانى" أعنى أنهم يعبدون النار. وأنهم أصحاب مال وفير وثروة كبيرة تقرب من ثروة قارون.

دولة آل جابية

رجال هذه الدولة أيضًا أقوام كثيرون قد استولوا على الجبال والوهاد، ويطلق على ملوكها "زاد قانى" وهم من ذرية كنعان بن نوح. سمر الوجوه مقطبوها يعبدون الشمس، وخلاصة القول إن فى بلاد الحبشة سبعين ملكًا يعتنق كل واحد منهم مذهبًا خاصًا، وكلهم سود البشرة لأن شدة الحرارة واقعة على هذا الطرف،

ولكن الجانب الغربي ليس كذلك إذ فيه أُناس من البيض وجهات عامرة آهلة بالسكان، ولا سيما في سواحل البحر.

أوصاف دولة ملوك الحبش

كان يُطلق اسم "النجاشي" في زمن الجاهلية على ملوك هذه الدولة. فلما سيطرت دولتهم الكبرى على الدنيا كلها أُطلق عليهم لقب السلطان. وبعد ذلك في سنة ٩٤٥هـ =١٥٣٨م وفي عهد سليمان القانوني فتح هذه البلاد أوزدمير من بقايا جند السلطان الغوري الجركسي، وكان في نجدته كل من سنان باشا والطواشي سليمان باشا. ولا تزال آثار ذلك الفاتح - من جوامع وعمارات خيرية والقلعة - باقية بها. فهي بلاد وإيالة يحكمها وزير. ولها سكة وخطبة. وفي مدينتها أُناس من جميع الأجناس والألسنة وعديد اللغات والأقوام، وليس منهم أحد على دين الإسلام؛ لأن اختلاطهم ومعاشرتهم دائمًا مع كفار البرتغال الذين أضلوهم فأوقعوهم في الكفر.

هذا، وقد تم بيان ما كان من الأحوال والوقائع في مصر ها هنا. وقد جاءت المناسبة لأن نذكر ملوك الملّة المسيحية المسيطرين على الأرض من القديم.

الفصل الثانى عشر

فى بيان الملوك الضالين ذوى الأفعال السيئة من المشركين الطاغين[٢٢١]

أول من تملك فى الأرض وسيطر وصار سلطانًا على البسيطة فى الجاهلية هو "كيومرث" من أولاد النبى نوح [عليه السلام] وهم العمالقة. وكان الملوك المعاصرون لسيدنا عيسى [عليه السلام] أربع طبقات سبق ذكرها. ولكن نذكرها هنا أيضًا لما اقتضاه المقام.

فنقول إن الطبقة الأولى تُسمى "بيشداديين" البيش دادية، والطبقة الثانية الكيانيين "كيانيان"، والثالثة الإشكانيين "أشكانيان"، والرابعة الساسانيين "ساسانيان"، ولكن الطبقة الدارانية لا تزال أحفادها وسلالتها موجودة بفضل دعاء الرسول لهم إلى آخر الزمان.

دولة كسرى

ملوكها هم البيشداديون "الدارانيون"، وكسرى لقب مفرد جمعه "أكاسرة"، وكانت بلاد بغداد والكوفة والإحساء والعجم وخراسان وإيران وتوران فى تصرف هؤلاء الملوك والسلاطين وتحت نفوذهم، حتى عهد السيد الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى عهد الملك العادل أنوشيروان وقد دعا لهم بالخير والبركة، فلما قضى آل جنكيز على دولتهم نزحوا إلى بلاد الكرج فتوطنوها ولا يزالون بها...

---

(٢٢١) الدول التى ستدرج فى هذا الفصل تخرج عن نطاق الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، ولكن الرحالة ذكرها، فلم أتركها وترجمتها كما هى حرصًا على النص وعلى الفائدة.

آل داويان

رجال هذه الدولة خاضعون لحكم آل عثمان، فيقدمون لبيت المؤن السلطاني على طريق الهدايا مائة ألف باز وشاهين والجواري الحسان، والغلمان كاللؤلؤ والمرجان. والشعب الداوياني، نظرًا لأن مساكنهم ذات جو لطيف ومناخ معتدل، تناسلوا تناسلاً عظيمًا وانقسموا في بلاد الداغستان سبعة أقسام (طبقات).

الطبقة الأولى: الكرج

هذه الطبقة تخضع الآن لسلطان آل عثمان من عهد صفر باشا (لعلها سفر باشا).

الطبقة الثانية: (آل آچيق باش) آل ذي الرأس الحاسر

رجال هذه الطائفة يخضعون لولاة أرضروم تارة ويعصونهم تارة أخرى، فيشنُّ عليهم هؤلاء الولاة حربًا عوانًا ويطاردونهم شر مطاردة، حتى تنهب أموالهم من الذهب والفضة ومن الأواني وغيرها من الأمتعة، وتسبى نساؤهم وجواريهم الحسان وغلمانهم الممشوقو القوام، عند ذلك قد يرضخون ويقبلون الصلح، وهم - ولا شك - في غاية الشجاعة ومزيد البسالة فلقبوا لذلك بذوي الرءوس الحاسرة كناية عن الإقدام والجرأة والاستعداد لاقتحام المهالك.

الطبقة الثالثة: آل كوريل

يبلغ عدد رجال هذه الطبقة زهاء أربعين ألف نسمة، وهم في غاية الخضوع والطاعة، وهم مسالمون جدًا.

الطبقة الرابعة: آل شوشاد

هم سلالة أحد أولاد "أنوشيروان" حيث كان يدعى "شوشا"، وهم جنود كثيرون لا يعدون ولا يحصون، إلا أنهم مسالمون هادئون.

الطبقة الخامسة: آل مكرل

رجال هذه الطبقة ليسوا من الشجاعة على مكانة غيرهم من الجماعات الأخرى، فيهم رعايا مسالمون غير محاربين، يقيمون فى ساحل نهر "چوروغ" فيما وراء قلعة "كونيه" على مقربة من طرابزون وفى شواطئ البحر الأسود.

هذا، وكل هؤلاء المذكورين من الملة المسيحية الإنجيلية. فلهم قلاعهم ومدنهم وأماكنهم الخاصة اللطيفة ومساكنهم العالية البهجة. ومن أراد الاستزادة فليرجع وصف المحلات والمواطن التى زرناها سنة ١٠٥٦ هـ، حيث يتضمن تفاصيل كثيرة عن هذه البلاد.

الطبقة السادسة: آل التاجدار، أعنى قوم المجر

ثم إن أحد أبناء أنوشيروان المدعو هرمز "تاجدار" ذا التاج اتخذ "عراق داديان" الواقع فى سفح جبل ألبرز مسكنًا له وهو يحمل تاج أنوشيروان.

هؤلاء الناس سكنوا فى قلعة ترابية لا تزال تُسمى "تورك أورى" فى صحراء "خريستوس" الواقعة بجوار "أكره" التى انتصر فيها السلطان محمد، ولما سئلوا عن أسمائهم قالوا من چارأى (نحن أربعة)، فأرسل الخبر إلى ملك البلاد بأنهم "منچار" ثم تحرفت الكلمة فصارت مجار. هذا، وانتقل تاج ملكهم بعدهم إلى ملك النمسا "چاسنار"، ولما فتح السلطان سليمان القانونى قلعة وشنجراد "شغراد" وجد التاج المذكور بها فأخذه وحفظه فى خزائنه، وأخيرًا وهب سلاطين آل عثمان هذا التاج للملك فرديناند حيث تراه الآن في ديوان ملك النمسا، وقد سبق ذكره فى وصف رحلاتنا التى قمنا بها سنة ١٠٧٤ هـ إلى ألمانيا. وليكن معلومًا الآن أن أصل المجر هم الكرج؛ وهم قوم قدماء جدًا جاءوا من بلاد العجم وصاروا مجرًا كما هو الآن.

الطبقة السابعة: ملوك موسكو

وهؤلاء أيضًا من سلالة أبناء أنوشيروان، إلا أنهم سادوا وعلا شأنهم حتى صاروا أصحاب بلاد عظيمة، وفضلاً عن سيطرتهم على إقليمين كبيرين من أقاليم الدنيا السبعة، فقد صاروا يحكمون أيضًا الدنيا المظلمة، وهم من الملة الإنجيلية، فإذا مات ملك من ملوكهم حتى الآن يأتون بأمير من أمراء الداديان ببلاد الكرج فينصبونه ملكًا عليهم ويلقبونه ملكًا "قرالا". وأحوال هؤلاء مذكورة بالتفصيل في سنة ١٠٦٦هـ في سياحتنا وزحفنا مع خانات التتر إليهم، فليرجع إليها. هذا، وديار موسكو هذه تتألف من ثمانية وأربعين بانا "بانلك" وثمانية عشر "أوربـاي"؛ أعني الوزارة، والإيالة التي يحكمها الوزير.

ملوك دولة (له) بولونيا

ملوك هذه الدولة أيضًا من نسل الداديان، وينقسمون إلى ستة أقسام، كلها إنجيلية. ولقب ملوكهم "بان" حتى (...)

دولة التشك (چه)

لقب ملوكها "چهدام"، وهو صاحب سكة وشعب ذي بأس شديد.

مجر أردل الذين لا دولة لهم

يزعمون أنهم من أحفاد وسلالة "منوچهر"، يُلقب ملكهم بـ "يورامده" و"وبتلان غور" أعني الملك العظيم. بيد أنهم مشهورون بين الناس بلقب ملك فقط، وهم الآن خاضعون لسلطان آل عثمان، وبلادهم مقسمة إلى أربعة أقسام: أحدها "حايد أو شاخ"، والآخر "أردل"، والثالث قوم "صاز"، وقوم آخر "سيكل"، وجميع رعاياهم وجمهورهم من الأفلاق، ولهم سكة نقدية، فالسكة التي تُسمى القرش القاطع للورق من عملاتهم، وتسك "تك" في قلعة "بانيا". ولهم ولايات وبلدان عامرة، ولما كان هذا الضعيف قد اشترك في غزوات إسلامية كثيرة في هذه البلاد فإني قد كتبت عنها كثيرًا فليراجع سياحة سنة ١٠٧٣ هـ.

دولة المجر الوسطى

ملوك هذه الدولة أيضًا يزعمون أنهم من نسل منوچهر. لأن لغتهم تحتوى على شيء كثير من الكلمات الفارسية. وقلاعهم هي فولك وسمندره وكرمات وقلعة الفيران.

ومقاطعاتهم ضيقة، ولكن سكانها كفار شجعان ذوو شهامة. وعملتهم تُسمى "زولطه".

وشأنهم في تدهور وسقوط منذ أن انتزعت منهم مدينة "أكره" أى أجره؛ حيث يخضعون الآن لملك النمسا. وهم يلقبون ملكهم بلفظ "پلطنوش" بلاتنوش.

دولة بنى إسفاج (من بلاد السويد)

مملكة عظيمة على ساحل البحر المحيط، وصاحبها من الكفار الغلاظ الأشداء، له رعايا من التتر الرُحَّل يبلغ عددهم عشرة ملايين. كما أن عدد الطوائف العسكرية بها لا يعلمه أحد ولا هم أنفسهم. ولقب ملوكها هكذا أنير إسفان وأنيرر رادال، ولها عملة خاصة. هذا، وإن ملك النمسا يعجز عن تأديب هؤلاء القوم فلا يزال القتال ناشبًا بين الطرفين مُنذ مائة واثنتين وعشرين سنة، على الرغم من انقضاء عهود ملوك عدة منهم.

دولة فلمنك العتيقة

يُطلق على هذه الدولة اسم "فيامنك" أيضًا، وهى مملكة واسعة الأرجاء تحتوى على أحد عشر خليجًا من خلجان البحر المحيط فى الناحية الشرقية منه. ففى الألقاب التعظيمية يُطلق على ملكها "مستردام"؛ ومعناه الأعظم جليل الشأن إذ يتملك ثلاثمائة من السفن فى البحار. والأشجار الكبيرة التى توجد بهذه البلاد لا يوجد فى غيرها أمثالها، كما أن السفن التى تُبنى هنا لا نظير لها سوى بلاد الإنجليز. فدولة فلمنك هذه أيضًا ذات سكة نقدية. ولا سيما أن السكة الذهبية

والريالات المسكوكة ليس لها نظير. عاصمة الدولة "أمستردام"، وقد كتبت عنها (١٠٧٣ هـ) في السنة التي زرتها.

دولة دانمرك (دانيمارقة)

لقب ملكها "أنكور"، وهي أيضا تقع في ساحل البحر المحيط تجاه جزيرة الإنجليز، فلها ولايات واسعة، وهي إحدى الممالك السبع التابعة لملك النمسا، ذات سكة ذهبية وريالات مسكوكة (مصبوبة)، عاصمتها أمستردام.

دولة دونقارقيز (دنكيرك)

يُطلق على ملكها "دونقارقه". وهذا يُعادل لقب السلطان. ولهم غير هذا من الأسماء والألقاب. ولما كان كاتب هذه السطور في رمضان سنة ١٠٧٤ هـ في زيارة هذه البلاد، كانت تتولى أمرها شقيقتان بالاشتراك معًا في الحكم. وعاصمتها (لونچاط = لونشاط) التي يقيم بها وزراء الدول السبع. لأن بإزائها تقع جزيرة الإنجليز الكبيرة. وهذه المدينة ميناء العالم الجديد حيث بها أُناس كثيرون ممن يستوردون منها التبر والبلسانته Pelesante وشجر العالة الجديد وعظام الأسماك الشبيهة بقوس قزح. ويدفعون عنها الرسوم الجمركية للملوك السبعة خصيصًا. ومدينة لونچاط مثل إسلامبول في الحجم وعدد السكان، غير أنها تظهر أوسع منها لتخللها بالحدائق الواسعة التحتانية ولتباعد بيوتها ومنازلها، على حين أن بيوت إسلامبول مؤلفة من عدة أدوار وطبقات. وهواء هذه البلاد لطيف وجوها بديع وقد سبق ذكر ذلك فيما تقدم فلينظر هناك. وعلى سكتهم النقدية نقوش صورة بنتين جنبًا إلى جنب. ولهؤلاء القوم نوع من السفن تحتوى كل واحدة منها على سبعة عنابر وثلاثمائة مدفع برونز وتسع من الركاب ما يتراوح بين ألف شخص وثلاثة آلاف، تمخر عباب البحار إلى الهند والصين والعالم الجديد "أمريكا"؛ فهي سفن دونقارقية كبيرة وعظيمة جدًا، إذ فيها الأسواق والطواحين والحمامات والحدائق وغيرها من المرافق العامة الجديرة بالوصف والمشاهدة والتنويه عنها.

دولة النمسا

وتدعى أيضًا "نمچه" ويُقال لملكيا ملك الألمان. ومع ذلك فإن لملوكيا ألقابًا كسائر الملوك والسلاطين. فيُقال چاسار النمسا والإمبراطور، ومعنى هذا الأخير الشاهنشاه "ملك الملوك"؛ إذ يحكم سبعة ملوك، وقد امتد نفوذه وسلطانه على ملك بولونيا السابق الذكر. وله رعايا كثيفة من الجمهور وحشود عظيمة من العساكر والجنود، وحكميم مستمر منذ ألف وسبعمائة عام ولهم ألف وسبعمائة قلعة تُعادل واحدة منها سد القهقهة، وعاصمة الدولة بچ، و"براق" (= براغ). وسكتها منقوش عليها صور ملوكها. ويزعمون أنهم من سلالة الشاه "هوشنك".

هذا، وكان تاج ملوكهم "جرونا" موجودًا دائمًا ومحفوظًا فى قلعة "پوزن" Pojen "بودابست". استولى العثمانيون على أويوار، فقد نقلوا التاج المذكور إلى قلعة "براق". وأما جميع أحوالهم وشرح أوصافهم الأخرى فإنها مذكورة فى رحلتى سنة ١٠٧٢ هـ، فليرجع هنالك.

دولة الإنجليز (إنكليز)

فى ألقاب ملوكيا يُقال ليم "إيرلندا"، فهم ملوك عظام أصحاب سكة نقدية. غير أنى لم أذهب إلى بلادهم قط، واعلم أنه لم يظهر منهم فى وقت من الأوقات بادرة عصيان؛ فهم قوم تجار يعيشون من ربح التجارة والسياحات. وبلادهم تتألف من ثلاث جزائر عظيمة، وعاصمة الدولة هى مدينة لندن "لوندرة" العظيمة الواقعة على نهر لوندرة فى جزيرة إنجلترا البالغ مسطحها ثمانية آلاف ميل. فليس للإنجليز حكم ولا سلطان فى المناطق والبلاد الألمانية.

دولة المجر الصغير

ملوك هذه الدولة خاضعون لقيصر النمسا، وقد شقوا عصا الطاعة عليه مرارًا. وخضعوا لسلطان آل عثمان حيث تقع معظم بلادهم تحت تصرف العثمانيين. ولقد كانت مدن بوزكا، وقنيزه، وأوسك، وفالبوڤا، وپچوى، وشكلوس، وسكتوار مملوكة لهم وتحت تصرفهم.و الآن هم منحصرون فى ولاية "مصلوون"

فقط، وتسمى عاصمتهم "ألغرادجك" و"چقه طورنه"، ويطلق على ملوكهم لقب "هرسك"، وهم كفار على سبع طبقات كل واحدة منها لها اسم خاص. فأولاً ابن زرين "زرين أوغلى" يقيم فى "طورن". وابن بكان "بكان أوغلى" يملك ولاية "اسلوون". وابن نراج "نداز أوغلى" يملك بلاد الخروات وهم كفار على جانب كبير من البسالة، و"كپان أوغلى" يملك ولاية صماى، و"شوار أوغلى" الذين لهم الولاية التى باسمهم فى حدود نهر راية صعبة المسالك والطرق الوعرة؛ إذ انهزمنا هنا بقيادة أحمد باشا الكوپريلى سنة ١٠٧٤هـ من جراء سوء التدبير وعدم الحيطة. و"دودشقه أوغلى" الذين لهم سكة تدعى البنس "Penez". فبلاد الدودشقة بلاد جبلية عظيمة واقعة على شاطئ خليج البندقية وراء بلدة "زادارا"، ففى سنة (....). كان الملك أحمد باشا قائدًا فى حملة عسكرية قوامها ثمانية آلاف عسكرى، حيث قمنا بغارة شعواء على ولاية "ألين" كما هو مشروح فى محله. هذا، وهناك بلدة هرسك أخرى لم تدخل فى منطقتها فلذا لم نكتب عنها شيئًا.

دولة البندقية (ونديك)

يُطلق على ملوكها لقب "بج برم"، ولها أربعون أميرًا ينتخب من بينهم سبعة يسمون "باى"، ثم يختار واحد من هؤلاء البايات السبعة فيدعى "بجيرم" ويتولى الحكم والإمرة، وعاصمة هذه الدولة "البندقية". كل مدنها وبلادها متاخمة ومشتركة مع مدننا وبلادنا، فإذا ارتكب واحد منهم أمرًا مغايرًا لقواعد الصلح والسلام فيعمد إلى الفرار والهرب مثل الجرب الإفرنجى. ويصل إلى بلادنا ويغيب فيها عشرين سنة أو أكثر هائمًا على وجهه. فهؤلاء طامات كبرى ملاعين، وأصحاب تدبير لا يخضعون للصلح إلا بكل صعوبة.

دولة الدوبرة ونديك (جمهورية رغوزه) Rağuze

يُطلق على ملوكها لقب "چارنا" وتستعمل بينهم اللغة اللاتينية. هذا، ولما علموا - بفضل مهارتهم فى علم النجوم والزايرجه - أن آل عثمان سيظهرون على الأمم ويستولون على البلاد، فإنهم بادروا إلى ساحة الغازى أورخان فى بروسه وعقدوا معه معاهدة صلح وصداقة تتألف من سبعين بندًا، تتضمن الشروط التى

قدمها الطرف الواحد مقابل الشروط التى فرضها الآخر بحيث صارت المعاهدة مؤلفة من مائة وأربعين بندًا؛ فعبارة "الطائر فى السموات والسابح فى البحار" موجودة فى دفاترهم ووثائقهم القديمة بحيث إذا جار عليهم أحد بشيء فإنهم يقدّمون حالاً خطوطًا سلطانية وعهودًا متوارثة من ملوكهم السالفة تعد بالألوف، بيد أنهم فى جميع الأوقات عرفوا بالاستقامة ولم ينقضوا العهود قط مع الملوك.

وعاصمتهم هى قلعة دوبره ونديك؛ على مقربة من قلعة "نووه" فى سنجق هرسك. وولايتهم صغيرة وهى واقعة تجاه خليج البندقية.

ولاية التفاحة الحمراء (قزل ألما) وهى دولة الباباوية

يطلق على ملوكها البابا. وهو على زعمهم وكيل سيدنا عيسى [عليه السلام] ومرشد جميع الكفار فى الأرض وفى البحار، حيث يخضعون له ويركعون مقدمين الاحترامات. والغريب أنه يقوم برياضة شاقة مستديمة بالصوم والإمساك حتى يضعف ويصير قديدًا كالهيكل العظمى، ويصل إلى مدى تكاد روحه تفارق جسمه. وعلى هذا المنوال يمكنه أن يعيش زهاء مائتى سنة. ومن الثابت أن البابا الذى مات فى عهد السلطان مراد الرابع كان قد عاش ثلاثمائة سنة.

وقد قيل فى ذلك شعر؛ معناه: يا أسفا على هذا الذى بقى فى أسْر شباك الجهل.

وهذا ليس غريبًا عند كاتب هذه السطور فإنه رأى بعينى رأسه فى صحراء القفجاق أناسًا من تتر القالمق يعيشون مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة سنة. مع الاحتفاظ بقدرة الركوب على الخيل، وذلك من غير أن يتبع نظامًا خاصًّا من الرياضة النفسية والصوم.

دولة فرنسا

يطلق على ملوكها روا "Roi"، وهى مملكة عظيمة لها قرابة بآل عثمان، وحكمها جار فى البحر الأبيض المتوسط وفى سواحل البحر المحيط، وعاصمتها مدينة "باريس". ولها ألوف من القلاع والسفن المسماة بالغليون.

دولة جنويز (جنوة)

لقب ملوكها جنوان، بلادها ضيقة قليلة المساحة، وسكانها كفـار يعيشون على التجارة. وهم الآن فى حالة السلم والصلح مع آل عثمان، وكان عدد سـفراء الدول فى إسلامبول سبعة فقط، وبقدوم "باليوز" (سفير)[٢٢٢] هـذه الدولـة صـار عددهم ثمانية.

دولة إغراندوقة

هى مملكة أمة إفرنجية أخرى من الملة المسيحية فى ساحل البحـر الأبـيض. عاصمة دولتها مدينة "آلاغورنه"، وليست بلادها واسعة مثل فرنسا. وسكانها يعيـشون فى البر والبحر على التجارة. يلقب ملكها بإغراندو. فله جند وسفن من الغليونات.

الدولة البرتغالية

يطلق على ملوكها لقب (...) وهم كفار متعاظمون أشداء لم يقبلوا الـصلح مـع أحـد فى وقـت من الأوقات. وهم وإن كانوا من الإنجيليين إلا أن مـذهبهم لا "بابوى" ولا لوثرى. عاصمة ملكهم قرب مضيق سبتة، وسواحل جزيرة مـصر المطلة على البحر المحيط كلها تحت حكم ملوك هذه الدولة، كما أن لهم فى بـلاد الهند سبعمائة جزيرة. فهؤلاء البرتغاليون يرحلون إلى الصين وبلاد الختا والخـتن طوافين حول جزائر هذا العالم مئات المرات؛ يحملون متاجرهم العظيمة وهم أكبر عددًا وأعز شأنًا من جميع الكفار الآخرين حيث تمكنوا من إخضاع بلاد الهند لأمرهم.

ملك أفلاق

كانت له دولة عظيمة. والآن يخضع لسلطان آل عثمان ويدفع لهم الجزيـة. وبلاده واقعة على نهر "الطونة" الدانوب. وفى شمالها ولاية أردل حيـث الحـدود مشتركة، وعاصمة البلاد "برقرش" و"ترقووش".

---

(٢٢٢) باليوز: أصلها باليوس. وهى كلمة إيطالية قديمة تطلق على سفراء فرنسا وسفراء البندقية بوجه عام، وكانت تطلق خاصة على قناصل هاتين الدولتين.

دولة بوغدان

وهذه أيضا دولة كبيرة، أخضعها السلطان بايزيد الولي لحكم آل عثمان في تاريخ يدل عليه لفظ "فتحنا"؛ وذلك بالاستيلاء على قلعتي "آقكرمان" و"كيلي" وأجبرها على دفع الجزية.

وهذا، وكانت بلاد الروملي هذه تتألف سابقًا من عدة ممالك مسيحية، يحكمها ملوك أقوياء انقرضوا كلهم بحيث ضغط آل عثمان الذين ضموا بلادهم إلى بلاد المسلمين، وذلك كممالك الصقالبة والكوريل والتوت والخروات (الكروات) والصرب والبلغار واللاتين واليرسك والوينك واللاز والبايلاز والقزاق الأبيض والروس المنحوس والأرناءوط والروم وأرانطة المورة وچكونة الروم ومايئة الروم ولازالروم وأمثالها، حيث خضعت كلها لسلطان آل عثمان، يدفع ملوكها الضالون الجزية كل سنة إليها محتفظين باستقلالهم، ماعدا الكروات والبلغار واللاز والصرب والوينك والأرناءوط؛ حيث بحمد الله صاروا رعايا وتابعين للدولة مباشرة.

وأما في جهة الأناضول، فالممالك كما يأتي:

الفصل الثالث عشر

فى بيان ظهور دولة آل عثمان وسطوع نجمها

على أقوال مؤرخى الترك وتدقيق ذوى العقل والفهم، حسب قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات ٣٧ /١٦٤] كان السلاطين والملوك الذين سبق ذكرهم هم الذين يسيطرون على وجه الأرض ويحكمونها، غير أن هناك اختلافات كثيرة فى شأن أمة الروم (أى الترك)، ولكن الثابت أنها، بشعوبها العديدة القاطنة فى تلك الديار بتقدير الحى القيوم، قد انحدرت فى الأصل من ولد عيص بن إسحق وينتهى نسبهم إلى يوسف وإلى نوح عليهما السلام. فأول من جاء من هذا العرق الطاهر فَرَسَّخَ قدمه فى بلاد الروم هم آل سلچوق؛ حيث اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبا وقالبا فى سنة ٤٧٦هـ = ١٠٨٣م؛ فاستولوا على ملطية وقيصرية وعلائية وقونية وسائر بلاد الروم فصاروا حكامها المستقلين.

وأما آل عثمان فموطنهم الأصلى وأول ظهورهم كان فى بلاد مابماشيتيهما وراء النهر؛ حيث هاجر سليمان وأرطغرل من أجداد آل عثمان من مكان يدعى ماهان، فرارًا من ظلم التتر والمغول ووطأتهم. وجاءا بحاشيتيهما إلى مدينة "أخلاط" وأقاموا بها سنة ٦١٦هـ =١٢١٩م، ثم رحلوا منها إلى شواطئ نهر الفرات قاصدين بلاد الروم أى بلاد بيزنطة.

وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل ذات يوم فى مياه نهر الفرات أمام قلعة "جعبر" غرق فى مياه النهر فأخرجوه ودفنوه هناك، وحل محله فى رئاسة العشيرة وزعامة القوم "أرطغرل"؛ الذى بادر إلى جمع شمل جماعته وتوجه بهم نحو علاء الدين السلچوقى، وفى أثناء الطريق حينما صعدوا هضبة عالية مُطلة على سهول قونية نظروا فى الأطراف يستطلعون الأحوال فوجدوا أن هناك طائفتين تقتتلان

بشدة، ولكن علائم الفشل والهزيمة كانت بادية على الجيش الذى يلبس جنوده العمامة البيضاء وهم جنود قونية، بخلاف التتر الذين كانت أمارات القهر والظفر ظاهرة عليهم؛ فما إن رأى ذلك أرطغرل حتى صاح قائلاً: "ألسنا موتورين ومنكوبين بالتتر منذ القديم؟ ألم يهزمونا ففررنا منهم إلى هذه البلاد؟ فلننضم إذن إلى علاء الدين ونعينه على بلواه ونأخذ بناصيته"، ثم رفع علمًا محمديًا أبيض واقتحم الميدان بجميع رجاله يركض وراء جموع التتر الغفيرة ويصيح مكبرًا الله! الله!. وقد أطلق العنان لأسلحته الفتاكة تعمل فى رءوس أفقية التتر الذين أخذتهم النار المحمدية من كل الجوانب فتبدل قرارهم فرارًا، وثباتهم هزيمة وعارًا، وانتعش السلاجقة من جديد وجمعوا شتاتهم وأحاطوا بالتتر من كل جانب حتى قضوا عليهم جميعًا ولم يبق أحد منهم. وبعد ذلك عاد السلطان علاء الدين إلى قونية غانمًا مظفرًا فَخلَع على أرطغرل بك خلعًا سنية وإنعامات سلطانية فاخرة، كما أسند إليه قيادة الجناح الأيمن من جيشه وكلّفه أن يكون قائد الجيش الزاحف إلى تكفور بروسه. فوصل أرطغرل بك إلى هذه البلاد وحاصر جهات بروسه الأربعة، مطلقًا أيدى الجنود فى النهب والسلب والغارات على بلاد "بيله جك"، "أولو آباد"، و"إينه كول" "ويالاق أباد" وغيرها من المدن والبلاد. وبعد أن فازوا بالغنائم الكثيرة والأسلاب الهائلة بالإضافة إلى هذا النصر المبين فقد زاد شأن علاء الدين وقدره؛ وذلك بفضل معونة أرطغرل له وتعضيده إياه.

ويطلق على ملوك السلاجقة هؤلاء لقب "السلطان"، فكان نفوذهم وسلطانهم يمتد حتى أسكدار على ضفاف البوسفور، ولم تكن للفرنج القدرة أو الجرأة على الظهور فى تلك البلاد قط. لأن السلطان علاء الدين كان يملك جيشًا جرارًا يتكون من عساكر سبعين قائدًا، لكل واحد منهم طبل وعلم وهو برتبة أمير اللواء، موزعين هكذا: فى مرعش "آل ذى القدرية". وفى أضنة "آل رمضان". وفى سيواس "الملك غازى الدانشمندى"، وفى قسطمونى آل "جاندار"، وفى أماسية "آل فرهاد" وفى كوتاهية "آل كرميان" وفى أنقره "آل سبحان"، وفى ولاية صاروخان "آل صاروخان باى"، وفى إقليم عماد "آل عماد باى"، وفى إقليم سنقر

"آل سنقر باى"، وفى إقليم كسكين "آل كسكين باى" وفى إقليم تكه "آل تكه باى" وفى ولاية حميد "حميد باى"، وفى إقليم منتشه "منتشه باى" وفى إقليم آيدين "آيدين باى"، وفى لاندره "آل قرمان باى"، وفى يالاق آباد "أرطغرل باى".

والحاصل أن السلطان علاء الدين كان له سبعون أمير لواء يُسمَّون بهذه الأسماء والألقاب، وفى عهد هذا السلطان السعيد توفى إلى رحمة الله تعالى سلطان العلماء مولانا بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى مدينة قونية، وكان ذلك سنة ٦٨١هـ = ١٢٨٢م هكذا حيث خلفه نجله مولانا جلال الدين الرومى. وقد كان سلطان العلماء المذكور هو الذى وضع الألقاب التى أوردناها لهؤلاء الأمراء. وسيذكر كل واحد منهم فى محله.

وبعد ذلك زحف السلطان علاء الدين إلى جهة "أرضروم" بجيش جرار، فأصيب بهزيمة فى مكان يُقال له "قناده" واشتد به المرض من جراء ذلك، وأقدم ابنه غياث الدين على تجريع والده السلطان علاء الدين السم الزعاف والقضاء عليه بهذه الوسيلة وحب الدنيا. وأثار ذلك العسكر عليه فمزقوه إربًا إربًا. وهكذا مات الوالد والولد فى يوم واحد ونقل جسداهما من هذا المحل إلى قونية ودفنا فى القلعة الداخلية وبه انتهت أسرة السلاجقة. وعدد سلاطينهم ٢٦، ومدة دولتهم كلها ٢٣٨ سنة.

وقد أجمع جميع علماء الروم على تولية أرطغرل بك عوضًا عنه وبايعوه على ذلك. وهذا القائد أيضًا مدفون فى قصبة "سكود" حيث مات متأثرًا بجراحه التى أصابته وهو عائد من غزوة بروسة، وبعدما استشهد صاروجى بك بن أورخان فى غزوة طومانج دفنوه أيضًا بجانب أرطغرل.

فاجتمع علماء الروم مرة أخرى وانتخبوا عثمان بن أرطغرل خليفة له فى بداية المائة السابعة (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩م)، وقد بايعه جميع رجالات الدولة السلجوقية البارزين مبايعة صادقة على ذلك. فتاريخ ميلاده سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م. وهكذا تولى عثمان الأول قيادة آل عثمان فى عام ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩م، وعاش ٦٩ عامًا وبلغت مدة سلطنته ٢٦ عامًا، وقد توفى إلى رحمة الله سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥م. وقد خلفه ابنه "أورخان بك" ومدة سلطنته ٣٥ عامًا.

[وفي عهده السعيد] قام سليمان باشا نجل الغازى أورخان هذا ومعـه قـرا مُرسل بك وأجه يعقوب بك بتشكيل وتحريك قوة قوامها أربعـون مـن الفـدائيين، وعبروا البحر الأبيض من المكان المسمى "بابسكى" على مقربة مـن قبسو داغـى بواسطة عوَّامات إلى الضفة الأخرى، وأنزلوا بها خيولاً وجنوداً أغاروا بهم علـى بلاد غليبولى واستولوا عليها. وأول ما فتحوا من البلدان فى ضفة الروملـى هـى مدينة "ايبصالا"، التى صلوا بها صلاة الجمعة فى بادئ الأمر قائلين "ابتداء صـلاة" فتحرفت هذه العبارة من كثرة الاستعمال وصارت "ايبصالا".

ثم اقتحم سليمان باشا قلعة غليبولى بعد أن تم له نزول العسكر والقـوات الكافية، وفتحها بالسيف وصار غازيًا بمعنى الكلمة. وقد وقعت عبـارة "بسم الله الرحمن الرحيم" تاريخًا لهذا الفتح الباهر حيث تسلمها فى سـنة ٧٦١هـ = ١٣٥٩م، ونال الغزاة والمجاهدون أسلابًا وغنائم كثيرة أثروا منها ثراءً عظيمًـا بمراجعـة حروف البسملة وفق حساب [أبجد]، اتضح أنها لا توافق هذا التاريخ بل تاريخهـا هو ٧٨٦هـ = ١٣٨٤م. وقد زوجوا بالنسوة اللاتى أسروهن وأنجبوا منهن أنسـالاً كثيرة. هذا، وقد كان يقطن البلاد التى يطلق عليها اسم الروملى اثنا عـشر عرقًـا وشعبًا من الكفار، ومثل الروم البيزنطيين والبلغار والأفلاق والصرب والبوسـنيك والكروات واللاتين والبُشناق واللاظ وغيرهم، فأخضعهم سليمان باشا لأمره ولم يترك لهم فرصة لرفع رءوسهم ضده؛ بل واصل الغارات وأتبع الغزو بالغزو حتى وصل إلى نهر "الطونة" الدانوب، وعاد منها وأيدى جنوده ورجاله ملأى بالغنائم والأسرى والسبايا اللاتى تخطفهن الشباب الأبطال بالزواج؛ فخلفوا منهن رجالاً أجسامهم فى بياض الفضة وقوة الحديد. هؤلاء أيضًا تربوا تربية عسكرية عثمانية وأُعدُّو لإنزال الضربات القاصمة بالكفار أينما كانوا. ولقد استمر الحال على هذا النسق فى عهـد سليمان باشا حتى توفى إلى رحمة الله فى بولاير متأثرًا بجراحه التى أصابته عنـد سقوطه عن صهوة جواده حين كان يُطارد البط البرى بصقر كـان معـه. وهـو مدفون الآن فى قبة منيرة هنالك وبجانبها جامع وعمارة خيرة وتكية، وتاريخ وفاته

رحمة الله عليه سنة ٧٦٠هـ = ١٣٥٨م. وأول من دخل الروملي هو سليمان باشا ابن أورخان.

هذا، ومدة عمر أورخان ٨٣ عامًا، وكان جلوسه على العرش في سنة ٧٢٦هـ = ١٣٢٥م، وميلاده في سنة ٦٧٨هـ = ١٢٧٩م، ووفاته سنة ٧٦١هـ=١٣٥٩م حيث خلفه ابنه الغازي خدواند كار [مراد الأول] في الحكم فبلغ عمره من السنين ٦٥ سنة، حيث ولد سنة ٧٢٧هـ = ١٣٢٦م وتوفي سنة ٧٩٢هـ=١٣٨٩م أو ٧٩٣هـ = ١٣٩٠م وحكمه ٣١ سنة، وهو فاتح مدينة أدرنه وواصل الحرب والغزو حتى استشهد في ساحة الحرب وميدان الجهاد في مكان يسمى قصوه، حيث ظهر كافر على قيد الحياة من بين جثث القتلى المنتشرة هناك وتقدم نحو السلطان متضرعًا ثم طعنه بسكين كبيرة كان يخفيها الجاني والذي كان يدعى "ميلوش قوبلاق" فاستشهد فورًا. ثم نقل جثة مراد الأول إلى مدينة بروسه، ودفنت في المكان المسمى الآن اسكي قابليجه. وقد خلفه بعده نجله الغازي يلدريم بايزيد الذي ولد سنة ٧٤٨هـ =١٣٤٧م، وجلس على العرش سنة ٧٩٢هـ =١٣٨٩م، وبلغ حكمه ١٦ سنة.

قد كان يلديرم بايزيد سلطانًا شجاعًا حازمًا، حيث قام بغزوات خاطفة من الأناضول على بلاد الروملي فاستولى - في مدة سنة - على بلاد الأفلاق والبغدان، ولذلك لقب بالصاعقة يلديريم حقًا، كان يلديريم بايزيد مقدامًا اتسم بالبسالة والجرأة وقد بلغ من العمر ستين عامًا ومدة حكمه ١٦ عامًا. وسبب وفاته أنه حارب تيمور وانهزم في القتال ووقع في الأسر، ولبث في سجن تيمور مدة فتأثر من ذلك بالغ التأثر؛ وأصابته حمى محرقة قضت عليه بعد أيام وقد نقل جثمانه إلى بروسه ودُفن بجانب جامع يلديرم، وقد خلفه ابنه سلطان محمد محمد چلبي خان في الحكم سنة ٨٠٤هـ =١٤٠١م، وكان ميلاده في سنة ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤م ومدة حكمه ٣٠ سنة وعمره ٣٤ سنة. ثم خلفه ابنه مراد بك سنة ٨٣٤ هـ =١٤٣٠م أو (٨٢٤هـ =١٤٢١م) وحكم ٣١ سنة وبلغ من العمر ٤٩ سنة، حيث توفي سنة ٨٥٥هـ =١٤٣١م فبلغ من العمر ٥١ سنة حيث توفي إلى الله سنة ٨٨٦هـ=١٤٨١م. وخلفه ابنه بايزيد خان سنة

٨٨٦هـ =١٤٨١م وحكم ٣١ سنة حتى بلغ من العمر ٩١ سنة وتوفي سنة ٩١٧هـ =١٥١١م، ثم تولى ابنه سليم الأول المولود سنة ٨٧٢هـ = ١٤٦٧م وجلس على العرش وهو يبلغ من العمر ٤٣ سنة. وقد توفى إلى رحمة الله سنة ٩٢٦هـ = ١٥١٩م بعد أن حكم ٨ سنوات وكان قد بلغ من العمر ٥١ سنة. ثم تولى ابنه سليمان خان المولود سنة ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م وحكم ٤٨ عاما وعمره ٧٤ سنة. وجاء ابنه سليمان الثاني المولود سنة ٩٢٩هـ = ١٥٢٢م والجالس على العرش سنة ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م والمتوفى سنة ٩٨٢هـ =١٥٧٤م، ثم تولى ابنه مراد الثالث المولود سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م فحكم من ٩٨٢هـ = ١٥٧٢م حتى ١٠٠٣هـ = ١٥٩٤م حيث توفى، وقد تولى بعده ابنه محمد الثالث المولود سنة ٩٨٠هـ = ١٥٧٢م في بلدة مغنيسا، وكان جلوسه على العرش يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٠٣هـ = ١٥٩٤م وبلغت مدة حكمه تسع سنوات وعمره ٣٢ سنة. ولما توفي إلى رحمة الله سنة ١٠١٢هـ = ١٦٠٣م خلفه ابنه أحمد المولود بمغنيسا، وكان أثناء جلوسه على العرش بالغًا من العمر أربع سنوات؛ حيث كان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٤م وقد توفي سنة ١٠٢٦هـ = ١٦١٧م وبلغت مدة حكمه ١٤ عامًا، وخلفه في الحكم بعده أخوه مصطفى خان في ١٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ = ١٦١٧م حيث حكم سنة وثلاثة أشهر، ثم خُلع عن السلطنة وأجلس مكانه السلطان عثمان في ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هـ = ١٦١٧م، وحكم خمس سنوات واستشهد بعدها في ٨ رجب سنة ١٠٣١هـ = ١٦٢١ م، حيث أُعيد مصطفى إلى الحكم مرة أخرى في الشهر نفسه من العام نفسه، ثم تم خلعه مرة أُخرى فتولى الحكم بعده السلطان مراد الرابع بن أحمد خان في نفس سنة ١٠٣٢هـ = ١٦٢٢ م، وقد دام حكمه ١٧ سنة وعمره ٢٨سنة، ثم جاء إبراهيم بن أحمد خان إلى العرش سنة ١٠٤٩هـ = ١٦٣٩م واستشهد في ١٠٥٨هـ = ١٦٤٨م ابنه محمد الرابع الذي هو الآن سلطان العصر والأوان أطال الله عمره وأيد سلطنته إلى الأبد، آمين آمين.

ولا شك في أن الله سبحانه وتعالى قد شمل - بلطف منه - هذه الدولة العثمانية العلية؛ فحالفها التوفيق والنجاح في كل فتوحاتها حتى تم لها الاستيلاء على بلدان سبعين ملكًا، والسبب في وصف حكاية وسلاطين هذه الدولة بألقاب "خادم الحرمين الشريفين ومولى ملوك الروم والعرب والعجم"، والباعث أيضًا على أن يفوقوا جميع الملوك والسلاطين في جميع أنحاء العالم كان فاتح مصر العظيم السلطان سليم شاه ابن بايزيد خان رحمة الله عليه، ولنذكر الآن كيف امتلك مصر ذلك الفاتح العظيم.

سبب ضم السلطان سليم مصر

غير خاف على المؤرخين والعلماء بالتاريخ أن السلطان أبا الفتح محمد خان الغازي قد قام - في بادئ أمره - بمحاربة "أوزن حسن" وقاتله في سهل ترجان، وهزمه هزيمة منكرة ثم تحوّل نحو بلدة طرابزون (طرب أفزون) الواقعة على شاطئ البحر الأسود، فحاصرها برًا وبحرًا حتى استولى عليها في مدة وجيزة. وقد عيَّن ابنه السلطان بايزيد الولي حاكمًا عليها. فقام بأعباء الحكم والإدارة بها بكل حزم وعدل حتى وهبه الله تعالى نجله سليم الأول؛ الذي أنار الكون بظهوره في برج الشرق وطلوعه كالشمس في سماء الدولة والإقبال وبروز شأنه يومًا بعد يوم في كل الأرجاء.

وبينما كان أبو الفتح محمد متوجهًا من دار السلطنة إلى قتال الأشقياء والعصاة الموسومين بآل قرمان، وافاه الأجل المحتوم في المكان المعروف بـ "مالتة" على مقربة من إسكدار؛ فانتقل الحكم إلى نجله السلطان بايزيد الذي بادر إلى أخذ عشرين ألف جندي من جيش نجله الأمير سليم، وكانوا أبطالاً مغاوير، لسان حال كل واحد منهم يقول "أنا ولا أحد غيري" فوضعهم تحت إمرة حاكم مستقبل البلاد، آمرًا إياه أن يغزو بهم وينهب أطراف تلك البلاد الأربعة. وذهب هو بنفسه إلى إسلامبول وتسلم عرش آل عثمان وتفرغ لتصريف المسلمين. وفي خلال ذلك كان الأمير سليم يغزو بلاد الكرج والمكريل والداريان ويخضعها خضوعًا

كاملا فيكسب بذلك خبرة بالبلاد ووقوفا على أحوالها، حتى اشتبك يوما مع "ميراخان" من أقرباء "أوزن حسن" في قتال وحروب دامية؛ أسفرت أخيرا عن استيلاء الأمير سليم على قلعة "جانخه" بقوة السيف، وقد اغتنم أموالاً كثيرة أرسل منها مقدار ثلاثمائة قنطار من الأواني الفضية هدية إلى والده السلطان بايزيد؛ فسر بها كل السرور وبعث إلى سليم خلعا سنية فاخرة ورسائل شكر وتقدير. وما لبث سليم أن اتخذ "جانخه" مركزا لحكومته وزاد عدد جيشه بعشرة آلاف من الجنود حملة البنادق ورماتها.

هذا، والسبب في تسمية بلدة "جانجه" باسم "كُمُشْخانَه" - الذي معناه البيت الفضي - هو احتواؤها على سبعة مناجم للفضة تجرى فيها كالعيون. ومن حسن حظ الأمير سليم ودلائل توفيقه أن ظهر فيها منجم ذهب أيضا، فبادر إلى سك نقود منه بلغ مقدارها مائة ألف دينار ممسك منقوش عليه (السلطان بايزيد بن محمد خان عز نصره ضرب في جانخه سَنَة) وأرسلها إلى والده فسُرّ به كل السرور وأعرب عن إعجابه وتقديره له، قائلاً: "يا سليم اهنأ بالبلاد التي فتحتها بجدك وإخلاصك، وإني قد أنعمت بها عليك وأصدرت بها مراسيم كريمة وفرمانات عالية". وقد أسعد هذا الأمير سليم وأثار في نفسه الأبية النخوة والحماسة فانقلب أسدا هصورا أو أفعوانا ذا سبع رءوس، فأخذ يصول ويجول يمينا وشمالاً حتى فتح في بضع سنوات خمسا وأربعين مدينة عامرة وقلعة حصينة؛ أمثال قويلي حصار ونيكسار وبايبورت وأسپروتورتوم وأرزنجان، إذ كان كلما قصد جهة فتح الله عليه فينتصر ويظفر بالأعداء بفضل الله تعالى وقوته.

ولما كان السلطان بايزيد الورع متجها بكل قلبه وإخلاصه نحو فتح قلعتي "متون" و"كورون" الكائنتين في ولاية المورة الخاضعة لإفرنج البندقية، انتهز الفرصة كل من القيزيلباش(٢٢٣) [الإيرانيون في عهد الصفويين] وحاكم ذي القدرية

(٢٢٣) القيزيلباش: هي صفة تركية مركبة من كلمة "قيزيل" وتصف اللون الأحمر و"باش" الرأس، وقد أطلقت هذه الصفة على طائفة تابعة لأحد غولات الشيعة الذي يدعى حيدر،=

المسيطرين على مرعش المدعو علاء الدولة، واتحدوا قلبًا وقالبًا وهاجموا الـبلاد العثمانية وأخذوا منها بلاد توقات وسيواس وأماسية ووصلوا حتى بلدة عثمـانجق؛ وهكذا صار سلطان العجم يشيع وينتشر في البلاد، على أن الأميـر سـليم كـان يصدهم ويفتك بهم تارة ويقطع عليهم خط الرجعة تـارة أخـرى؛ ولكـن الغـزاة والمهاجمين كانوا أقوياء وأكثر جندًا وأعز نفرًا. فلذا كان الأمير يبدى أسفه الشديد لهذه الحالة ويتمنى إنزال ضربة قاصمة بهؤلاء الأعداء. وحدث أن ساق الـسلطان بايزيد الولي مرة جيشًا جرارًا إلى سهل ترحالة لقتال العجم، ولما التقى الجمعـان وحمى وطيس القتال بين الطرفين إذا بعلاء الدولة صـاحب إمـارة ذي القدريـة ينـزل إلى الميدان ويقتحم ساحة الوغى ومعه اثنا عشر ألفًا من فرسـان الجـيش المرسل من قبل السلطان الغوري ويعمل السيف في رقاب جنود بايزيد الولي.

وبعد معركة طاحنة ينهزم العثمانيون قبيل غروب الشمس؛ فيعتصم الأميـر سليم يومئذ بجبال جانخه فيخلو الجو حينئذ للخلفاء من العجم والتركمان والغوريين المصريين؛ فاستاء الأمير سليم من المصريين كل الاستياء وتحرق شوقًا إلى لقائهم في أقرب فرصة. فكان ليل نهار يقول: "إن منحني الله عرش آل عثمان يومًا ما فـإني أعاهد الله تعالى على أن تكون أول غزوة لي في سبيل الله إلى بـلاد العجـم، وأن تكون الثانية إلى بلاد آل ذي القدرية، والثالثة إلى الديار المـصرية. ألـيس مـن المفارقات العجيبة أن يكون البلدان الأخيران مسلمين ويقومان بعون العجـم علـى المسلمين؟[٢٢٤]، وعلى كل فالأمر بيد الله يصنع ما يشاء ويختار وهو الفعـال لمـا

= وكان حيدر هذا قد استحدث تاجًا لأتباعه لتمييزهم عرف باسم "تاج حيدر"؛ وكان هذا التاج أحمر اللون وذا اثنتي عشرة ذؤابة كناية عن الاثني عشر إمامًا لدى الشيعة، وقد أطلق العثمانيون على لابس هذه العمامة اسم "القيزيلباشا" أي الرءوس الحمراء، مشيرين بها إلى هذه الطائفة من الشيعة التي تعاظم خطرها شرق الأناضول أواخر القرن ٩ الهجري =١٥ الميلادي وأوائل القرن ١٠ الهجري = ١٦ الميلادي. (سيد محمد سيد: مرجع سابق، صـ ٧٣. بالإضافة إلى Mehmet zeki pakalin. O. T. D. ve = (terimleri sözleügü cilt. 2.

(٢٢٤) (ويقومان بعون العجم على المسلمين) فكأن المؤلف هنا يعد الأعاجم الـشيعة مـن غيـر المسلمين.

يريد". نعم، كان الأمير سليم يردد هذا القول ويصطبر وينتظر الفرصة. ولكن نفوذ العجم كان آخذًا في الانتشار يومًا بعد يوم، حتى وصل الحال بالعجم أن وصلوا إلى أبواب أسكدار فيتخطفون الناس ويسبون النساء من البلاد ويأتون بهم إلى وكالات وخانات مدينة سيواس حيث يباعون بيع الشياه، مما أفضى إلى خضوع آل عثمان لهم وتقديمهم لهم العطايا والإتاوات من الأبسطة والطنافس والجوالق وغيرها من الأمتعة المتنوعة. كان يحدث هذا والسلطان بايزيد الولي منخرط في سلك الطريقة الخلواتية ومتجه بنفسه إلى الرياضة وتصفية القلب من أمور الدنيا وشئون الدولة غير عابئ بها ولا مشتغل بمشاغلها؛ وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يتصل بأولياء الأمور في الأستانة سرًّا ويتفاوض معهم فيما آل إليه الأمر وتفاقم الحال في أنحاء المملكة العثمانية، وقد أرسلوا إليه يطلبون منه أن يكون لهم ظهيرًا، ويقولون له: "فقد ساءت الحال ولا تسمح الأحوال بعد الآن بالانتظار والصبر، ونحن مستعدون وموطنون النفس على تسليم العرش إليك بمجرد قدومك...".

فما كان من سليم خان إزاء هذا إلاَّ أن عهد إلى ابنه سليمان خان، وكان قد ولد بطرابزون ونشأ بها مثله وكان يحبها حبًّا شديدًا، حتى إن الشاه إسماعيل كان كثيرًا ما يطعن في سليمان خان وكان يرسل إليه رسائل مليئة بالشتائم، كان يقول فيها "وأبيها اللاظ وابن اللاظ" وقد صار فتى شجاعًا قوى البنية ورشحه ذلك لحكومة "كفه"، رجاه والده الموافقة على ذلك فأجابه السلطان.

بادر الأمير سليم إلى وضع خمسة آلاف من الجنود الشجعان الأبطال في مائتي سفينة وأرسلهم إلى "كفه" الواقعة على بعد ثلاثمائة ميل من طرابزون، فذهب سليمان وصار حاكمها المستقل بلا منازع وشرع في حشد الجيوش والعساكر. وأعطف ذلك سفر الأمير سليم وفي صحبته خمسمائة سفينة تحمل عشرة آلاف من الجند، وذات ليلة ظهر فجأة أمام ميناء كفه وقلعتها. فدخلها واجتمع بخان التتر "منكلي كراي" وأطلعه على حقيقة الأمر. فما كان من خان التتر إلا أن وافقه على

رأيه وباركه وأمدّه بأربعين ألف جندى من حيشه الخاص. علاوة على الجيش الذى حشده الأمير سليم الذى شرع فى المسير نحو الآستانة يقطع المنازل والمراحل ويواصل سيره ليلاً ونهارًا، حتى وصل مكانًا يدعى "پراوادى" وأقام بوادى "أوغرا" حيث التقى هنالك بجيش السلطان بايزيد، الذين كانوا قد فكروا فى الأمر مليًّا؛ قائلين: إننا إن لم نحارب هذا الأمير الشاب الجسور الطموح الآن، فإنه سيستولى على مقاليد الأمور ويتمكن من القضاء علينا جميعًا ولن يبقى حينئذ على أحد منا، فالأنسب أن نقاومه ونبدأ بالقتال دون أن نمنحه الفرصة السانحة[٢٢٥].

وهكذا باغتوا جيش الأمير سليم، الذى لم يكن يتوقع ذلك قط، فلم يكن جيشه مستعدًا لهذا القتال المفاجئ. وقد بدأ فى قصف المدافع ورمى السهام المسمومة وإطلاق البنادق النارية، وأسفر القتال فى وادى أوغراش عن هزيمة جيش الأمير سليم. الذى ولى الأدبار ولاذ بالفرار والهزيمة نحو ساحل نهر الدانوب، واضطر الأمير سليم إلى الاعتصام بالسفينة التى كانت راسية فى ميناء وارنه بساحل البحر الأسود، وسافر بها عائدًا إلى مركز حكومته القديم طرابزون وقد نال منه الخجل والتأثر كل منال، فانزوى بها مدة لا يقابل أحدًا من فرط الخجل نفسه. وكان نائبه المدعو "صارى قيابك" قائمًا بشئون الحكم بطرابزون، و"ماللى على بالك" كان قائمًا بشئون الدفاع والحراسة فى جانيخ أو (جانخه). كما كان الأمير سليمان قائمًا بالحكم فى كفه [ميناء القرم].

---

(٢٢٥) إشارة إلى أنه قد نشأ وترعرع بين سكان طرابزون من اللاظ، وهم قوم قد استوطنوا مناطق البحر الأسود.

قصة الأمير سليم

هذه القصة ينقلها هذ الضعيف من محل الثقة، وهو والده المرحوم الدرويش محمد ظلي الذي كان يبلغ من العمر مائة وسبعة عشر عامًا، حين انتقاله من هذه الدار الفانية إلى الدار الأخرة. وهو، وإن لم يكن قد طاف في البلاد مثلي، إلا أنه قد أدرك عهود تسعة من السلاطين العثمانيين، وعلاوة على ذلك فقد شرف بصحبة السلطان سليمان خان أثناء غزوه لقلعة سكتوار [في المجر]، كما أنه كان في صحبة السردار مصطفى باشا الذي فتح جزيرة قُبرص، وقد أوفده الباشا إلى البلاط العثماني حاملاً مفاتيح قلعة باغوسه بعد فتح الجزيرة لرفعها إلى سدة السلطان سليم الثاني، وقد أنعم عليه بخلع سنية مع إسناد منصب رئاسة صاغة القصر السلطاني إليه مدى الحياة مصدرًا مرسومه الكريم بذلك. وفي عهد السلطان أحمد قام والدي هذا بإنشاء الميزاب الذهبي لمكة المكرمة "يقصد الكعبة"؛ حيث سافر إليها بوظيفة أمانة الصرة الشريفة وقام بوضع ميزاب الرحمة على سطح الكعبة.

والغرض من ذكر هذا هو أن أبين أن والدي كان ذا تجارب وخبرة بالأمور، وشيخًا حنكته التجارب وصقلته الأحداث والمهام. قد كان عالمًا بما يقول ويروي. وكان مثله كلاً من الأفاضل قوزي علي أغا البالغ من العمر مائة وثمانية وأربعين عامًا، وكان متوليًا ركائب السلطان سليمان، وعبدي أفندي صاحب خان ابن تاجر الأرز "برنجي زاده" الواقع في حي "زيرك"، وقراقيز محمد أفندي الذي يقطن بقرب حمام العرب، كان هؤلاء الشيوخ الطاعنون في السن يجتمعون غالبًا في مجلس يتجاذبون فيه أطراف الحديث. وكان هذا الضعيف يستمع إلى حديثهم ويسر به أيما سرور، فرأى في ليلة من الليالي شخصًا مهيبًا، وإن كان ضعيفًا ونحيفًا، يدخل المجلس يسنده خدمه وأتباعه، فما كان من الحاضرين إلا أن هبوا جميعًا وحفوا لاستقباله ورحبوا به ترحيبًا عظيمًا، حتى أتوا به إلى صدر المكان بكل تجلة واحترام قائلين: شرفت على الرحب والسعة يا عزيزنا حليم أفندي، ثم شرعوا جميعًا يتناولون المكيفات التي أخذت تلعب بعقولهم وترفع التكليف فيما

بينهم؛ فتعيد إليهم الذكريات وتحملهم على مواصلة السمر والتندر وقد أمالوا طواقيهم.

وقد ابتدأ قوزى على أغا صاحب ركائب سليمان خان قائلاً: يا عزيزى حلمى أفندى! أنا أناشدك باسم السلطان سليم الأول سيدك، ومولانا سليمان خان أن تحل لنا هذه المشكلة؛ فتذكر لنا بالتفاصيل كيف كنتم متنكرين بعد انهزام سليم الأول أمام جيش والده بايزيد خان فى وادى أوغراش على مقربة من حاجى أوغلى بازارى (أى سوق حاجى أوغلى)، وكيف عدتم إلى طرابزون واختفيتم بها؟ عند ذلك شرع المذكور يحكى ويقول: إن المرحوم سليم خان أرسل إلينا أنا وقره نديم، يدعونا إليه يومًا من أيام انزوائه فى طرابزون "طرب أفزون"، فلبينا طلبه ومثلنا بين يديه وخاطبنا قائلاً: "ما رأيكما يا أبطال فى أن نقوم بسياحة متنكرين معًا". فما وسعنا إلا أن نقرأ البسملة والفاتحة إيذانا بالموافقة من غير أن نسأل عن الوجهة التى نقصدها. حينئذ أخرج سليم خان من جيبه مصحفًا شريفًا واستحلفنا عليه بألا يُفشى هذا السر أحد ما، وقد أقسمنا بالله كما أراد اتباعًا للقول المأثور "لا بأس أن نضحى برءوسنا ولا نفشى أسرارنا"، ثم دخلنا غرفة الملابس والمخزونات فلبس كل واحد منا جبة بكتاشية وحمل فى يده بلطة مسلمية وتحزم بمقلاع داودى ووضعنا على رءوسنا تيجانا وفى أقدامنا أحذية. ثم تقلدنا حزامًا من الجلد الممشك الأحمر، ومعنا حقيبة مليئة بتحف وكتب، ولكل واحد منا فروة وإحرام وضعناها على أكتافنا. وخرجنا من الخزانة، فإذا بحمار مهيأ لنا لنحمّله حقيبة الكتب والإحرامات. وسرنا على بركة الله مبكرين لا يعلم الناس ماذا يجرى حولهم ونحن نغادر طرابزون.

ولقد كان "سليم دده" حينذاك قويًا مهيبا وسيم الطلعة أبيض الجبين. وأما أنا هذا الضعيف و"قره نديم" فكنا أيضا شابين قويين نناهز العشرين كأننا من مُلاعبى القرود. وقد آلينا على أنفسنا ألا نذكر شيئًا من شئون الدولة أو اسميا أو ما يتعلق بيا بألسنتنا قط طيلة أيام رحلتنا فى هذه البلاد التى طالما قمنا بها برحلات الصيد

وأسفار القنص والمطاردة، ثم نذهب إلى بلاد بعيدة كانت لنا بها فتوحات عظيمة. وهكذا سرنا سبعة أيام معًا حتى دخلنا بلاد الشاه "شامخال" سلطان داغستان. ونزلنا فى جوامع بلاد الخان "قرابوداق" عدة أيام ضيوفًا نتعبد فيها ونستريح، وقمنا بعدها وسرنا حتى اجتمعنا بالخان "شمخال" الذى سألنا قائلاً "من أين أنتم آتون أيها الدراويش؟" فرد عليه "سليم دده" قائلاً: "إننا قادمون من بلاد الروم". وبعد أن لبثنا عنده ضيوفًا بضعة أيام توجهنا نحو مدينة "طرخو" ومنها إلى مدينة "قوين" ثم إلى مدينة "دميرقپو" على حدود العجم، ومن هناك أخذنا خطابات توصية من الخان العجمى إلى قلعة "ماكو" ثم إلى "جيلان" و"كنجه" و"شيروان"، ثم سرنا على شاطئ بحر الخزر حتى دخلنا "مازند ران" فأقمنا بها ثلاثة أيام بلياليها، ثم غادرناها إلى "قم كشان" ومنها إلى جبل الديلم. ثم اتجهنا نحو "خراسان" فأقمنا بها شهرًا جددنا خلاله حياتنا الروحية بتجديدنا البيعة لآل البيت والثقة بهم. فأخذنا العهد على الشيخ الذى يقيم هناك، وقد حملنا منه الكتب إلى بلاد الروم لأتباع الولى العارف بالله الحاج بكتاش. ولقد مررنا بمائة وسبعين قصبة ومدينة حتى وصلنا مدينة أصفهان التى هى فى السعة نصف الدنيا كما ورد فى المثل "أصفهان نصف جهان" فأقمنا بها، ثم أخذ كل واحد منا يطوف فى أطراف المدينة وشوارعها وضواحيها يشاهد ما بها من الغرائب ويتمتع بما فيها من الملذات والنعم الكثيرة، وكان "سليم دده" يتردد على القهاوى ويلعب الشطرنج حتى اشتهر بإجادته اللعب فى سائر أنحاء المدينة. لم يكن يستطيع أحد من أساتذة هذه اللعبة أن يكسب دورًا أمامه.

ولقد تملك العجز والدهشة جميع أهل أصفهان من مهارة "سليم دده" فى لعب الشطرنج، فأخذوا يتساءلون مندهشين إن لعب شاههم الجميل مع الدرويش الماهر فى الشطرنج فأيهما يغلب الآخر؟ وأخيرًا أنبأوا الشاه إسماعيل بمهارة درويش قدم حديثًا إلى أصفهان فى لعب الشطرنج وكيف أنه يغلب سواه، فأمر الشاه فورًا بإحضار ذلك الدرويش إليه. وذات يوم ونحن جلوس فى التكية إذا بحمار أبلق وراءه أغا ذو وجاهة تقدم إلينا يحيينا بقوله: "زادكم الله حبًّا يا دراويش"، فرددنا

عليه بقولنا: "زادكم الله جمالاً وكمالاً أيها الزعيم". وعند ذلك قال الأغا : "إن الشاه يستدعيكم إليه وهو في انتظاركم فاستعدوا لأذهب بكم إليه".

ولما ذهبنا نحن الثلاثة بجبيننا الفاخرة إلى حضرة الشاه بادر "سليم ددة" إلى فتح حزامه، وإخراج نايه الإسرافيلي وضرب نغمة محمدية ثم ثناها بنغمة حيدرية، ثم ترنم اثنتى عشرة نغمة أخرى رمزًا إلى الأئمة الأثنى عشر، ثم ذكر أسماء الله الحسنى "الواحد والفرد والأحد والقادر والأول والآخر والظاهر والباطن"، ثم ضرب اثنتى عشرة نغمة أخرى لهذه الأسماء الحسنى ثم صاح في عقبها بقوله "الحق"، ثم تقدم إلى الشاه واضعًا يده على صدره ومُميلاً طاقيته ثم خاطبه بصوت إلهي عاشق، ثم حياه تحية فارسية، ثم انتحى مكانًا وأخذ يترنم بأبيات تركية معناها:

أيها الملك أفاق عدلك نيِّرة ساطعة فكن سراجًا وهاجًا لمحافل الدهر مثل الشمس.

وكن تارة كالنارنجة تعطر الربوع، وكالوردة المفتحة تزدان الحدائق بها تارة أخرى. ولا يحرم الله العالم من وجودك.

وقد أعجب الشاه إسماعيل بهذه الحركات والأقوال أيما إعجاب وسر بها أبلغ السرور، فقام له وتقدم إليه وأخذه إلى جانبه يدًا بيد وأجلسه معه وخاطبه متلطفًا قائلاً: "مرحبا أيها الرجل من أين أنت قادم؟" فقال سليم ددة: "إني يا سلطاني قد تربيت في كنف الولي الحاج بكتاش في بلاد قيصر، ثم طفت البلاد وتنقلت بها؛ فذهبت إلى القرم ثم إلى بلاد "الخان شمخال" وبعدها إلى مشهد خراسان في بلاد بخارى لزيارة الأكابر، وأخذت كتبًا ورسائل من بعض المشايخ، وجئت الآن إلى ديار الكمال والجمال للتشرف بلقاء شاهي وملكي ذي الوجه البشوش الضاحك والطلعة البهية"، وقدم الكتب والرسائل المشار إليها إلى جلالة الشاه الذي ابتهج بها كثيرًا وقال: "يا رجل على الرحب والسعة ".

وفى أثناء ذلك فض الشاه كتاب الشيخ وتلاه وما إن فرغ منه حتى عين لنا مكانًا ننزل فيه فى قصره العالى، فلبثنا فى أصفهان مدة غير قليلة حيث نادم "سليم دده" فيها الشاه إسماعيل فى غالب الأوقات وحادثه وجالسه حتى ارتفع التكليف بينهما، فقال له الشاه ذات يوم: "يا سليم دده يقال إنك ماهر فى لعب الشطرنج"، فأجاب: "نعم يا سلطانى هذا صحيح" فرد الشاه بقوله: "إذن هيا نلعب معك دورًا يفوز به البخت أو العرش". قال سليم دده: "أنا لا أستطيع ملاعبة الشاه لأن جلال الملك والسلطنة يمنعنى من ذلك" فقال الشاه: "لك أن تعمل ما بدا لك، فتصرف كيف تشاء ولا تفكر فى صفة الشاهية والملك، قم أيها الرجل فالمجال أمامك متسع". عند ذلك قال سليم دده: "إن فى هذه الأقوال طمأنة وأمانًا من الشاه كبيرين وتواضعا يشكر عليه، وعلى كل فالله سبحانه وتعالى لطيف وخبير بأحوالهم".

ولما شرع سليم دده فى لعب الشطرنج مر بخاطره الشريف أنه إن غلب الشاه فى هذه اللعبة الفريدة فعسى أن يكون ذلك عنوانًا للظفر به وآية على خضوع بلاده له بقوة سيفه وحدة حسامه. وإذا بحكمة الله سبحانه وتعالى تتجلى وتظهر بوادر الغلبة والظفر حيث يموت ملك الشاه، ثم ينشد ويقول: "حينما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق، واسحب الفيل من بيته فالشاه ميت لا محالة"، ثم يقدم على إماتة الشاه بالفيل، فما كان من الشاه إسماعيل عندئذ إلا أن ثار غضبه ورفع يده وصفع سليم دده صفعة سلطانية. فصاح سليم دده: "أيها الشاه إنك خالفت الوعد ونقضت العهد؛ إذ قلت آنفًا اعمل ما بدا لك. ولا تلتفت لرتبة الشاه وجلال السلطنة، فإنى ما عملت إلا بقدر معرفتى بأساليب اللعب ومقتضاه، ولكن يأتى يوم لا أفى بعيدى حينما ألعب وأميت شاهى".

قال هذا ورمز إلى ما يبطنه فى نفسه. ولكن الشاه إسماعيل لم يفطن إلى ما يقصده من هذا القول، ثم لعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات غلب فيها جميعًا سليم دده الشاه إسماعيل الذى ثارت ثائرته واشتد غضبه. ولكن سليم دده نال مرامه وغرضه من الشاه خلال ذلك فى الحصول منه على الإذن السامى بزيارة الأمكنة

المقدسة التى كانت زيارتها محظورة كل الحظر. فضلاً عن حصوله على الإحسانات الشاهانية من أنواع الجواهر والهدايا القيمة. فمن تلك الزيارات زيارة ضريح التركى التركمانى الخواجة أحمد يسوى أستاذ الحاج بكتاش ولى.

ثم غادر أصفهان وساح فى بلاد كثيرة حتى وصل إلى مقبرة الشيخ اليسوى وزاره ثم زار عددًا من كبار أولياء الله؛ فنال رضاهم ودعواتهم الطيبة ثم تشرف بزيارة مراقد جَمْع من أولياء الله أيضًا، وبعدها عاد إلى "تبريز" و"همذان" و"أردبيل" و"دركزين" وبغداد الشبيهة بالجنة و"دَرْنه" و"دَرْتنك" و"شيربان"، وأقام ببغداد أربعين يومًا تمكن خلالها من زيارة مراقد الإمام الأعظم، وعبدالقادر الجيلانى، والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان پاك، وجومرد القصاب، والإمام موسى، ومعروف الكرخى، والإمام الحسين، والإمام على، حيث تمكن من تعفير وجهه بتراب عتبات هؤلاء الأولياء الكرام مستمدًا المعونة والبركة من روحانيتهم العظيمة العالية.

قدوم الأمير سليم فى سياحته من بغداد إلى الكعبة

وسار الأمير من بغداد مع حجاجها متجهًا إلى الكعبة الشريفة فوصلها فى سبعة عشر يومًا، فزارها حاجًا ثم فى زيارة الأحياء من أولياء الله الكبار بها وزار أيضًا أمكنة أخرى. ثم التحق بحجاج مصر وذهب معهم إلى زيارة المدينة المنورة، وتقدم لزيارة ذلك الحرم النبوى المقدس بعد أن اغتسل جيدًا، فتمسك بالشباك النبوى وصاح صيحة قوية مزقت قلوبنا جميعا قائلاً: "يا رسول الله إنك خلفت فى الدنيا ما سمي "الناموس المحمدى" فما هذا الناموس المحمدى الذى يجعلك تنام هكذا بين كفرة الجراكسة المصريين وهل هذا يعد ناموسًا؟ ها أنا أعطيك عهدًا وميثاقًا إن يسر الله لى ببركتك فتح مصر أن أجعل بلاد مصر كلها وقفًا عليك، وأبنى بها قلاعًا، وأرسل كل سنة لأمتك الكساوى والصرة وسائر العطايا والهدايا".

قال هذا وتضرع وابتهل وبكى وأبكى كثيرًا، ثم كرر هذا العمل من التضرع والابتهال سبع مرات، وإذ بشخص متشح بملابس رثة يقول من تحت شباك الرسول: "يا سليم أنا كفيل لك وضامن، فاذهب إليها وقم بعملك كما تريد وإياك وظلم العباد والتعدى عليهم، وعليك بمراعاة علماء مصر"، ثم أشار بيده قائلاً ومكررًا لفظ "رح" "رُح"، وفى الوقت نفسه ارتفع صوت من القبر الشريف يقول: "دستور يا سليم دستور يا سليم!" فحمد الله سليم دده عند ذلك ورافق حجاج مصر فى القدوم إليها، وقد وصلها بعد أربعين يومًا ونزل فى تكية "ميمندى" بالقرافة الكبرى.

ولما زرنا أبا السعود الجارحى ومرزوق الكفافى سلم عليهما سلامًا حارًا فرد أبو السعود الجارحى عليه بقوله: "عليك السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين وحاكم مصر، سلامتك يا سليم، سلامتك " رُحْ " بالعجل إلى بلاد الروم هكذا كشف عن الغيب". وكذا أظهر مرزوق الكفافى الكرامة وكشف عن الحال فقال بالتركى ما معناه: عجِّلْ بالعودة وتسلم عرش السلطنة ثم أسرع فى غزو بلاد العجم، وبعد هذا تعال إلينا حينما ندعوك ولا تقم الآن بمصر. وهكذا أخرجنا كبارُ الأولياء من مصر بسرعة؛ بيد أننا لم نر مثيلاً فى بلد ما للظلم والجور اللذين شاهدناهما فى مصر فى مدة الاثنى عشر يومًا التى قضيناها بها؛ لأن سلطانها الغورى كان حينئذ يبنى قناطر المياه فى مصر، فيظلم الأهالى ظلمًا شديدًا ويسخر الأهالى حتى العلماء فى حمل الأحجار وسائر الأشغال الشاقة، وكان هو عاجزًا عن ضبط الطائفة العسكرية والجنود وردعهم عن إيقاع الظلم والجور والتعدى على الأهالى[٢٢٦].

---

(٢٢٦) إن زيارة سليم وهو مازال أميرًا لكل من بلاد العجم والعراق وأداءه الحج وزيارته لمصر هذه فى حاجة ماسة إلى تحقيق من قبل ذوى الاختصاص.

ولما تبين لنا هذا بادرنا إلى امتطاء صهوات خيولنا الأصيلة وزرنا المشايخ وتزودنا بالإجازات وكتب التوصية، منها إلى "خليل بن رمضان" من حكام آل رمضان فى أذنه ليقوموا بخدمتنا حين العودة إلى بلادنا.

هذا، ولقد رجعنا إلى أذنه فى عشرين يومًا، ومنها إلى أرضروم فى مثل هذه المدة، ومنها إلى طرابزان فى أيام، حيث اجتمع سليم دده ووالدته المشفقة الحنون وتشرف ببركات دعائها الطيب. وحينما سأل عن أحوال والده السلطان بايزيد الولى علم أن شئون الدولة آخذة فى الاضطراب والاضمحلال؛ فإن أهالى الأفلاق وأردل والبُغْدان الكفرة شقوا عصا الطاعة وثاروا ثورة لا يعلم إلا الله مصيرها؛ مما جعل أولياء الأمور فى السلطنة يضربون أخماسًا فى أسداس حائرين فيما يعملون، وعاجزين عن اتخاذ أى تدبير ناجح. ولذلك أخذوا يتلاومون قائلين إن الأمير سليم كان قد توجه إلينا لإنقاذ الدولة قبل سنتين، فحاربناه وقاتلناه حتى هزمناه فوا أسفا على ذلك الأمير البطل السعيد الذى حرمنا من خدماته مدة سنتين. وماذا نعمل الآن؟ ولا ندرى هل استشهد الأمير فى تلك الحروب المشئومة أم فُقِدَ فى جهة ما، وهل نعمد إلى "سليمان خان" ابن الأمير سليم خان، وهو الآن مقيم فى "كفه" ونقيمه سلطانًا علينا؟ هكذا كانوا يتساءلون وهكذا كانوا يبدون الأسف والندم.

وبينما هم كذلك إذا بخطاب الأمير سليم "الدرويش" يصل من طرابزون إلى الآستانة فى سبعة أيام بفضل ريح التوفيق التى تهب فى البحر، فسرّ كل السرور لهذه البشرى كل من فى الأستانة من رجال الدولة وأعيان الأمة المحمدية وسوادها؛ إذ علموا أن الأمير سليم ما زال على قيد الحياة متمتعًا بالصحة الكاملة. فيبادرون إلى إرسال الرسائل وإيفاد الرسل إليه يدعونه إلى تسلم مقاليد أمور الدولة وتسلم العرش من غير أن يصطحب معه جيشًا ولا جندًا، وقد تضرع إليه هذه المرة رجال قيادة الجيش العليا والعلماء وسائر رجال الدولة والذين قالوا فى رسائلهم إنه قد بلغ السيل الزبى وطفح الكيل ووقع اختيارنا واتفاقنا جميعًا على إجلاسك على كرسى السلطنة وعرشها السامى؛ فأرسلوا كتبهم ودعوتهم على جناح السرعة إلى

الأمير فوصلت في سبعة أيام إلى طرابزون. وبادر الأمير سليم إلى السفر إلى "كفه" بسبعمائة قطعة من السفن المسماة "شايقا" و"قرامورسل"، واجتمع بابنه سليمان واحتضنه بلهفة وشوق حيث وجده شابًا أنيقًا باسلاً وسليمانيًا رقيقًا فقبّله بين عينيه النرجسيتين.

هذا، وكان محمد كراى خان "حاكم القرم" قد تولى منصب الخانية حديثًا، وسافر بجيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف جندى إلى أيرنة، فلما وصل إلى مقربة منها جاءت الأنباء أنه لحكمة يعلمها الله قد قام الكفار بالزحف من جهة هنغاريا "أنكروس" أى بلاد المجر، واستدعى الأمر ندب الأمير سليم إلى جهة بلغراد.

فلما وصل الأمير إلى "صوفيا" عمد الجيش الإسلامى إلى الذهاب ببايزيد خان إلى إسلامبول، وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يعود هو أيضًا من صوفيا ويتبع أثر الجيش الإسلامى، وكان بايزيد إذا ما رحل من منزل من منازل الطريق حل مكانه الأمير سليم حتى بلغوا جميعًا سهل "چورلو"، فقام الجيش بثورة عامة وأخذوا يتصايحون. إنهم لا يقبلون سلطنة سليم ولكن المنصفين منهم والعقلاء كانوا يقولون إن دولة آل عثمان فى زوال وتدهور وأخذوا يعقدون مجالس للتشاور وتبادل الآراء، وبينما هم كذلك إذ بجيش الأمير سليم يصل إلى الميدان، ويمتشق الطرفان الحسام وتدور رحى معركة حامية تسفر عن اندحار الثائرين وانهزامهم فيعلن خلع السلطان بايزيد وسلطنة سليم الأول فى سهل "چورلو" هذا، وخاطب بايزيد بعد ذلك ابنه داعيًا عليه بهذا الدعاء:

"يا سليم! إنك انتزعت الملك منى فى سهل "چورلو" بالقوة والعنف. وأسأل الله سبحانه أن تنقلب مقهورًا فى هذا السهل نفسه! فاللهم اجعل سيفه قاطعًا وعمره قصيرًا واجعل الإنكشارية فى حرب دائمًا، وبارك فى رواتبهم حتى يتصدروا أولادهم واحفظ أجسادهم من الإهانة فى ساحة الوغى، واجعل الفرسان كثيرى النعم قليلى البركة وعظيمى المظهر، واجعل أجسادهم طعمة للفتك والتقطيع فى ميدان

القتال ولا تبارك في المدرعين، واجعل أرباب الإقطاعات والامتيازات مشغولين بالقضايا والمنازعات طامعين في ترك أموالهم ميراثا لأبنائهم".

هكذا دعا بايزيد على جميع طوائف الجيش الإنكشارى من رعايا آل عثمان وجنودهم ثم أرسله إلى ديمتوقة، ففاضت روحه أثناء الطريق في موضع يدعى "هاواسه"، وأما كيف مات ولماذا فأمر لا يعرفه أحد.

بيان استقلال سليم الأول بالسلطنة سنة ٩١٨ هـ = ١٥١٢م

لما انفرد السلطان سليم الأول بالحكم والسلطنة قمنا معه نحن الثلاثة – هكذا يقول حليمي چلبي – في يوم البيعة في "ينى باغچه" في إستانبول "إسلامبول" بسياحة كالأولى في الفجر وقت الشافعية، وقد تنكرنا فلبسنا زى الدراويش وطلعنا من الغرف السليمانية من وراء الحجاب، فتوجهنا نحو أبي أيوب الأنصارى ثم إلى أبي الفتح وزرنا مرقديهما، وبعد ذلك دخلنا تكنات قدماء الصولاق[٢٢٧]؛ حيث استقبلنا رؤساؤهم بحفاوة وترحيب وقدموا لنا الفطور والقهوة، وفي أثناء الكلام قال لهم: "أيها الرفاق الغزاة هل تريدون سلطانًا قادرًا على الركوب والنزول دائب الحركة؟ أم تريدون سلطانًا معتكفًا في زاويته يمضى الأوقات بالدعاء والتضرع؟ " فقالوا جميعًا: يجب علينا أن نقوم دائمًا بواجب الغزو والجهاد حتى تحل لنا الرواتب والمخصصات التي نتناولها من وقف الله، فقد أحاط بنا العجم والكفار من جهاتنا الأربع ولم يتركوا لنا بلدًا.

عند ذلك بادر "سليم دده" إلى تحليفهم بالله قائلاً: "إن رجعتم عن قراركم وتصريحكم هذا تكونوا قد نكثتم أيمانكم وصرتم من الحانثين". وحلف الكل على ذلك وتقدم سليم دده نحو باب الهمايون فنفخ في الصور على الأصول البكتاشية ثم دخل الباب الأوسط ونفخ في الصور مرة أخرى، ونال الإحسان المعتاد من كتخدا

---

(٢٢٧) جنود من المحاربين كانوا يأخذون مواضعهم في ميْسرة الجيش خلال المعارك.

أى معتمد البوابين والحراس، وواصل السير حتى ولج باب الأغا الأبيض ونفخ فى الصور وأخذ الإنعام والهبة المعتادة.

وبينما هو كذلك إذ سنحت له الفرصة بالدخول بين غلمان القصر وتسلل بينهم دون تكلف وتوجه نحو الغرفة الخاصة التى نشأ فيها سليم خان نفسه، واقتحمها وجلس على عرش السلطنة مستمرًا ثابتًا كأنه سد الإسكندر، وقد أمال تاجه وهو بتلك البزة الدرويشية، وإذ بغلمان القصر ومماليكه الخاصة يفاجأون بسطوع النور وتلألئه فى أنحاء القصر فيهرعون كلهم نحو العرش السامى، فيهجم أربعون منهم مسلحين بالبلط والسواطير على الدرويش؛ فيبادر إلى فتح ذراعه مشيرًا إلى تميمة الإمارة وعلاماتها، فيعرفون عند ذلك أنه أمير من أمراء البيت العثمانى، لأن كثيرًا من الناس لم يكن قد رآه وعرفه حق المعرفة. وقد تقدم إليه أولاً العارفون به من قدماء الخدم وقبلوا أعتابه قائلين أيها الأمير سليم نحن فى شرف خدمتك ماثلون أمامك، هكذا تمت بيعة الأربعين أغا من أغوات الفرقة الخاصة، ولسانهم يردد معنى قول الشاعر: أنت روح القلوب الميتة يا سليم! ودواء للأفئدة المريضة ياسليم!

ثم طُيِّر الخبر السار إلى الذين كانوا منتظرين حسب العادة فى "ليتنى باغچه" للقيام بتقديم الطاعة وأداء البيعة الشرعية، من قبل شيخ الإسلام والوزراء السبعة وجماعة العلماء والصلحاء وأعيان الدولة ورجال الأمة؛ حيث قدموا زرافات ووحدات، وبايعوه على المنوال السابق.

ولما جاء دور جنود الإنكشارية وتقدموا أفواجًا أفواجًا؛ رأى أصحاب الغرف القدماء منهم أن الذى كان معهم منذ مدة وقد أكل معهم الطعام وحلّفهم اليمين هو السلطان بعينه، فدهشوا وطار لبهم وتبلبلت أفكارهم، ولما قال لهم السلطان: "هل توفون بوعودكم؟" صاحوا جميعًا: "نعم يا مولانا نحن مستعدون للتضحية فى الخدمة، هيا بنا نعبر إلى أسكدار ونخرج من باب أدرنه". قالوا هذا وجددوا بذلك العهد وأكدوا الميثاق.

وفى اليوم التالى خرج السلطان فى حفل عظيم وموكب كبير مهيب إلى مقام أبى أيوب الأنصارى، حيث تقلد فيه سيف السلطنة[٢٢٨] ثم واصل سيره بالموكب الفخم إلى القصر العالى، وقد أمر المنادين أن يعلنوا فى الناس بأن السلطان معتزم على السفر إلى الجهاد والدوام فيه سبع سنوات. وفى اليوم الذى يليه أقام الصدر الأعظم بيرى باشا سرادقًا عظيمًا خارج باب أدرنه وآخر أعظم منه فى أسكدار، ثم أرسل إلى جميع الملوك والسلاطين رسلاً وكتبًا يعلن بها سلطنة السلطان سليم، فجاءت هداياهم ورسلهم بكتبهم يخطبون فيها ود السلطان سليم الذى هابه الكفار الضالون؛ إذ طلبوا بكل خضوع تجديد معاهدات ومواثيق السلم، وقد بعث الباشا المذكور آنفًا إلى الشاه إسماعيل كتابًا يقول فيه: "إن البابا بايزيد ذا البساط والكليم (كناية عن التقاعد والكسل) قد ولت أيامه وجاء إلى العرش البابا ذو الدبوس العظيم، والذى غلبك فى السنة الماضية بأصفهان ثلاث مرات فى لعب الشطرنج فاستعد للقائه وهو قادم إليك ليأخذ منك ثأر تلك الصفعة التى صفعتها له".

وقد أسقط فى يدى الشاه إسماعيل حينما وصله هذا الكتاب شديد اللهجة، وصاح قائلاً: "أواه واندماه! إن الدرويش سليم الذى غلبنى فى السنة الماضية فى لعب الشطرنج كان هو بعينه "سليم" سليل آل عثمان، فواويلاه ويا مصيبتاه!" وكاد يقطع نفسه. هكذا نقل حليمى لكاتب هذه السطور الفقير إلى الله تعالى وكثير الذنوب والقصور قصة "سليم خان"، هذه أمام هؤلاء الرجال الطاعنين فى السن والمتقدمين فى العمر، ولا شك فى أن هذا النقل صحيح لأن خدام "سليمان خان"،

---

(٢٧٢) تقليد السيف: كان هذا يرمز إلى بيعة السلطان عند جلوسه على العرش فى الدولة العثمانية. وهو من أهم مراسم إعلان السلطان الجديد. أول من تقلد السيف هو السلطان مراد الثانى. والذى قلده السيف هو الشيخ المبارك "أمير بخارى". قد استحن هذا التقليد وأصبح من الأمور المتبعة عند اعتلاء السلطان الجديد للعرش وبعد فتح إستانبول وتشييد جامع أبى أيوب الأنصارى أصبحت هذه المراسم تجرى به. آخر من تقلد السيف فى الدولة العثمانية هو السلطان وحيد الدين، وكان آل البيعة يخرج من سراى الحكم حتى جامع أبى أيوب وسط حفاوة بالغة من الشعب. (انظر فى ذلك للمترجم: إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة مرجع سبق ذكره ص ٦٧).

وهم من أقرانه، ووالدي المرحوم كانوا معه وواقفين على هذه الأحوال، فلم يعارضوه في النقل والسرد قط، بل استمعوا له وأصغوا إليه تمام الإصغاء[٢٢٩].

هذا، ولقد كان الطرفان متعاهدَيْن على عدم استعمال المدافع والبنادق في هذه الجهة من البلاد الإسلامية؛ فخطر ببال "سليم خان" عندما رأى هذه الحال الأليمة ما سبق أن حدث له عند ملاعبته الشاه إسماعيل الشطرنج في أصفهان وقول الشاه له: "إنه لا دخل لصفة الشاهية في اللعب". ثم نقضه عهده هذا وصفعه إياه حين غُلب في اللعب ثم رده عليه بقوله: "يا شاهي سيأتي يوم أنقض العهد أنا كذلك". تذكر سليم كل هذا وصاح قائلاً: ها قد جاء وقت نقض العهد، فأمر بإطلاق المدافع. وكان "إياس باشا" حينذاك رئيس الإنكشارية، فبادر إلى إطلاق النار حسب الأمر السامي على الأعجام الذين انهزموا شر هزيمة، وتشتتوا ولم يبق أثر ما لجيش إيران الذي كان يملأ القرى والبلاد في مدى سبع ساعات. وقد لاذ الشاه إسماعيل بالفرار وولى الأدبار ومعه سبعة من رجال حرسه الخاص لا يلوون على شيء، وشاهدت امرأة الشاه إسماعيل وصاحت قائلة: "لله درك يا سليم يا بطل، لقد هزمت شاهنا وجعلته يبول على سرجه، وهو راكب على فرسه، ويفر من الميدان". ولكن الشاه قابلها بالإحسان والإنعام حتى أسكتها وأنقذ نفسه. ولا شك أن معركة "چلدر" هذه مشهورة ومعروفة ولا داع للإسهاب فيها.

وقد وقعت زوج الشاه إسماعيل وهي "تاجلي خانم" في الأسر ومعها أكثر من مائتين من الجواري الحسان، وقدمت إلى إستانبول ومعها أموال قيمة وافرة، ثم ذهب سليم إلى بلدة أماسية وأمضى فيها الشتاء، وهو يستعد لإدارة حرب أخرى في بلاد العجم. وبينما هو كذلك إذ جاءه النبأ بأن ابن ذي القدر علاء الدولة قد توجه من مرعش بسبعين أو ثمانين ألفًا من الجيوش الجرارة قاصدًا الصعود إلى هضبة

---

(٢٢٩) هذه رواية شفاهية يحكيها أوليا چلبي على لسان الطاعنين في السن، وهي بطبيعة الحال في حاجة إلى الدراسة والتوثيق.

كوكسون. فبادر السلطان سليم إلى تعيين "سنان" باشا قائدًا لتجريدة عسكرية، وندبه لقتال علاء الدولة فهزمه هزيمة، وقتل هو وأولاده في المعركة، ووقع في الأسر زهاء سبعين رجلاً من أقربائه، وجيء بهم جميعًا مكبلين إلى سليم خان وأيديهم مشدودة إلى أقفيتهم. فأرسل سليم هؤلاء القتلى والأسرى وفيهم عمنا ساليم بك إلى السلطان الغوري بمصر.

ولما رأى الغوري رأس علاء الدولة ورءوس أولاده وأقربائه صاح قائلاً: "واأسفاه كان لنا قائد طليعة من الأبطال يصمد للعدو اللدود ويوقفه عند حده. ومنذ اليوم تقع الأهبة والاستعداد لقتال آل عثمان علينا مباشرة، وسيكون هذا من أول واجباتنا". ثم بادر الغوري إلى إطلاق المساجين والمحبوسين ومنهم عمنا الذي جاء إلى القدس وجرد نفسه من شئون الجندية وآلات القتال وجاور هنالك حتى مات. ولقد عثر على قبره المنقوش عليه تاريخ وفاته، في مكان يطلق عليه "طورزيتا" وأصلحته أنا العبد الفقير.

وأما الأحوال في مصر حينذاك فقد كانت سيئة جدًا، لا على الرعايا والبرايا من الجمهور المساكين فحسب؛ بل كذلك على جميع الذوات الكرام الذين يشار إليهم بالبنان، ويُقال في وصفهم فلان بن فلان، إذ كانوا يُضطهدون في كل مناسبة وأوان؛ في الوكالات والفنادق والخانات على أيدي أشقياء العسكر ومجرمي الجراكسة المناجيس وظلمهم المتواصل واسترسالهم في الثورة والطغيان، مما اضطر جمعًا من كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة بمدينة مصر في ذلك الوقت إلى الحضور إلى ساحة أبي السعود الجارحي ومرزوق الكفافي وبث شكواهم إليهما، فبادرا إلى عقد مجلس من العلماء والصلحاء للتشاور وتبادل الآراء وانعقد المجلس وتداولوا الآراء، قائلين: "إن أعطيت مصر للمغاربة فإن بلادهم بعيدة عنها لا يستطيعون القدوم إليها سريعًا للتصرف فيها، وإن وقعت تحت أمر العجم فإن في عقيدتهم ومذهبهم لشبهة وريبًا، وإذا عادت إلى حكم الأكراد فليس لدولتهم دوام ولا ثبات. فهيا بنا إذن نستعين بآل عثمان الذين هم مسلمون موحدون، فضلاً عن تقديرهم

للعلماء وتفضيلهم الصلحاء وتقريبهم المشايخ وأهل الشريعة السمحة وأصحاب السيف والعلم، مما جعلهم ينتصرون وينالون الظفر بالعدو أينما توجهوا وكيفما شاءوا". وقد استقر رأيهم واجتمعت كلمتهم على هذا الرأى وانتهت مشورتهم بقراءة الفاتحة والاتفاق التام. وعند ذلك قام كل من أبى السعود الجارحي ومرزوق الكفافى وصاحا مشيرين بقولهما : "يا سليم تعال يا سليم تعال!" وكان هذا يحدث والسلطان سليم جالس مع وزرائه فى مشتى "أماسية"، يتجاذب معهم أطراف الحديث فى صفاء وسرور، وبينما هم كذلك إذ بالطواشى سنان باشا ويونس باشا يدخلان المجلس فجأة ويقولان: "يا سلطاننا قد سمعنا ثلاث مرات لفظ "يا سليم تعال" فما معنى هذا؟" فيرد السلطان ويقول: "إننا قمنا بسياحة مع حليمى [جلبى] وذهبنا إلى مصر وقد كشف الله تعالى الغطاء عن أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى فقالا لى "يا سليم اجلس على تخت أبيك" وأردفا ذلك الكشف الصمدانى بقولهما "احضر إلى مصر حينما ندعوك إليها". فما استمعتما الآن من الأصوات والنداءات ما هى إلا نداء هؤلاء المشايخ الكرام، عجلوا إذن بأسباب السفر والزحف إلى مصر".

قتل سليم الأول إخوته وأولادهم

وفى الوقت الذى كان الوزراء ورجال الدولة متفرغين للاستعداد وأخذ الأهبة للسفر إلى مصر والزحف إليها، إذ بالمستغيثين والقصاد يحضرون إلى الأبواب السلطانية ويقولون: ياسلطاننا إن أخاك الأمير "قورقود" من جهة وأخاك الأمير "أحمد" من جهة أخرى قد رفعا علم العصيان علينا؛ فتعرضت البلاد كلها لخطر الضياع والسقوط فكيف تقوى الآن على السفر إلى مصر؟.

فما كان من السلطان سليم إلاَّ أن عطف عنان عزيمته إلى ناحية الأمير أحمد والتقى به فى جوار "ينى شهر" على مقربة من "بروسه"، ودارت بينهما رحى

معركة عظيمة سقط فيها الأمير أحمد عن جواده؛ فقبض عليه وجيء به وقد غلّت يداه إلى قفاه إلى حضرة السلطان سليم الذى لم يرحمه وخنقه فورًا فى السرادق السلطانى، ودفنه بجوار السلطان مراد الثانى فى مدينة "بروسه"، هذا وقد فر أحد أولاد الأمير أحمد هذا - ويدعى الأمير مراد - من هذه المعركة إلى الشاه إسماعيل بأردبيل ومات هنالك بعد ثلاث سنوات ودفن بها. وأما ولداه: الكبير علاء الدين والصغير الأمير... فقد لجأ إلى ساحة السلطان سليم فعفا عنهما لصغر سنهما فماتا فى إسلامبول مطعونين ودفنا بها، كما أن السلطان سليم قد قتل كلاً من محمد خان ومحمود والنجل الأكبر وموسى وأورخان أولاد أخيه الأمير شاهنشاه، وكذا عثمان ابن أخيه السلطان عاليشاه حيث قبض عليهما حينما توجه إلى قتال أخيه أحمد خان، وهؤلاء الشهداء كلهم راقدون فى "بروسه" بجانب تربة الغازى أورخان، "كان هؤلاء الأمراء قد صدرت منهم أعمال وحركات غير ملائمة، تدل على الانشقاق والتفرق وانقسام المملكة إلى ملوك متنازعين كما حدث فى عهد السلطان بايزيد الولى. وقد تنازعوا وتقاتلوا فعلاً حتى نفرت منهم الرعايا واضطر أكثر الناس لأن يتبعوا العجم ويخضعوا لهم كارهين".

ثم شد الشاه سليم عنان عزيمته إلى الأمير قورقود الذى كان قد جمع حوله ألفًا من أشقياء الترك وتصدى لقتال السلطان، ولكن الدائرة دارت عليهم أجمعين وتشتتوا وتفرقوا، حيث لجأ الأمير قورقود مع الكتخذا "بياله" إلى غار فى سنجق تكه، ومع كل منهما حصانه، فلبثا به بضعة أيام ذليلين كئيبين لا يجدان شيئًا يقتاتان به. حتى اضطرا إلى إعطاء أحد الحصانين إلى أحد الأتراك ليأتى لهما بشيء من الخبز والشعير. ولم يكن التركى يأخذ الحصان ويخرج إلى الطريق حتى قابله حاكم المنطقة وأخذ يسأله من أين لك هذا الحصان؛ حتى اضطر التركى إلى إرشاده إلى الغار الذى به الأمير قورقود وكتخذا بياله، فأتى إليهما وألقى القبض عليهما ثم ذهب بهما إلى حضرة السلطان سليم يرسفان فى القيد، حيث قتلهما

السلطان فورًا بلا رحمة ولا شفقة ونقل جثتيهما إلى بروسه، ودفنا في تربة المرحوم الغازى أورخان.

وبذلك تم للسلطان سليم الأمر والسلطان بلا منازع، يحكم كما يريد، ثم بادر إلى استدعاء نجله الأمير سليمان من بلده "كفه" إلى "أدرنة"، وأسند إليه شئون الدولة وأمور الإدارة والحكم؛ ليتمرن على ذلك فيبرع فى تصريف الأمور وفق سياسة البلاد.

وقد وكل إليه ذلك لأنه كان فى غاية الفطانة والرشد؛ فضلاً عن أن جميع كبار أولياء الله كانوا قد بشروه بقولهم: "يا سليم! لا فائدة لك فى إخوتك والشخص الذى يكون بحق خليفتك وحامل رسالتك هو نجلك الوحيد سليمان لا غير"، والحق أن السلطان سليم لم يخلف سوى سليمان الذى كان قد ولد مثل أبيه فى طرابزون، ولا تزال والدته مدفونة بها فى جامع خنكار فى حى "بوزديه"؛ بيد أن سليمان ولد فى سنة ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م أى فى رأس المائة فيكون صاحب رسالة وظهور حسب قول صاحب الرسالة الشريفة ما معناه "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها". وبناءً على هذا اقتنع السلطان سليم بأن الدولة والإقبال من خصائص سليمان، فأقدم على قتل جميع إخوته ثم واصل سيره وذهب لزيارة "أمير سلطان" فى بروسة، وحينما دخل التربة قال: "السلام عليكم يا أهل القبور" فارتفع صوت من قبره الشريف يقول "عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" فتحير الحاضرون والسامعون كلهم من هذا. وتقدم ابن كمال باشا وقال: "يا سلطانى بشراك إنك تفتح مصر، وهذا إرهاص بذلك".

قتال سليم الأول السلطان الغورى فى مرج دابق حين ذهابه لضم مصر

ما كاد السلطان سليم الأول يسمع نداء القائل "هيا تقلد سيف الغيرة والحماسة، وتوجه إلى تلك الجهة" حتى تناول السيف وتقلده فى ضريح الولى أمير

سلطان. وقد تلا ابن كمال باشا الفاتحة على هذه النية الشريفة ومسح الجميع وجوههم بأيديهم متبركين. وعاد سليم إلى قصره العامر بعد أداء هذه الزيارة المباركة، وبادر إلى دعوة علماء الروم ومفتى المذاهب الأربعة لديه، وطلب منهم الفتوى الشرعية بجواز الزحف إلى مصر وفتحها.

وقد عمد الوزير الأعظم الطواشى سنان باشا إلى إظهار أربعين فتوى سبق أن وردت من مصر فى هذا الشأن ووضعها أمام علماء الروم، فاطلعوا عليها وعلموا مضمونها وصاحوا قائلين: "إن كان علماء مصر وأولياء الله الكبار بها قد أصدروا مثل هذه الفتاوى الشريفة وأباحوا بها قتل حكام مصر، فأولى بنا أن نقر هذه الفتاوى". ونص فتاواهم هو ما يأتى: "ما قولكم فى سلطان من سلاطين المسلمين يدعى أنه خادم الحرمين الشريفين، يقدم العون والمساعدة لقوم من الروافض الفاسدين الذين يعرفون بذوى الرءوس الحمراء أى القيزيلباشية، والذين يبيحون سب الخلفاء الراشدين الأربعة من أصحاب النبى [رضوان الله عليهم] وإهانتهم، حينما يقوم أحد سلاطين المسلمين بقتالهم لمنعهم من عملهم ذلك، ويشهر السيف على ذلك السلطان المسلم القائم بقتالهم للقضاء على سب الخلفاء؟ والجواب على ذلك هو أن ولاية مثل هذا السلطان غير جائزة، وخلعه فرض عين إذ هو داخل بعمله هذا فى مذهب الرافضة، فيجب نهب إقليمه وولايته وهدر دماء تابعيه، يقتلون ولا يؤسرون، ونساؤهم حرام علينا لا يتخذن جوارى وإماء. ويجب الزحف إليهم ونزع البلاد منهم".

وقد تناول سليم الفتوى بيده وسلمها إلى الاثنى عشر نفرًا ثم أرسلهم إلى السلطان الغورى بمصر. حين وصول هؤلاء الرسل إلى مصر أحضرهم الغورى فى ديوانه وأخذ كتاب السلطان سليم وفتوى العلماء وتلاهما، ثم قال: "إن سليم شاه سبق أن قتل علاء الدولة بن ذى القدرية مع سبعين رجلا من أقربائه، وأرسل رءوسهم مع أسرى مقيدين بالحديد إلينا، والآن أرسلكم إلينا بحجة الرسالة والوفادة لنأخذ منكم ثأر هؤلاء الضحايا". وقدم عشرة من هؤلاء الرسل إلى الجلاد فضرب

أعناقهم فورًا، وقد أبقى منهم اثنين على قيد الحياة ليرجعا إلى سليم حاملين رسالته التى مضمونها:

"إنى ما دُمت حيًا لا أمكنه من دخول مصر، ليستعد للقائى فى سهل مرج دابق تحت حلب، فإن كان عنده شيء من الرجولة فليبرز فى ساحة الوغى".

ولما وصل هذا الكتاب إلى السلطان سليم ثارت ثائرته فجمع العلماء وسألهم رأيهم؛ فأجابوا - بالإجماع - أنه لا يجوز بعد الآن التقاعد عن العمل لأن قتل الرسل لا يجوز فى عرف الملوك الكفار، فكيف يقع من ملوك الإسلام؟ ولا شك أن قتل الغورى بعد الآن مباح وحلال. فانهض أيها السلطان واعمل، لأن الذنب الآن ذنبهم والجرم صادر منهم، لا لوم عليك ولا تثريب.

وعند ذلك تهيأ سليم للعمل وفوض أمور الدولة فى إستانبول إلى قرابيرى باشا، كما عهد بسردارية الروم إلى نجله سليمان خان، وتوجه هو بالجيش من بروسه يقطع المراحل ويطوى المنازل نحو قونية؛ حيث زار ضريح سلطان العلماء مولانا جلال الدين الرومى وتمسح بأعتابه الشريفة مستمدًا من روحانيته القوة والتوفيق. ثم واصل السير حتى اجتاز سيل "رمضان أوغلى" ودخل بلدة " أذنة " مركز الدولة الرمضانية وأقام بها مدة. ولقد نزل بها سابقًا أثناء سياحته عائدًا من مصر يحمل كتاب توصية من أبى السعود الجارحى إلى خليل بك آل رمضان، حيث نزل ضيفًا عنده ووعده حينئذ بأن يبقيه فى إيالته محتفظًا بأملاكه وإقطاعاته وسائر أوقافه ومخصصاته حينما يملك مصر ويفتحها، وقد نفذ وعده ذلك هذه المرة، وزاد عليه أن منحه لواء "بشعار طوغين" مع تعيينه قائدًا لطليعة الجيش الزاحف إلى مصر. فتقدم خليل بك مرحلة أمام الجيش مصحوبًا بعشرين ألفًا من نخبة الجنود.

وفى خلال ذلك وصلت الأنباء بأن أسطولاً عثمانيًا مؤلفًا من ثلاثمائة سفينة من نوع "القادرغة" ومائتين من "الشايكا" و"القرامرسل" و"الغليون" محملة جنودًا

كثيرة تموج كالبحر، وموسوقة بمهمات حربية وذخائر لا تعد ولا تحصى، قد وصلت ميناء طرسوس قادمة من إسلامبول؛ فسر السلطان سليم من ذلك كل السرور ودعا لبيرى باشا نائبه وبعث مع أحد الحجاب إلى مصطفى باشا بالاك قبطان الأسطول أمرًا بألا يفارق الأسطول السواحل وأن يظل دائمًا قريبًا منه.

وقد أقلع بطان باشا من طرسوس وذهب إلى الإسكندرية وألقى المراسي بها في الوقت الذى غادر فيه السلطان سليم أذنة بجيش مؤلف من ثمانين ألف جندى مدربين غاية التدريب، وسار حتى دخل حدود الممالك المصرية، وذلك لأن الحد المصرى فى ذاك العهد كان فى ولاية أذنة، وتوغل فى الدخول حتى وجد نفسه فى سهل "مرج دابق" على مقربة من "كلس"، وأقام معسكره به وتقدم إلى السلطان درويش يقول: "إذا أردت النصر والظفر بعدوك فعليك أن تذهب إلى مقام داوود الذى هزم جالوت بإذن الله تعالى وأمره، فتسند ظهرك إليه قبل مجئ الغورى. وترى حينئذ كيف يتجلى الإله عليك بالنصر المبين والتوفيق الباهر. لأن ذلك المكان مبارك ومظهر من المظاهر الإلهية ولا شك. إذ إن الله سبحانه وتعالى قد أنزل آية ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة ٢/٢٥١] على حبيبه المصطفى؛ فبادر يا سليم إلى ذلك المحل واتخذه كسد الإسكندر"، قال هذا ثم غاب بغتة كما ظهر بغتة. فعمل سليم بموجب ذلك وهرع إلى ذلك المكان وأقام معسكره به وأحاطه من كل الجوانب بخيام جعل الحرس فيها، وربط أطناب الخيام والمضارب بعضها ببعض، ونام الجيش كله مستريحًا آمنًا.

الهزيمة الأولى للسلطان الغورى على يد سليم الأول

وصل الغورى صباح اليوم التالى بجيشه الذى لا تسعه الأرض من الكثرة، ونزل تجاه عسكر آل عثمان وشرع فى ترتيب الطلائع والحرس الأمامى من سبع جهات.

والدليل على كثرة جنوده ووفرة عساكره أنه كان لجيشه عشرون ألفًا من السقائين ذوى النبابيت، وعشرون ألفًا من الخيامين، وعشرون ألفًا من السياس ومثليهم من القواصين الفلاحين، وفضلاً عن ذلك كان له اثنا عشر ألفًا من الفرسان المشاهير ذوى الخيول البلق، وأربعون ألفًا من الفرسان، وثمانون ألفًا من الأغوات الخاضعة لحاملى رتبة أمير الأمراء "ميرميران" وأمراء الجراكسة.

فالخلاصة (كما تقول تواريخ الشهابى)، أن جنود الغورى كانوا يبلغون، ما عدا حشراته الأخرى، مائتى ألف من حملة السيوف ومتقلديها، وبهذه الجيوش الجرارة قابل الغورى سليم شاه فى "مرج دابق"، وسليم لا يملك سوى ثمانين ألفًا من العساكر العثمانية.

ولما استعدت الفرق للتقدم والتحفز واندفعت الطلائع إلى مواضع الوثب، التحمت الجيوش الجرارة من الطرفين فى حرب ضروس وقتال مرير دامت معاركها سبع ساعات نجومية، واستمرت حملاتها السلطانية بكل قسوة وشدة حتى أسفرت - أخيرًا - عن هبوب ريح النصر والظفر على جانب السلطان سليم، إذ صارت جنود الغورى طعمة لسيوف العثمانيين، وقد نادت فلولهم مع سيدهم الغورى: "أين أنت يا مصر وكيف الفرار إليك؟!"، قال بعض المؤرخين إن الغورى قُتل فى هذه المعركة إلاَّ أن ذلك غير صحيح، فإن من المحقق أنه وصل مصر وحشد جيشًا آخر كبيرًا بها.

هذا، وقد لبث سليم شاه فى مرج دابق عشرين يومًا، وحصل على غنائم لا تُعد وأسلاب لا تُحصى حتى صار كل جمَّال أو مُكارٍ فى الجيش - بعد ما كان مأجورًا - يملك قطارًا كاملاً من الجمال أو البغال تحمل له أموالاً كأموال قارون من الغنائم والأسلاب، لأن عساكر الغورى كانوا قد دفنوا أرزاقهم وأموالهم فى الأرض عالمين أن غدًا يوم المصارف والمعركة الكبرى... ولما تشتت شملهم وانفرط عقد اجتماعهم وانهزموا شر انهزام بادر العثمانيون إلى تلك الكنوز والدفائن من الأموال والأرزاق، فاستحوذوا عليها وفرقوها على الناس هنالك حتى

لم يبق منها شيء، ثم نهض سليم شاه وجاء إلى قلعة أعزاز وأقام بها مدة، وكانت العساكر الإسلامية يطاردون الجراكسة ويسلبونهم أموالهم؛ على ظن أن كل واحد منهم يملك أموال قارون ثم يقتلونهم أينما وجدوهم، وهكذا فر كل رجال الغوري الكبار البارزين أمثال وزيره الأول "سيثال" و"كربياى" و"قاداباى"، وأما جان بردى وزيره بالشام فقد مل من روحه فهرب، وكذا "الغزالي" الذى التحق بغزلان الصحارى وهام على وجهه حقبة من الزمن، وأما خاير باى حاكم حلب من قبله فقد هرب من حلب والتحق بركاب السلطان سليم مقدما له طاعته وخضوعه وصار أخلص عبيده ورجاله؛ إذ كان السلطان سليم قد وعده بمكافأة حسنة إذا أخلص في العمل معه وقدم له المشورة والنصيحة السديدة في المهمات والملمات، وأنه إذا تم له ما أراد منها فسيعينه حاكما مستقلاً لها ويضع تحت أمره جيوشا جرارة يوجهها حيثما يشاء ويريد، وإن قد عهد إليه بالفعل بمناصب وخلع كثيرة وأعطاه سنجق "كوستنديل" ببلاد الروملي.

ولما حضر إلى معسكر الجيش الزاحف إلى مصر واجتمع بالسلطان في جنوب حلب الشهباء، شرع يبدى نشاطا عظيمًا فيما يكلفه من الأمور، من ذلك أنه أقنع علماء حلب وصلحاءها من الأئمة والخطباء والمشايخ، وكذا حاميتها من الطوائف العسكرية، بتقديم الطاعة والخضوع للسلطان سليم وتسليمه المدينة صلحًا وسلمًا، فجاءوا بمفاتيح القلعة إلى حضرة السلطان وسلموها إليه بكل إخلاص ونالوا منه الإنعام والإحسان.

هكذا تم فتح حلب بالسلام والأمان. فأسندت إيالتها إلى "قراجه باشا"، وقضاؤها إلى "چملكچى زاده كمال چلبى"، ثم أقام السلطان سليم بعساكره وجنوده الظافرة في سراى السلطان في حلب وأخذ في زيارة مقام سيدنا زكريا [عليه السلام] في الجامع الكبير، وسائر أعيان الأولياء، واستمد المعونة والمدد من أرواحهم الطاهرة. ثم أرسل إلى البلاد الواقعة حول حلب رسلاً يستميلها إليه، ويطلب منها أن تقدم إليه خضوعها واعترافها بسلطانه. والقلاع والولايات التى قدمت طاعتها وسلمت مفاتيحها هى: مرعش وعينتاب وريحانية والمعرة والرها

وبيرجك وحران وكلى وعزيز (تصحيف أعزاز أو عزاز) وحلب وحماة وحمص ومداك وشجر شغر وأنطاكية واللاذقية وجلبية ومرقب وحصن وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا والرملة والزيدانية وبعلبك وشقف وطبرية وفلسطين ونجون وعجلون ونابلس والقدوس وغزة هاشم، إلى غير ذلك من البلاد حتى بلغ عددها مائة وأربعين قلعة حصينة منيعة، وسلمت كلها مفاتيحها بالأمان والسلام بكل سهولة وخضوع تام للسلطان الجديد.

وقدَّم الطاعة والخضوع من عربان الصحراء آل سليمة وآل رشيد وآل رباح وآل عمرو وآل حد وآل بنى زهدى وآل بنى عرابى وآل بنى سالم. والخلاصة أن سبعين قبيلة من العربان وجميع الطوائف الدرزية واليمانية والزيدية والمروانية والهوبارية والماروكنية والعقلية والقزيلية والشهابية والشيبازية والنُصيْرِيَّة والسانكية، وبالاختصار جميع الملل الضالة والطوائف المنحرفة التى تقيم بجبال بيروت وصيدا، حينما سمعوا بفتح القلاع كلها بادروا إلى ركاب السلطان سليم وتمسحوا بتراب قدميه، ثم قدموا أنفسهم رهائن وهم يتلون الآية الكريمة ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء ٨٩/٢٦). ثم نهض السلطان من حلب إلى خان تيمان [طومان] ومنها إلى:

قلعة المعرَّة

حيث أعطى إمارة هذه القلعة إلى عطا بك، ومنها إلى:

قلعة حماة

حماها الله تعالى، حيث خرج أهلها لاستقبال السلطان سليم خان، وتمسحوا بأعتاب جلالته مقدمين طاعتهم ومسلمين قلعتهم له، فعيَّن طرخان بك أميرًا عليها، ومنها إلى:

قلعة حمص

حيث خرج جميع سكانها مشاة لاستقبال الموكب السلطانى العالى مقدمين الطاعة، فعيَّن احتمان زاده أميرًا عليها.

طرابلس الشام

أعطيت هذه الإيالة لـــ "كوزلجة قاسم باشا" الذى أُمر بأن يحضر بالأسطول الهمايونى إلى ميناء طرابلس. ثم واصل السلطان سليم السفر بكل عظمة وأبهة إلى الشام، ولما وصل بـــموكبه السامى وأصبح على مقربة منها هـــرع أهلوها كلهم – وعلى رأسهم "جانبرد" وزير الغورى بالشام – وقدموا الطاعة والخضوع لجلالـــة السلطان معتمدين على شفاعة "خيرى باى" سابق الذكر. وقد تمسحوا بتراب أقـــدام جواد السلطان فبادر فحيَّاهم عفوه ومغفرته عن جرائمهم الـــسابقة. فأعيـــدت إلـــى "جانبرد" إيالة الشام كما كانت سابقًا، وأنعم بقضائها على "منلا أفندى ". ثـــم دخـــل سليم شاه بموكب عظيم حافل دمشق الشام؛ حيث فرشت طرقها بالـــديباج والـــشيب والنسيج المقصب بالذهب؛ وهكذا تم فتح قلعة الشام.

فتح قلعة الشام

وقد انطلق المنادون من قبل السلطان يعلنون فى أطـــراف المدينـــة قـــرار تمضية أيام الشتاء فى هذه المدينة، حيث أمر السلطان خلالها بإنشاء القلعة الداخلية لدمشق، وعهد بذلك إلى"صارى أرسلان" أمير اللواء الذى كان نائبه فى طرابزون، عندما كان السلطان أميرها وخرج منها سائحًا فى أنحاء العالم. هـــذا، ولمـــا عـــاد السلطان سليم من فتح مصر إلى الشام ووجد القلعة كاملة البناء وتامة الهندام كمـــا يريدها، أعجب بها أيما إعجاب وعانق بانيها "صارى أرسلان" من فرط ســـروره وسمى القلعة باسم بانيها المذكور. ولا يزال اسم القلعة الداخلية فـــى الـــشام التـــى تنتسب إلى سليم الأول معروفة وشائعة بين الأهالى لهـــذا الـــسبب. وأمـــا القلعـــة الخارجية فمنسوبة إلى معاوية بن أبى سفيان فهى من آثار بنى أمية.

هذا، وفى خلال ذلك جاء الحمام الزاجل من مصر إلى الـــشام بكتـــب إلـــى "جانبرد"، فبادر إلى تقديم هذا الحمام مع الرسائل الواردة إلى سليم، ففـــتح جلالتـــه بيده الكريمة الكتب ووجدها تتضمن أن الغورى بعد انهزامه فـــى معركـــة "مـــرج

دابق" وفراره هو وجيشه من الميدان حينما وصلوا قطية وصحراء أم الحسن، كان قد نال التعب منهم كل منال وأهلكهم الجوع والعطش[٢٣٠]؛ وهنا أحاط العربان سكان الصحارى الباقين منهم على قيد الحياة والناجين من هول ما لقوه فى طريق الصحراء من المشاق والهزيمة؛ الأمر الذى أفضى إلى عدم نجاة أحد من جموع الغورى سوى ستين شخصًا كانوا فى خدمته المباشرة فوصلوا القاهرة سالمين، وأنه الآن آخذ فى الاستعداد والأهبة وحشد العساكر والجنود وتنظيمهم، وقد نصب "طومان باى" قائدًا على هذا العسكر الجديد.[٢٣١]

وكان الكتاب مسطورًا ومؤرخًا فى صباح اليوم الذى وصل فيه من مصر إلى الشام وقت العصر، مما أثار إعجاب السلطان سليم فقال: "إن مصر حقيقة مملوكة للماليك".

بيان قبر محيى الدين بن عربى

حدث فى يوم من أيام الشتاء الذى كان السلطان سليم يقضيه فى الشام أن كان العالم الشهير ابن كمال باشا منكبًا على الكتب والتنقيب فيها؛ إذ وجد فى رسالة للشيخ محيى الدين بن عربى هذه العبارة الدُّرِّيَّة (إذا جاء السين ودخل الشين ظهر مرقد الميم) فاستخرج منها أن السين إشارة إلى سليم و(دخل الشين) يدل على أن سليم يدخل الشام، و(ظهر مرقد الميم) يدل على أن قبر محيى الدين هو الذى سيظهر، بيد أن سليم خان لم يؤمن بهذه الرموز الجعفرية، ولذا قال: "هيا بنا نركب توًّا ونذهب لزيارة محيى الدين ونظهر قبره للعيان".

---

(٢٣٠) مسألة قتل الغورى فى حاجة إلى تدقيق ودراسة حتى يتم القطع بمكان قتله؛ أهو "مرج دابق" أم هذه الصحراء.

(٢٣١) ذكرت كتب التاريخ أن الغورى قد سقط من فوق صهوة جواده خلال المعركة الأولى. وما يذكره المؤلف هنا يختلف عما ورد فى كتب التاريخ، وإن كان الأمر يستحق إعادة الدراسة والتحقيق من قبل أهل الاختصاص.

وتنفيذًا لهذا دعوا إليهم عددًا من الطاعنين في السن من أهالي الشام وسألوهم عن مكان قبره فلم يستطع أحد الإجابة عن ذلك، فقال البعض تدل هذه الرموز على أنه في ضواحي الشام، ولكن مكان القبر نفسه غير معلوم بدليل (ظهر مرقد الميم).
فتألم سليم خان من ذلك ونام متأثرًا ليلته، فرأى فيما يراه النائم أن الشيخ محيي الدين جاءه وخاطبه بقوله: "يا سليم! كنت منتظرًا قدومك إلى الشام فمرحبًا بك ياسليم! أبشر قد يسر الله لك غزو مصر وفتحها، فعليك أن تركب غدا صهوة جواد أسود من إسطبلك العامر فهو الذي يأتي بك ويرشدك إلى قبري، ثم تبادر إلى نقلي وإنقاذي من أرض المذلة والمهانة، وتبني لي ضريحًا وتربة عظيمة في الصالحية، وتبني بجانبها جامعًا ومدرسة وعمارة خيرية وكُتَّابًا للأطفال وحمامًا ومحكمة ودارًا للحكم وأسواقًا وعيونًا جارية. ثم تحفر ترعًا وتَشق جداول وتجري المياه فيها حتى تجعل صالحيتي هذه عامرة آهلة صالحة. وبعد ذلك كله تنصرف لمهمتك التي جئت لأجلها، فالله مؤيدك وناصرك في فتح مصر". فلما استيقظ سليم خان من نومه بادر إلى طلب الحصان الأسود من الإسطبل العامرة مسرجًا. فقيل له ليس هنالك حصان بهذا الوصف، ولكنه ألح في طلبه هذا وأصر؛ حتى وجدوا له بغلة نحيفة جرباء هزيلة ينطبق عليها الوصف فعنوا بها غاية العناية بكل سرعة وعجلة حتى جعلوها جوادًا أصيلاً مسرجًا بسرج يليق بركوب السلطان، فركبها سليم خان ولجامها على غاربها لتذهب كما تريد، فتوجهت الدابة نحو الصالحية وصعدت كومة من الزبل والأوساخ ووقفت عليها، وأخذت تبسن في الأرض بحوافرها بكل لهفة وشدة؛ حتى أن سليم خان اضطر من جراء ذلك للنزول من صهوتها، واستمرت في الحفر والبحث حتى ظهرت صخرة مربعة الشكل عظيمة وانقطع الحيوان عن الحفر والبحث ووقف عن الحركة، ورجع بكل هدوء ووقف بجانب سليم خان كأنه يقول له: ها هو قبر محيي الدين.

ولما أمعن سليم خان النظر في الصخرة رأى فيها هذه العبارة منقوشة عليها بخط كوفي جلي جميل (هذا قبر محيي الدين). والظاهر أن القبر دُفن في الزبل

وطمر لأن الناس قديما ماعرفوا قيمة كتبه الصوفية وما فيموا مزاياهـا حينـذاك فكفّروه، واتخذوا قبره الشريف مزبلة وكوموا الأقذار والأتربة عليه حتى ضـاعت معالمه، فبادر السلطان سليم إلى جمع المهندسين والبنائين وسائر العمال والفعلـة من الشام، وأمرهم بنقل الأتربة وإزالة الأقذار وتطهير المكان من كل ذلك. حتـى أنه - رحمه الله - أخذ ينقل الأنقاض والأتربة بيديه الكريمتين، مما حمل العساكر الإسلامية كلها على الاشتراك في العمل الشريف بحيث أزالوا في طرفة عين جميع الأقذار والأوساخ وطهروا المكان تطهيرًا كاملاً. ثم شرع السلطان سليم في إنـشاء العمارات الخيرية ذات السطوح المرصصة الشامخة؛ وهـي: خـان وجـامع وعمـارة ومدرسة وكتاب وتربة ومحكمة ودارٌ للضيافة ودارٌ للشفاء ومستشفى، إلى غيـر ذلـك مما سبق ذكره تفصيلا في وصف الشام في [ج ٩ من رحلة أوليا چلبي].

ثم خلا سليم شاه في قشلاق الشام ليشتغل بعلم الجفر، حيث جمع أناسا من الذين لهم إلمام بهذا العلم وأخذ يباحثهم في مجالس خاصة. فسأل ذات يوم أثناء المناقشة في الجفر الجامع سيدنا الشيخ ناصر الطرسوسي، قال: "ياسيدنا هل أكون يومًا مـن الأيـام من الذين يتيسر لهم فتح مصر أو أموت من جراء منافسة المنافسين وغيرتهم الممقوتة؟" فأجاب الشيخ فورًا: "بشرى لك يا مولاي، إن سيدنا عليًا قد شهد لك وصرح في حضرة الرسول بأن آل عثمان سيمتلكون مصر، حيث ورد في الأثر "قال سيدنا علي كرم الله وجهه لا بد أن سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب". والغرض من لفظ جزيرة العرب هي جزيرة مصر. لأن "طوطيس" من ملوك القبابطة، حينما أجرى نيل النيل إلى بحر السويس صارت مصر جزيرة وأطلق عليها اسم جزيرة مصر. فأمل يا سلطاني أن تفتح جزيرة مصر ببركة قول سيدنا علي السديد، وتحوز بذلك لقب "خادم الحرمين" لأول مرة في التاريخ. إذ لم يتيسر لأحد من آل عثمان حيازة هذا الشرف". هكذا بشره الناصر الطرسوسي بفتح مصر. وقال عالم آخر: "يا سليم! إن الله سبحانه وتعالى قد أظهر في القرآن الكريم أنك فاتح مصر، حيث استخرجه الإمام على

رضى الله عنه فأخبر به الحسين، فنقله زين العابدين فنقله إلى السرى السقطى ومنه روى الجُنَيد. لأن كل حرف من حروف القرآن الكريم والفرقان المجيد إشارة ورمــز إلى المستقبل وما سيأتى من الأحداث حتى يوم القيامة، حسب قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف١٨/٦٥] وهذا القدر فيه كفاية لمن يفهم ولا يجوز الإفشاء بأكثر من هذا. وإليك الآية التى تدل على ما قلنا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١/١٠٥]؛ فلفظ (ولقد) ١٤٠ واسم سليم ١٤٠ فيكون المراد من "ولقد" سليم. ولفظ (ذكر) يساوى ٩٢٠، وحيث إن الجملة" من بعد الذكر "معناها بعد ذكر أى بعد ٩٢٠ ستكون أنت فاتح مصر. و"أن الأرض يرثها" أعنى أن لفظ (الأرض) إذا ذكر معرفًا بالألف واللام يكون المراد "أرض مصر"، كما أنه إذا ذكر من غير الألف واللام يكون مطلق الأرض، وهذا مقرر فى قواعد علم الجفر، و"عبادى الصالحون" يعنى أن الله سبحانه وتعالى قد اعتبرك وعدّك من عباده الصالحين الوارثين لأرض مصر. فهذه البشرى وهذه النعمة كافية لك فاذهب إلى قصدك والله معينك وظهيرك".

ثم سأله سليم شاه: "يا شيخ كم تكون مدة سلطنتى يا ترى؟" فأجــاب الشيخ: لا أدرى يا سليمى "ما عدا جدا" و"لا يعلم الغيب إلا الله"، قال هذا ورفــع المجلــس وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بيده. وتبين أخيرًا أنه يشير إلى ثمانية لأن لفــظ (جــدا) يساوى ذلك، حيث إن سليم شاه فتح مصر وعاد إلى إســتانبول وتــسلطن ثمــانى سنوات ومات. فعلم الجفر هكذا علم رمز وسر، تحقق منه سليم صــحة الأخبــار ووقوع الأحداث. وبعد ذلك أمضى سليم خان الشتاء فى دمشق حتى إذا ما ابتــدأت أمطار الرحمة فى الهطول وسقى الأرض، شرع سليم خان فى مغادرة الشام تاركًا المرضى من الجنود الضعفاء فى رعاية جانبردى وكوزلجه قاسم باشــا، وواصــل السير بالجيش الإسلامى نحو غزة قاطعًا المنازل والمراحل، مارًا بجنين ونــابلس حتى دخل القدس، فزار بها أضرحة الأنبياء واستمد من روحانيتهم، ثم برحها إلــى

خليل الرحمن مسرعًا وزار بها أيضًا الأنبياء كليم، ثم هرع نحو غزة هاشم فدخلها عسكر الإسلام في شهر أيار (مايو) سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م.

فتح قلعة غزة هاشم

دخل سليم خان هذه القلعة صلحًا وسلمًا وأقام بها سبعة أيام للاستجمام والراحة، فجاء خلالها مشايخ البدو العربان من الأطراف والضواحي خوفًا من صولة السلطان وسطوته، وقدموا الطاعة إلى أعتابه السامية وسدته العالية؛ فجاء أولاً بنو زهد وآل رشيد وآل رباح وآل معن وآل شهاب وآل ترابي وآل حرفوش وآل حبش وآل سعيد. وثانيًا بنو سوالم وبنو عطا وبنو عطية وبنو عمران وبنو حوالم، وبنو حوران وبنو بُصرَى وبنو جعفر، ومشايخ نابلس وصفد وعكا والرملة، ومشايخ فلسطين وغزة والقدس وخليل الرحمن والكرك والعقبة وصقر بأسرهم وتوابعهم جميعًا. وقد بلغ عددهم سبعة وسبعين شيخًا، وقد تقدموا إلى أعتاب السلطان فقبلوها خاضعين مخلصين؛ مما أثار عطف السلطان عليهم فشملهم بإحسانات شاهانية وإنعامات سلطانية سامية. وبذلك صاروا من رجاله المطيعين المستعدين للبذل والتضحية في سبيل تنفيذ أوامره العالية. وتعهدوا بتقديم أربعمائة ألف جمل تحمل المياه لعساكر آل عثمان يحضرون بها على جناح السرعة في صحراء القطية وأم الحسن.

وغادر سليم شاه بعد ذلك غزة نحو مصر متوغلاً في جوف الصحراء، وبينما هو كذلك إذ بحكمة الله وفضله العظيم تُرسَل الأمطار الغزيرة مدرارًا تغرق أرجاء الصحراء، وتخيف الذين كانوا يخشون قلة الماء قبل أن يغرقوا من كثرة السيول وتدفق الماء. وهكذا واصل الموكب السلطاني السير بسلام وأمان حتى وصل المحل المسمى خان يونس؛ حيث بادر السلطان إلى قتل "يونس باشا" وأخذ يبني بما خلفه من المال قلعة خان يونس، ووضع بها الحامية اللازمة من العسكر للمحافظة على الغادين والرائحين وسائر المواصلات. ثم غادرها إلى العريش قاطعًا المراحل والمنازل وتقدم منها كل من الوزير الأعظم الخادم سنان باشا

وخليل بك من آل رمضان وخاير بك الجركسي وطلائع للجيش الكبير إلى الأمـــام، وأسرعوا بالسير حتى مروا بصحراء القطية وأم الحسن، ووصلوا المحل المـسمى الصالحية، فلاحت لهم حشرات الجراكسة بين حـدائق النخـل المحيطــة بالمحــل المذكور، فما كان منهم إلا أن باغتوهم وجعلوهم طعمة للسيوف البتارة آسرين أكثر من ألف جركسي من أطراف الصحراء، فقتلوهم جميعا ووزعت أسـلحتهم وأدوات قتالهم على الذين أتوهم مطيعين من البدو العربان. وواصلوا السير حتـى وصـلوا المحل المسمى القُرين، فأحضروا به بعض الجواسيس الذين قبض عليهم بين يـدى السلطان سليم، وأجبروا على الكلام فاعترفوا بأن السلطان الغورى معـسكر فـى صحراء بلبيس مستعد للقاء العدو. فأطلق السلطان سراحهم بعد اعترافهم بذلك.

بيان حرب الغورى للمرة الثانية مع سليم خان ومصير الغورى

لما وصل الموكب السلطاني السليمي من "القُـرين" إلـى "بلبـيس" اشـتبك الجيشان في قتال مريب في تلك البيداء الشاسعة؛ أطلقت المدافع والبنادق بكل شـدة حتى حجب دويها الهائل وما أثارته من الغبار العسكرين أحدهما عن الآخر، فلـم يعلم أي الطرفين أصيب بالفشل والهزيمة، غير أن حكمة الله وعظمته تجلت فـى هذه الأثناء إذ أزالت النقع والغبار الأسود الذى كان مخيما على ساحة القتال.

فظهر للعيان اندحار جيش الغورى وتمزق عسكره شر ممزق من صـدمة المدافع العثمانية الهائلة، وانطبق عليهم القول المأثور "موتوا بأمر الله". وهنا انتهز الجنود العثمانيون الفرصة وحملوا عليهم مرة أخرى حملة صادقة فكادوا يقـضون عليهم قضاء مبرمًا، وإذا بطومان باى يظهر فجأة فى الميدان وينقض على الجموع العثمانية كالذئب الجائع الذى يصول على قطيع الغنم، فدارت لذلك رحى معـارك دامية وقتال مرير فى غاية الشدة من وقت الزوال إلى المغرب؛ بصورة لم يـسبق لها مثيل منذ طلوع الكوكب المعروف "المريخ"، ولما دقت الطبول والكوسات تؤذن بوقف القتال.

انصرف العثمانيون والغوريون إلى معسكراتهم وشرعوا في تضميد جراحهم وخياطة دروعهم وإصلاح أمورهم. فدفن العثمانيون ليلتها سبعة عشر ألفا من شهدائهم الأبطال، وقد أبدى "خاير بك" يومها من آثار الشجاعة والإقدام وجليل الخدمات والفعال في سبيل نصرة العثمانيين ما لا تزال تذكره تواريخ مصر بالإسهاب والإعجاب، وعلم الغوريون بعد ذلك أن خاير بك مع العثمانيين.

وفى صباح اليوم التالى حينما شرعت الطبول تدق إيذانًا بالحرب وشاع في الجيش أن الغورى نفسه قد تجرع كأس الحِمام فى هذه المعركة الدامية، تحمس جيشه وثار فانقض بكل قواه مستبسلاً على العثمانيين، ونزلوا عليهم كالقضاء المبرم أو الموت الأسود، يصولون فى الميدان يمينًا وشمالاً ويعملون سيوفهم البتارة فى صفوف عسكر الإسلام ويمزقونها؛ ورخصت الأرواح وتبدت التضحية. وهنا نزل عسكر الروميلى بأسلحتهم وبزتهم العسكرية المهيبة إلى ساحة الوغى وشرع جنود الإنكشارية فى هجماتهم المتوالية السريعة الصادقة، يصلون العدو النيران من بنادقهم الفتاكة، كما أن المدفعية أخذت تطلق النار من ثلاثمائة وستين مدفعًا من المدافع الشاهانية؛ فتحول الجو وأرض المعركة إلى نار نمرود يصول فيها الجيشان كالسمندل، وقد عقد الدخان الأسود المنبعث من البارود سحابًا كثيفًا على سماء الميدان وساحة القتال.

وفى خلال ذلك ظهرت للعثمانيين بوادر انسحاب عسكر الغورى من الميدان وتقهقره إلى الوراء وتنحيه عن القتال شيئًا فشيئًا. ولكنهم تأنوا فى الأمر مليًا خشية أن يكون ذلك منهم خدعة ومكرًا. ولذلك لم يطاردوهم ومشوا وراءهم مشى النمل حتى تحقق لهم أخيرًا أن الغوريين قد تبدل قرارهم فرارًا، وأنهم تمسكوا بأذيال الهزيمة والعار، لأن صحراء بلبيس كانت قد اصطبغت حينذاك بالدماء القانية المراقة وبالسرابيل الحمراء الساقطة على الأرض مع لابسيها، وأصبحت الساحة وكأنها حديقة غناء مكسوة بالشقائق والورود الحمراء، بينما يسرح الأبطال العثمانيون فى أرجاء تلك الساحة الحمراء، وأيديهم وسيقانهم مشمرة وملطخة بالدماء وصدورهم عارية ورءوسهم حاسرة، تتلو ألسنتهم القرآن. وهم يسعون إلى

خيمة السلطان حاملين الرءوس والسيقان ليأخذوا عليها الإنعامات والعطايا، وبعد هذا عاد الغزاة المجاهدون إلى أماكنهم للاستجمام والراحة. وهمّ السلطان سليم بالنهوض حالا نحو مصر ليضرب نطاق الحصار عليها. ولكن "خاير باى" لم يقتنع بهذا الرأى وقال مخاطبًا السلطان: "يا سلطانى إن الخيول مُتْعَبَةٌ جدًا وقد تعب الجنود الذين أبلوا فى القتال المرير بلاء حسنا، وكسروا العدو مرتين، فالكل فى أمس الحاجة إلى الراحة والاستجمام، ولذا يحسن أن ننتظر قليلاً، ولاشك فى أن عقارب الفتنة والفشل ستدب بين العدو فيخيبون فى تدابيرهم ويخفقون فى أعمالهم الآتية أيضًا"، قال هذا ومنع السلطان من مواصلة سيره نحو القاهرة. وقد أقام الجيش فى بلبيس ثلاثة أيام يصلح من شأنه ويستريح، إذ ظهر أن الغورى سقط يوم المعركة فى جانب الصحراء، ووجدت جثته الهامدة فى سجادته وهو قاعد عليها مستقبلا القبلة ورأسه طائر مفقود، وذلك لأن جركسيًّا حينما رآه ميتًا مقتولاً حز رأسه وأخذه معه خشية أن يأخذه العثمانيون الغزاة.(٢٣٢) وقد أخذ العثمانيون جثته بالسجادة إلى حضرة السلطان فى خيمته، حيث وقع نظر جراكسة خاير بك عليها وصاحوا قائلين إنها حقيقة جثة الغورى، ومع هذا فلا يجزم قطعًا أنها جثة الغورى لكون الرأس مفصولة ومفقودة. بيد أن حادثة ظهرت بعد سبعة عشر عامًا من وقوع هذه المعركة دلت على خلاف ما ذكر؛ وهى أن معلمًا من معلمى المدارس ببلبيس حينما دنا أجله وشعر بقرب رحيله من هذه الدنيا صرّح لأهله ومعارفه بأنه هو السلطان الغورى نفسه، ثم أسلم روحه إلى بارئها، وقد فتشوه بعد ذلك فوجدوا أن الخاتم الذى بإصبعه والندبة التى بأذنه من أثر ضربة السيف يدلان على أنه صادق فى قوله إنه الغورى، ويثبتان دعواه تمامًا.

---

(٢٣٢) اختلفت الآراء والكتابات حول مكان مقتل أو موت الغورى وتاريخه؛ فمن قائل إنها فى مرج دابق، ومن قائل بأنها فى صحراء بلبيس. وهذا الأمر يحتاج إلى تحقيق من أهل الاختصاص.

ومما لا شك فيه أن الغورى فقد فى المعركة، معركة بلبيس هذه ولم يظهر له أثر فى الوجود، فلذا دب الخلاف وقامت الفتن بين أنصاره وجيشه الذى تركه من غير رئيس ولا قائد يركن إليه، كما تنبأ بذلك خاير بك. وأخيرا اختاروا ابنه (السلطان محمد) ملكًا على البلاد، ولكن جيش مصر انقسم إلى شطرين؛ يقول أحدهما كيف يمكن أن يقوم مثل هذا الغرّ بشئون الدولة وما يتطلبه الأمر العصيب الذى نحن فيه اليوم من الاستعداد وأخذ الأمور بالحزم والشدة لتتسنى لنا مقاومة الجيش الرومى شديد البأس المتعطش للدم؟ فالصواب إذن تنصيب "طومان باى" سلطانًا لنا. ويقول الآخر بخلاف الرأى الأول، وهكذا اشتد الخلاف وتفاقم النزاع بين الطرفين فاقتتلا شهرًا كاملاً داخل مصر حول هذا الموضوع، حتى سادت الفوضى والاضطراب وعم النهب والسلب فى البلد.

وأخيرا انتصر فريق معسكر "طومان باى" فبادر هذا إلى تعيين من يدعى "دندار" نائبا عنه، وتلقب هو نفسه بلقب الملك الأشرف، وفى اليوم نفسه نهض ومعهم جميع كبار الجيش وقواده إلى سلط (...) واقتتل مع السلطان سليم قتالا شديدًا على مقربة من الخانكة حيث منى بالفشل الذريع، ولكن عسكر الإسلام أيضًا أصيب بخسائر جسيمة زعزعت قواه؛ مما جرأ "طومان باى" على أن يبعث إلى السلطان سليم فى اليوم التالى يدعوه إلى القتال ويشتبك معه فى الخانكة أيضًا فى حرب ضروس لا هوادة فيها، ثم يقول له: "لا يجوز أن نتقابل بالمدافع والبنادق لأن تبادل النيران هكذا من شيمة الكفار". وما قال طومان باى هذا إلاّ لأن المصريين كانوا عاجزين عن الحرب والقتال بالمدافع والبنادق، بخلاف السيوف التى يحسنون استعمالها مثل الأعاجم؛ فهم مهرة فى استعمال السيوف وركوب الخيل واللعب بالرماح والمزاريق. والخلاصة أنه قد جرت عشرة آلاف اشتباك بينهما فى الطريق من بلبيس حتى أبواب مصر، فكان آخرها فى صحراء "سبيل علام" الواقع فى وادى "الريدانية"؛ حيث دارت فيها رحى معركة حامية لم يسبق لها مثيل حتى فى عهد سيدنا على رضى الله تعالى عنه.

وقد تساءل المصريون أخيرا قائلين إلى متى يهزمنا العثمانيون ونندحر أمامهم، فلنجمع قوانا ولنهاجمهم مرة واحدة ونقصد السلطان سليم نفسه تحت رايته ونمزقه شر ممزق. ثم تعاهدوا وتحالفوا على هذا واقتحموا الميدان. وبينما الحرب تشتد أوزارها ويحمى وطيسها فى "سبيل علام"، إذ انقضّ كل من "طومان باى" و"قورتباى" "وباى" آخر على راية الإسلام لتنفيذ ما تعاهدوا عليه من الفتك بالسلطان سليم. فبطش طومان باى بالوزير الأعظم الخادم سنان باشا على ظن أنه سليم شاه، بأن ضربه بالحربة وأسقطه عن جواده، لأن سنان باشا هذا كان حليق اللحية مثل سليم شاه ويتشبه فى لبسه وركوبه به. وأما " قورتباى " فظن وزير السلطان هو السلطان فصرعه عن جواده... وخلاصة القول إن كلا من الثلاثة أسقط وزيرًا من وزراء العثمانيين وبطش به فصاروا ضحية فى سبيل السلطان سليم. ثم عُيِّن "يونس" باشا وزيرًا أعظم واستمر القتال حتى المغرب، ومكث العثمانيون فى العادلية ودخل المماليك كلهم القاهرة واعتصموا بها.

وغداة اليوم التالى كان العثمانيون يطاردون عدوهم مطاردة الكلاب فى شوارع مصر حتى اضطروهم إلى دخول القلعة وضربوا عليهم نطاق الحصار؛ الأمر الذى أفضى إلى خضوع جميع العربان لأوامر السلطان بأسرع من لمح البصر، فامتنعوا عن تموين المدينة بالغلال والأرزاق، فضلاً عن إحاطتهم بمصر من الجوانب الأربعة إحاطة السوار بالمعصم، وجاء فى اليوم نفسه جميع عربان بنى جابر وبنى سوار (أوار) وبنى عيد وبنى حماد وسائر مشايخ العربان الذين فى الضفة الأخرى من النيل إلى ساحة السلطان سليم وتمسحوا بتراب جواده الكريم، فنالوا منه الخلع والكساوى وسائر الإنعامات أكثر مما كانوا يحلمون به، فعادوا لابسين تلك الخلع السلطانية متسربلين بالكساوى والتشريفات المُقَصَّبة إلى قبائلهم مسرورين فخورين بما نالوا، وأخذوا يحشدون جموعهم ويجمعون أتباعهم وجاءوا إلى غربى النيل مرتقبين للقتال ومتحفزين للحرب والطعان، وهكذا حالوا دون اجتياز أحد من القاهرة إلى الضفة الغربية من المحصورين.

هذا، وقد سبق أن قلنا إن جنود الإسلام قاموا في بادئ الأمر بضرب نطاق الحصار على القلعة الداخلية، حيث قام "كُوزلْجه قاسم باشا" من قمة جبل الجيوشي بضرب هذه القلعة باثني عشر مدفعًا، كما أن جيش الروملي دخل جامع السلطان حسن وأقاموا المتاريس في ميدان الرميلة، بينما اتخذ الوزير الأعظم المتاريس والاستحكامات في جهة باب الوزير، كما أن (...) باشا قد اتخذ متاريسه ومخافره في جامع النظامية، وأما الجوانب السفلى من هذه المدينة الكبرى فقد حاصرها عامة جنود الولايات العثمانية؛ كالأناضول ومرعش وسيواس وحلب وأذنه وديار بكر وأرضروم وطرابزون، فكان هؤلاء أيضًا ليل نهار في قتال شديد ونضال مرير؛ يصيح فيه الطرفان الله! الله...

هذا، وبينما تضرب طوائف الجند من القابوقولي[٢٣٣] والسباهية وأتباع الزعماء والمدفعية والجبجية[٢٣٤] أبراج القلعة الداخلية العليا، إذا ببوابي وحجاب القلعة الداخلية - وهم المعروفون ببني ألواح - يعمدون بتوفيق الله وحكمته إلى فتح باب المطبخ الخلفي، ويرسلون إلى سليم خان يعلمونه بذلك؛ فبادر سليم خان ومعه أعوانه وطوائف الباب الخاصة ووزراء القبة السبعة إلى القلعة الداخلية تلك يقتحمونها جميعًا.

---

(٢٣٣) قابوقولي: اصطلاح عسكري يطلق على عبيد الباب أو حرس الباب في السرايات السلطانية وقصور الصدر الأعظم وكبار رجالات الدولة، وكان يطلق على رئيسهم قابوقولي باشي؛ وهو الضابط الكبير وأمير بوابي القصر. وكان بوابو القصر ينقسمون إلى قسمين: الدركاه العالي الأعتاب السلطانية، والباب الهمايوني"أي السلطاني أيضًا" وموكل إليهم حراسة السلطان ويشبه دورهم في العصر الحديث الحرس الجمهوري أو الحرس الملكي، وكانوا يلتفون حول السلطان ويحيطون به أثناء الحروب ويحرسون السراي عند خروج السلطان إلى رحلات الصيد. (انظر ص ١٦٧ ج٢ pakalin)

(٢٣٤) الجبجية: جنود من فرقة الجبه جيه، وهم فرقة من فرق قوات جيش الدولة المركزي، يقومون بإعداد توفير احتياجات الجيش من الذخيرة، وتسليمها لهم وقت الحملات من (أسلحة، دروع، بنادق). وإعادتها ثانية إلى مقرهم في "جبه خانه" لإصلاحها، محمد السيد: دراسات في التاريخ، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص ٩٣.

وفي أثناء ذلك يبرز لهم عربي أعمى، كان يبيت هنالك ويقيم منذ أربعين سنة تحت الباب المذكور، وهو يصيح دائمًا بقوله: "شوى شوى سلطان سليم"، ويتقدم نحو السلطان سليم وهو يجتاز الباب فيقبض على عنان جواده الكريم ويصيح قائلاً كالمعتاد" "سلطان سليم شوى شوى"، ثم يسلم روحه إلى بارئها منتقلاً من هذه الدنيا الفانية. وقد حسبت الجملة التي كان يصيح بها بحساب الجُمَل فوجد ذلك تاريخًا "للفتح"، ولا يزال هذا الرجل مدفونًا في باب المطبخ ويتقاضى أولاده وأحفاده رواتب وجرايات من الخزانة الأميرية.

هذا، وبينما كان "سليم خان" واقفًا تحت سلم الديوان السلطاني[٢٣٥] المنسوب لقايتباي، إذا بقذيفة من مدفع يُسمى "شاهي" تنزل من القلعة بجانب رأس السلطان سليم فيضطر إلى مغادرة المكان إلى غرف "الشطا" من العساكر والجنود والخدم والاعتصام بها؛ حيث إنها بناء حجري متين، ثم أخذ الجيش الإسلامي يرفع الأعلام البيضاء على أبراج القلعة الداخلية من أدناها إلى أقصاها؛ فلفت هذا أنظار من بأسفل القلعة من المدينة فأيقن الناس أن القلعة قد تم فتحها من قبل العثمانيين الذين كانوا حينئذ يعلنون سرورهم وفرحهم بالفتح المبين بكل الوسائل، فلذا عاد القتال إلى أشده ودارت رحى معركة حامية.

وقامت حرب ضروس ليست حرب الإمام علي بجانبها شيئًا مذكورًا، وتبين أن القائمين بهذا الهجوم الفجائي وموقدي ناره هم الاثنا عشر ألف زنجي الذين كان

---

(٢٣٥) الديوان السلطاني Divan: أصلاً فارسية، انتقلت إلى اللغة العربية مع بدايات الفتح الإسلامي، ويستخدم في معانٍ مختلفة، فيجتمع فيه أهل الحل والعقد لتسيير أمور الأمة سواء من النواحي السياسية أو العسكرية أو المالية أو الإدارية أو العدلية أو المالية؛ في النواحي المالية؛ يعني دفتر قيد الدخل والمنصرف في كل المصالح الإدارية، أما إداريًا فيطلق على الهيئة أو الجماعة التي تدير الأمور بالدولة؛ فهناك ديوان الرئاسة وديوان الوزارة وديوان الولاية وديوان الإمارة وديوان الحرب... وقد عرفته كل الدولة الإسلامية. وكان لكل ولاية ديوان خاص بها، يرأسه الوالي، ويتكون من أركان الولاية للبت والنظر في شتى أمورها، وحتى كان للديوان ترجمانه لقيامه بمهام الترجمة في الولايات التي يتطلب فيها الأمر ذلك. وكان ديوان الحرب ينعقد تحت رئاسة السلطان. كما أن ديوان قافلة الحج كان يضم كل الشخصيات المعنية، ويرأسه أمير قافلة الحج.

السلطان الغورى يسكنهم فى الميدان المسمى قراميدان؛ وقد سمى هذا الميدان بالميدان الأسود أو ميدان السود لهذا السبب، ولقد اجتاح عسكر الروم‌للى هذا الميدان الأسود وأخذ يصول ويجول يمينًا وشمالاً فيهزم السود هزيمة ساحقة، وقد تكدست جثثهم تكدسا هائلاً هنا وهناك حتى اسودت الساحات الفسيحة، وسمى الميدان بقراميدان (الميدان الأسود) لهذا السبب أيضا. فتحت مصر بحرب عظيمة سنة ٩٢٢ هـ الجملة التى قالها ابن كمال باشا تاريخا لذلك: فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م، تاريخ آخر قاله الشيخ نصر الله كسلطان سليم شوى شوى سنة ٩٢٢هـ =١٥١٦م، تاريخ آخر (فاتح ممالك العرب ٩٢٣هـ = ١٥١٧م).

لما تم فتح القلعة الداخلية العليا، وأنعم على جميع الوزراء والوكلاء وأعيان الدولة ورجال الديوان حسب مراتبهم ودرجاتهم بخلع فاخرة وتشريفات سنية ملأت قلوبهم سرورًا ونفوسهم غبطة وحبورًا، بادر خان بمقتضى القول المأثور "الكريم إذا وعد وفى" إلى إسناد إيالة مصر إلى "خاير بك" مع الإنعام عليه برتبة الوزير، كما منح منصب قضاء مصر لقاضى عسكر الروم‌للى أحمد أفندى الشهير بابن كمال باشا.

ولما كان اليوم التالى يوم جمعة فقد صلى السلطان مع جميع العسكر والجنود فى جامع السلطان قلاوون بالقلعة الداخلية العليا، حيث خطب ابن كمال باشا فوصف السلطان سليم بقوله "خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان"، فما كان من السلطان إزاء هذا النعت الشريف إلا أن سجد لله سجدة الشكر والحمد.

هذا، ولما سمع الجراكسة المناحيس فى القلعة السفلى خبر وزارة "خاير بك" وتوليه مصر، هاجوا وماجوا وثارت ثائرتهم فأغلقوا الدروب والشوارع وقبعوا فى بيوتهم التى كانت مليئة بالزاد والماء والعدد، فاستعدوا للمقاومة إلى النهاية وحاربوا فعلاً عسكر الإسلام وقاتلوهم سبعين يومًا بكل جلد وقسوة كما حدث سابقًا، حيث كانوا يلقون الأوساخ والقاذورات عليهم من فوق الأسطح والمآذن ويقذفون فوقهم

كل ما يقع تحت أيديهم؛ حتى إن أهالى مصر قويت عزيمتهم وأخذوا ينادون من جديد: "الله ينصر السلطان طومانباى" وهم فى المدينة السفلى التى خطبوا بها سبعين يومًا باسم السلطان طومانباى لا غير. وعلى هذا المنوال تقدم كل من طومانباى وكرتباى؛ لنجدة أهالى المدينة السفلى أكثر من سبعين مرة؛ مما شجع الناس فى البيوت وفوق السطوح على إلقاء القاذورات من الشبابيك والنوافذ، وهذا ما حمل السلطان سليم أخيرًا على أن يخصص رواتب لسيدات مصر، فسيل ذلك فتح مصر السفلى أيضًا، فأصل الرواتب والمخصصات التى تصرف حتى الآن للجوارى والسيدات فى مصر هى تلك الرواتب التى خصصت لهن أيام الفتح.

وفى النهاية، عهد السلطان سليم إلى "خاير بك" القيام بعمل سريع يقضى به على طومانباى قضاء مبرمًا، فطلب خاير بك إلى "ابن خبير" بالقيام بهذه المهمة، باذلاً له الوعود الكثيرة بالإنعام والإحسان والهدايا. فحدث ذات يوم أن علم ابن خبير باعتصام طومانباى بمكان صعب المنال كالقلعة فى إقليم الفيوم، فأطلع السلطان سليم على جلية الأمر. وبادر السلطان إلى إمداده بمصطفى باشا أمير أمراء الروملى ومعه جنوده المدربون، وتكليفهم بالزحف إلى الجهة المذكورة للقبض على "طومانباى"، وكان فى خلال ذلك مطمئنا على نفسه غافلاً عما يخبئه له القدر، بينما كان نائمًا فى مخبئه جاءه سيدنا النبى ﷺ فى نومه وخاطبه بقوله: "يا طومانباى إنك قد دافعت عن عرضك حق الدفاع، وقمت بواجبك فى الذود عن شرفك بكل غيرة وحمية، ولم يبق أمامك إلاَّ أن تذهب إلى سليم ليرسلك. والغازى سليم أيضًا سيأتى إلىَّ قريبًا". وقد عنى بلفظ "غازى سليم" ١٤٢٣ "نسخة ١٤٦٣"، وفى الواقع إن سليم خان بعد أن عاد من مصر إلى إسلامبول لبى نداء ربه، وكان ذلك بعد مضى ١٤٦٣ يومًا على تلك الحوادث "رحمة الله عليه".

هذا، ولما استيقظ طومانباى من النوم أسرع فتوضأ وصلى ركعتين ثم ركب جواده وسار فى الطريق، حتى التقى به مصطفى باشا وجنوده وقبض عليه وأخذه ويداه مغلولتان إلى قفاه إلى سدة السلطان سليم، وكان حينئذ يرى فيما يرى النائم

أن النبى (صلى الله عليه وسلم)يقول له: "يا سليم ابعث إلىّ طومانباى ثم امش فـي جنازته محتفلاً، ووف بعيدك لى وهو أن تجعل مصر وقف خـدمتى بعـد فتحـك إياها، حيث تبقيها على حاليا من غير تغيير. وأما أنت فبادر حينمـا تعـود إلـى إسلامبول بالحضور إلىّ" فيسأله سليم بقوله: "يا رسول الله لمن أعطـى مـصر؟ " فيقول رسول الله وحبيبه: "يا سليم إن مصر فى حمى الله وهى باقيـة فـى أيـدى المسلمين إلى انقراض الدنيا فلا تغتم قط" (غم يمه)[٢٣٦]. وفى تاريخ (...) سيملكيا الملك كعب الرابع بن إبراهيم من نسلك. وعبارة لا تغتم (غم يمه) تساوى بحروف الجمل ١٠٠٣، ثم إن لفظ "كعب" يساوى ٩٢ بحروف الجمل، كما أن لفـظ محمـد يساوى ٩١؛ فيكون المقصود من "كعب" هو محمد الرابع بن إبراهيم الـذى أعـاد الأمن إلى مصر فى التاريخ الذى تضمنته عبارة (لا تغتم أو غم يمه)، ثم اسـتيقظ سليم مذهولاً دهشاً وشرع يصلى ثم إذا بالحاجب يخبره بأن طومانباى قد حضر.

بيان مباحثات الملك طومانباى مع
السلطان سليم ونقاشه له فى حضرته ثم قتله على يده أخيراً

لما انتهى سليم شاه من الصلاة خرج لطومانبـاى قـائلاً: "مرحبًـا بـالأخ طومانباى!" فرد عليه طومانباى بقوله: "حسن أنك قد رضيت لى بالأخوة، وقد كنا قبل الجراكسة كفرة ملعونين تبحث أخذ أموالنا وممالكنـا مـن أيـدينا، والآن قـد أصبحنا إخوة أليس كذلك؟ فإن كان أخوك كافرًا فماذا تكـون أنـت؟ يـا محيـر المتحدثين" فأجاب سليم شاه: "فى سبيل الملك والسلطان هكذا يكون الأمر والشأن"، ورد عليه طومانباى قائلاً: "وهل كان الملك الذى طلبته ونشدته موروثًا لـك عـن

(٢٣٦) غم يمـه: هنا اضطراب شديد كما تكون الحال فى الأحلام، فإن لفظ "غم يمـه" التركيـة تساوى بحساب الجمل أكثر من ١٠٠٣، كما أن السلطان الذى كان فى ذلـك التـاريخ هـو السلطان محمد الثالث وفى عهده حدثت الثورة بمصر. وأما السلطان محمد الرابع فكان عهده من ١٠٥٨ إلى ١٠٩٩ هـ.

والدك حتى تطمع فيه طمعًا خسيسًا فتريق فى سبيله دمـاء الآلاف مـن عبـاد الله الطاهرين من جنود الفريقين؟ من يستطيع الإجابة يوم القيامة عن المسوّغ لهـلاك هؤلاء الناس؟" أجاب سليم شاه: "إنك قد أنجدت بهم جنود العجم وبـذلك اسـتحقوا القتل والهلاك حتمًا ووجوبًا" فردّ عليه طومانباى: "حاشا وكلا، لم يذهب منا أحـد نجدة ومددًا إلى العجم، بل إن علاء الدولة لكى يزجّ باسم مصر فى هذا الخـصام ألبس فرقة من أشقياء التركمان أردية حمراء بعث بهم إليهم موهمًـا أنهـا نجـدة مصر للعجم، فلذا قطعت يا سليم رأس علاء الدولة وبعثـت بهـا إلـى الـسلطان الغورى تشفيًا منه. فماذا كنت تطلب بعد ذلك؟" قال سليم شاه: "ألم تقتلوا رسـلنا؟" قال طومانباى: "إن عشرة من رسلك هؤلاء قد أطالوا ألسنتهم فى حضرة الـسلطان الغورى فلذا أمر بقتلهم، وأما الاثنان اللذان سكتا ولم ينبسا ببنت شفة فقد أعتقا ولـم يمسهما أذى..." ثم قال سليم خان: "ولماذا حاربتنى طوال هـذه المـدة؟" فأجـاب طومانباى: "أنت هاجمتنى فى عقر دارى وعرّضت أهلى وعيالى للهلاك، وبلادى ومأواى للدمار والخراب، وحاولت أخذها منى. وسأطالب يوم القيامة يـوم البعـث والنشور بتقديم حساب عما فعلت" قال سليم: "إذن كيف حضرت بين يـدى؟" قـال طومانباى: "إن النبى ﷺ قد بعثنى إليك فلذا حضرت".

ولقد رأى سليم أن كل ما قاله طومانباى صحيح وحق، فسأله أخيـرًا لمـاذا يقول الناس: "الله ينصر السلطان طومانباى". قال طومانباى: "إنى كنـت أنـصف الناس وأرحم الفقراء والمساكين وأظلهم بجناح الرحمة والعدل، فلذا لم يتخلوا عنى قط، ولا يزالون يواصلون الحرب والقتال فى سبيلى فى الجهات السفلى من المدينة معتصمين بالأزقة والبيوت، وأنت يا سليم تمسّك بأهداب العدل والإنـصاف حتـى يحبوك فيتبعوك ويتخلوا عن مواصلة الحرب والقتال".

وبعد ذلك أشار السلطان سليم إلى "خاير بك" فبادر هذا إلى أخذ طومانبـاى وذهب به إلى باب زويله (زويل) وصلبه هناك، وبقيت جثته معلقة سـبع سـاعات أنزلت بعدها، واحتفل بدفنها بمشهد عظيم سار فيه السلطان سـليم حتـى العادليـة

خارج باب النصر، ماشيا على قدميه وقد حمل النعش مرة بنفسه على كتفــه. لأن السلطان طومانباى كان حافظًا للقرآن وعلى جانب عظيم من العلم والدين والعــدل والإنصاف، وقد دفن في العادلية التى هى من آثاره الخيرية، ومنقوش على قاعــدة تابوته المرمى فى ضريحه تاريخ تسعمائة ثلاثة وعشرون، وعليــه قبــة عاليــة، وبجانب المدفن جامع لطيف، وحوله بيوت وغرف لسكنى الغادين والرائحين، كمــا أن هناك مكانًا خاصًا لوزراء مصر وولاتها يؤمونه عند قدومهم لأول مرة مصر، فيقيمون به ثلاثة أيام يستريحون فيها من وعثاء السفر وعناء الطريق ويــستجمون، ثم يدخلون مصر باحتفال عظيم وموكب حافل.

هذا، ويؤم قبة طومانباى هذه كل المعزولين من قضاة مــصر ووزرائهــا، وكذا جميع مرافقى الخزائن الصادرة إلى إسلامبول، يقيمون بهــا مــدة ويقــرأون الفاتحة على روح صاحبها، مستمدين منها القوة والبركة، ثم يرحلون إلى مقصدهم، وخلاصة القول أن هذه القبة مزار ومقصد للخاص والعام، وأن حى العادلية هــذا فردوس عظيم يتنــزه فيه الناس.

هذا، وقد صلب السلطان سليم طومانباى ودفنه ولكن الحرب والقتــال كانــا ناشبين فى جهات عديدة داخل مصر. وما ذلك إلاً لأن دولــة طومانبــاى وســلفه الغورى كانت دولة عظيمة، وقد كان الناس مستائين وممتعضين أشد الاستياء مــن عمل "خاير بك" وممالأته للعثمانيين ثم توليه الحكم والوزارة لهم بها؛ ولــذا ظــل الجراكسة معتصمين بالبيوت والسطوح داخل الشوارع يواصلون القتال والنــضال بكل الوسائل، وكانوا يعتقدون أن خايربك بتحريضه أولاد العرب من المــصريين على أن ينادوا: "الله ينصر السلطان طومانباى" ليسمع سليم خان ذلك فيغضب، كان سببًا فى مقتل طومانباى على يد سليم، فكأنه قد حرض على قتله، فهو المسئول عن هذا العمل، لذلك كان المصريون مستائين من خير باى يواصلون القتال ليل نهــار. وأخيرًا أخذت الحمية "خاير بك" وعمد إلى العربان جميعًا ومنّاهم بالوعود والعهود حتى استمال قلوبهم، ثم حشد جيشًا من الأروام الذين ضمهم حــديثًا جنــودًا إلــى

جيوش آل عثمان. وقد أخذ هؤلاء كلهم في قتال عساكر مصر وجنودها سبعة أشهر حتى أخضعوهم تمامًا، وقد صار "خاير بك" وزير مصر، وحينئذ طاب سليم نفسًا واستراح قلبه من هذه الناحية.

وفي هذه الأثناء جاء الأسطول العثماني المؤلف من سبعمائة قطعة من السفن، ودخل ميناء الإسكندرية وأنزل الجنود والرجال والعتاد في البر، حيث اقتحموا قلعتها وفتحوها عنوة، ووصل الخبر السار إلى مقام السلطان سليم، فأمر بإقامة احتفالات عظيمة سبعة أيام إيذانًا بتمام الفتح والاستيلاء على مصر والإسكندرية ودمياط ورشيد، الأمر الذى أفضى إلى أن يمتد سلطان آل عثمان إلى مكة والمدينة لأول مرة في التاريخ.

فلذا بعث السلطان سليم إلى شرفاء مكة وتبابعة اليمن ونجاشي الحبشة وقاغان الفونج وملوك فور ودنقلا وأفنو وبورنو وسلاطين السودان وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، وإلى العباسيين في بغداد وإلى ديار الهند وإلى شاه العجم الشاه إسماعيل. وبالاختصار إلى جميع سلاطين الأمم والدول وملوكها كتبًا ورسائل قال فيها: "أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين"، فأعلن بذلك أنه صار سلطان مصر بلا منازع، ثم أخذ في تنظيم أمورها وضبط شئونها الضرورية بتفقد أحوالها والاطلاع على خباياها ومداخلها ومخارجها، يباحث في ذلك أولياء الأمور المختصين بها في قصر مصر في الجناح الخاص بالسلطان قايتباي.

قد سمع في ذات صباح ضجة وصخبًا دون أن يدرى سببًا لذلك، فبينما هو يبحث عن ذلك وقع بصره على ركن من القصر ورأى فيه أوهاقًا معقودة بحبال إفرنجية غليظة، يبلغ طول كل حبل أربعين باعًا أو خمسين، فأشمأزت نفس السلطان من ذلك المنظر، وكره القصر وانتقل إلى قصر العيني، ونزل في قبة منه، هي الآن مسكن البكتاشية[٢٣٧]، وأمضى فيها سليم بضع ليال، لأنه من أتباع الطريقة، ولا تزال

---

(٢٣٧) البكتاشيَة: الطريقة البكداشية، اشتق هذا الاسم من اسم مؤسسها (حاجي بكتاش ولي)، ويرجعها البعض إلى حضرة سيدنا علي رضي الله عنه هو وأولاده. وقد ولد حاجي بكتاش=

تزال المقصورة التى نزل فيها ظاهرة للعيان فى القبة العالية فى الجهة اليمنى. ثم انتقل منها إلى جزيرة الروضة التى هى بحق "روضة من رياض الجنة".

قصة سليم خان المروّعة مع كُرتباى الفدائى بقصر أم القياس

نزل السلطان سليم بعد ذلك ضيفًا فى قصر الخليفة المأمون الواقع فى أم القياس، وبات فيه بضع ليال متمتعًا بما لذ وطاب من النعم منهمكًا فى اللهو والشراب، فقد عجز حراسه من خدمة الفرقة الخاصة عن المحافظة عليه وحراسته، ولاقوا فى سبيل ذلك صعابًا ومشاقً. وكان السلطان نفسه متفطنًا لهذا أيما تفطن، حتى قيل إنه لم يكن يغفل ليلاً ولا نهارًا؛ ولما كان يساوره من الخوف والقلق على نفسه. يقول مصاحبه حليمى جلبى: كنا فى ليلة من تلك الليالى العصيبة ساهرين حتى منتصف الليل فى قصر أم القياس متمتعين بأسباب السرور وأنواع الفرح فى غرف النوم. وبينما كان الناس نائمين غافلين عن أحوال الدنيا قبيل الفجر إذا بسليم خان يصيح صيحة مدوية عظيمة من داخل القصر مناديًا بأعلى صوته: "أيها الغلمان أين أنتم!" وفى لمح البصر رأينا شخصًا عاريًا عاتيًا صنديدًا فى يده سكين، كأنه سيف الضحاك الجبار العاتى الشهير، ينطلق كالسهم من لدن السلطان ويجرى كالغزال فى خفة وسرعة نحو هوة عميقة عمق ستين باعًا من أرض

= ولى فى نيسابور سنة ٦٤٥هـ. وفى سنة ٦٨٠هـ أشار عليه الشيخ أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول فسافر إليها واستقر فى مكان بالقرب من قيرشهير، وارتحل إلى العالم الآخر سنة ٧٣٨هـ، وقد انتشرت هذه الطريقة فى القرى والمراكز أكثر من المدن، ولها دورٌ كبير فى توطين الترك فى قرى الأناضول. معظم أفكارها باطنية ولا بد من المرشد، وكل تشكيلاتها سرية وغير معلنة للجميع، كما كانت تستخدم مجموعة من الرموز والإشارات الخاصة بها. انتشرت بين جنود الإنكشارية فى الجيش العثمانى، ووصل الأمر أن انتسب إليها بعض السلاطين العثمانيين، وقد انقسمت إلى عدة أفرع تختلف عن بعضها البعض فى الرموز والإشارات والمراسم والذكر الخاص بكل منها. انظر فى ذلك للمترجم إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ص ٥٦.

القصر فيغيب فيها عن العيان. ثم رأينا سفينة ملتصقة بالقصر تعلو ساريتها قبة القصر وتناطحها، وقد ثبت أن الفدائى المذكور نزل منها.

وقصر أم القياس فى بحر النيل لا يزال علوه بالغًا مائة باع. عـذَّب سليم خان جميع خدمه ولا سيما من كانوا فى النوبة فى تلك الليلة. ولكن پرويز أغا الذى من صلحاء الأمة بمصر حينذاك، وكان قائمًا بوظيفة رئيس الركائب، تقدم إلى السلطان مسترحمًا وقال له: "يا سلطانى ائذن لنا فى الكلام لشرح الحقيقة وبيانها ثم اقتلنا كما تريد. إننا نقوم بوظيفة الحراسة الخاصة هذه من يوم فتحنا مصر بكل صعوبة ومشقة، فبينما نحن قائمون بالعمل بتيقظ وانتباه أكثر من كل ليلة مضت، إذا بسيدنا الرسول قد ظهر لنا وتجلى علينا من الباب وأزاح النقاب الأصفر عن وجهه الكريم مظهرًا جماله السامى، وكان لابسا حلة من ليف النخل ونعلا أصفر وعمامة صفراء من صوف الجمل ولها طيلسانان، فسلم علينا ورددنا عليه السلام وأراد رفقائى أن يطردوه قائلين أيها السيد من أين جئت إلى هنا، وقد دخلت بينهم وبينه لأتحدث إليه لنعلم من هو. فقال الداخل علينا: أنا الرسول، وبينى وبين سليم عهد ووعد بأن يخدمنى وأنا أخدمه، فهو فى حمايتى إلى أن ينقرض الزمان، فاطمئنوا ولا تنزعجوا واستريحوا كما تريدون، وإن وقع شىء فأنا أوقظ سليمًا وأُنَبِّهه للخطر. قال هذا ونزل من السلم وذهب، وبادرنا إلى تعقب أثره فلم نجد من الناس أحدًا، وتحيرنا فى الأمر وتساءلنا قائلين ما هذه العجيبة؟ وبينما نحن كذلك غلب علينا نوم عميق وصرنا كأصحاب الكيف ولم نستيقظ من النوم إلاَّ على صياح سيدنا السلطان وهو شاهر سيفه، خارجًا من الباب يتعقب أعرابيًا يلقى بنفسه فى اليم ويغيب عن الأنظار، هذه هى القضية والأمر لسيدى السلطان بعد ذلك.

فقال سليم خان: "نعم! على هذه الصورة جاءنى أيضًا الرسول ﷺ فى المنام وقال: يا سليم قد أمرت خدمك وحراسك أن يلتزموا السكون والراحة ويطمئنوا عليك كل الاطمئنان، فلا تغضب عليهم، وخذ حذرك فإن هناك من يقصدك بسوء ويريد الفتك بك، ولكن لا تخف منه فلن يلحقك منه أذى، والآن استيقظ وخذ

حذرك. فلما استيقظت من النوم وجدت ذلك المارد الملعون فوق رأسي فقفزت من مكاني شاهرًا سيفي ومهيبا بغلماني هؤلاء الذين كانوا جميعًا نائمين. فما حكيته يا برويز أغا مطابق وموافق لما رأيته أنا تمامًا، فلذا عفوت عنكم جميعًا وعدلت عن قتلكم بعد أن عزمت عليه". ثم أنعم عليهم بأموال كثيرة ورقاهم إلى رتبة الإمارة المصرية.

ثم عاد سليم خان إلى القصر وأطلق المنادين في أنحاء المدينة يعطي عهد آل عثمان وميثاقهم بالعفو عن الذي جاء تلك الليلة واقتحم غرفة نومه للفتك به، وأنه يمنحه السلامة والأمان على نفسه فلا يخاف ولا يخشى. وإذا بشخص ضخم نوراني الوجه باهر الطلعة يدعى الغازي كرتباي الجركسي يتقدم إلى سليم شاه ويسلم عليه من غير وجل ولا خوف ويجلس في صف النعال من غير أن يؤذن له بالجلوس.

ولما سأله سليم خان: "هل أنت الذي أردت قتلي تلك الليلة؟" أجاب: "نعم أنا ذلك الرجل". فقال سليم خان: "لماذا أقدمت على هذا العمل الخطير؟" فقال الرجل: "وكيف لا أقدم على ذلك وقد هجمت على ولايتنا وسطوت على بلادنا واستوليت على أهلنا وعيالنا، بعد قتل آلاف من عباد الله وتشتيت ألوف ومئات آخرين، ولقد استشهد في الحروب التي أشعلت نيرانها وأثرت نقعها سبعة من أولادي، وقد اغتصبت أملاكي وأموالي الكثيرة ومنحتها الأجانب، والأدهى من ذلك أنني حُرمت من صحبة ولي النعم والسيد الهمام طومانباي الذي كان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته، وهو كذلك ملك شجاع وعادل عظيم البسالة والإقدام، لذلك استقر رأيي أخيرًا على أن أقتل سليمًا، فاستأذنت الحضرة النبوية فجاءت الإشارة قائلة: إن دولة الدنيا هذه دنيئة سافلة، وإن رضا الله تعالى وحكمته البالغة قد اقتضت زوال دولة الجراكسة وقيام دولة آل عثمان، لذلك صار سليم في حمايتي وحراستي فلا تتعرض له ولا تؤذه أبدًا. وأخيرًا نفد صبري وسئمت نفسي الحياة، فقلت: يا رسول الله إني قد آليت على نفسي أن أذهب إلى سليم لأبطش به وأنتقم لنفسي في هذه

الليلة. فقال رسول الله: إن أقدمت على ذلك فإنى أوقظه من نومه. ثم آيست ووضعت رأسى فى كفى وأقدمت على تنفيذ ما انتويت، واضعًا نصب عينى جميع ما حل بى من الويلات والمصائب ولا سيما فراق أولادى وأهلى، وما وصلت إليك يا سليم حتى رأيتك تستيقظ من النوم فجأة، ولا أدرى ما جرى بعد ذلك فإن لبى قد طار وألقيت بنفسى فى اليم، وإلا فإن هجمتى تلك ما كان يثبت لها خمسون رجلاً من الأبطال، لأنى قد هزمت بمفردى خمسمائة فارس عدة مرات، وإنى لفى عجب مما حدث فى تلك الليلة، فقد سبحت فى الماء حتى وصلت جزيرة فى الضفة الأخرى وكلما ذهبت إلى قرية أخذت منها جوادًا وامتطيت صهوته، والآن إذ أعلنت العهد والأمان جئت إليك واثقًا بك ومعتمدًا على عهدك، ولله الأمر من قبل ومن بعد".

فسر السلطان من هذا الكلام السديد وخاطبه بقوله: "أيها العدو، الصادق القول والعمل، الصحيح الكلام، المستقيم الأطوار والحركة". ثم قهقه وأغرق فى الضحك وقال: "ليس لك أن تمكث فى مصر منذ اليوم، فاذهب من وجهى حيث تشاء". وأجاب كرتباى: "ما علاقتك بمصر وماذا لك فيها؟ ألا تعلم أن مثل هذه الدنيا كمثل القلعة المبنية من الخشب القديم، هى مصيدة بل دار للتزوير ونسج الأباطيل، فهى ليست مملوكة لأحد، فإن كان لك عقل يدرك فغادر مصر حالاً، فإن كنت لا أستطيع قتلك والقضاء عليك فإن هناك آلافًا يستطيعون أن يأخذوا روحك، أو أى واحد منهم يُمكنه أن يقتلك وتُصبح ذكرى". كان سليم الأول نفسه يسمع هذا الكلام سعيدًا، وقد أكثر الإنعام والإحسان، حتى إنه قد اصطحب كورتباى إلى إستانبول. ثم ترك سليم خان جميع الأمور إلى خاير بك، وتابع هو جولاته إلى دمياط ورشيد والإسكندرية.

الفصل الرابع عشر

بيان سفر السلطان سليم إلى جهات دمياط ورشيد والإسكندرية

لما وصل الأسطول الهمايونى المؤلف من مائتى قطعة من السفن الحربية وألقى مراسيه فى بولاق مصر، نُشرت أعلام الزينة والفرح ومعالم السرور على ساريات سفنه، عمد السلطان إليها وأركبها عشرة آلاف من الجنود المختارين المجهزين بالأسلحة الكافية، وتوجه معهم إلى "دمياط" بعد أن أطلق المدافع والبنادق أثناء مغادرته بولاق وسار فى النيل مارًا بمائتى بلدة ومدينة واقعة على فرع النيل الذى عليه دمياط، حتى وصل بندر دمياط وقلعتها على بعد مسافة خمسمائة ميل، وضرب خيمته العالية بجوار الشيخ أبى الفتح حيث قُدمت له زهاء عشر خزائن مصرية هدايا وتحف من أعيان المنطقة، فقابل السلطان ذلك بتوزيع الخلع والكساوى والهدايا والإنعامات عليهم وعلى الناس.

ثم أطلقت المدافع والبنادق إيذانًا بالفرح والسرور وإعلامًا بالرحيل من القلعة المذكورة إلى "مرج البحرين" حيث اغتسل به، فقصد المكان الذى التقى به موسى والخضر عليهما السلام، وزاره وصلى به ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى، وشرع فى زيارة الشيخ شطا وسائر كبار الأولياء مستمدًا من روحانياتهم القوة والمدد.

وبعد ذلك استأنف السير عن طريق البحر المالح أى البحر الأبيض إلى مدينة رشيد فوصلها بعد يوم كامل، فقوبل بالتَّجلية والإكرام والتهليل وإطلاق المدافع من قلعة التينة الواقعة على شاطئ البحر. وما إن استقر به المقام حتى تقدم أعيان البلد بهداياهم وتُحفهم مسلمين مفاتيح القلعة للسدة الملكية. وقد قام السلطان

بعد ذلك بزيارة "كوم الأفراح" وكبار أولياء الله، كما أنـه دخـل حمـام عبـاد الله واغتسل به، ولا زالت المقصورة التى اختصها بالاغتسال بذلك الحمام موجودة، وهـى مقفلة لا تفتح إلا للمرضى الذين يقصدونها للاستشفاء، فيجدون الشفاء بها بـإذن الله، ومن هنا ركب السلطان الزوارق والمراكب الخاصة وقصد ملتقـى فـرع رشـيد والبحر المالح وشرب من مائه الصافى، ثم واصل السير والسفر حتى دخل قلعـة الإسكندرية الواقعة على مسيرة ستين ميلاً، ولم يكد يدخلها حتـى شـرعت سـفن الأسطول العثمانى المؤلف من سبعمائة قطعة مختلفة الحجم والحـصون الخمـسة التى بها تطلق نيران مدافعها وطلقاتها المدوية، إيذانا بقدوم السلطان سليم؛ بحيـث ظهرت الإسكندرية كأنها شعلة نار أو أنها "سمندل" فى نار نمرود.

وقد أقام السلطان سرادقه العظيم فيما بين الميناءين من الأرض، وقابل بهـا أعيان الولاية وهم يقدمون له الطاعة بتسليم ،فـاتيح القـلاع الخمـس مـصحوبة بهداياهم العظيمة المتنوعة؛ فقابلهم بالإنعام بِنِعَم سنية عديدة.

ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع السلطان الغورى بظهور نجم الـسلطان سـليم وسـطوعه فـى الأرجاء أراد معرفة طالعه وطالع خصمه سليم خان، فجمع الكهان والرمالة وأهـل الجفر وفاتحى الفأل والبخت والناظرين فى علوم الكف والحروف من ذوى الـشأن وأصحاب الدعوة وسألهم عن ذلك، فأجابوا جميعًا بأن الشخص الذى يـشغل بالـك سيلحقك منه ضرر عظيم؛ فاضطر الغورى عندئذ أن يحتاط لنفسه ويـستعد لـدفع الضرر المتوقع، ولذا بادر إلى نقل جميع أمواله ومقتنياته الخفيفة الحمـل والثقيلـة القيمة والثمن إلى قلعة الإسكندرية، ثم شرع فى تحصيل أموال سبع سنوات قادمـة من جميع بلاد الأطراف وخزّنها أيضًا فى الإسكندرية، وجعل خمسين سفينة مـن نوع القادرغة على أهبة الاستعداد للسفر دائمًا فى الميناء، وأردف ذلك كله بتـدبير

آخر هو عقده معاهدة صداقة ومودة مع سلطان المغرب المدعو يعقوب، للوفود إلى بلاده حينما يضطره سليم خان إلى مغادرة الديار المصرية، بحيث يأخذ حينئذ جميع هذه الأموال المخزونة معه ويذهب بها إلى تلك البلاد ليتسلطن بها متربصًا الفرصة للعودة إلى مصر وفتحها ثانية.

نعم! هكذا كان الغورى قد وضع جميع أمواله وخزائنه الكثيرة فى قلعة الإسكندرية هذه ولكن "العبد يدبر والله يقدر"؛ إذ إن السلطان سليم عيَّن وزيره قرابيرى باشا نائبًا عنه، فقام هذا الرجل بإعداد أسطول عظيم من سبعمائة قطعة من السفن الشراعية الكبرى، ثم جاء هذا الأسطول وحاصر قلعة الإسكندرية، فى الوقت الذى كان السلطان سليم يقطع المراحل ويطوى المنازل فى الطريق البرى حتى التقى بخصمه الغورى بجوار مصر، فنشبت رحى معركة حامية بينهما أسفرت أخيرًا عن اندحار جيش الغورى وفقدانه مما سبق ذكره، وحضر السلطان سليم إلى قلعة الإسكندرية، وفتح أبواب الخزائن وأخذ منها فى الدفعة الأولى مبلغ سبعة وخمسين ألف كيس مصرى من النقود واثنى عشر ألفًا من الذهب الممسَّك.

هذا، ولما كان الغورى قد انهزم فى المرة الأولى أمام السلطان سليم فى "مرج دابق" جنوبى حلب وولى الأدبار مهرولاً نحو مصر، كانت الراية النبوية المحمدية قد وقعت فى يد سليم خان فاستبشر بها وتبرك وحملها معه ليلاً ونهارًا، حتى أنه جعل حمل ذلك العلم النبوى قانونًا عثمانيًا فى الجيش، فحمله لأول مرة فى الجيش سپاهى يدعى حاجى على، كما أنه غنم العلم الأحمر المنقوش عليه عبارة "نصر من الله" من الغوريين ضمن الأموال التى كانت فى الإسكندرية، وصندوقًا مرصعًا بالجواهر يحوى سِنًا من أسنان النبى ﷺ التى سقطت فى غزوة أُحد، وكذا خصلةً من شعر اللحية الشريفة، وإبريقًا من الحصير المطلى من داخله بالقار، ومسبحة من شجر الصنوبر، وزوجًا من القبقاب مصنوعًا من خشب البقس، وعصا من الخيزران الأبلق وحذاء، وزوج قباء أحدهما من القطن الأبيض المائل إلى الخضرة، وقطعة صوف أسود، وحزامًا من الوبر، وكذا رداء وعمامة منه،

وطاقية مشغولة بالإبرة؛ كانت هذه المخلفات كلها محفوظة فى أقمشة مزركشة مطوية داخل صرة مقصبة بالذهب الإبريز منقوش عليها عبارة "هذه مخلفات رسول الله"(٢٣٨). فعندما زارها سليم خان تمسح بها بوجهه وتبرك قائلاً: "الشفاعة يا

---

(٢٣٨) هذه مخلفات رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأمانات المقدسة أو الأمانات المباركة، تعبيرٌ يُطلق على بعض مخلفات الرسول والخلفاء الراشدين وبعض من الصحابة الكرام، وهى:
١- خرقة السعادة، وهى تخص النبى صلى الله عليه وسلم. ٢- السُنَّة المباركة للنبى صلى عليه الله وسلم. ٣- عدد نعلان للنبى صلى الله عليه وسلم. ٤- حجر يحمل أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم. ٥- سجادة الصلاة الخاصة بحضرته صلى الله عليه وسلم. ٦- سجادة الصحابى الجليل وأمير المؤمنين أبى بكر الصديق. ٧- قبضة سيف النبى صلى الله عليه وسلم. ٨- سهم يخص النبى. ٩- لواء الرسول أو السنجق الشريف. ١٠ - قازان وقدر كبير يرجع إلى سيدنا إبراهيم يعود إلى النبى نوح عليه السلام. ١١- عصوان شريفتان للنبى شعيب عليه السلام. ١٢- قميص حضرة سيدنا يوسف [عليه السلام]. ١٣- سيف سيدنا داود [عليه السلام]. ١٤- مفتاح مكة المكرمة. ١٥- مزراب من الكعبة الشريفة. ١٦- ضلفة من باب التوبة فى الكعبة المشرفة. ١٧- الغطاء أو الغلاف الفضى لمقام سيدنا إبراهيم [عليه السلام] فى الكعبة المشرفة. ١٨- قليل من ماء وضوء النبى صلى الله عليه وسلم. ١٩- سناجق الخلفاء الراشدين. ٢٠ - عمامات الخلفاء الراشدين. ٢١- مسابح الخلفاء الراشدين. ٢٢- سيوف الخلفاء الراشدين. ٢٣- ستة من مقابض سيوف العشرة المبشرين بالجنة. ٢٤- سيف الصحابى الجليل حضرة جعفر الطيار. ٢٥- سيف الصحابى الجليل حضرة خالد بن زيد. ٢٦- سيف الصحابى الجليل معاذ بن جبل. ٢٧- سيف الصحابى الجليل حضرة شرحبيل بن حسنة. ٢٨- رايات حضرة الحسن والحسين رضى الله عنهما. ٢٩- تاج حضرة أويس القرنى. ٣٠- نسخة من المصحف الشريف بخط يد الصحابى الجليل الخليفة عثمان بن عفان [رضى الله عنه]. ٣١- نسخة أخرى بخط حضرة على كرم الله وجهه. ٣٢- نسخة شريفة من المصحف بخط الصحابى زين العابدين. وغير ذلك، والخرقة الشريفة محفوظة فى صندوق من الفضة، والأمانات الأخرى محفوظة فى علب من الفضة أيضاً، وهى ما زالت فى قسم خاص بها فى متحف سراى طوب قابى، وكان السلاطين العثمانيون يذهبون للزيارة والتبرك بها فى الخامس عشر من شهر رمضان كل عام. وكما هو معروف فإن الخرقة الشريفة هى البردة التى ألقى بها النبى صلى الله عليه وسلم على كعب بن زهير عندما مدح النبى، وقد قام الشريف أبو نمى بن الشريف بركات بتسليم بعضها إلى السلطان سليم الأول فى القاهرة عقب ضمه مصر إلى الأراضى العثمانية، كما وجد السلطان سليم البعض الأخر فى خزائن قنصوة الغورى، وقد قام السلطان سليم بعد عودته إلى إستانبول بإنشاء دائرة أى مبنى خاص بهذه الأمانات المقدسة بجوار جناحه

رسول الله* ثم طوى الصرة وختمها بنفسه. ثم تعمم السلطان بعمامة سيدنا يوسف [عليه السلام] تبركًا وصار يحفظها دائمًا فى علبة مجوهرة، كما أنه شاهد سكينًا لسيدنا يوسف [عليه السلام] وساعة له كان يعرف بها أوقات الصلوات أيام السجن وهى من صنع يده وكذا بساطًا، والكل كان داخل علبة خاصة فتحها السلطان بنفسه ثم أخذ العمامة اليوسفية وتعمم بها، حيث اشتهر بعدها لبس العمامة اليوسفية فى عهد خلافته ولذا سميت أيضًا بالعمامة السليمية. لأن أبا الفتح محمدًا وبايزيد الولى كانا يعتمان بالعمامة العرفية ولكن سليمًا اعتم بالسليمية.

هذا، وظهرت فى خزينة الإسكندرية عمامات قلاوونية نسبة إلى السلطان قلاوون. وجدت أيضًا سيوف الخلفاء الراشدين وكذا ملابس السلاطين السالفين وعددهم وأسلحتهم وآلاتهم الحربية، ومنها خمسون ألف بندقية مرصعة بالجواهر ومزدانة بآثار الصنعة الفاخرة، وعشرون ألف سيف مصرى فى غاية الإبداع، وعشرة آلاف من الزرود، وعشرون ألفًا من الأقواس، وعدد لا يحصى ولا يُعد من الخيول والزمبرك والنشاب والكنائن والتجافيف، وأربعون ألفًا من التروس الحلبية والدمشقية، وعشرة آلاف من الرماح الدمشقية وعدد لا يحصى من الدبابيس الدمشقية، وعشرون ألفًا من الزرود ومثلها من "القتلاوى" وثلاثون ألفًا من المغافر، وعشرة آلاف من الأطباق المرتبانية التى كانت صناعة يد الغورى نفسه، فقد تعلم هذه الصنعة من أحد رجال الله الأولياء فصار يعمل المرتبانى دائمًا ويرسله هدايا للكبار والأعاظم فيرسلون له ما يملؤه من الذهب الإبريز، ولذا احترف هذه الصنعة وجعلها مهنة له وديدنا لطمعه فى المال.

الخاص فى السراى السلطانى، وقد كان كل سلطان عند توليه العرش وتقليده سيف السلطنة يحرص كل الحرص على زيارة الأمانات المباركة فى احتفال رسمى يحضره الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وكل رجالات الدولة وأركانها. (انظر فى ذلك للمترجم "إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة").

وهكذا ظهرت فى خزائن الإسكندرية - مثل هذه النوادر - أشـياء كثيـرة نُقلت كلها إلى سفن الأسطول الذى سافر بها إلى إسلامبول. وقد بادر سليم خان بعد كل ذلك إلى زيارة أولياء الله الأحياء بالإسكندرية فاسـتجلب رضـاهم ودعـواتهم الصالحات، كما زار الأضرحة واستمد من روحانية أصـحابها المـوتى المعونـة والتأييد. ثم عاد إلى مصر بالفرقاطات والعقبات باحتفال كبيـر ولبـث بهـا مـدة أسبوع، فقام فى أم القياس بقطع الخليج باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فى مـصر التى لا تزال تذكره بإعجاب وتقدير؛ حتى ليقال إن سليم خان أراد أن يتخذ مـصر عاصمة لملكه الواسع ويقيم بها، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يوافقـوه علـى ذلك.

الفصل الخامس عشر

قوانين تنظيم مصر فى عهد السلطان سليم خان بن بايزيد خان

ما إن وصل السلطان سليم خان إلى القاهرة حتى بادر إلى أداء صلاة الجمعة مع أهل ديوانه بإذن من علماء مصر فى جامع عمرو بن العاص، فحضرها جمع غفير من المصلين، لأن كلا من الوليين أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى كانا حاضرين فى ذلك اليوم المشهود، وبإذن منهما وإشارتهما المطاعة تلا سيدنا أبو العلاء خطبة الجمعة ووصف السلطان عقبها بقوله: "سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين، السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان، أيد الله سلطنته إلى انقراض الدوران". كما أن العملة المسماة "شريفى" قد سُكت بإذن من الوليين الصالحين المشار إليهما منقوشًا عليها عبارة "صاحب النصر عز النصر فى البر والبحر، السلطان بن السلطان سليم شاه بن بايزيد خان عز نصره مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م".

هذا، وعقد سليم شاه ذات يوم ديوانه السامى الحافل بكل الأعيان والشيب والشبان، ثم نهض فيهم قائمًا فقبض على يد "خاير بك" وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، وقد وضع بيده الكريمة على رأسه العمامة المسماة بالمجوَّزة السليمية، وكان قد رصَّعها بأكاليل قلنسوته السلطانية التى كان يلبسها حينذاك، ثم خلع عليه فراء عظيمًا كما قلده خنجرًا ذا حزام ذهبى مرصَّع، ثم رفع يده إلى السماء ودعا له بالتوفيق، ثم قال: "يا خاير بك إنى قد جعلتك وزيرى ونائبى فى هذه البلاد مؤملاً فيك الإخلاص فى العمل والصدق فى القول، ولا أنتظر من وراء فتح مصر سوى التمكن من خدمة سيدنا الرسولﷺ والحرمين الشريفين فى كل وقت، فكل

ما تحصل لدى منها هو أنى حصلت على شرف لقب "خادم الحرمين الشريفين"، وإنى لذلك قد وقفت جميع حاصلات مصر على خدمة سيدنا النبى ﷺ، ألا فاشهدوا بذلك جميعًا. وأنت يا خاير باى! منذ اليوم ناظر على وقف الله هذا، نظارةً مطلقة فعليك بحسن الإدارة والخدمة". قال السلطان هذا وأنعم عليه باثنى عشر شاطرًا من ذى المغافر الذهبية المستغرقين فى المرصَّعات، وبثلاثمائة من الغلمان المخصوصين ذوى الأحزمة المرصعة، وباثنى عشر جوادًا من الخيول المطهمة ذات السروج المزركشة والمرصَّعة بالأحجار، وبفرقة موسيقية مؤلفة من اثنتى عشرة آلة، وسبعة من الكوسات الملكية، وبسرادق عظيم مزخرف مقام على ثلاثة أعمدة كبيرة وأربعين عمودًا صغيرًا، ثم عمد السلطان إلى رجال غرفته الخاصة فعيَّن منهم أمراء فى رتبة ذى الطوغين [باشا من الدرجة الثانية]، كما أنه نصَّب مائة من كبار عسكره وعماله رؤساء على الجراكسة؛ يتصرفون فى أمورهم ويقومون على شئونهم.

كان الديوان السلطانى ينعقد أربعة أيام من أيام الأسبوع، فقد كانت أعماله تعطل فى أيام الجمعة والسبت والأربعاء، فكان قاضى العسكر يعقد الديوان أربعة أيام، ويقدم كل يوم من تلك الأيام لأهل الديوان وخدمه والقادمين إليه من مسافات بعيدة ثلاثمائة صحن من الطعام، تقدر قيمتها بمبلغ كيسين مصريين من النقود فأمر بأن يخرج إلى الديوان الملكى ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأهل الديوان وخدمهم ولعباد الله القادمين من جهات بعيدة؛ كما أنه قرر لجاويشية الديوان خمسة خراف وإردبًّا من الأرز وكيلتين من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأقتين من شمع العسل كل يوم، وخصص مرتبات لأئمة المساجد ومؤذنيها.

وبأقاليم مصر ثمانون كاشفًا، لكل منهم ديوان خاص يمد فيه السماط صباحًا ومساء على نفقة السلطان، وكذا البكوات الجراكسة الذين يبلغ عددهم مائة بك، ومائة أغا من أغوات البلوكات، لكل منهم سماط يؤمه الخاص والعام ممن لهم حاجة إلى الطعام كلما نقرت الطبول والكوسات إيذانًا بذلك.

فهكذا كانت نعم السلطان مبذولة للجميع على الدوام، وليس لسلطان آخر نعم مبذولة دائمًا على هذه الوتيرة. ثم إن هناك مبلغا قدره ستة ملايين قرش وسبعة وأربعون آقچة من الخاصة السلطانية غير داخلة في القانون.

هذا، وكان ولاة بغداد والحبشة واليمن والعراق يلبسون في الغزوات أكاليل على عمائمهم السليمية. وإذا وجد معهم خان التتر فيقف والي مصر بعده، ويليه والي العراق ثم والي المجر. فهؤلاء الوزراء الخمسة يقومون مقام السلطان ويتصدرون سائر الوزراء لكونهم لابسين سليمية ذات طرة.

كان القانون السليمي يقضي بأن يسارع وزير مصر بجيشه الخاص إذا عين قائدا لليمن أو الحبش أو العراق أو غيرها من الأقاليم والولايات لمكانته الملكية الخاصة، ولكن الحال تغيرت الآن، فقد سيطر مماليك مصر وجنودها على جميع الأمور ووضعوا أيديهم في هذا العصر على جميع المقاطعات التي في القانون السليمي، ولم يبق شيء لأتباع الباشا، ويعيش وزير مصر مع رجاله الألف في القلعة الداخلية، ويكتفي ضباطه وأغواته برواتبهم ومخصصاتهم الخاصة، ولهم أربعة وعشرون إقطاعًا (زعامت) يتكففون بإيراداتها التي لا تكاد تسد حاجاتهم.

وكان القانون السليمي يحتم صرف معاشات ورواتب سنوية إلى ثلاثمائة أغا من أغوات والي مصر الخاصة، وغلمانه وخدمه وحراسه الليليين ولجميع خدم أغوات الباشا الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف، وتلك الرواتب والمخصصات تتألف من أغطية الرأس والقمصان والسراويل وأقمشة أخرى خاصة وأحذية وأخفاف. وكذا يصرف كل سنة من وقف شجرة الدر، كانت قد خصصت رواتب سنوية لأغوات السلاطين السابقين جميعًا، فلذا عَمَدَ السلطان سليم إلى فحص وقف شجرة الدر، فوجد أنها كانت تقوم بكسوة الكعبة بالحرير الأسود كل سنة. وقال السلطان: "قامت سيدة بمثل هذا العمل، فمثلي أنا وقد نلت شرف السيطرة على المدينة المنورة ومكة المكرمة أولى بأن يكسو الحرمين بالديباج والشيب والمقصب والستائر المرصَّعة بالدر والجوهر". ولكن علماء مصر - ولا سيما أصحاب المذاهب الأربعة

بها وعظم خليفة أبى السعود الجارحى - خالفوا السلطان فى عزمه فقالوا: "إن العمل المبرور الذى قامت به شجرة الدرلم يسبقها إليه أحد من السلاطين والملوك السابقين فهو خاص بها دون غيرها حيث وفقها الله له بمقتضى كتاب وقفيتها المحفوظ حتى الآن، ولا يخفى أن شرط الواقف كنص الشارع"، فأبدى السلطان سروره لهذا الرأى واغتباطه بهذا العمل المبرور قائلاً: "هنيئا لهذه السيدة الموفقة التى يسر الله لها عملاً مبرورًا كهذا لا يتيسر لأحد من السلاطين السابقين واللاحقين"، ثم تساءل عما يمكنه أن يعمل لمكة والمدينة من الخيرات غير الكسوة، فوفقه الله للقيام بما يأتى:

صنع ستار من الأطلس الأخضر المحلى بالذهب لباب الكعبة الشريفة، وتجديد بناء باب مقام إبراهيم، وتلبيس صندوق قبره بالذهب، وتزيين ستار منبر الحرم بالذهب، وتجديد الحرم وترميمه، وتجديد رصاص قبة المنزل السعيد الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك المنزل مشهور ببيت آمنة. وقد خلد السطان فى مكة أكثر من ألف أثر وبناء، كما أنه أول من أمر بالدعوة فى خطب المنبر لآل عثمان بمكة المكرمة، وكذا خلف من الآثار فى المدينة المنورة شيئًا كثيرًا من الأحجار الكريمة النادرة تسر العين من النظر إليها، علاوة على أوقاف خيرية عظيمة وآثار كثيرة أنشأها بها؛ كما أنه بإشارة من ابن كمال باشا قاضى مصر - أصدر أمره بتحرير جميع قرى مصر وبلادها البالغ عددها ألف قرية، وإحصاء ما فيها من الطيور فى السماء والدواب فى الأرض والسابحات فى البحار والأنهار والمياه من الحيوانات والمنافع، ثم وزعها بعد ذلك بطريقة الإقطاع على الملتزمين والأمراء والجنود؛ فجعل غلاتها كلها وقفًا مرصودًا لخدمة الحرمين الشريفين.

هكذا حررت أراضى إيالة مصر وقسمت إلى الأقسام التالية:

القسم الأول: قرية وقفت على خيرات وعمارات السلاطين السابقين وإحساناتهم المتعددة. فأطيان هذا القسم باقية كما هى وقت التحرير فى أيدى

نظارها، على أن يقوموا بتحصيل غلاتها حسب شروط الواقف، فيصرفها في وجوهها المعينة من رواتب الأئمة والخطباء والمشايخ المعروفين والمسّاحين، وما بقي منها بعد ذلك كله يضبط لجانب الميرى.

والقسم الثاني: قرى الكشوفية؛ أعنى القرى المخصصة المفروزة خصيصًا للباشا من قبل السلطان؛ حيث يقيم فى كل واحدة من تلك القرى كاشف معه مائة جندى يسهرون على جباية أموال الكشفية للباشا. ومقدار ذلك مائتا كيس فى السنة، بيد أنه إذا تعطلت في زماننا هذا قرية ما أعنى أن صاحبها وملتزمها عجز عن دفع المال الذى عليها وتنازل لأجل ذلك عنها، فإن الباشا الوالى يأخذها منه، وتكون البلدة من قرى الكشوفية فينقل الباشا إليها الرعايا ويزرعها، وهكذا يحصل على مالها المقطوع. ويستمر الحال على هذا المنوال؛ إلى أن يظهر طالب لها فينتقل تكليفها والتصرف فيها إلى اسم هذا الطالب، لأنه هو الذى قام بإحيائها وتعميرها.

والقسم الثالث: يُقال له الأطيان الأميرية، وهو القرى والأراضي التي ترصد غلاتها لأموال السلطان فى الإيالة المصرية، ويبلغ مقدار أراضيها سبع عشرة "كاشفية"، وتحت إمرة كل كاشف من قبل الميرى مائة جندى من البلوكات السبعة، كما أن الكاشف يتخذ بضع مئات من الجنود السكبان(٢٣٩) يستعين بهم كلهم على جباية أموال السلطان فى ولايته، فيورد هذه الأموال أقساطًا، كل قسط يُسمى الثلث الأول والصيفى والشتوى، ويوردها إلى خزائن السلطان ومواجب (رواتب) المماليك.

ولأولئك الجنود من أفراد البلوكات السبعة الذين يسيرون فى ركاب الكشاف بلدة عوايد من الأموال، يتراوح مقدارها لكل واحد منهم بين خمسمائة وستمائة

---

(٢٣٩) الجنود السُكبان: فرقة من فرق الإنكشارية، كانوا فى بداية نشأتهم فى عهد محمد الفاتح مكلفين برعاية كلاب الصيد وتربيبهم وتدريبهم، ثم انخرطوا فى صفوف الإنكشارية وأصبحوا من أعمدة المشاة فى الجيش العثمانى، وكانت أورطتهم موزعة إلى ٣٥ بلوكًا. وعلى رأس كل بلوك ضباط، ورئيسهم يسمى "سكبان باشى". انظر محمد باقالين.

وألف قرش، ويحدث أن رؤساء الجنود لا يكتفون أحيانًا بما يعطى لهم وقدره خمسة أكياس مصرية، بل يقدمون على إطلاق بعض المجرمين من قيود الكاشف وأغلاله نظير رشوة يأخذونها على تلك الجريمة.

والقسم الرابع: هو القرى التى إذا مات ملتزم أموالها تضبط للميرى، ويعلن الباشا بيعها بواسطة الدلال فى المزاد السلطانى، فتباع القرية بأربعين أو خمسين أو مائة كيس بجميع من فيها من الرعايا والمخلفات، ويقبض الباشا ثمنها حسب القانون السليمى. هذا، والملتزم الذى يشترى البلدة المبينة فى التحرير عليه أن يورد مالها لحساب رواتب مكة والمدينة السنوية، وما يتبقى من ذلك فهو له مهما بلغ مقداره سواء أكان مقداره كيسًا أم مائة كيس، كما أن له أن يعمر القرية ويتصرف فيها مدى الحياة، فإذا مات عنها لا تنتقل القرية إلى أولاده؛ بل ترجع إلى الميرى مرة أخرى.

والقسم الخامس: هو ما كان فى نظارة أمين خراج "الجوالى" المفروضة على الذميين بمقتضى أحكام الشريعة الغراء من اليهود والقبط والأرمن والإفرنج... فأموال هذا القسم تسلم إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى لترسل من تلك الأموال الصرة إلى مكة والمدينة مع أمير الحج كل سنة.

والقسم السادس: مخصص للأغوات الذين اعتقوا فى إسلامبول وفكت رقابهم فى الآستانة العلية. وهذا القسم يتألف من القرى العامرة بمصر والمشمولة بنظارة أغا دار السعادة الشريفة، على أنه إذا مات منهم أحد تعود تركته واستحقاقه إلى الباشا، هذا، وفى عهد إبراهيم باشا قد ورد خط شريف بخصوص ضبط أموال المتوفين من الأغوات السود، ومصادرة مخلفاتهم لجانب الميرى وتعيين أحدهم "من الأغوات" أمينًا لبيت المال، وجمع مخلفاتهم قلت أو كثرت وحفظها فى مكان، وتعيين الباشا الوالى أيضًا ملاحظًا من قبله لختمها بالشمع الأحمر ثم عرض الموضوع على الأعتاب السلطانية بإستانبول، ووفود أحد الحجاب منها حاملاً الأمر

بالتصرف في تلك المخلفات والقرى بالإحسان بها إلى عبيده أو بيعها، وقيام الأغوات السود بأداء أموال القرى كما ذكرنا سابقًا حسب ذلك الأمر والتصرف بالباقي كيفما يشاءون.

والقسم السابع: هو القائم بإدارة أموال واستحقاق جميع جنود الإنكشارية والطوائف العسكرية من العزبان والمتفرقة والمتطوعين وحملة البنادق وأقلام السپاهية والأيتام والجوالي. ويضبط الباشا الوالي أموال هذه الجهات كلها بواسطة قلم الكشيدة[٢٤٠] [قلم التوقيعات]. ولكن مُنذ سنة ١٠٧٠هـ = ١٦٥٩م قد تغلب الإنكشارية والعزبان على خزينة هذه الأموال وإداراتها؛ بحجة أن الفلاحين إخوانهم صاروا هم المسيطرين عليها فإذا كلفوا بالسفر إلى ساحة القتال والحرب يسطون على بيت المال لسد نفقات فرقتهم، وهكذا ينفقون على أنفسهم من تلك الأموال. وإذا أسلم مسيحي وذهب إليهم فيكسونه حالاً؛ كما أنهم إذا التجأ إليهم غريب يكسونه ويمنونه ويعطونه فرسًا. وإذا أسر أحد من رفقائهم هؤلاء من قبل الكفار بادروا إلى فك أسره وتخليصه من أيديهم، ولو كان ذلك بمبلغ عشرة آلاف قرش.

ومُنذ السنة المذكورة آنفًا أصبح الباشا لا يستطيع التعرض لبيت مالهم العظيم، وإن كانت له سلطة كاملة على بيوت مال أخرى خاصة أو عامة، فجاويشية البلوكات السبعة وقاضي العسكر يكلّفون من قبلهم نواب القسّامين بتحرير ذلك وضبطه ثم تسليمه إلى خزينة الباشا بإذن من أغا الباشا؛ وما ذلك إلا لأنه كله مما التزمه الباشا وتعهد بصرف ماله المحصل في وجوهه، فإن كان للمتوفي وارث أثبت وراثته فإنه بموجب سجلات جاويشية البلوكات السبعة والقسامين يطلب جزءًا ضئيلاً من التركة؛ أي بنسبة أذن الجمل إلى جسمه في القدر والحجم.

---

(٢٤٠) قلم الكشيدة: قلم التوقيعات؛ هو القلم أو الدائرة أو الإدارة التي كانت تهتم بتسجيل توقيعات الصدور العظام ومضاهاتها في الإدارة العثمانية.

والقسم الثامن: هو إدارة الصرة[٢٤١] التي تجبي أموالها من القرى المخصصة لمصالح مكة والمدينة، ويبلغ مقدارها الثابت ألفا وخمسة وستين جنيهًا ذهبيًا من مال مصر العام، واثنين وستين ألفا من الجنيهات الذهب مما حُصِّل من أموال تلك القرى، فتسلمْ الصرة كل سنة بواسطة أغا الباشا ومعه سبعمائة من جنود بلوكات مصر السبعة إلى أمين الصرة في الشام الشريف، ومنها ترسل إلى المدينة المنورة. ولكن العادة جرت في العهد السليمي وعاداته إرسال ستة آلاف كيس من مصر وستمائة من الأوقاف، كما أن أمير حج مصر كان يصحب معه كل سنة صرة من الأموال لشرفاء مكة ومجاوريها ومشايخها جميعًا.

(٢٤١) الصرة: أمين الصرة = صرة أميني: اصطلاح إداري يُطلق على الموظف الذي تسند إليه عهدة ومهمة توصيل الصرة الهمايونية إلى الحرمين الشريفين كل سنة. وكان يُعين لهذه المهمة إحدى الشخصيات العلمية أو المدنية أو العسكرية التي تتصف بالتدين والاستقامة. وكان يبدأ رحلته وسط احتفالات آلاى الصرة. وبعد أن يقوم بتوزيع الصرة على أربابها وأداء فريضة الحج كان يعود إلى إستانبول.
ومع أن هذه المهمة تعتبر مهمة شرفية إلا أن أمين الصرة كان مضطرًا في كثير من الأحيان للصرف من ممتلكاته الخاصة مبالغ كبيرة وذلك لقلة المخصصات. ومن هنا كانت تسند هذه المهمة إلى بعض الأغنياء في كثير من الأحيان، وكان كثير من العثمانيين في عصور الازدهار لا يتوانون أو يتهيبون من صرف المبالغ الضخمة في هذا الصدد. ولكن في أواخر القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، وبسبب الأوضاع المالية المتردية للدولة العثمانية، بدأ الكثيرون يرفضون القيام بهذه المهمة متعللين بكثير من الأسباب الواهية لإعفائهم من هذه المهمة. ولكن في عهد السلطان سليم الثالث وبخاصة في سنة ١٢٠٧هـ = ١٧٩٢ - ١٧٩٣م تمت علاوة مبلغ ١٥٠ ألف قرش ذهبي على مخصصات هذه الوظيفة مما أعاد إليها رونقها وأصبحت مطلبًا لكثير من رجالات الدولة.
كانت الصرة التي يرسلها بايزيد الثاني كل سنة لتوزع على أهالي الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربي الشيخ شهاب الدين ابن أحمد بن علي المتوفى (٩٢٢هـ =١٥١٦م) فقرض قصيدة في مدح السلطان أسماها "الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم" وقدمها إلى السلطان عندما قدم الشاعر إلى إستانبول، فاستحسنها السلطان، وأنعم على الشاعر بألف دينار، وكان يرسل إليه سنويًا مائة دينار. (انظر: مرأت مكة، مجلد ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١. ومعجم المصطلحات التأريخية، جـ٣ ص ٢٨٣).

والقسم التاسع: هو ما رصده السلطان سليم أيضًا من إيراد وغلال بعض القرى والمدن في إيالة مصر، لصالح مكة والمدينة وذلك كبلاد "مطوبس" و"ديروت شريف" ومدينة "صنبو" وغيرها من القرى والبلاد التي يبلغ عددها سبعمائة؛ ما بين قرية وبلدة وقصبة. وكانت هذه الحاصلات والإيرادات ترسل بالسفن المحمدية إلى مكة والمدينة. وهكذا صارت المدينتان المقدستان عامرتين بالخيرات والنعم. وسنذكر إن شاء الله غيرها من المقررات والميرات التي وضعها سليم خان في محلها.

الفصل السادس عشر

بيان النيابات وأمراء اللواء فى إيالة مصر والمخصصات السنوية لبكوات السناجق، وجميع الكشوفيات حسب القانون السليمى

السلطة الأولى:

تأتى سلطة أمير الحج المصرى فى مقدمة هؤلاء جميعًا، ويوصف هذا الأمير فى مصر بأنه سلطان البرين، لأنه من بكوات مصر الذين يحمل بعضهم طوغين من شعار الدولة. وتقضى الأصول أن يكون مركزه فى السويس، ويطلق العربان فى طريق مكة على أمير الحج المصرى لقب "سلطان البر"؛ لعظمة حكومته وسعة سلطته، فهو يشرف على أربعين ألف حاج كل عام.

السلطة الثانية:

ويليه فى الرتبة أمير السويس الذى يقوم كل عام بنقل آلاف من الحجاج على مائتى سفينة معدة لنقل الغلال فى بحر السويس إلى جدة، فى حراسة سفينتين حربيتين من نوع قادرغه، ولهذا الأمير راتب سنوى من ديوان مصر قدره اثنا عشر كيسًا، ويأخذ من مخازن (عنابر) يوسف إردبًا من الغلال كل عام فيوزعها على الجنود والبحّارة والربابنة وسائر طوائف الملاحين من المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين قيدت أرجلهم، ويقوم بالرحلات والأسفار ويوقد فى سفنه الفوانيس، ويرفع فوقها الأعلام الذهبية، ويطلق عليه "سلطان البحر".

السلطة الثالثة:

سلطة بندر جدة وهى باشوية مستقلة استقلالاً كبيرًا، يحمل صاحبها أحيانًا طوغين من شعار الدولة الخاصة بالباشوات، لكى يكون له السلطان على أمراء

مكة وشرفائها؛ فلذا يُطلق العرب – من بدو وحضر – على هذا الباشا عنوان "وكيل السلطان". فحكومته عظيمة كبيرة القدر، لأن ملوك الهند والسند واليمن والحبشة وسواكن جميعًا يرجعون إليه، ويعتبرونه وكيل السلطان الأعظم، ولذلك يرسل إليه سلطان الهند هدايا قيمة وكتبًا كريمة كل عام.

السلطة الرابعة:

في إيالة مصر هي إدارة أشراف مكة، ويُقال لشاغلها "سلطان الشرفاء" فيذكر اسمه في الخطب بعد أسماء آل عثمان، وحكمه نافذ في البلاد حتى في بغداد والبصرة والإحساء واليمن. وإذا أراد أن يحشد جيشًا فإن في إمكانه أن يجند عسكرًا يتراوح بين أربعين وخمسين ألفًا من الفرسان.

السلطة الخامسة:

إدارة اليمن التي كانت خاضعة لحكومة مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٣٣هـ = ١٦٢٣م، حينما استولى الأئمة الزيديون عليها، ولا يزال الحكم فيها لهم.

السلطة السادسة:

إدارة إقليم الحبشة حيث يحكمها الآن وزير من آل عثمان وهي سلطنة واسعة الأرجاء .

السلطة السابعة:

إدارة بلاد الفونج. ولأن ملكهم من البكريين لا يكادون يخرجون عن طاعة مصر وأوامر ولاتها الحاكمين.

السلطة الثامنة:

إدارة طرابلس.

والتاسعة إدارة تونس.

والعاشرة إيالة الجزائر.

وهذه الإيالات الثلاث تابعة لإدارة مصر، ولا يزال لكل منها نقدها وسكتها الخاصة.

ويقوم من مصر كل عام أغا من أغوات والى مصر حاملاً كتب التقرب والاستمالة إلى كل من أولئك الرؤساء فى النيابات العشر المذكورة.

وكان بمصر نفسها أربعون من أمراء اللواء وحاملى رتبة "ميرميران" ذوى الطبل والعلم مع طوغ أو طوغين. وأما فى زماننا هذا ففيها اثنان وعشرون من البكوات الذين يرفعون العلم ويضربون الطبل فى اثنين وعشرين موضعًا يُقام فيه السماط المحمدى كل ليلة، وكل منهم مكلَّف بعمل خاص، فمنهم من يقوم بتوصيل الخزينة إلى الأستانة مع خمسمائة نفر من رجاله، وآخر يكلَّف ومعه رجاله الخمسمائة بنقل الأشياء الصادرة إلى خزائن "كيلار" آل عثمان العامرة، ويتناول ٣٣ كيسًا من المال كل عام.

وأما تلك الأشياء فهى (٥٠٠٠٠٠) أردب من الأرز يُحصَّل من بنادر دمياط وفارسكور وبضاى برمبال ورشيد و(٢٠٠٠) قفص من السكر و(٣٠٠) كيس (فردة) من البن و(٢٠٠٠٠٠) إردب من العدس. وكل هذا يُنْزِلُونَه فى بندر رشيد، ومنه يَحْمِلونَه فى السفن المسماة "جريم" ويسيرون بها إلى الإسكندرية حيث يُخَزَّن إلى أن تهب ريح موافقة للسفر إلى إستانبول.

وكان "بك"، أى أمير دفتردارية البلد، يتصدرهم جميعًا لأنهم جميعًا فى حاجة إليه.

وكان هناك أربعون من البكوات أى القواد الجراكسة حسب القانون السليمى، ولم يبق منهم الآن سوى عشرين، يرأس كل واحد منهم مائة نفر، وإذا عُيِّن بك من هذا الجانب سردارًا أى قائدًا لختم آل عثمان فإن أحد بكوات مصر يؤمر بالسفر مع الخاتم.

وأمير يقوم بحماية مدينة بولاق مع خمسمائة من رجاله الأشداء، وبك يحرس مصر القديمة بفرسانه الخمسمائة، وبك يحرس الإمام الشافعى بفرسانه الخمسمائة، وبك يخفر "سبيل علام" ومعه خمسمائة فارس، وسبيل علام هذا يرحل منه الرائحون والغادون والحجاج وسائر الزوار، يراقب البك منه القوافل البرية والبحرية، وبك آخر مأمور بالسفر مع الحجاج إلى السويس وبخفارة قافلتهم ومعه خمسمائة رجل. أما الآن فإن هناك أغا يرافق قافلة الحجاج والتجار إلى السويس ذهابًا وإيابًا مع خمسمائة من رجاله، وبك آخر يظل دائمًا مستعدًا للسفر إلى أية جهة يظهر فيها الثوار والأشقياء، ومعه خمسمائة رجل، بأمر وزير مصر وحاكمها يُبادر إلى جهة الثوار والاختلال بالتجريدة اللازمة.

وثمة بكوات مستعدون للعمل بمن معهم من الرجال دائمًا حينما يطلب إليهم ذلك.

وهؤلاء البكوات يتقاضون نظير أعمالهم مبلغًا معينًا من المال؛ يتراوح بين عشرة واثنى عشر كيسًا فى العام، وإردبًا من الغلال باسم "العليق" للخيل من المخزن أى العنبر.

فى بيان رتبة بكلر بك[٢٤٢] فى إيالة مصر

إن بك أى أمير دمياط يُعيَّن من قبل السلطان بطوغين ويتقاضى من ديوان مصر ستة أكياس فى العام، وله إيراد مثل ذلك من دمياط، كما أن له إيرادًا من المدينة نفسها ترد من غير وجوهها الظاهرة يبلغ ستة أكياس أيضًا. ففى نظير هذه الأكياس الثمانية عشرة من الإيراد يخرج "بكلر بك" للسفر فى البحار الستة بسفينتيه

(٢٤٢) بكلر بك: بالتركية مثل ميرميران المركبة من العربية والفارسية. ومعناها بك البكوات أو أمير الأمراء أى قائد عام القوات الموجودة فى الإيالة، وله مخصصاته الخاصة به.

الحربيتين من نوع "قادرغه"، تحت رئاسة القبودان باشا ومعيته حتى يقبل الشتاء فيأوى هو بسفينته إلى ميناء "دمياط".

ومدينة "رشيد" أيضًا سنجق ورواتبها كرواتب دمياط، ويقوم حاكمها بالسفر في البحر الأبيض بسفينتيه من نوع "القادرغه". وكذا سنجق "الإسكندرية" الذى يتقاضى راتبًا سنويًا كراتب دمياط ورشيد من ديوان مصر، ويخرج في معية القبودان باشا وسنجق الإسكندرية عظيم وذو شأن، فلذا يكون أميره سردارًا - أى رئيسًا - في اجتماع سنجقى دمياط ورشيد، وتكون له الرئاسة على القادرغات الست ، ويرافق بها مع الأسطول السلطانى سفن التجار ذهابًا وإيابًا.

والسنجق الرابع بمصر هو الشرقية، والخامس الغربية، والسادس المنوفية، والسابع البحيرة. وكانت "أوجله" وهى منجم التبر من الذهب بأرض المغرب كاشفية عظيمة منذ فتح سليم خان مصر. وفى أيام إبراهيم خان حين كان مقصود باشا والى مصر تغلبت طرابلس على "أوجله"، ولا تزال تحتلها حتى اليوم.

والسنجق الثامن المنصورة، والتاسع القليوبية، والعاشر جيزة يوسف، والحادى عشر بنى سويف، والثانى عشر فيوم يوسف، والثالث عشر المنيا، والرابع عشر منفلوط، والخامس عشر هو السنجق الكبير والولاية العظيمة جرجا، والسادس عشر الواحات العظيمة، والسابع عشر أبرام.

وفى كل عام يُرسَل إلى هذه السناجق رجال من قبل كل بك ومن قبل البلوكات السبعة، للقيام بأمور الضبط والربط من شهر توت إلى شهر توت بالحساب القبطى وبجباية الأموال السلطانية وتوريدها إلى مدير المال (دفتردار)؛ حيث تصرف منها رواتب الجند ومخصصاتهم، وترسل منها الخزينة المعتاد إرسالها إلى السلطان.

ويتبع كلاً من هذه السناجق بضع مئات من القرى والقصبات العامرة، وأكبر أولئك البكوات والحكام شأنًا هو حاكم جرجا؛ الذى يمتد حكمه إلى بلاد الفُنج

والبربر والسودان وأوجله وبلاد المغرب بواسطة خمسة آلاف من جنوده؛ ويحمل بك هذه الولاية أحيانًا طوغين من شعار الباشوية فى الدولة؛ فهى ولاية عظيمة واسعة ينتج منها مائتا ألف إردب من الغلال فى العام، يخزن فى مصر القديمة، وتصرف منها الجرايات لجميع جنود مصر ويُجْبى منها من المال السلطانى ما مقداره مائتا ألف كيس، كما أنها تورد لثمانين حاكمًا ما يلزمهم من الغالية [قالية]، وتعطى أيضًا مائة كيس من المخصصات والرواتب لمن ينخرطون من سلك جنود جرجا ويكون ذلك محسوبًا عليها.

ثم إن ولاة هذه الولاية جعلوا ولاية الصعيد تدر أربعمائة ألف إردب من الغلال فى العام، يبقى له مبلغ من المال صافٍ قدره مائتا كيس مصرى بعد كل المصروفات، فهى ولاية عظيمة يُقال لها الصعيد الأعلى، وكأن مصر عبارة عن ذلك الصعيد الذى ليس له نظير من حيث الخصوبة ووفرة الخيرات والبركات. وسنذكر ذلك فى محله إن شاء الله.

ولباشا جرجا ديوان كديوان والى مصر؛ يعقد فيه مجلسه العالى حيث يكثر العمل وتزداد الحركة حتى يعجز القلم عن وصفها. وتنقسم أراضى حاكم جرجا إلى أربع وعشرين كاشفية، يخلع حاكم جرجا على رئيس كل منها خلعة فاخرة بدون تدخل والى مصر فى ذلك.

وهذه أسماء تلك الكاشفيات خارج القانون: كاشف منفلوط وكاشف المنيا وكاشف شرق الفيه، وكاشف شرق أخميم، وكاشف أبوتيج وكاشف طحطا وكاشف الواحات وكاشف المنية وكاشف بلابش وكاشف فوه العليا وكاشف قنا وكاشف قوص وكاشف أقصرين فى غرب النيل. وكاشف عسيرات وجرجا وكاشف بندر وتمه فى الغرب وكذا كاشف سيوط فى الغرب. وأما كاشف "ريان بن عايد" وهو شيخ العرب وكاشف شرق سليم فهما فى الشرق. وكشافو شرق المريح وبهجور وفرشوط وقصاص وإسنا فى الغرب. وسنهوط فى غرب النيل. وكاشف قصير

بهانس فى الغرب. وبرديس متصل بأعالى جرجا. وكاشف شرق تمـــام والوانيـــة قائمقاميتان فى غرب النيل. وكذا كاشف جزيرة فى الغرب. وكاشفية أبرم.

وكانت إيالة الصعيد تتألف من أربع وعشرين كاشفية حسب القانون تكــون لكاشفيها الكوسات، ثم ألحقت بها ستة من الكاشفيات ذات الكوسات، وهناك بعــض المشايخ من العرب ليس لهم كوسات، فصار عدد الكاشفين أربعة وأربعين كاشــفًا، يقومون جميعًا بخدمة جند مصر وأهاليها بتقديم الغلال اللازم لهم.

الفصل السابع عشر

بيان قوانين ديوان مصر وعاداته

فى عهد السلطان سليم خان فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر! وما أدراك ما ديوان مصر، إنه ديوان عظيم فسيح الأرجاء؛ إذ هو ديوان السلطان الغورى الذى كان ديوانًا عظيمًا يتسع لخمسة آلاف شخص، وعلى جانبيه قاعات يجلس فيها رؤساء سبعين قلمًا ومحاسبوها مع وكلائهم وهم يمسكون الدفاتر. وفى وسط الديوان المفروش بالبساط ينعقد المجلس خمس مرات فى الأسبوع لسماع شكاوى وطلبات أرباب الحاجات؛ فيطِّلع الباشا الوالى عليها وعن يمينه الباشا الدفتردار وغيره من البكوات بعمائمهم المسترسلة، وعن يساره يجلس بالترتيب أغوات السپاهية والمتطوعون وحملة البنادق والإنكشارية والعزبان. ثم يتناولون الطعام فى ثلاثة آلاف صحن وطبق حيث يخدمهم كتخدا الجاويشية ورئيس المدرعين ورئيس المعمارية ورئيس الشرطة وجاويشية الإنكشارية والعزبان بملابسهم التشريفية دون أن يجلسوا إلى المائدة؛ فيتناول جميع أرباب الديوان الطعام بكل أدب وهدوء حسب الأصول ثم تُرفع الصحون والأطباق كلها، ويأتى الخدم بالطشوت والأباريق الغورية فتُغسل الأيدى وتُنشف ويدعو داعى الديوان الدعاء المعتاد، وحينما يذكر اسم الرسول الكريم ﷺ يقوم الكل إجلالا له مرتين، وحين يذكر آل عثمان يقومون مرة واحدة. وعندما ينتهى الدعاء وينفض الناس ويبقى أرباب الحاجات يتقدم كتخدا الجاويشية إلى الأمام ينادى قائلاً: هل هناك من يشكو؟ فإذا كان هناك شاكون يفصل فى أمورهم وتفض خصوماتهم بوسيلة من الوسائل. ويذهب الباشا بعد ذلك إلى غرفة العرش فيخلون الميدان لكل من كتخدا الباشا [مدير مكتبة] والباشا الدفتردار ورئيس المتفرقة

وكتخدا الجاويشية، فإذا كانت هناك قرى خالية من ملتزميها وقد انتقلت إلى جانب الميرى، يعلن الدلال المختص بالبيع لمن يزيد، حيث تباع القرية لمن رسا عليه المزاد. ثم يشرع كل من الدفتردار والروزنامجى[٢٤٣] فى تحصيل بقايا الميرى، فيرسلان إلى الملتزمين الذين لم يوردوا ما عليهم من الأموال للخزينة، فيحضرون إلى هذا الديوان الذى فى وسطه حبال غليظة مشدودة بحلقات وبكرات بالسقف. وإذا حضر الملتزم والمتأخر عن الدفع يلتف به عشرات الجلادين "اللهم عافنا"، ويوثقونه من ذراعيه بتلك الحبال الغليظة ثم يشدونها شدًا حتى يرتفع الرجل ويعلق فى الهواء وهو عريان، لا يستره شيء أمام هؤلاء الحاضرين من رجال الدولة وأعيانها ثم يضربونه ضربًا مبرحًا بكرباج "قونجى" متخذ من قضيب الفيل، فيصل صياح المضروب وصرخاته إلى عنان السماء ولا حياة لمن يُنادى ولا مغيث لمن يستغيث؛ حيث لا يجرأ أحد من الحاضرين أن يشفع له، لأن الشفعاء والوسطاء يتعرضون لمثل هذه المعاملة فيما إذا لم يأتوا هم بالمال المطلوب من الملتزم، بعد ثلاثة أشهر حيث يُقال لهم إن كنتم تكفلونه فعليكم أن تؤدوا المال إلينا فى المهلة المقررة؛ الأمر الذى يجعل الابن يتبرأ من أبيه والأب من ابنه. وأعيان مصر يعرفون هذا كل معرفة؛ فلذا لا يتقدم أحد منهم بالشفاعة والرجاء لأحد من المتأخرين فى الأداء، ثم إن الرجل المضروب على هذا المنوال إذا كان له مال مهما كان ضئيلاً يُبادر فيخرجه ويدفعه، ولو لم يبق له بعد ذلك إلاَّ الحصير وإلاَّ يُسْجَن فى مكان يُقال له "أرقخانه"، وهو سجن فظيع جدًا، حتى تعد جهنم وبئس المصير بجانبه "أعراف" فمن بات فيه ليلة يهون عليه الموت ويستعجله. وأخيرًا تُباع أملاك المدين وقراه حتى يتخلص من سوء السجن. والحكم هنا والكلمة للباشا الدفتردارية مصر حاملاً طوغين من شعار الباشوية.

---

(٢٤٣) الروزنامجى: هو التعبير الخاص بالموظفين الذين كانوا يمسكون الدفاتر الخاصة بقيد الواردات اليومية والمصروفات، وقد حمل هذا الموظف ذلك الاسم نسبة إلى دفتر الروزنامه تخاص بقيد تلك الأمور، وبعد التنظيمات تحول الاسم إلى كاتب اليومية أو كاتب الوقوعات. (ج٣ ص ٦٠ pakalin).

هذا، وإيراد إيالة مصر العام كل سنة يبلغ ٤٥٠٠ كيس مصرى. يساوى خمسًا وعشرين أوقية وأربع بارات تساوى درهما، فعلى هذا الحساب والتقدير يساوى الكيس المصرى الواحد ٨٣٣ قرشًا [و فى باب الخزينة ذكر بأنه ٨٤٦ قرشا] ويحصل الدفتردار كل سنة من الوارد والمصروف ما يساوى ستة وعشرين ألف كيس، وتحت أمره ثلاثة آلاف من الخدمة والعمال. وتختم اثنتا عشرة خزينة مصرية ناتجة عن الطريق السلطانى بخاتم ديوان هذا الباشا واثنتا عشرة خزينة مصرية تُحَصّل من جهات أخرى؛ فيكون جميع ما يتحصل من أرض مصر من الخزائن أربعًا وعشرين خزينة، ولكل واحدة منها معتمد "قبو كتخدا" وصراف بالقاهرة، وإذا ورد المال إلى الديوان قام رئيس الصرافين بعدّه وضبطه، وإن وجد فيه نقصًا أكمله المعتمد. ورئيس الصرافين الذى يعمل بالديوان تحت أمر الدفتردار يهودى، يعاونه ثلاثمائة من الصرافين اليهود، ويتوجه كل واحد منهم إلى ملتزم فى الأقاليم ليمسك حساباته. ومن المعلوم أن اليهود شياطين ومحتالون فى كل البلاد. ولكن يهود مصر فى غاية النزاهة والاستقامة، حتى أن أحد الجنود إذا قبض راتبه ووجد فيه عملة مقصوصة أو مغشوشة وطلب إلى صراف يُقابله فى الطريق استبدالها بعملة رائجة سليمة، استبدلها له بلا توقف.

وصف دار سك النقود المصرية

لا شك فى أن دار سك النقود تُمثل عرض الدولة وشرفها، فهذه الإدارة أيضًا خاضعة لأمر الدفتردار، ويبلغ عدد عُمالها وخدامها خمسمائة رجل من أتباع الدفتردار، غير أن أمين الضربخانة هو أغا الباشا الكبير نفسه [وكيله العسكرى]، والكلمة فى الضربخانة على كل حال لصاحب العيار الذى يخضع له أيضًا الدفتردار فى المسائل الفنية، إذ إن صاحب العيار هو المسئول عن عيار العملة وصحتها وسلامتها من الغش؛ فإذا وجدت سكة نقدية مغشوشة بادر أولياء الأمور إلى قطع يد صاحب العيار الذى ضربها، فلذا يخضع له جميع عمال الدار وخدمه.

وبدار سك العملة خمسون سمسارًا يهوديًا وخمسون فرانًا وخمسون صائغًا وعشرة من السحابين وعشرة من الوزانين وخمسون قطّاعًا (كيلـه دار) الـذين يقطعـون أسلاك الفضة ويجعلونها قطعًا، ثم عشرون صفاحًا وعـشرون طباعًـا وعـشرة دولابي وعشرة من الجلائين والوزانين وضاربي سكة، وعشرون من الملاحظـين متفرغين لذلك ولا يعملون شيئًا آخر. وكل واحد من هؤلاء الموظفين والعمـال إذا حضر من بيته يجرد من ثيابه ويلبس ثوبًا من ثياب الميري؛ وذلك لتفادي ضـرب السكة المغشوشة حيث يقوم الملاحظون بملاحظة ذلك دائمًا. وكل الأشياء والمـواد تتبادل بينهم بالوزن أخذًا وعطاءً، وبعد أن تضرب السكة لأول مرة يعيدونها إلـى النار ثانية للاختبار، فإذا خرجت من النار سوداء تُعد مغشوشة ويبادر البك الـذي في الضربخانة – وهو صاحب العيار – إلى قطع يدي ضارب السكة من غيـر أن يستأذن الباشا الوالي أو يراجعه في ذلك. ورئيس ضاربي الـسكة اليوميـة، التـي قدرها شريفي واحد، هو محبوس ومعتكف في غرفة دائمًا يقـوم بتـسليم النقـود المضروبة إلى صاحب العيار؛ حيث تختم وتوضع في الخزانة التي لهـا خمـسون حـارسًا، وهـذا أمر عظيم جدًا، ومن لم يشاهد ضربخانة مصر فكأنه لم ير شيئًا من ضربخانات البلاد الأخرى. فإن ضربخانة مصر يرد لها الذهب والتبر الخالص من جميع جهات جزيرة مصر واسعة الأرجاء، ويوضع ذلك في طواحين فيُـذاب ويُصفى من ترابه وشوائبه، ثم يُجْعَل أسلاكها ثم تقرض هذه الأسلاك ثـم تـصفح القطع وتبطط حتى تسلك وتضرب عملة، وبعد ذلك تصقل وتجلى جلاء تامًا حيـث تنقل من يد إلى أخرى ومن حال إلى أخرى سبعين مرة. وصنعة تلك النقود هـذه صنعة صعبة وعظيمة جدًا، ولكنها حبيبة إلى النفس ومسلية جذابة، وذلك عند أهلها ومن يفهم مزيتها، وأما الذين لا يفهمون مثل هذه الأشياء الدقيقة اللطيفة فإن ذلـك عندهم كالسم الزعاف الذي ينفثه الثعبان الهائل بل أشد.

هذا، وإن الذهب الكثير الذي يتجمع في ديوان مصر كالجبال، يصرف بعـد حين ويكون خيالاً لا أثر له، مثله كمثل الزاهد في الدنيا يعتبرها خيالاً في خيال.

وغرضنا من هذا التفصيل والإسهاب هو ذكر ما رأيناه وشاهدناه فعلاً. وإلاّ فليس لنا - والحمد لله - مطمع فى حطام الدنيا. ونحن فى مصر من هؤلاء المجاذيب العشاق الذين يغبطهم الأكابر والأصاغر على ما يتمتعون به من الأذواق فى وادى العشق.

أوصاف حكام مصر وعُمّالها

الحكم في ديوان مصر بعد الدفتردار يرجع ذلك إلى كتخدا الجاويشية. فالكتخدا هو "بك" حسب الأصول والقانون، وله مائتان من الأتباع ما عدا أصناف الجاويشية الآخرين. وجميع الجاويشية يلبسون مجوزاتهم (عمائم)، وهم يرافقون الكتخدا في الذهاب إلى ديوان مصر والإياب منه، وهو الذى يشرف على جباية بواقى المال السلطانى بأمر الدفتردار. ويأتى بعده فى النفوذ رئيس المتفرقة لأنه مسئول عن تحصيل مال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى، وله مائتا رجل من الأتباع. ويليه فى الحكم رئيس التراجمة حيث يقوم باستلام وجمع عرائض الشاكين وطلبات المتقاضين ويرفعها إلى الباشا، فيترجم كلام المدعى والمدعى عليه أثناء التحقيق والمحاكمة. وبحسب القانون والأصول المتبعة يرتقى هذا الموظف إلى منصب رئيس المتفرقة، وله خمسون تابعًا.

هذا، وإن باشجاويش الإنكشارية وباشجاويش العزبان يحضران فى جلسات الدواوين الخمسة؛ وينظران فى دعاوى زملائهم من الفرقتين المذكورتين، ويكون رقيهما إلى المناصب العالية بطريق ترقيتها، إما إلى قيادة قافلة الحج وإما إلى رئاسة القوة المحافظة على الخزينة، ثم تعيينهما فى منصب وكيل أغا الإنكشارية ثم أمير السنجق.

وفى ديوان مصر حاكم آخر يدعى "روزنامجى"؛ وهو الركن الأعظم لمصر فى ضبط شئونها المالية والاقتصادية؛ فكل طائر فى السماء ودابة فى الأرض وسابح فى البحر مقيد فى دفتر هذا الموظف المالى، وهو إن أراد أن يظهر الباشا

مفلسا عند عزله عن الولاية أمكنه، وإن أراد أن يستر عليه عمل ذلك بكل سهولة، ومقامه يوازى مقام الدفتردار. ثم يأتى الروزنامجى الصغير الذى تخضع له بعض الأقلام وإدارة المخازن اليوسفية.

ثم إن ولاة مصر يعينون من قبلهم روزنامجيًا صغيرا قادرًا علـــى الكتابـــة والتحرير ليكون مراقبا للروزنامجى الكبير. ولكن يُرجى أن يكون هـــذا الموظـــف رجلاً مستقيمًا وذا كفاءة إلى أقصى حد؛ لأنه مرآة الباشا وعنوان شرفه حين عزله عن الولاية. وهناك خمسون نفرًا يمسكون دفاتر الروزنامجى، وهم بذلك محيطون به من الجوانب الأربعة بحيث إن كل واحد منهم مختص بدفتر ولاية.

والموظف الذى يلى الروزنامجى الصغير فى المكانة هو مراجع الـــديوان، وهو الذى يقوم بقيد واردات وصادرات أنفار البلوكات السبعة ورواتبهم وترقياتهم، ويختارممن يثق بهم الباشا الوالى ولا يكون من المصريين، ويحصل أربعين كيـــسًا مصريًا من المال، وله خمسون نفرًا من الخلفاء، وأما إيراده فهو ما يتقاضاه مـــن الرسوم حين القيد والنقل من سجل إلى آخر فى كل مناسبة من المناســـبات، فـــإذا استقال واحد من عمله وأعطى عمله لآخر فإن المُراجع يأخذ منه مرتـــب شـــهر، ويحتفظ لنفسه بنصفه ويعطى لخلفائه يقتسمونه فيما بينهم هبة، ولهم هدايا صـــغيرة أخرى كثيرة. كان المراجعون وخلفاؤهم يسكنون فى مكان بعيد عن الديوان، وأمر حسين باشا بن جانبلاط حينما كان والى مصر بأن يجلس مراجع ديوانه مع خلفائه مع سائر الأفندية بديوانه بالقاهرة.

ويجلس أفندى ديوان الباشا الوالى فى ركن من أركان الديوان العـــام ولـــه اثنان وعشرون كيسًا من الكشوفية خلاف الهدايا والهبات. ويجلس فى ركن آخـــر كاتب المراسيم "بيورديجى"[٢٤٤]؛ وهو موظف مطلع على كثير من الأمور الخاصة بمصر ويقوم بوكالة أفندى ديوان القاهرة، ويكتب جميع المكاتبات والمراسيم حسب

---

(٢٤٤) بيورديجى: هو الأمر الذى يتفضل بإصداره السلطان أو الصدر الأعظم فى شأن ما مـــن شئون الدولة العثمانية، وسوف نتناوله بالتفصيل فى الأجزاء التالية.

النظام المصرى، ويرسلها إلى الأقاليم بعد أن يختمها أفندى ديـوان الباشـا بخـتم الوالى "پنچهء بيوردى"، وأما إيرادات هذا الكاتب المصرى فيأخذها أفندى الـديوان ولا يعطيه منها سوى كيسين مصريين فى العام.

وهناك ركن آخر يجلس فيه أمين الدفتر من قبل الباشا؛ كما أن هنـاك مـن الكتبة والموظفين أمثال كاتب خزينة الخروج وكاتب (المحلولات) الخارجية وأمين الأوراق الخارجية والمراجع والمحاسب وكاتب الأيتام وكاتـب الحوالـة وكاتـب الأرزاق وكاتب البقايا وكاتب الإنكشارية وكاتب العزبان، فهؤلاء كلهم يـذهبون – بعد فض جلسات الديوان – إلى دوائرهم ومصالحهم فى الديوان وهم فـى حُلَلِهِـم الرسمية ومعهم خلفاؤهم الذين لا يلبسون حللا رسمية.

وهذا بيان بالوظائف والأقلام:

قلم المشاة، وقلم المقابلة والمراجعة، وقلم الكشيدة، وقلم المتقاعـدين، وقلـم الجراكسة، وقلم السپاهية، وقلم الأيتام، وقلم الطواشية، وقلم الجوالى، وقلم الأمراء، وقلم الملتزمين، وقلم الدشيشة، وقلم الخزينة العامرة، وقلم صرة مكة والمدينة، وقلم السادة الكرام، وقلم أنبار سيدنا يوسف [عليه السلام] أعنى أكلـة الجرايـة، وقلـم المتفرقة، وقلم الجاويشية، وقلم المتطوعين، وقلم حملة البنادق، وقلم البحرية، وقلـم جماعة المشاة، وأنفار السويس الذين يبلغ عددهم مائة وخمسة وعـشرين رجـلاً، وأقلام المدفعية والمدرعين وحملة الحراب وصناع الخراطيش، كل أولئك قد نقـل إلى مستحفظى المشاة، وقلم الروزنامجى الكبير، وقلم الشرقية وقلم الغربيـة مـن أقلام المقاطعات، وقلم المقاطعة الخاص بالمدينة، وقلم المقاطعة الخـاص بـإيراد الغلال، وقلم الدشيشة الصغرى، والقلم المحمدى، وقلم المرادية، وقلم الخاصة، وقلم كاتب محولات الدائرة السنية.

بيان أقلام أمين البحرين المضحكة وعدد خزائن مصر

يتضح مما ذكرناه أن هناك سبعين قلمًا، مكتظة بالموظفين حسب القانون السليمى، ولكن لا يوجد فى هذا الديوان المصرى منصب دفتردار الإقطاعيات الخاصة بالجنود كما فى سائر الإيالات وأمين الدفتر والتحرير على جانب الميرى؛ وذلك لأن مصر كلها قيدت حين الفتح، فلذا لا تسمع فيها أسماء مناصب كأصحاب التيمار والزعامة (كلاهما إقطاع للجنود) وقائد الجيش "چرى باشى" وأمير آلاى، ولكن بها قلمًا غريبًا من أقلام الأفندية التى سبق ذكرها وهو قلم "أمين الخردة": فهو إدارة عجيبة، فلذا ذكرناها بعد كل الأقلام، وهذه الإدارة تجمع كل من بالقاهرة من اللاعبين بالأقداح والدوارق والكئوس والقائمين بالألعاب البهلوانية الدالة على القوة والرياضة، وكذا اللاعبين بالطيور والحبال والنيران والخيول والحمير والحيات والثعابين ورفع الأثقال، وترقيص القردة والنسانيس وخيال الظل و"القراكوز" ومصارعة الديكة وأمور السيمياء واللاعبين بالفئران والدببة، وكذا قراء الأساطير والأقاصيص والمهرجين والمضحكين ووسطائهم من اللاهين واللاعبين، وجميع من فى الجمارك من الباحثين والفاحصين والخردجية.

فكل ما يتحصل من هؤلاء من المال ولو كان خردة من الفضة خاضع لحكم كاتب أمين الخردة وأمره؛ إذ إن هذه الأشياء الصغيرة تحصل منها أموال كثيرة تورد إلى خزينة الميرى؛ حيث تحصل إيالة مصر جميعا فى السنة من الأموال ما يبلغ إحدى وثمانين خزينة مصرية، منها تسع خزائن سنويًا لعسكر مصر ومماليكها رواتب ومواجب. وأما الخزينة العاشرة فهى مخصصة لمكة والمدينة ترسل لشرفائهما، والحادية عشرة لباشا مصر، والثانية عشرة لأغواتها وضباطها، والثالثة عشرة لأمير حاج مصر، والرابعة عشرة هى التى تصرف لشئون الترميم والعمارة فى مكة والمدينة ولمصاريف الإنارة من الزيت وشمع الكافور والعود والعنبر وغيرها من النفقات، والخزينة الخامسة عشرة هى الصرة التى ترسل من مصر

إلى الشام ومنها إلى المدينة ثم مكة. والسادسة عشرة ثمن ونفقات ما يرسل كل سنة إلى المطبخ العامر السلطاني بالأستانة من الأرز أو السكر الممسك والبن وأنواع المعاجين، والخزينة السابعة عشرة لقضاة مصر والقسامين العسكريين.

هذا، ولما تحررت أموال مصر وضبطت لأول مرة كان في إيالة مصر سبعة وسبعون ألف وقف، في حين ليس بها الآن سوى اثنى عشر ألفًا من الأوقاف العامرة. وكل قاض من قضاة مصر حينما يتولى القضاء يقبض عن كل وقف جنيهًا ذهبًا، وهناك أوقاف تقبض عنها عشرات من الجنيهات ومائة جنيه أحيانًا. ويجبى من فدادين ورزق هذه الأوقاف وأعيانها مال يقدر بمبلغ خزينتين مصريتين؛ يصرف منه رواتب ووظائف للمرتزقة والمستحقين، والخزينة الثامنة عشرة هي التي يحصلها كشافو مصر، والتاسعة عشرة هي التي يحصلها أمناء مصر وملتزمو أراضيها وينفقونها على أنفسهم. والعشرون، هي التي يحصلها الرعايا الفلاحون لأنفسهم. الحادية والعشرون والثانية والعشرون هما الخزينتان اللتان يحصلهما التجار الواردون على مصر من الأقاليم السبعة. والخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون هي الخزائن الثلاث، وهي الغلات التي ترد كل سنة إلى المخازن اليوسفية فيمتلئ بها كل الامتلاء، حيث يوزع منها على الجنود جرايات ومخصصات.

وخلاصة القول، إنه بحسب أقوال وتصريحات جميع أرباب العمل بمصر يحصل للميرى كل سنة من الأموال من ديار مصر زهاء ثلاثين خزينة حسبما هو محرر، وكل خزينة مصرية تساوى ألفًا ومائتي كيس مصرى. وسنذكر كل خزينة في محلها إن شاء الله تعالى، وقد أشرنا إليها الآن إجمالاً لا على سبيل الحصر.

هكذا يا سيدى تُجبى هذه الخزائن عما يطير في السماء ويدب في الأرض ويسبح في البحر من الكائنات والبشر. وما ذلك إلاَّ من عرق جبين الفقراء وعصارات أهاتهم وتحسراتهم.

مدح مقياس النيل المبارك، وكثرة بنى آدم،

وأنواع الحيوان ووفرة الحمير بمصر

بما أن الله سبحانه وتعالى قد منح مصر ببركة النيل خيرات عظيمة فإن حاصلاتها وأموالها السلطانية وافرة ومتنوعة جدًّا. فإذا فاض النيل وعلا ثمانية عشر ذراعًا فإن المال السلطانى يستحق ويجبى. وإذا صار عشرين ذراعًا أثرى على كل من الباشا والأمناء والملتزمين والكشافين والرعايا حسب مراتبهم ويقدرون على تسديد ما عليهم من الأموال المطلوبة. وإذا لم يفض النيل ولم يبلغ ثمانية عشر ذراعا (معاذ الله) فإن أراضى الإيالة لا تُرْوَى ولا تُسقَى، ويعم القحط ويحصل العجز فى ذمم الأمناء والملتزمين جميعًا ويتعذر تحصيل مال السلطان، ولا تكمل الخزائن، فيضطر الباشا إلى إكمالها من قبله وصرف مواجب الجند كلها من جيبه، كما أن ثلاثمائة ألف من حملة البراءات السلطانية من الأئمة والخطباء والعلماء والصلحاء والمشايخ السادات[٢٤٤] وجميع المتولين ذوى الهبات والنظار، يطلبون جراياتهم ومرتباتهم البالغة خزينتين مصريتين، فإذا تأخرت هذه الرواتب ولم تصرف لأصحابها فسرعان ما يتذمرون ويثورون. ولكن النيل إذا فاض فيضانًا عظيمًا عم الخير وتتبدل الأحوال، فتصرف الرواتب والجرايا بكل سهولة، ويحمد للسلطان والباشا وسائر أهل الخير والهبات ويدعى لهم جميعا بطول البقاء.

---

(٢٩٣) **المشايخ السادات ونقباء الأشراف:** مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء سيدنا الحسن حفيد النبى صلى الله عليه وسلم وأحفاده، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات. وكان لهم نقيب وكذلك كان هناك نقيب للأشراف ينظم حياتهم، ويحفظ سجلاتهم. وكانت لهم مخصصات من الدولة، ولنقيب الأشراف نواب فى كل الولايات يحلون محله فى حل أمور الأشراف. وكان منهم أمراء مكة المكرمة فى بعض المراحل التاريخية، وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكة "مكة شريفى" أى شريف مكة، وكان الشريف بركات يتبع إدارة مصر عند الفتح العثمانى. وما إن علم بدخول سليم الأول مصر (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) حتى أرسل إليه ابنه ومعه مفاتيح مكة والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة. وبهذا انتقلت إلى الإدارة العثمانية.

والحاصل أنه لا يوجد بلد فيه أناس كثيرون يموجون كأمواج البحر المتلاطم وأراضيه في الخصوبة والبركة والخيرات مثل هذه البلاد القديمة، فليس لها نظير لا في البلاد الخاضعة لآل عثمان، ولا في غيرها من البلاد الخاضعة لسائر الملوك.

هذا، ووجه تسمية مصر القاهرة بأم الدنيا هو أن القحط والغلاء إذا عم الدنيا كلها وساد فيها فإن مصر هذه تمون الدنيا حسبما خلقها الله لهذا الغرض، وبالعكس؛ إذا أصاب القحط والغلاء مصر فإن محصول ألف مدينة لا يكفيها بل لا تكفيها حاصلات الدنيا كلها؛ لأن مصر – بحق – بحر الخلائق وخزينة الناس ومنبع الجماعات. ولقد رأيت في رحلتي إلى مصر سنة اثنتين وثمانين وألف في سجلات المذاهب الأربعة أن ثمانمائة ألف شخص ماتوا بالطاعون، حتى يقال إن إبراهيم باشا باع في مدى شهرين قرية محلول من ملتزميها تسع مرات لكثرة الوفيات بمبلغ عشرين كيسًا كل مرة، ومع ذلك فقد كانت الشوارع مليئة بالسكان ومزدحمة بالناس يمشون كتفًا بكتف في أسواق مكتظة بالمترددين، كما أن الدواب وحيوانات النقل من الخيول والبغال والحمير والأبقار والجواميس والغنم، من ضأن وماعز تسرح في الشوارع والأسواق وتسير قطعانًا وجماعات.

حقًا إن في مصر لحميرًا كثيرة، يكاد المرء يظن أنها مستولية على البلد من كل الجوانب إذ يسمع من الحمّارين أصواتًا ترتفع وتقول: ظهرك، جنبك، وجهك يمينك، يسارك... حتى أن بعض الحمارين الأشقياء حين مرورهم بالشوارع المزدحمة يتعمدون القيام بدور البلهاء والمعتوهين من الأتراك. وأول مقام موسيقي تسمعه في مصر صباحًا هو نهيق الحمير في مقام "السيكة" لأن حمارًا واحدًا إذا نهق في إسطبل من الإسطبلات نهقت جميع الحمير في البلد، ويتردد صداها في جوانبها فيخيل إليك أن يوم القيامة قد حان، وأن أشراط الساعة قد ظهرت وخرج الدجال وقام الحشر والنشر. فتنطبق على الموقف والحال الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان ٣١/١٩] وما ذلك إلا لأن أعيان

مصر وأشرافها ونساءها يركبون الحمير الكثيرة، ولهم في ذلك مهارة حيث يقطعون المسافات الشاسعة بين أحياء المدينة من الأزبكية والصالحية ومصر القديمة وبولاق وقايتباي، وهم ينادون ظهرك ظهرك ويعدون كأنهم يتسابقون. فليس من العار والعيب عندهم أن يركبوا حميرًا مخضوبة بالحناء عليها أطقم محلاة بالفضة وعباءات من المخمل. كأن الحمير في مصر زوارق ومراكب وغيرها من وسائل النقل في البلاد الأخرى. لذلك يوجد فيها عدد كبير من الحمير؛ حتى ليقال إنه كان لعلي بك الجرجاوي أربعون ألف حمار يستخدمها في نقل الغلال، بأجرة قدرها عشر بارات يوميًّا للحمار الواحد. كما أن المشهور في مصر والثابت أن رضوان بك أمير الحاج، كان له أربعون ألف جمل. ولا تزال جمال كثيرة وحمير لا تُعد ولا تُحصى يستخدمها السقاءون في مصر في الشوارع؛ بحيث لا يستطيع المرء أن يمر أو يسير في الشوارع بسهولة وسلام من كثرتها. كما أن لمصر أعيادًا كثيرة جدًّا؛ فلها كل عام اثنا عشر عيدًا نذكرها في محلها إن شاء الله، تَحْصُل فيها ضجة عظيمة وازدحام زائد من احتشاد الناس وكثرة الجمَّالين والحَمَّارين والمترددين الوافدين من كل الجهات. فهذه الأعياد من ضمن ما اشتهرت بها مصر، من الطنطنة ومظاهر الفرح ومعالم الزينة التي تستحق الرؤية والمشاهدة، والسلام.

الفصل الثامن عشر

بيان الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليمى ورواتبهم اليومية

١- **أول طائفة من هؤلاء الجند هم العزبان:** الذين كانوا فى الأصل ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر نفرًا حين فتح السلطان سليم مصر، حيث تشرفوا بلثم تراب حوافر جواد السلطان رافعين له الطاعة والخضوع التام؛ فشملهم بعطفه السامى ودعا لهم بالخير والبركة بأن أبقى عليهم رواتبهم ووظائفهم كما كانت سابقًا من مأكل ومشرب وملبس، لأنهم منحدرون من ذرية سيدنا عمر[رضى الله عنه]، وهم جنده الأولون الذين صحبوا عمرو بن العاص حينما غزا مصر، ولذلك كانوا يطيعون ولاة الأمور منفذين مشيئتهم.

٢- **طائفة المتفرقة** : الذين يبلغون من العدد ألفين وسبعمائة وسبعة وأربعين.

٣- **طائفة جاويشية مصر:** ويبلغ عددهم ألفًا وأربعمائة وتسعة وأربعين.

٤- **طائفة حملة البنادق:** ويبلغ عددهم ألفًا وثمانية وثمانين.

٥- **المتطوعون:** وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون نفرًا.

٦- **طائفة مستحفظان مصر:** يبلغ عددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وثلاثين، وهم مائة وثمانية وثلاثون بلوكًا.

٧- **جنود المتفرقة** : من طائفة مستحفظى مصر، بلوك واحد مؤلف من مائة جندى.

٨- **جنود المدفعية:** عشرة بلوكات.

٩- **عربجية المدافع**: بلوك واحد عدد أنفاره الكلية مائة رجل.

١٠- **جنود الخزينة**: بلوك واحد والأنفار كاملة مائتا نفر.

١١- **جنود الملازمين**: من بلوك واحد.

١٢- **متقاعدو القلعة**: بلوك واحد ومائتا نفر.

١٣- **جنود الفرقة**: المدرعة المصرية، البلوك...

١٤- **صناع الخراطيش**: بلوك واحد.

١٥- **فرقة موسيقى**: القلعة بلوك واحد، عدد أنفاره خمسون رجلاً.

١٦- **جنود چراكسة مصر**: عددهم ألف ومائة.

١٧- **عزبان بندر السويس**: وعددهم مائة وخمسة وستون.

هكذا نظم القانون السليمى حامية مصر من الجنود والعساكر، واليوم يبلغ عددها عشرين ألفا وخمسة وعشرين نفرًا.

وأما نحن فنذكر ما رأيناه في أيامنا؛ فنقول إن السلطان سليمان خان حينما عين إبراهيم باشا وزيرًا عين معه وكيل أغا الإنكشارية بإستانبول رئيسا لإنكشارية مصر برتبة "أمير سنجق" للمرة الأولى، وأسكن ٤٢ أورطة من الإنكشارية في حصن بجوار الشيخ سارى بقلعة الجبل التى بناها صلاح، ولا تزال غرفهم قائمة حتى اليوم، سوى أن بعضها معطل لاتخاذ الأغوات الذين كانوا يقيمون بها منازل أخرى، وهم ضباط عظام لكل منهم مائة تابع؛ حيث يجلسون فى الديوان السلطانى مع البكوات وسائر أغوات البلوكات السبع، متسربلين بحللهم وخلعهم من الكساوى التشريفية، فلرئيسهم مقام معلوم فى الديوان مع أنه يجلس بعد جميع الأغوات. وبعد أغا الإنكشارية يأتى فى الحكم ذو النفوذ كتخدا الإنكشارية؛ وليس لـه مكان فى الديوان ولكن فى بابه تركزت السلطة الفعلية من حيث أمور الضبط والربط

والبسط، فهو يضع على رأسه عمامة قلاوية قصيرة وينتعل بنعل حمراء متسربلاً بفراء سمورى على قفطان من الأطلس.

ويليه فى السلطة الباشجاويش؛ وهو يرتدى فراجية على قفطان أطلس، ويضع على رأسه عمامة قلاوية ويلبس خفافًا وأحذية حمر اللون، وله مقام خاص فى الديوان، كأنه رئيس محضرى الباشا المندوب من قبل البلوك. ثم يأتى مقام صاحب بيت المال الذى يلبس الفرجية السادة وقفطانًا من الأطلس والعمامة القلاوية والخف الأحمر. وأما جاويشية الأورطة الجاويش الصغير وجاويش الآلاى وسراج الأغا والكتخدا، فإنهم جميعًا يشدون أوساطهم بأحزمة على رداء أسود ويضعون على رءوسهم عمامه شبيهة بالقلاوية، ويلبسون خفافًا حمرًا ولا يجوز لهم حمل السكاكين. وما إن يُعَيَّن أحدهم للنظر فى شئون بيت المال حتى يخلع رداءه الأسود ويلبس فراجية من الجوخ.

هذا، ويقوم هؤلاء الإنكشارية وغيرهم من طوائف الجند باحتفال عظيم لا نظير له فى البلاد الأخرى. وذلك حين قدوم باشا جديد إلى مصر أو سفره منها مستورًا (غير مفضوح)، أو استقبال أمير حج يأتى إلى البركة بصحبة الحجاج، وحين توديعه كذلك.

المؤلف فى سطور:

أوليا چلبى

- ولد فى إستانبول عام ١٠٢٠هـ = ١٦٧٧م، وتربى وترعرع فى أحضان السراى العثمانى، واسمه الكامل أوليا چلبى بن درويش محمد ظلى.
- أتقن – إلى جانب اللغة التركية – الفارسية والرومية والأرمنية والعربية وكان حافظًا ومقرئًا للقرآن الكريم، ومنشدًا للتواشيح الدينية، لجمال صوته ودراسته للموسيقى.
- صار منادمًا للسلطان مراد الرابع، وكان قريبًا للصدر الأعظم ملك أحمد باشا، وقد مكَّنه ذلك من مرافقته فى كثير من الحروب والقيام بالعديد من المهام؛ فطاف بمعظم دول آسيا وأوروبا فى زمنه.
- حج بيت الله الحرام عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧١م. ثم رافق قافلة الحج المصرية عند العودة برًّا، فكتب عن كل ما رأته عيناه وسمعته أذناه فى مصر والسودان وبلاد الحبش، طوال سنوات الرحلة التى دامت ثمانِ سنوات.
- كتب عن القاهرة مصر أم الدنيا، وعن آثارها وجوامعها ومدارسها وعماراتها ومتنـــزهاتها واحتفالاتها ومواكبها، والعلماء والأئمة الذين يرقدون فى مراقدها ومدافنها وأضرحتها، وموالد الأولياء والصالحين بها وبسائر مصر العامرة.
- تابع رحلته إلى الدلتا وسلك طريقى دمياط ورشيد حتى وصل إلى الإسكندرية، وكتب عن كل مآثرها وقلاعها وعاداتها وأعرافها وتنوع سكانها.
- عاد إلى أم الدنيا مصر، ووجد حامية عسكرية متجهة إلى الصعيد الأعلى فرافقها، وكتب عن كل ما رآه فى الصعيد وبلاد النوبة وبلاد الفونج حتى

دخل السودان والحبشة، وعاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر فالقصير وبني سويف والفيوم، وأكمل الكلام عن مصر المحروسة.

استعانت الحملة الفرنسية على مصر بما جاء في هذا الكتاب من معلومات قيّمة، عن كل ما يتصل بمصر من آثار وأعراف وتقاليد... إلخ.

المترجم فى سطور :

أ. د الصفصافى أحمد المرسى القطورى .

- تدرج فى سلك التعليم العالى منذ ١٩٦٣ م حتى صار أستاذًا متفرغًا فى الدراسات التركية والعثمانية والأذارية والتركمانية فى الجامعات المصرية.
- له العديد من المؤلفات حول الحضارة والثقافة التركية والعثمانية تجاوزت العشرين كتابًا، إلى جانب ما يتجاوز خمسة عشر كتابًا مترجمًا.
- انتدب وأُعير وسافر أستاذًا زائرًا فى العديد من الجامعات العربية والتركية والأوروبية.
- ترجم عن العثمانية والتركية والتركمانية والأذارية أعمالاً تاريخية وإبداعية وفنية، نُشرت ضمن ترجمات المجلس الأعلى للثقافة، والعديد من دور النشر والمجلات فى المغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ومصر ومجلة الأدب الإسلامى العالمية، ونال منها الجائزة الأولى عن الترجمة الإبداعية.

التصحيح اللغوى : أحمد عبد العاطى عبد العزيز
الإشراف الفنى : حســـــن كـــامــــل